

البِفَصْلُ السَّابِعُ عَشِيرُ

ثورة الاراضى الوطنيه

١٥٥٥ - ١٦٤٨

١ - مسرح الأحداث

فى يوم ٢٥ أكتوبر ١٥٥٥ نقل الامبراطور شارل الخامس مقاليد الحكم فى الاراضى الوطنيه الى ابنه فيليب ، وفى السادس والعشرين ، وأمام الجمعية التشريعية فى بروكسل ، تلقى فيليب أيمان الولاء ، وأقسم بدوره أن يحافظ على حقوق المقاطعات السبع عشرة ولمتيازاتها ، وفق ما تنقضى به التقاليد والمعاهدة والقانون . ولقد هيأت هذه العمود والمواثيق المتبادلة المسرح لاحدى المسرحيات الكبرى فى تاريخ الحرية .

وكان المشهد معقدا . كانت الاراضى الوطنيه آنذاك تضم بلجيكا الحالية وملكه هولنده القائمة الآن . ولم تكن الهولندية — وهى أصلا إحدى اللهجات الألمانية السائدة فى وهاد شمال ألمانيا والاراضى الوطنيه — هى اللغة التى تحدث بها المقاطعات السبع الشمالية (وهى هولنده ، زيلنده ، أوترخت ، فريزلند ، جرونجن ، أوفريجسل . هلدرلند ، فحسب ، بل كانت كذلك لغة أربع مقاطعات أخرى (هى فلاندرز ، برابانت ، مكلين . لمبرج) فى شمالى د بلجيكا ، . على حين كانت « الوالون » — وهى إحدى اللهجات الفرنسية — هى اللغة التى يتحدث بها الأهالى فى ست مقاطعات جنوبية (هى أرتوا ، وألون ، فلاندرز ، كبرى ، تورنى ، اينو ، نامور) . وكانت هذه المقاطعات كلها ، بالإضافة إلى دوقية لكسمبرج المجاورة ، تحت حكم آل هابسبرج د وكانت الكاثوليكية^(١) هى ديانة الأغلبية الساحقة من الأهالى فى ١٥٥٥

ولكن — كاثوليكييتهم — كانت من النوع العطوف الموسوم بالروح الإنسانية الذى نادى به أرزم قبل ذلك بنصف قرن من الرمان ، والذى كمانته تدين به رومه فى عصر النهضة بصفة عامة ، وليست من ذلك النوع الكشيب المتشدد من الكاثوليكية الذى ساد فى أسبانيا لعدة قرون كمانت تحارب فيها المسلمين « الكفار » . وبعد ١٥٢٠ تسربت اللوثرية ومذهب القائلين بتجديد عماد البالغين ورفض عماد الأطفال من ألمانيا ، تسربت بعد ذلك بشكل أكبر الكلفنية من ألمانيا وسويسرا وفرنسا . وحاول شارل الخامس أن يقضى على غارات هذه المذاهب الغربية التى اقتحمت عليه كاثوليكيته ، بأدخال محاكم التفتيس البابوية أو الأسقفية ، وبذشر أعلانات تتوعد بأشد العقوبة أى إنحراف خطير عن الكاثوليكية الصحيحة . ولكن قل أن نفذت هذه العقوبات بعد أن أضعف صلح باسو ١٥٥٢ من قوته . وفى روتردام ١٥٥٨ تمكن حشد من الأهالى من إنقاذ عدد من أنصار تجديد العماد من الأعدام حرقا . فجزع فيليب لتفاقم المهرطقة وجدد نشر الأعلان عن العقوبات .. وساد الخوف من أنه يعتزم إدخال محاكم التفتيش الأسبانية بكل ما فيها من قسوة ونسكال .

كمان مذهب كلفن يلى كل الالتئام مع عنصر الروح التجارية « الماركنتلية » فى النظام الاقتصادى وكان ثغرا أنتورب وأمستردام هما المركز الرئيسى لتجارة شمال أوروبا ، وكانا ينبضان بالحياة بفضل التصدير والإستيراد والمضاربة وسائر ألوان المعاملات المالية ، حتى أن التأمين وحده عاد بأوفر الثراء على ٦٠٠ من وكلائه (٢) . وجرت فى أنهار الراين وماسى وأيسل — وشلدت ووال وليس إلى جانب مئات من القنوات — جرت فى هذه كلها مجموعة متنوعة كبيرة من سفن النقل ، وأذكت التجارة روح البراعة من المهن والصناعات فى بروكل وغنت وايرس وتورنى وفالانسين ونامور ومكلين وليدن وأوترخت وهارلم . ونظر رجال الأعمال الذين تحكموا فى هذه المدن بعين الأجلال والأكسار إلى الكاثوليكية على أنها ركيزة دعمتها التقاليد للاستقرار السياسى والاجتماعى والروحى ، ولكتمهم لم يسيغوا سلطانها الكهنوتى بأهتته ونخامته . كما أحبوا

الدور الذى تهيئه الكلفنية لجمهور العلمانيين المتعلمين ، فى إدارة المجمع والسياسة الكلفنية . وكرهوا بصفة أخص الضرائب التى فرضتها الحكومة الأسبانية على اقتصاد الأراضى الوطنية .

ووقع على الفلاحين أفدج الغرم وأصابوا أقل الغنم من الثورة . ذلك أن معظم الأراضى كان ملكا لذوى النفوذ والمكائنة الذين كانوا أقرب شبرا بأمراء الاقطاع فى ألمانيا وفرنسا ، وهؤلاء هم الذين نظموا الكفاح من أجل الإستقلال . فكان فيليب دى مونتوارنسى ، كونت هورن ، يمتلك أراضى شاسعة فى المقاطعات الجنوبية . كما كان الكونت ايجونت لامورال ، ضياع واسعة فى فلاندرز ولوكسمبرج ، فكان مركزه يخول له أن يطلب يد دوقة بافارياه ، وحارب فى عدة حملات ببسالة فائقة حتى أصبح أثيرا لدى شارل وفيليب ، وهو الذى يقاد جيش فيليب إلى النصر فى سانت كوتين (١٥٥٤) . وأظهر فى قصره الفخم من ضروب الإسراف والكرم الباذخ ماورطه فى الدين . ونظر مثل هؤلاء الرجال ، ونبلاء كثيرون آخرون أقل منهم شأنا ، نظروا فى شره ونهم إلى ثروة الكنيسة ، وسمعوا والحسد يملأ قلوبهم بالبارونات الألمان الذين أروا بالاستيلاء على أملاكها (٢) . واتجه تفكيرهم إلى أن الملك يحسن صنعا لو أنه اقتطع من — أملاك الكنيسة أجزاء أمعقولة بخصصها لقيادات عسكرية . وبذلك تخلق ، أسلحة فرسان رائعة . . . فى مكان هذه الجماعة الحاملة من الأيقوريين المنغمسين فى ملذات الطعام والشراب والذين لا شغل لهم إلا التسييح ، (٣) .

أما أكثر كبار الملاك قدرة وكفاية وثراء فكان ولیم ناسو ، أمير أورانج وكان للأسرة أملاك شاسعة فى المقاطعة الألمانية ديس ناسو ، وفى الأراضى الواقعة حول وينبادن ، وكذلك فى الأراضى الوطنية ، على حين اشتق لقب الأسرة من إمارة أورانج الصغيرة فى جنوب فرنسا . ولما كان ولیم قد رأى النور فى دالنبرج الألمانية (١٥٣٣) فإنه نشأ على مذهب لوثر حتى بلغ الحادية عشر من عمره ، وحينئذ انتقل إلى بروكسل وتحول إلى الكاثوليكية حتى يكون له الحق فى أملاك ابن عمه رينيه . وقد أعجب به شارل الخامس ، وزوجة من آن

دوقة أجمونت (وارثة كونت بورن) وأختاره ليكون بين كبار من شهدوا تنازله التاريخي عن العرش (١٥٥٥) وأوفده فيليب — وكان وليم آنذاك شابا غرض الأهاب لم يجاوز الثانية والعشرين ، ولكنه كان يتقن الفلمنكية والألمانية والأسبانية والفرنسية والإيطالية — بين مبعوثيه للمفاوضة في عقد صلح كاتو — كبريسنس ، وهناك تميز وليم بسداد الرأي وقوة الحججة وشدة الحرص في الكلام حتى لقبه الفرنسيون « بالصامت » . وعينه فيليب عضوا في مجلس الدولة ، وفارسا من فرسان الحجة الذهبية ، ونائبا للملك في هولنده وزيلند وأوترخت . ولكن وليم اختط لنفسه نهجا لم يغتفره له فيليب قط .

ولقد نعم الأمير الشاب اليافع بمزايا في شخصه كما نعم بوفرة المال ، وكان فارغ الطول رياضيا نحيل القوام ، سحر بفصاحته وكياسته كل الناس إلا أعداءه . وكان الاخفاق حليفه قائدا عسكريا ، أما في مجال التدبير أو التخطيط السياسي فإن إصراره المقرون بالمرونة وشجاعته الموسومة بالثبات خلقت منه برغم فقائه ، شخصا آخر يقف في وجه أعنى القوى السياسية والدينية في أوروبا . وساس الرجال أفضل مما قاد الجيوش ، وثبت على الأيام أن هذه موهبة أعظم . واتهم أعداؤه بتغيير عقيدته الدينية وفق ما تقتضيه مآربه الشخصية أو السيامية^(٥) . وربما كان هذا صحيحا ، ولكن كل الزعماء في هذا القرن استخدموا الدين — أداة للسياسة (*) .

وعاب عليه الكثيرون تعدد زيجاته . فإنه عند وفاة زوجته الأولى أجرى مفاوضات للزواج من « آن » ، أخرى ثرية ، هي ابنة موريس أمير سكسونيا البروتستانتى ، وعقد قرانه عايمها وفق الطقوس اللوثرية في ١٥٦١ ، ولكنه لم يعلن تحوله إلى البروتستانتية إلا عام ١٥٧٣ . وأصابته آن بعض لومة من الجنون في ١٥٦٧ ، فاحتجزت في معزل مع بعض الأصدقاء ليرعوها .

(*) أن الأمراء الذين أقاموا العقيدة الدينية أو تولوا حمايتها أو عيروها ، قل أن كان لديهم في قرارة أنفسهم شيء منها ، مولثير^(٦) .

وكانت لا تزال على قيد الحياة حين حصل ولیم من خمسة من القساوسة البروتستانت على إذن بالزواج من شارلوت البوربونيه ، من الأسرة المالكة الفرنسية (١٥٧٥) ، وكانت قد هربت من دير للراهبات واعتنقت مذهب الإصلاح ، وتوفيت شارلوت ١٥٨٣ . ولبس ولیم الحداد عليها لمدة عام ، تزوج بعده للمرة الرابعة من لويدي كوليني ابنة أمير البحر الذي كان قد قضى نحبه في منجحة سانت برثليميو . وعلى الرغم من هذه الزيجات - وربما كان بسببها - كان ولیم غنيا بما لديه من أراضي ، خاوى الوفاض من المال . وفي ١٥٦٠ بلغت ديونه نحو مليون فلورين^(٧) . وغلست عليه ذات يوم نزعة إلى الاقتصاد فطرد ثمانية وعشرين من طبائحيه^(٨) .

وتخطط فيليب بشكل هدام في التعامل مع النبلاء في الأراضي الوطيشة . أن أباه الذي نشأ وترعرع في بروكسل ، عرف هؤلاء الرجال وتكلم لغتهم وساسهم في حزم . على حين أن فيليب ترى في أسبانيا فلم يتكلم الفرنسية ولا الهولندية ، وعز عليه أن ينحني لهؤلاء الأقطاب في لباقة وسماحة ، ويحترم عاداتهم وديونهم ، بل أنه عبس واستاء من أسرافهم وتبذيرهم وأدماهم على الشراب ، وتبذلم مع النساء ، وتهافتهم عليهن . وفوق هذا كله لم يتعمم فيليب دعاواهم في الحد من سلطانه . على أنهم بدورهم كرهوا منه كبريائه الكسب وولعه بمحاكم التفتيش وتعيينه الأسبان في المناصب التي تدرجها في الأراضي الوطيشة ، وترويد مدنيهم بحاميات أسبانية . وعندما طالب بدفع الأموال هؤلاء النبلاء ورجال الأعمال ، وهم الذين يشكلون الجمعية التشريعية ، استمعوا - عن طريق المترجمين - في فتور إلى دعواه ودفاعه بأن والده وبأن الحروب الأخيرة قد خلعت في الخزينة عجزا كبيرا ، وتولاهم الجزع لمطالبة بليون وثلاثمائة ألف فلورين ، وبضريبة أخرى قدرها ١٪ على العقارات ، و ٢٪ على الأموال المنقولة ، ورفضوا التصديق على هذه الضرائب ، ولكنهم أقرروا فقط مبالغ قدروا أنها تكفي لتغطية النفقات الجارية . وبعد ثلاث

سنوات من ذلك دعاهم إلى الاجتماع ثانية وطالب منهم ثلاثة ملايين جيلدر ، فوافقوا ، على شرط انسحاب القوات الأسبانية من الأراضي الوطیئة . فأقر هذا الشرط ، ولكنه محاماً في هذا التنازل من ترضية بالحصول على إذن من البابا بإنشاء إحدى عشرة أسقفية جديدة في الأراضي الوطیئة ، على أن يعين في هذه الأسقفیات رجالاً يرتضون تنفيذ القوانين التي سنّها والده ضد الهرطقة وعندما أبحر فيليب إلى أسبانيا في ٢٦ أغسطس ١٥٥٩ — إلى غير رجعة إلى الأراضي الوطیئة — كانت قد تشكلت خطوط الصراع الاقتصادي الديني الكبير .

٢ - مارجريت بارما

١٥٥٩ - ١٥٦٧

كان فيليب قد عين مارجريت دوقة بارما ثابثة له . وهي ابنة شرعية لشارل الخامس من أم فلمنكية . وكانت قد نشأت وترعرعت في الأراضي الوطیئة ، وعلى الرغم من طول مقامها في إيطاليا ، فإنها استطاعت أن تلم بالفلمنكية . إن لم يكن بالهولندية كذلك . ولم تكن صيقة الأفق ولا متعصبة ، ولكنها كانت كاثوليكية ورعة ، حرصت على أن تغسل في الأسبوع المقدس من كل عام أقدام اثنتي عشرة من العذارى وتمنحهن مهور الزواج . وكانت مارجريته امرأة قديرة عطوفة ، ولكن عصفت بها بشكل مزعج رياح الثورة .

لقد حد المستشارون الذين عينهم فيليب من سلطان مارجريت . وكان أجمونت وأورنج من بين أعضاء مجلس الدولة لديها . ومذ رأى هذان العضوان أنهما ينهزمان دائماً أمام رأى الأعضاء الثلاثة الآخرين في المجلس فإنهما امتنعا عن الحضور . وفي هذا الثالث الناشئ برزت وسيطرت شخصية أنطوان برينو أسقف آراس . المعروف في التاريخ باسم الكاردينال دي جرانفل . وكان رجلاً كريم الخلق وفقاً لفلسفته وتفكيره ، وكان ينزع -

كما تنزع مرجريت — إلى الوسائل السلمية في معالجة الهرطقة ، ولكنه كان مخلصاً للكشلكة والملكية إلى حد تعذر معه أن يسيغ الانشقاق أو الخلاف الدينى . وقد غلت أيدى الكاردينال ومرجريت بإصرار فيليب على عدم اتخاذ أى إجراء هام إلا بموافقة الملك ، وكان وصول هذه الموافقة الملكية من مدريد إلى بروكسل يتطلب عدة أسابيع . وضجى الكاردينال بشعبيته في سبيل طاعة الملك . وعارض تعدد الأسقفيات سرا ، ولكنه خضع لإلحاح فيليب على أن أربع أسقفيات لا تكفى لسبع عشرة مقاطعة . ولحظت الأقلية البروتستانتية في استياء وغضب أن الأساقفة الجدد ينشرون محكم التفتيش البابوية ويتشددون في إجراءاتها . وفى مارس ١٥٦٣ كتب أورانج وأجونت وهورن — وهم أنفسهم كاثوليك — كتبوا إلى فيليب يتهمون جرانفل بانهك حرمة الحقوق الإقليمية التى تعهد الملك بالإبقاء عليها واحترامها ، ورأوا أن الكاردينال مسئول عن الأساقفة الجدد ، وحضوا على عزله من منصبه . ولم تستغ مرجريت نفسها استيلاء الكاردينال على السلطة ، وتاقت إلى شىء من التراضى مع النبلاء الساخطين الذين كانوا ذوى أهمية لديها للمحافظة على النظام الاجتماعى ، وأخيرا فى سبتمبر ١٥٦٣ أوصت هى كذلك بنقل جرانفل إلى مكان آخر . وبعد مقاومة طويلة خضع الملك ، ودعا القسيس العظيم إلى التمتع بأجازة ينقطع فيها عن عمله . وغادر جرانفل بروكسل فى مارس ١٥٦٤ ، ولكنه ظل واحدا من أعظم المستشارين الموثوق بهم لدى الملك . وعاد النبلاء إلى مجلس الدولة الخاص بمرجريت ، وباع بعض موظفيهم المناصب وأحكام القضاء وأوامر العفو ، ويبدو أن نائبة الملك ، مرجريت ، شاركت فى الغنائم^(٩) .

وانتشرت محكم التفتيش ، وكان فيليب يراقبها وهو فى أسبانيا ، ويشجع على استمرارها ، ويبحث إلى مرجريت بأسماء الهرطقة المشتبه فيها . وما كاد يمر يوم دون إعدام . وفى ١٥٦١ أحرق جلين دى موار فى أودينارد ، وأحرق توماس كولبرج فى تورنى ، وقطع أحد أنصار تجديد العهد أربا حتى

الموت بسبع ضربات من سيف عتيق صدىء ، في حضور زوجته التي قضت نحبها فزعا من هول المُنظر^(١) وأثارت هذه الأعمال الوحشية حفيظة برتران لبلاس فهاجم كاتدرائية تورفي ، أثناء قداس عيد الميلاد واندفع إلى المذبح وانتزع القربان المقدس من يد القسيس ووطئه بقدميه ، وصاح في جمهور المصلين : أيها المظلون ، هل تظنون أن هذا هو المسيح إلهكم ومخلصكم ؟ ووعذب الرجل فأحرقت يده اليمنى وقدمه حتى لم يبق منهما إلا العظام ، وقطع لسانه ، وعلق فوق نار وشوى على محصل حتى لفظ أنفاسه ، وفي ليل أحرق روبرت أوجيبه وزوجته وأبنائه لأنهم قالوا بأن عبادة القربان المقدس ليست إلا تجديفا وثليا^(٢) .

أما توركيادا^(٣) الأراضى الوطيشة أول قاض للتحقيق وعضو في محكمة التفتيش في أسبانيا ، يضرب به المثل في القسوة والتعصب الذميم . فهو يتر تنتللمان الذي بلغت أعماله من التعسف والوحشية حداً أتهمه معه مجلس مدينة بريجز — وكله من الكافوليك — لدى مرجريت ، بأنه متوحش انتزع الناس من بوثهم وحاكمهم دون أية ضوابط قانونية ، وأجبرهم على أن ينطقوا بما يريد هو ، وحكم عليهم بالإعدام ، كما أن القضاة في الفلاندرزوجهوا إلى الملك فيليب كتابا مثيراً يرجون فيه وضح حد لهذه الأعمال الشائنة . وطلبت مرجريت في شيء من الجبن إلى هذا المحقق أن يتدرع « بالحزم والاعتدال » ، ولكن الإعدام لم يتوقف . وأيد فيليب تنتللمان ، وأمر مرجريت أن تنفذ دون رحمة ولا إبطاء القرارات التي أصدرها أخيراً بجمع ترنت (١٥٦٤) . واحتج مجلس الدولة بأن عدداً من هذه القرارات انتهك حرمة الامتيازات المعترف بها للمقاطعات ، وأوقف نشرها .

(١) ليس لنا من مصدر لثل هذه الأحداث إلا المراجع التروتسكية المقتبسة في كتاب موناي (قيام الجمهورية الهولندية) ١ - ص ٢٨٣ - ٢٩٠ .
 (٢) Torquemada ١٢٢٠ - ١٤٩٨ راهب دوميكاني .
 (٣)

وكان ولیم أورانج تواقفاً إلى الأبقاء على الأراضي الوطنية متحدة في سبيل المحافظة على حرياتنا السياسية التقليدية ، فاقترح انتهاج سياسة التسامح سابقة كثيراً لعصره وأوانه . فأعلن في مجلس الدولة ، أن الملك يخطئ إذا ظن أن الأراضي الوطنية سوف تحتل وتساند هذه المراسيم الديموية بلا حدود . ومهما كنت شديد التمسك بعقيدتي الكاثوليكية ، فاني لأقر محاولة الأمراء أن يتحكموا في ضماير رعاياهم ، ورغبتهم في أن يسلبوهم حرية العقيدة^(١١) ، وانضم الكاثوليك إلى البروتستانت دمع هذه المراسيم بالظلم والطغيان^(١٢) وأرسل أجمونت إلى مدريد ليلتمس التخفيف من شدة هذه المراسيم ، وعززت مرجريت هذا المطلب سرّاً . ووجه أساقفه أيبرس ونامور وغنت وسانت أو مرتيمسا إلى فيليب (يونية ١٥٦٥) يرجون فيه أن يخفف الملك المراسيم ، وأن يوجه النصيح إلى الشعب في شيء من الرفق والحب الأبوي ، لا بالقساوة الشرعية^(١٣) ، ورد فيليب على كل هذه الاحتجاجات بأنه يؤثر أن يضحي بمائة ألف من الأرواح على أن يغير سياسته^(١٤) . وفي أكتوبر ١٥٦٥ أرسل توجيهاته الصريحة إلى وكلاء محكمة التفتيش :

أريد فيما يتعلق بمحكمة التفتيش أن تطبق إجراءاتها وأحكامها كما كان الحال من قبل ، وكما تقتضيه كل القوانين وصيغة كانت أو الهية . أن هذا يقع من نفس أحسن موقع . أريد منكم أن تنفذوا أوامري . أعدموا كل المستجونين ، ولا تتركوا لهم بعد اليوم فرصة الافلات نتيجة تقصير القضاة وضعفهم وعقيدتهم الفاسدة ، وإذا قعد الجبن ببعضهم عن تنفيذ المراسيم فاني استبدل بهم رجالاً أكثر جرأة وحماسة^(١٥) .

وأذعنت مرجريت لفيليب وأصدرت أوامرها بتطبيق المراسيم تطبيقاً كاملاً (١٤ نوفمبر ١٥٦٥) . وانسحب أورانج واجمونت ثانية من مجلسها . ورفض أورانج وغيره من النبلاء وكثير من القضاة تطبيق المراسيم : وإنهات نشرات البروتستانت وإعلاناتهم التي يستنكرون فيها الاضطهاد . واشتم التجار

الأجانب رائحة الثورة في الجو . فبدأوا ينزحون من الأراضي الوطية ، وأغلقت المخازن وكسدت التجارة ، وخيم شبح الموت على أنتورب وفر كثير من البروتستانت في الأراضي الوطية إلى إنجلترا وألمانيا . وفي إنجلترا ساعدوا على النهوض بصناعات النسيج التي نافست د المقاطعات المتحدة ، في القرن السابع عشر ، وقادت الانقلاب الصناعي في القرن الثامن عشر .

واعتنق كثير من صغار النبلاء المذهب البروتستانتي خفية . وفي ديسمبر ١٥٦٥ اجتمع بعض هؤلاء — لويس كونت ناسو (وهو الشقيق الأصغر لشهم اوليم) ، وفيليب فان مارنكس أمير سائت ألديجوند ، وأحوه جان فان مارنكس أمير تولوز ، وهندريك كونت بردرود ، وغيرهم اجتمعوا في قصر كولبرخ في بروكسل ، وحرروا «وثيقة» يستنكرون فيها لإدخال محاكم التفتيش إلى الأراضي الوطية ، وشكلوا عصبة تعهدت بإخراجها من البلاد . وفي أبريل ١٥٦٦ سار ٤٠٠ من صغار النبلاء إلى قصر مرجريت وقدموا لها «ملتمسا» بأن تطلب إلى الملك أن يضع حداً لمحاكم التفتيش والمراسيم في الأراضي الوطية، وأن توقف تطبيق المراسيم حتى يصل جواب الملك . وأجابت مرجريت بأنها ستبذل ظلامتهم إلى الملك ، ولكن ليس من سلطتها أن توقف المراسيم ، وأنها ستبذل كل ما في مقدورها للتخفيف من مفعولها . ولما رأى أحد أعضاء مجلسها شدة فزعها من عدد مقدمي الظلامة وقوة عزمهم طمأنها بقوله «عجبا ياسيدتي ، هل تخشين يا صاحبة العظمة المتسولين ؟ وتقبل المتجالفون هذا اللقب تحديا . وارتنى كثير منهم البذلة الرمادية الخشنة، وحملوا الحقيبة والطاس اللذين تميز بهما المتسولين آنذاك . وأصبحت عبارة «فليحي المتسولين» ، صيحة الحرب في الثورة . ولمدة عام كان هؤلاء النبلاء الصغار هم الذين قادوا الثورة وأذكروا ناراها .

وأي بلغت مرجريت نبأ د الملتمس ، إلى فيليب ، كما أبلغته ما يلقاه من تأييد شعبي كبير . وجددت مساعيها لئلا على الاعتدال ، فكان جوابه يحمل في

الظاهر معنى الترضية (٦ مايو ١٥٦٦) ، وعبر عن أهله في إمكان قمع الهراطقة دون أراقة مزيد من الدماء ، ووعد بزيارة الأراضي الوطيفة في موعد قريب وأرسل إليه مجلس الدولة فلورنت مونمورنس . والبارون مونتيني ، ومركيز برحون ، لتعزيز رجاء مرجريت . فاستقبلهم فيليب استقبالا حسنا . وفي ٣١ يولييه كتب إليها بموافقته على إلغاء محاكم التفتيش الأسقفية في الأراضي الوطيفة ، وبأنه يصدر عفوا عاما عن توصي هي بالعفو عنهم .

وانتهز الكلفنيون واللوثريون وأنصار تجديد العماد في الأراضي الوطيفة فرصة هذا الهدوء في العاصفة ليجهروا بعبادتهم ، وعاد اللاجئون البروتستانت أفواجا من إنجلترا وألمانيا وسويسرا ، وقام الوعاظ من مختلف الطبقات — الرهبان السابقون ، علماء اللاهوت ، صانعو القبعات ، مشطو شعر الخيل ، دباغو الجلود — يخطبون في الجموع الغفيرة من النساء والرجال ، وكثير منهم مسلحون ، وكلهم يرتلون المزامير ويهتفون « فليحي المتسولون » . وبالقرب من ثورني ، ألقى أميروزويل الذي كان قد درس مع كلفن — ألقى موعظة في ستة آلاف شخص (٢٨ يونيه ١٥٦٦) ، وبعد ذلك بيومين وفي نفس المكان . خطب قسيس آخر في عشرة آلاف ، وبعد أسبوع واحد استمع لموعظته عشرون ألفا (١٦) . وبدأ أن نصف سكان الفلاندرز أصبحوا بروتستانت . وكادت الكنائس والمدن أن تخلو من الناس في أيام الأحاد لأنهم هرعوا إلى جمعيات البروتستانت . وإذا سمع الناس في مقاطعة هولندة بأن بيتر جبريل الخطيب المفوه سوف يلقي موعظة في أوفرين بالقرب من هارلم ، هرع آلاف البروتستانت إليه ، وهزوا أجواز الفضاء في الحمول بمزاميرهم . وبلغت جموع البروتستانت بالقرب من أنتورب خمسة عشر ألفا ، وقال بعضهم ثلاثين ألفا ، وكان كل الرجال مسلحين تقريبا . وأمرت مرجريت حكام أنتورب بمنع هذه التجمعات لأنها خطر على البلد ، فأجابوا بأن قواتهم المسلحة غير كافية ولا يعتمد عليها ، ولم يكن تحت تصرف مرجريت نفسها قوات منذ رحيل الحاميات الأسبانية ح . وبلغ الاضطراب في أنتورب حدًا

سمعت معه الحياة الاقتصادية بشكل خطير . وطلبت مرجريت إلى وليم أورانج أن يشخص إلى المدينة لإجراء تسوية سلمية بين الكاثوليك والبروتستانت هناك . فعمل على تهدئة الأمور بحض الوعاظ على قصر اجتماعاتهم على الضواحي وإلا يحمل المجتمعون سلاحا .

وفي الشهر نفسه (يولييه ١٥٦٦) اجتمع بقيادة كونت لويس فاسوا ألمان من المتسولين ، في سانت تروند ، في أسقفية ليميج ، وسط هذا الصنخب البهيج ، وضعوا الخطط للمضى قدما في قضيتهم . وقرروا الاتصال بالبروتستانت الألمان ليشكلوا بينهم جيشا يهب لنجدة البروتستانت في الأراضي الوطيمة إذا هوجموا . وفي ٢٦ يولييه قدم لويس وأثنى عشر آخرون ، وهم في زى المتسولين ، إلى مرجريت ، طالبا بعقد الجمعية العمومية ، وأن تحكم هى نفسها فى نفس الوقت ، بتوجيه من أورانج وأجمونت وهورن ، ولما كان ردها ملتويا غير واضح فأنهم لمحوا إلى أنهم قد يضطرون إلى التماس مساعدة أجنبية ، ومن ثم شرع لويس ، بالواطؤ مع أخيه الأحرص منه . وليم ، في تجهيز أربعة آلاف من الخيالة وأربعين سرية من المشاة فى ألمانيا (١٧) .

وفى ٩ أغسطس وقع فيليب وثيقة رسمية يعلن فيها أن العرض الذى قدمه للعفو العام قد انتزع منه رغم إرادته ، وأنه لا يلزمه بشيء ، وفى ١٣ أغسطس أكد البابا أن إيقاف محاكم التفتيش مرهون بموافقة البابا (١٨) . وفى ١٤ أغسطس اقتحمت جمهرة من البروتستانت بتجريض من الوعاظ الذين استنكروا الصور الدينية ، كنائس سانت أومر الواحدة بعد الأخرى فحطموا الصور والمذابح ودمروا كل الزخارف . وفى نفس الأسبوع قامت جموع شبيهة بمثل هذه الأعمال فى ايز وكورتراى وأوديتارد وفالنسيان . وفى يومى السادس عشر والسابع عشر دخلت الجماهير الكاتدرائية الكبرى فى أنتورب وحطموا المذبح والزجاج الملون والصلبان وغيرها من الصور ، ودمروا الآلات الموسيقية والزخارف وكؤس القربان والأوعية المقدسة ، وفتحوا

الأضرحة وجردوا الجثث من حلها ، وشربوا النبيذ المقدس ، وأحرقوا كتب القدامس الثمينة ، ووطئوا بأقدامهم التحف الفنية . وأرسلوا في طلب السلام والجمال ، فتساقوا وجذبوا التماثيل من أماكنها وهشموها بالمطارق الثقيلة . واخترق الجمع أنتورب وهم يهتفون منتصرين ، وحطموا الصور والزخارف في ثلاثين كنيسة وديرا ، وأحرقوا مكتبات الرهبان ، وأخرجوا الرهبان والراهبات من الأديار^(١٩) ولما تزامت أنباء هذه الضراوة الكلفنية، إلى تورني انطلقت نشرة تحطيم الصور المقدسة من عقالها هناك، وأعمل السلب والنهب في كل الكنائس . وفي الفلاندرز وحدها جردت ٤٠٠ كنيسة من الصور . وفي كولبرخ أشرف السكونت المبتهج المرح على أعمال التخريب وأطعم ببغاواته على القرايين المقدسة^(٢٠) . وفي جهات أخرى قام بعض الكهنة السابقين بتحميص رقائيق الخبز على شوكات^(٢١) . ومن الفلاندرز أمتد الهياج إلى المقاطعات الشمالية ، إلى امستردام وايدن ودلفت وأوترخت ، ثم إلى جرونينجن وفريزاند . واستنكر معظم زعماء البروتستانت أعمال التخريب هذه . ولكن بعضهم ممن رأوا أن الأفراد لم يلحق بهم إلا أيسر الأذى والضرر . ذهبوا إلى أن تحطيم التماثيل والصور أقل أجراما من إحراق الأحياء ، الهراطقة .

وخارت قوى مرجريت بارما أمام العاصفة . فككتبت إلى فيليب تقول : أن أى شيء وكل شيء محتل في هذا البلد فيما عدا العقيدة الكاثوليكية ،^(٢٢) . وبات فيليب يتحين الفرصة للانتقام . ولكن مرجريت التي تواجه الجماهير المسلحة والزعماء المغامرين أحسست بأنها مرغمة على بعض التنازلات . ف وقعت في ٢٣ أغسطس ، مع ممثلي المسئولين ، لاتفاقا تباح بمقتضاه العبادة الكلفنية في الأماكن التي كانت تمارس فيها بالفعل ، بشرط عدم التعرض للطقوس الكاثوليكية ، وإلا يحمل البروتستانت سلاحا خارج بيوتهم . ووافق ممثلو المتحالفين على حل عصبيتهم ، إذا أوفت الحكومة بهذا الاتفاق . ونوقف الاضطهاد وساد السلام لبعض الوقت .

ولكن أيا من وليم أورانج وملك أسبانيا لم يقنع بهدوء الحال . فإن وليم كان يرى في البروتستانتية الثائرة أداة لتحقيق استقلال الأراضي الوضيئة ، وعلى الرغم من أنه كان لا يزال كاثوليكيًا اسميًا فإنه تخلى عن كل مناصبه الحكومية ، ونظم وسائله الخاصة للتجسس ، وقصد (٢٢ أبريل ١٥٦٧) إلى ألمانيا يلتبس المدد من الرجال والمال . وبعد ذلك بخمسة أيام غادر دوق ألفا أسبانيا ، مفوضًا من الملك فيليب . في جمع ما يلزم من القوات لاستخدامها في الانتقام من المشاغبين الكلفنيين ، والقضاء بلا هوادة على أية حال هرطقة وثورة وحرية في الأراضي الوضيئة .

٣ — دوق ألفا في الأراضي الوضيئة

١٥٦٧ — ١٥٧٣

هو فرناندو ألفارز دى توليدو ، دوق ألبا أو ألفا ، وكان آنذاك في التاسعة والخمسين من العمر ، وكأنه صورة أبدعتها ريشة الرسام الجريكو : طويل القامة ، نحيل القوام ، ذو عينين سوداوين ، وبشرة صفراء ، ولحية بيضاء فضية ، وكان قد ورث ، وهو في سن العشرين ، لقبه السلامع الذائع الصيت ، وضياعه الشاسعة ، وبدأ العمل العسكري في سن مبكرة ، وامتاز بالشجاعة والذكاء والقسوة . وألحقه فيليب بأخص مجالسه واستمتع مختبطًا إلى مشورته وكان حكمه في هذه الساعة العصبية هو ما يقضى به جندي درج على النظام الأسباني والورع الأساني : اسحق الثوار العصاة دون شفقة ولا رحمة . فإن أى تنازل بقوى المعارضة . وأطلق فيليب يديه ومنحه كل السلطة ودعا له بالتوفيق .

شق ألفا طريقه إلى إيطاليا ، وهناك جمع أسامعا من الحاميات الأسبانية في نابلي وميلان صفوة الجند ليشكل جيشًا قوامه عشرة آلاف رجل ، ألبسهم أنظر الثياب وزودهم بأحدث العدة والعتاد ، وأثلج صدورهم بألفين من بنات

الهوى أحسن اختيارهن وأعدادهن وقاد الجيش عبر جبال الألب ، وعبر برحمندى واللورين ولسكسبرج. وفي ٢٢ أغسطس ١٥٦٧ دخل بروكسل وتلقاه اجمونات في كل الخشوع والخشوع . وقدم له جوادين نادرين هدية . ولقيته مرجريت بعروها الأسى والأسف . وهى تشعر بأن أخاها حل محلها وفرض سلطانه عليها في نفس الوقت الذى كانت قد أعادت فيه نظاماً إنسانياً . وأحتجت مرجريت عندما أقام ألفا حاميات أسبانية في كل المدن . وأجاب في فتور دلى على استعداد لاحتمال كل الخزي والوزر .

واستأذنت مرجريت الملك فيليب في الاستقالة من منصبها ، فأجابها إلى طلبها مع منحها معاشاً مستخياً يضمن لها الهناءة . وفي ديسمبر رحلت عن بروكسل إلى موطنها في بارما ، وقد حزن من أجملها الكاثوليك الذين أجلوها واحترموها ، والبروتستانت الذين تنبأوا بأنه سيمتضخ وشيكا أن أشد قساوتها كانت ليناً وإعتدالا إلى جانب وحشية ألفا المنتظرة .

وأقام نائب الملك الحاكم العام الجديد في قلعة أنتورب ، وأعد نفسه لتطهير الأرضى الوطيفة من الهرطقة ، ودعا اجمونات وهورن إلى العشاء وأكرم وفادتهما . ثم ألقي القبض عليهما وأرسلهما في حراسة مشددة إلى أحد الحصون في غنت (٧ سبتمبر) وعين مجلس القلائل ، الذى أطلق عليه البروتستانت الجزعون من جديد اسم « مجلس الدم » وكان سبعة من أعضائه القسمة من الأرضى الوطيفة واثنان من الأسبان ، وكان لهنين العضوين فقط حق التصويت . واحتفظ ألفا لنفسه بالقرار الحاسم في أى موضوع يعنيه بخاصة . وأمر المجلس بالبحث عن المشتبه في معارضتهم للكنيسة الكاثوليكية أو الحكومة الأسبانية ، وإعتقالهم ومحاكمتهم سراً ، ومعاينة من يحكم عليهم دون ترفق أو إبطاء . وابتث الوكلاء للتجسس ، وشجع المخبرين على الغدر بأقاربهم وأعدائهم وأصدقاءهم وحظرت الهجرة ، وأعدم ربانية السفن الذين يساعدون ربانية عليها شنقاً (٢٣) . وحكم على كل مدينة عجزت عن قمع الثورة أو معاينة

العصاة بأنها مذنبه، وأودع موظفوها السجن أو فرضت عليهم الغرامة. وأعتقل آلاف الأفراد. وذات صباح واحد قبض على نحو ١٥٠٠ في مضاجعهم ونقلوا إلى السجن. وكانت المحاكمات قصيرة عاجلة، وكان الحكم بالإعدام يصدر أحياناً بالجلّة، على ثلاثين أو أربعين أو خمسين دفعة واحدة (٢٤). وفي شهر واحد - (يناير ١٩٦٨) أعدم ٨٤ شخصاً من سكان فالنسيان. وسرعان ما كان من العسير أن تجد في الفلاندرز أسرة غير حزينة على فرد منها قتل أو أعتقل بأمر من «مجلس القلائل»، وندر أن كان في الأراضي الوطنية من يجسر على الاحتجاج، فإن أيسر النقد كان يعنى الاعتقال.

وأحس ألفا بأن نجاحه قد تلطخ وتضاءل بعجزه عن إيقاع وليم أورانج في حباله. وأصدر مجلس المتاعب قراراً بإتهام الأمير وأخيه لويس، وزوج أخته كونت فان دن برج، والبارون مونتيني وغيرهم من الزعماء، بتشجيع الهرطقة والثورة. وكان مونتيني لا يزال في أسبانيا، فأودعه فيليب السجن. وكان ابن وليم، وهو فيليب وليم كونت بورن طالباً في جامعة لوفان، فاعتقل وأرسل إلى أسبانيا، وهناك نشىء تشبّه كاثوليكية متحمسة، وتبرأ من مبادئ أبيه. وصدر إعلان بأن وليم خارج على القانون، أحل لآي إنسان قتله دون التعرض لعقاب قانون.

وعمل وليم أورانج على تنظيم جيش، ووجه أخاه لويس إلى أن يحذو حذوه. والنمسا العون من الأمراء اللوثرين فيكم يتحمسوا للإستجابة له، ومن الملكة اليزابيث التي أمسكت عن مساعدته في حذر. وجاءته الأموال من أنتورب وأمستردام وليدن وهارلم وفلمننج، وأرسل إليه كل من السكونت فان دن برج وكولمبرخ وهو جستران ثلاثين ألف فلورين. وباع هو مجوهراته وأوانيّه الفضية ومطرزاته وأثاثه الفاخر، وجمع نحو خمسين ألف فلورين، وتوافر الجنود، لأن المرتزقة الذين تفرقوا نتيجة بعض الهدوء في الحرب الدينية في فرنسا، عادوا إلى ألمانيا مفلسين. وكان لزاماً أن ينتهج وليم سياسة التسامح. فكان

عليه أن يكسب اللوثرين والسكفنيين تحت لوائه ، كما كان عليه أن يؤكد للكاتوليك في الأراضي الوطيفة أن عبادتهم لن تقس بسوء بتحرير البلاد من ربة أسبانيا .

ووضع أورانج خطة العمل لثلاثة جيوش في وقت واحد ، قوة من الهيجونوت من فرنسا تهاجم أرتوا من الجنوب الغربي ، ويقود هوجستراتن جيشه ضد ماسترخت في الجنوب ، ويقترح لويس ناسو فريزلند من ألمانيا في الشمال الشرقي . وضدت هجمات الهيجونوت وهوجستراتن ، ولكن لويس انتصر على الجنود الأسبان في هيلجرلي (٢٣ مايو ١٥٦٨) . وأمر دوق ألفا بإعدام أجونات وهورن (٥ يونيو) ليطلق ثلاثة آلاف من الجنود كانوا يتولون حراستهما وحماية مدينة غنت ، ليستفيد منهم . وتقدم بهذه الإمدادات إلى فريزلند ، ودحر جيش لويس الذي أصابه الوهن في جمنجن (٢١ يولية) وأودى بحياة ٧٠٠ رجل وهرب لويس سبيحا في مصب نهر امز . وفي أكتوبر قاد وليم جيشا قوامه ٢٥ ألف رجل إلى برابان ، وقد عقد العزم على ملاقة ألفا في معركة حاسمة . ولكن ألفا بجيشه الأقل عددا والأحسن نظاما أحبط خططه ، وتجنب اللقاء في معركة ، وعمد إلى تعويق عدوه بهجمات في مؤخرته ورفض القتال جنود وليم الذين لم تدفع رواتبهم . فقادهم إلى مكان آمن في فرنسا وسرحهم . ثم تنكر في زي فلاح وشق طريقه من فرنسا إلى ألمانيا حيث تنقل من مدينة إلى مدينة ، فراراً من القتل . وهذه الحملات المشؤمة الممتلئة بالسكوارت بدأت د حرب الثمانين عاما ، التي خاضتها الأراضي الوطيفة في ثبات ومثابرة لم يسبق لهما مثيل ، حتى قدر لها النصر في النهاية في ١٦٤٨ .

كان ألفا آنذاك سيد الموقف المزهو في الميدان ، ولكنه كان خاوي الوفاض إلى حد بعيد . وكان الملك فيليب قد دبر مع أصحاب المصارف في جنوة أن يمدوه ببحرأ بأربعمائة وخمسين ألف دوكت . ولكن القراصان الإنجليز أجبروا السفن على الاتجاه إلى ميناء بليموت ، وهناك وضعت اليزابث يدها على المال ،

مع أرق الإعتذارات ، حيث لم تكن تذكره مساعدة ولیم مقابل هذا الثمن .
عندئذ دعا ألفا الجمعية العمومية المكونة من النبلاء ومثلى المدن للاجتماع فى بروكسل ، واقترح عليهم (٢٠ مارس ١٥٦٩) فرض ضريبة فورية قدرها ١٪ على الممتلكات وضريبة دائمة قدرها ٥٪ على أية عملية نقل للعقارات ، وضريبة دائمة قدرها ١٠٪ على المبيعات فاحتجت الجمعية بأنه لما كانت مواد كثيرة قد غيرت الملكية عدة مرات فى العام الواحد فإن ضريبة المبيعات هذه تقارب أن تكون مصادرة ، وأحالت المقترحات إلى جمعيات المقاطعات ، وهناك كانت المعارضة شديدة إلى حد اضطر معه ألفا إلى إرجاء ضريبة ١٠٪ إلى ١٥٧٢ ، والاكتفاء بضريبة الواحد فى المائة ، وبمنحة قدرها مليونى فلورين سنويا لمدة عامين . ولكن حتى ضريبة الواحد فى المائة كانت جبايتها شاقة باهظة التكاليف ورفضت أو ترحت دفعها . فاطبقت فرقة من الجند على المنازل والممتلكات ، واستمرت المقاومة ، ورمى ألفا كل الأقليم بالخيانة وألغى كل إعفائه وامتيازاته ، وصادر كل ممتلكات مكانه لصالح الملك .

وأن هذه الضرائب والإجراءات التى اتخذت لفرضها هى التى هزمت ألفا الذى لم يهزم حتى ذلك اليوم . وبات كل السكان تقريبا ، كاثوليك وبروتستانت ، يقاومونه ، فى استياء يتفاقم أمره ، كلما عوقت وعرقلت ضرائبه نشاط الأعمال التى بنت عليها الأراضى الوطیئة ازدهارها ورخاءها . ولما كان ألفا أبرع فى الحرب منه فى شئون المال فإنه انتقم لإستيلاء اليزابث على الأموال التى كانت فى طريقها إليه من جنوة ، بالإستيلاء على الممتلكات الإنجليزية فى الأراضى الوطیئة ، وحظر التجارة مع إنجلترا . وردت اليزابث على هذا بمصادرة بضائع الأراضى الوطیئة فى إنجلترا ، وتحويل التجارة الإنجليزية إلى همبرج ، وسرعان ما أحست الأراضى الوطیئة بوطأة الكساد الاقتصادى . فأغلقت المتاجر أبوابها ، وازداد النعطل ، وفكر رجال الأعمال الأقوياء الذين احتملوا فى صبر وتجهد شتى البروتستانت ونهب الكنائس ، فكروا مليا وسرا فى الثورة

وأخيرا مولوها . وحتى رجال الدين الكاثوليك الذين خسروا الإنهار الاقتصاد
الوطني ، أنقلبوا على ألفا ، وحذروا الملك فيليب من أن الدوق يعمل على
تخريب البلاد (٢٥) ، بل أن البابا - ييوس الخامس الذي كان قد اغتبط أيما
اغتباط بانتصارات ألفا ، نراه الآن يشاطر الكاردينال دى جراففل اسمه
لقساوة ألفا (٢٦) . ويرصى بالعفو العام عن العصاة والهرطقة النادمين التائبين -
ووافق فيليب على هذا الاجراء وأبلغ به ألفا (فبراير ١٥٦٩) ، واسكن الدوق
طلب التمل ، ولم يعلن العفو إلا في ١٦ يولية ١٥٧٠ . وفي تلك السنة خلع
البابا على ألفا القبة والسيف المقدسين ، وأنعم « بالوردة الذهبية » على
زوجته (٢٧) ، كما أعدم فيليب موتيني الذي كان سجيننا - (١٦ أكتوبر
١٥٧٠) .

وفي نفس الوقت ظهرت على المسرح قوة جديدة . وذلك أنه في مارس
١٥٦٨ قامت عصاة من الياثسين المستميتين عرفوا باسم « المذسولين المتطرفين » ،
وجهاهم إلى نهب الكنائس والأديار وقطع أنوف القساوسة والرهبان
أو آذانهم ، وكانهم عقدوا العزم على مباراة « مجلس الدم » في وحشيتة
وفظائعه (٢٨) . وفيما بين عامي ١٥٦٩ - ١٥٧٢ ظهرت جماعة أخرى أطلقوا
على أنفسهم اسم « متسولي البحر » ، وضعوا أيديهم على ١٨ سفينة ، وتلقوا
عمولة من وليم أورانج ، وأغاروا على شواطئ الاراضي الوطيفة ، ونهبوا
الكنائس والأديار ، وسيطروا على المراكب الأسبانية ، وزودوها ثانية
بالمؤن من الثغور الإنجليزية الصديقة - بل حتى من لاروشيل النائية - التي
كانت في يد الهيجونوت آنذاك . وأغار « متسولو البحر » على أية مدينة ساحلية
لا توجد بها حامية أسبانية ، واستولوا على المرافق الحصينة ، وبفضل قدرتهم
على فتح السدود بات من أخطر الأمور على القوات الأسبانية أن تقترب منهم
أو تصل إليهم . فلم يعد في مقدور ألفا أن يتلقى أية امدادات أو مؤن من البحر
وهكذا عارت المدن الرئيسية في هولنده وزيلند وجولدراند وفريزلند آمنة بحية ،

ومن ثم قدمت ولاءها لوليم أورانج ، وقررت تزويده بالإمدادات . من أجل الحرب (يولية ١٥٧٢) ونقل وليم مقر قيادته إلى دلفث وأعلن أنه « الأصلح الكلفني » وهو لقب أصدق على رأسه منه على عقيدته ، وفي تلك الآونة كتب فيليب فان مارنكس أغنية « ولیم ناسو ، التي أصبحت ، ولا تزال ، التريمة الوطنية في الأراضي الوطنية .

ومنذ لقي ولیم أورانج التشجيع على هذا النحو جهز جيشا آخر وغزا برابانت . وفي نفس الوقت قام لويس ناسو ، بمعونة كوليني ، بأعداد قوة في فرنسا ، ودخل هبيوت ، واستولى على فالنسيان ومونز (٢٣ مايو ١٥٧٢) . وتقدم ألفا ليسترد مونز ، وهو يأمل بذلك أن يثنى فرنسا عن مساعدة لويس . وتقدم ولیم جنوبا لنجدة أخيه ، وأحرز بعض انتصارات يسيرة ، ولكن سرعان ما استنفد ماله من مال ، فتقاضى جنوده أجورهم بنهب الكنائس ، وتسولوا بقتل القساوسة ^(٢٩) . فثارت ثورة الكاثوليك ، حتى أنه عندما اقترب جيش ولیم من بروكسل وجد الأبواب موصدة والآهالي يحملون السلاح لمقاومته واستأنف الجيش سيره ، ولكن على مسافة فرسخ من مونز فوجيء الجند ، وهم نيام ، بستمائة جندي أسباني ، قتلوا من جنود ولیم ثمانمائة قبل أن يتمكنوا من تهية أنفسهم للدفاع . واستطاع ولیم الهرب بشق النفس مع بقايا قواته ، إلى مكلين في برابانت . وفي نفس الوقت قضى قتل كوليني ومذبحة سانت برتليو على كل أمل في العون من فرنسا . وفي ١٧ سبتمبر سقطت مونز في يد ألفا الذي هيا للويس وفلول جيشه أن يرحلوا دون أن يمسه أذى . ولكن قائد جيش ألفا ، فيليب دي نوفارم ، شفق من تلقاء نفسه مئات من الآهالي ، وصادر ممتلكاتهم وباعها بثمان عا ^(٣٠) .

أن فشل استراتيجية ولیم وافراط قواته التي يصعب قيادها ووحشية « المتسولين ، وفضائهم ، كل أولئك خيب آماله في توحيد الكاثوليك والكلفنيين واللوترين ليقاوموا جميعا طغيان ألفا . فان « المتسولين » . وكانوا

كلهم تقريبا كلفنيين متحمسين أبدوا عند الكاثوليك من ضروب الوحشية والضاوأة ما أبدته محاكم التفتيش ومجلس الدم نحو الثوار والحرطقة . وفي كثير من الحالات لم يتركوا للأسرى الكاثوليك إلا الخيار بين الكلفنية أو الموت ، وكانوا يقتلون دون تردد ، وفي بعض الأحيان بعد تعذيب لا يصدق ، كل من تمسك بأهداب العقيدة القديمة ^(٣١) . وأعدم كل من طرفي النزاع كثيرا من أسرى الحرب . وكتب مؤرخ بروستانتى يقول :

في أكثر من مناسبة روى الرجال يشنقون ... أخوتهم هم أنفسهم الذين وقعوا أسرى في صفوف الأعداء ... ووجد سكان الجزر لذة وحشية في ضروب القسوة هذه ، ولم يعد الأسباب في نظرهم فردا من بنى الإنسان . وذات مرة انتزع أحد الجراحين قلب سجين أسبانى ، وثبته بالمسامير في مقدم السفينة ودعا الأهل ليغرسوا أسنانهم فيه ، وفعل كثير منهم هذا في ارتياح وحش ^(٣٢)

أن هؤلاء المسئولين ، القساة القلوب هم الذين هزموا دون ألفا . وأخذ الدوق إلى شيء من الراحة بعد الحملات التي قام بها ، وورث أبنة دوق فدريجو ألفتارت دى توايدو مهمة استعادة ومعاينة المدن التي كانت قد أعلنت تأييدها لوليم أو استسلمت له . فبدأ ألفتارت بمدينة مكليين التي أبدت أقل مقاومة ، حيث خرج القساوسة والأهل في موكب نادمين ، يرجون الصفح والابقاء على المدينة ، ولكن ألفا كان قد أمر بانتقام تكون فيه موعظة وعبرة . فظل جنود فدريجو لمدة أيام ثلاثة ينهبون البيوت والأديار والكنائس ، ويسرقون الحلى والأردية الثمينة من التماثيل المقدسة . ويطأون الفطائر المقدسة تحت الأقدام ، ويذبحون الرجال ويستبيحون النساء ، كاثوليك أو بروستانت على حد سواء . وفي طريق تقدمه إلى جلدردند ، تغلب جيشه على الدفاعات الهزيلة في زوتفن ، وقتل كل رجال المدينة تقريبا . وعاق بعضهم من الأقدام ، وأغرق خمسةائة منهم بربطهم زوجا وزوجا ، ظهرا لظهر . والبقاء بهم في نهر ايسل . واستسلمت بلدة ناردن الصغيرة بعد مقاومة قصيرة ، وحيث الأسباب الغزاة بموائد زخرت

بالوان الطعام ، فأكل الجنود وشربوا ثم اعملوا القتل في كل الأهالى في المدينة وتقدموا إلى هارلم ، وهى مركز كافنى أبدى حماسا خاصا للثورة . وقد دافعت حامية قوامها أربعة آلاف رجل عن المدينة دفاعا مجيدا ، إلى حد أن دوق فدريجو اقترح الانسحاب منها ، ولكن ألفا هدد بأن يتبرأ منه إذا لم يستمر في الحصار ، فتصاعدت أعمال العنف ، وعلق كل من الطرفين أسراه على أعواد المشانق في مواجهة عدوه . وأثار المدافعون حنق المحاصرين بأن مثلوا على الأسوار الطقوس الكاثوليكية بطريقة تدعو إلى السخرية والضحك (٣٣) . وأرسل ولیم ثلاثة آلاف جندي لمهاجمة جيش دوق فدريجو ، ولكنهم أيدوا وأخفقت كل محاولة لتخليص هارلم بعد ذلك . وفي ١١ يولية ١٥٧٣ ، بعد حصار دام سبعة أشهر اقتات فيها الناس على الأعشاب والجلود ، استسلمت المدينة . ولم يبق على قيد الحياة سوى ١٦٠٠ رجل أعدم معظمهم . كما أعدم ٤٠٠ من المواطنين المتزعمين ، أما بقية الأهالى فقد أبقى على حياتهم بعد موافقتهم على دفع غرامة قدرها مائتان وخمسون ألف جلد .

وكان هذا آخر انتصارات حكومة دوق ألفا وأبهرتها تكلفة . وهلك أكثر من اثني عشر ألفا من أفراد الجيش الذى تولى الحصار متأثرين بالجراح أو بالمرض . واستنزفت الحرب كل ما حصل من ضرائب بغیضة . واكتشف فيليب الذى كان يعد النقود أكثر مما يحسب حساب الانفس والأرواح ، أن ألفا لم يكن غير محبوب لدى الناس فحسب ، بل أنه كان كذلك ينفق أموالا طائلة ، وأن أساليب قائده كانت تعمل على توحيد الأراضى الوطيئة ضد أسبانيا وأحس دوق ألفا بأن الرياح غير مواتية له ، وأن التيار قد انقلب ضده . فطلب تنحيته وتباهى بأنه قتل ١٨ ألف نائر (٣٤) . ولكن الهراطقة كانوا في مثل القوة التى كانوا عليها عندما جاء هو إلى الميدان ، بل أكثر من ذلك أنهم سيطروا على الثغور وعلى البحر ، وأن الملك فقد مقاطعى هولنده وزيلنده تماما . وقدر أسقف نامور أن ألفا في سبع سنين ، ألحق من الأذى بالكاثوليكية كثر مما ألحقه بها لوثر والكلفنية في جيل بأسره (٣٥) . وقبلت

استقالة ألفا وغادر الأراضي الوطية (١٨ ديسمبر ١٥٧٣) وأستقبله الملك فيليب استقبالا حسنا . وقاد ، وهو في سن الثانية والسبعين الجيوش الأسبانية لغزو البرتغال (١٥٨٠) . ولدى عودته من هذه الحملة انتابته حمى متقطعة ، ولم يحفظ عليه حياته إلا ارضاعه اللبن من ثدى امرأة . وفاضت روحه في ١٢ ديسمبر ١٥٨٢ ، بعد أن عاش عاما على اللبن . ونصف قرن على الدم .

٤ - ركويسانس ودون جوان

١٥٧٢ - ١٥٧٨

وأرسل فيليب دون لويس دى ركويسانس ليحل محل ألفا ، وهو الذى كان منذ عهد قريب نائب الملك في ميلان . ودعش الحاكم الجديد لعدد الثوار والروح التى سادتهم ، فكتب إلى الملك : « لم أكن أدرك قبل وصولي كيف استطاعوا الاحتفاظ بمثل هذه الأساطيل الضخمة ، على حين أن جلالتم لم تستطع الإنفاق على أسطول واحد فقط . ومهما يكن من أمر ، فإنه يبدو أن الرجال الذين يقاتلون من أجل حياتهم وديارهم وأملآكهم وعقيدتهم الزائفة ، وجملة القول عن قضيتهم - يقنعون بالطعام دون أجور (٣٧) . ورجا فيليب فى أن يرخص له فى إصدار عفو عام عن الجميع باستثناء الهراطقة العنيدى ، مع السماح لهم بالهجرة ، وإلغاء ضريبة العشرة فى المائة على البيوع . ولم ير ولم أورانج فى هذه المقترحات إلا لعبة لكسب الوقت ، ووسيلة جديدة لاستئصال البروتستانتية من الأراضي الوطية ، ولم يكن يقبل السلام إلا على أساس الحرية الكاملة للعبادة ، واستعادة امتيازات المقاطعات ، وانسحاب الأسبان من الوظائف المدنية والعسكرية . واستمرت الحرب . وفى معركة (١٣ أبريل ١٥٧٧) قضى نحبه كل من أخوى ولیم : لويس فى سن السادسة والثلاثين ، وهنرى فى سن الرابعة والعشرين .

وثمة حادثان شدا من أزر الثورة فى هذه الآونة : أفلاس فيليب (١٥٧٥)

وموت ركويسانس في أثناء حصار زيركزي (٥ مارس ١٥٧٦) . عين الملك أخاه غير الشقيق ، دون جوان النموسى ، في هذا المنصب البغيض . ولكنه لم يصل إلى لكسمبرج إلا في نوفمبر . وفي هذه الأثناء وقع ممثلو هولنده وزيلنده ، في دلفت (٢٥ أبريل) « قانون التهدة » الذى خول ولیم السلطة العليا في البر والبحر ، وحق التعيين في الوظائف السياسية . وعند الضرورة حق العهد بحماية الاتحاد إلى أمير أجنبي . وأهاب ولیم ، من مركز السلطان الجديد ، بسائر المقاطعات أن تشارك في طرد الأسبان من الأراضي الوطنية . ووعد بحرية الفكر والعتيدة للسكانوليك وللبروتستانت على حد سواء .

وربما لقی نداؤه بعض الاستجابة في المقاطعات الجنوبية لولا أن الجنود الأسبان وقد خدعهم السلب والنهب في زيركزي ، تمردوا (يولية) وبدأوا ، دون تمييز ، حملة من السلب والنهب والعنف أرهبت فلاندرز وبرابانت . ووجه إليهم مجلس الدولة في بروكسل تأنيبا قاسيا ولكنهم تحدوه ، فأعلن المجلس أنهم خارجون على القانون ، ولكن لم يكن لديه قوة يقاومهم بها . فعرض ولیم أن يرسل قوات عسكرية لحماية هذه البلاد ، وجدد تعهده بالحرية الدينية . وتردد المجلس ، فأطاح به أهالى بروكسل ، وشكلوا مجلسا آخر تحت رئاسة فيليب دى كروى الذى بدأ المفاوضات مع الأمير . وفي ٢٦ سبتمبر رحبت غنت بفرقة عسكرية أرسلها ولیم لحماية المدينة من المتمردين الأسبان . واجتمع في غنت في ١٩ أكتوبر ، ممثلون عن برابانت وفلاندرز وهينوت ، وكانوا يكرهون تحالف ولاياتهم مع الأمير المحروم من حماية القانون ، ولكن في ٢٠ أكتوبر اجتاحت المتمردون ماسترخت ، وفي ٢٨ منه ، وقع المجتمعون للبحث والتشاور رغبة في حماية قوات ولیم لهم ، « قانون التهدة » ، الذى صدر في غنت ، والذى اعترف بولیم حاكما على هولنده وزيلنده ، وأوقفوا كل اضطهاد للهرطقة ، واتفقوا على التعاون في طرد الجنود الأسبان من مقاطعاتهم . ورفضت الجمعية العمومية للمقاطعات الجنوبية التى انعقدت في بروكسل ، التوقيع على « قانون التهدة » ، حيث اعتبرته اعلانا للحرب ضد الملك .

ودعم المتمردون مرة أخرى من حجج ولیم ، ذلك أنهم في ٤ نوفمبر ١٥٧٦ استولوا على انتورب ، وأعملوا فيها السلب والنهب ، على أسوأ شكل عرفه تاريخ الأراضي الوطيفة . وقاوم المواطنون ولكنهم غلبوا على أمرهم ، وقتل منهم سبعة آلاف ، وأحرق ألف مبنى كان بعضها من روائع العمارة . وذبح الرجال والنساء والأطفال في طوفان من الدماء بأيدي الجنود وهم يرددون الصيحات : د سان جيمس ، أسبانيا ، الدم . الموت . النار . السلب ، النهب ، وطوال تلك الليلة عاث الجنود في المدينة الغنية ، وسلبوا كل بيت فيها تقريباً ، ورغبة في انتزاع الاعتراف بالذخائر الخبأة ، أصيلة أوزائفة ، عذبوا الآباء على مرأى من أطفالهم ، وذبحوا الصبية وهم في أحضان أمهاتهم ، وضربوا الزوجات بالسياط حتى الموت أمام أعين أزواجهن . واستمر هذا العنف الأسباني ديومين ، حتى أتنخم الجنود بالذهب والحلى والملابس الثمينة ، وبدأ الواحد منهم يقامر الآخر بغنائمه في الشوارع المكتظة بجثث الموتى . وفي ٢٨ نوفمبر صدقت الجمعية العمومية على « قانون التهذئة ، الذي وضع في غنت » .

وكان هذا نصراً ميبناً أحرزه الأمير في الوقت المناسب . وعندما أرسل دون جوان من لكسمبرج يقول أنه على وشك أن يدخل بروكسل ، أجابت الجمعية العمومية بأنها لن تستقبله بوصفه حاكماً إلا إذا وافق على « قانون التهذئة » ، وأعاد امتيازات المقاطعات ، وطرده كل القوات الأسبانية من الأراضي الوطيفة . وقضى دون جوان ، الباسل في ميدان المعركة ، القليل الخبرة بالسياسة والذي أعرضه الرجال والمال ، شتاءه متسلحاً في لكسمبرج ، ثم وقع في ١٢ فبراير ١٥٧٧ « المرسوم الدائم » ، الذي أدى به إلى التهذئة وحرقات المقاطعات . وفي أول مارس دخل دون جوان بروكسل في احتفال رسمي ، واغتنبت المدينة إذ رأت مثل هذا الحاكم الوسيم الأعزل الضعيف . ورحلت القوات الأسبانية . وساد السلام لفترة وجيزة ربوع البلاد المنخرقة .

وكانت أحلام جوان أكبر من إمكانياته المالية . وبعدها أثره وبطولاته في ليننتو وتونس أوهنت العظمة اليائسة العاجزة فورة الدم الهادر بأوهام

البطولة . وعلى مقربة منه كانت ماري ستوارت الجميلة سجيئة لدى الزبايت
العملاقة الرهيبة . فلم لا يحشد جوان جيشا وأسطولا ، ويعبر البحر ، ويطيح
بعرش ملكة ويتزوج الأخرى ، ويصبح ملكا على إنجلترا واسكتلنده ،
ويعيد هذه الأقاليم الغافلة إلى أحضان الكنيسة الأم ، أن فيليب الذى خشى
الهوة بين الأموال والأحلام ، اعتبر أخاه ساذجا مخدوعا . وقدم جوان
البرهان على ذلك ، فإنه غادر بروكسل فجأة (١١ يونية) ، على رأس فرقة من
الوالون (سكان جنوب بلجيكا) الكاثوليك ، وأنكر دقانون التهدة ، .
وبعد مفاوضات عقيمة مع جران ، دعت الجمعية العمومية ولیم إلى العاصمة ،
ولدى وصوله (٢٣ سبتمبر) رحب به جمهور كبير من المواطنين الكاثوليك
على أنه الرجل الوحيد الذى يستطيع أن يقود الأراضى الوطنية إلى الحرية .
وفى ٨ أكتوبر أبلغت الجمعية العمومية دون جوان أنها لم تعد تعترف به
حاكما ولكن يمكن أن تقبل فى مكانه أميرا من الأسرة المالكة . وفى
١٠ ديسمبر ١٥٧٧ انضمت المقاطعات كلها - عدا نامور - إلى الاتحاد
بروكسل ، . وطلب الأعضاء الكاثوليك فى الجمعية العمومية ، الذين كانوا
يخشون كلفنية ولیم ، إلى ماتيئاس أرشيدوق النمسا أن يكون حاكما على الأراضى
الوطنية . وقدم الشاب ابن العشرين وتقلد المنصب (١٨ يناير ١٥٧٨) ولكن
أنصار ولیم أغروا الحاكم الجديد بتعيين ولیم نائبا له - ومن الوجهة الفعلية
صاحب الأمر والنهى فى الإدارة والسياسة .

وكان يمكن للتسامح المتبادل فى الخلافات الدينية وحده إن يبق على هذا
الاتحاد أو الترابط ، ولكن التعصب مزقه . فإن الكلفنيين فى هولنده
والكاثوليك فى أسبانيا اعتقدوا جميعا بأن الكفار وحدهم هم الذين يستطيعون
أن يبدوا تسامحا . وقال كثير منهم صراحة بأن ولیم أورانج ملحد (٢٨) ،
واتهمه الواعظ الكلفنى بيتر داتينوس ، بأنه جعل من السلطة معبوده الوحيد ،
وأنه يغير عقيدته كي يغير الناس ملابسهم (٣٩) . وكان الكلفنيون (وظلوا

حتى ١٥٨٧) يشكلون عشر السكان فقط في مقاطعة هولندة ، ولكنهم كانوا نشيطين طموحين ومسلحين . وكانت لهم السيطرة على الجمعيات السياسية ، فأحلوا حكاما وقضاة بروتستانت على الكاثوليك ، وفي ١٥٧٢ حظر مجلس المقاطعة العبادة الكاثوليكية في هولندة^(٤٠) ، على أساس أن أى فرد كاثوليكي يحتمل أن يكون خادما لأسبانيا . ولم تأت ١٥٧٨ . إلا وقد عمت الكلفنية زيلندة تقريبا ، وكانت من الوجهة السياسية — لا العددية — متسلطة في فريزلند واكتسحت موجات تحطيم الصور المقدسة هولندة وزيلندة ١٥٧٢ ، ومقاطعات أخرى ، حتى الفلاندرز وبرابانت ، بعد ١٥٧٦ . وأنكروا أى ربط بين الدين والفن باعتباره عملا وثنيا دنسا . وجردت الكنائس من الصور والتماثيل والصلبان والزخارف ، وصهرت الألوان الذهبية والفضية ، ولم يبق إلا الجدران العارية ، وعذب « المتسولون » القساوسة الكاثوليك ، وأعدموا نفرا منهم^(٤١) .

واستنكر ولیم كل هذه التصرفات ، ولكنه تغاضى^(٤٢) عن استيلاء الأقليات الكلفنية المسلحة على السلطة السياسية في بروكسل وأيبر وبروجز وكل شمال الفلاندرز^(٤٣) . وفي غنت سجن الكلفنيون المنتصرون أعضاء المجلس ، ونهبوا الكنائس والأديار وأتلفوا أجزاءها الداخلية ، وصادروا أملاك الكنيسة ، وحرّموا إقامة الطقوس الكاثوليكية ، وأحرقوا الرهبان في ساحة السوق^(٤٤) ، وأقاموا جمهورية ثورية (١٥٧٧) . وفي أمستردام اقتحم الكلفنيون المسلحون دار البلدية (٢٤ مايو ١٥٧٨) ، وطرّدوا القضاة والموظفين ، وأحلوا محلهم كلفنيين ، وخصّصوا الكنائس التي جردوها لمذهب الإصلاح . وفي اليوم التالي قامت ثورة نمائلة بمثل هذا العمل في مارلم . وفي أنتورب التي كانت آنذاك مقر قيادة ولیم أخرج البروتستانت القساوسة والرهبان من المدينة (٢٨ مايو) ، وأناب الأمير أتباعه تأنيبا شديدا على هذا العنف . وخصّصهم على السباح بامتئاف الطقوس الكاثوليكية . ولكن في ١٥٨١ حرمت كل عبادة كاثوليكية في أنتورب وأوترخت . واتهم الكلفنيون

القساوسة بأنهم كانوا يخدعون الناس بالمخلفات الزائفة والكرامات التي يفتعلونها - عرض قطع من الصليب الحقيقي ، وعظام قديمة للتعبد على أنها رفات القديسين ، وإخفاء الزيت في رؤوس التماثيل حتى ترشح في الوقت المناسب^(٥) .

على أن وليم تولاه الحزن والأسى حين رأى سنوات كفاحه من أجل الوحدة تختتم بالفرقة والفوضى والبغضاء . إن الديمقراطية السكفنية التي كانت قد استولت على جملة مدن تتردى الآن في وهدة من الفوضى ، بدأ معها الملاك البروتستانت والكاثوليك على حد سواء يتساءلون هل كان المذهب الجديد وكل ما يتصل به من دعايات أشد وبالا عليهم من الديانة القديمة . وسرى شعور الاستياء وواجه وليم هذه الرغبة المتزايدة في إعادة النظام بالتفاوض مع فرنسوا دوق أنجو ليتولى منصب الحاكم العام بدلا من ماتياس العاجز التافه . ولكن اتضح أن أنجو خائن حقير . وزاد الطين بلة في محنة وليم ، أن جيشا أسبانيا جديدا قوامه عشرون ألفا من الجنود المدربين أحسن تدريب ، كان يتجه شمالا بقيادة أقدر قواد العصر . ذلك أنه في ديسمبر ١٥٧٧ قدم الساندرو فاريزي دوق بارما بجيشه إلى دون جوان في لكسمبرج . وفي ٣١ يناير ١٥٧٨ هزموا القوات التي كان يعوزها النظام ، التابعة للجمعية العمومية ، في جملو . وفتحت لوفان واثنتي عشرة مدينة صغيرة أخرى ، أبوابها أمام الفاتح الجديد ، وفرت الجمعية العمومية للأراضي الوطيدة من بروكسل إلى أنتورب . إلا أن دون جوان الذي استشعر مجدأ جديدا ، اثباتته حمى خبيثة ، وقضى نحيبه في نامور ، في أول أكتوبر ١٥٧٨ ، وهو في سن الثالثة والثلاثين . وعين فيليب دوق بارما حاكما عاما مكانه ، وبدأ فصل جديد .

٥ - بارما وأورانج

١٥٧٨ - ١٥٨٤

الساندرو فارنيزى، الذى يبلغ الثالثة والثلاثين، هو ابن نائبة الملك السابقة مرجريت بارما . تربى فى أسبانيا وأقسم بيمين الولاء لفيليب ، وحارب فى ليبنتو وقضى الأربعة عشر عاماً الأخيرة من حياته فى الإبقاء على الأراضى الوطيفة الجنوبية فى حوزة الملك فيليب . وفى ١٥٨٦ ورث دوقية بارما وألقبها ، ولكنه لم يجلس على عرش الدوقية قط . وكان له عهتان حادتان ، ووجه أسمر ، وشعر أسود قصير ، وأنف كأنف النسر ، ولحية كثرة ، كل أولئك كشف عن شيء يسير من قدرته وشجاعته وبراعته ، وجمع بين كل الفن العسكرى الذى امتاز به دوق ألفا ، مع إثارة من قسوته ، وقدر أكبر بكثير من المهارة فى المفاوضة والحديث . وبات القتال من أجل الأراضى الوطيفة ، آنذاك ، صراعاً بين دبلوماسية بارما وأسلحته تسانده أموال الكاثوليك وآمالهم ، بين صمود أمير أورانج البطولى ، يموله التجار الهولنديون ويشدون أزره ، ويعرقل جهوده ، فى وقت معاً ، تعصب أصدقائه .

وفى ٥ يناير ١٥٧٩ شكل جماعة من النبلاء الكاثوليك ، من هينوت ودوا وأرتوا وليل ، بإيحاء من أسقف آراس ، شكوا عصبة آراس لحماية عقيدتهم وممتلكاتهم وفى ٢٩ يناير شكلت مقاطعات هولنده وزيلنده وجروننجن وأوترخت وجلدزلند ، د اتحاد أوترخت ، للدفاع عن عقيدتهم وحرياتهم . وسرعان ما انضم إليها فريزلند ، وأوفريسيل . ومن هذه المقاطعات المتحدة ، السبع تتكون اليوم الأراضى الوطيفة الهولندية ، وأصبحت المقاطعات الباقية هى د الأراضى الوطيفة الأسبانية ، وصارت فى القرن التاسع عشر بلجيكا وحددت تقسيم المقاطعات السبع عشرة إلى أمتين على هذا النحو . سيطرة الكاثوليكية فى الجنوب والبروتستانتية فى الشمال ، من ناحية ، إلى جانب الفصل الجغرافى بينهما ، لوجنود الخلدجان والأنهار الكبيرة التى هيأ أنساعها

وسدودها التي يسهل التحكم فيها ، ثغورا يمكن الدفاع عنها ، وتأوى إليها الأساطيل والأسلحة الأسبانية .

وفي ١٩ مايو وقعت عصابة آراسى مع بارما اتفاقا ، التزمت فيه بالآ تقبل غير الكاثوليكية مذهباً ، وارتضت بمقتضاه السيادة الأسبانية شريطة استعادة امتيازات المقاطعات والوحدات الإدارية الصغيرة (الكوميونات) وسرعان ما أعاد الدوق ، بالإغراء أو الرسوة أو القوة ، كل المقاطعات الجنوبية تقريبا إلى حظيرة أسبانيا ، وتحلى الزعماء الكلفنيون في بروكسل وغنت وإيبر عن فتوحاتهم وولوا الأدبار إلى الشمال البروتستانتى . وفى ١٢ مارس ١٥٧٩ قاد بارما جيشا كبيرا ضد ماسترخت الواقعة فى موقع حصين على النهر المسمى باسمها . وأتى الفريقان كلامهما بالأعاجيب من أعمال البطولة وضروب الوحشية وحفر المهاجمون أميالا من الممرات تحت الأرض ليبتثوا الألغام ويفتحوا المدينة ، كما حفر المدافعون - النساء والرجال جنباً إلى جنب - بمرات ليقابلوهم ؛ ودارت رحى القتال حتى الموت فى باطن الأرض . وعسب الماء المغلى فى الأنفاق ، وأشعلت الحرائق لتتألف بالدخان . واحترق مئات المحاصرين المهاجمين أو اختنقوا حتى الموت . وانفجر أحد الألغام قبل أوانه فأودى بحياة خمسمائة من رجال بارما . وعندما حاول جنوده تسلق السور قابلتهم الجمرات المحترقة ، وقذفت حول أعناقهم أطواق النار الملتهبة . وبعد أربعة أشهر من الجهد المضنى والضراوة والعنف ، أحدث المحاصرون ثغرة فى السور ، نفذوا منها خفية فى الليل ، وفاجأوا المدافعين المنهوكين وهم نيام وذبحوا منهم ستة آلاف من الرجال والأطفال والنساء ولم يبق من سكان المدينة البالغ عددهم ثلاثين ألفاً ، على قيد الحياة آنذاك سوى أربعائة وعمرها بارما من بعدهم بالموالون السكاثوليك .

تلك كانت كارثة عظمت حللت بالبروتستانت . ووجه اللوم فيها بحق إلى حد ما ، إلى وليم الذى حاول عبثاً إنقاذ المدينة ، ليعجزه وإبطائه . واتهمه

الآن نفس المتطرفين الذين أحبطوا سياسة التوحيد التي انتهجها ، بتعصبهم وعنفهم - اتهموه بخيانة قضيتهم في مفاوضاته مع دوق أنجو الكاثوليكي ، وأشاروا إلى أنه لم يؤد الشعائر الدينية طوال العام الماضي ، واتهم الملك فيليب هذه الفرصة ليصب اللعنة على أوراج (١٥ مارس ١٥٨١) . وبعد أن أصيب فيليب في بيان عقوى الأمير وخيائته وزيجاته وجرائمه ، استرسل يقول :

ومن ثم ... نسبه الأعمال السيئة الشريرة التي رتبها وأنه يعسكر صفو السلام العام ، وأنه شخص بغيض ، فإننا نحرمه من حماية القانون ، ونحظر على كل رعايانا أن يتعاملوا معه أو يتصلوا به في السر أو العلن ، وأن يزودوه بالطعام أو الشراب أو الوقود أو غيرها من الحاجيات الضرورية . أننا نعلن على الملأ أنه عدو للجنس البشري . ونذبح ممتلكاته لمن يضع يده عليها . ورغبة في الإسراع في تخليص شعبنا من طغيانه وظلمه ، فإننا نعد ، وعد ملك خادم للرب ، أي فرد من رعايانا ، وأنى من النخوة والشهامة ما يستطيع معه أن يجد الوسيلة لتنفيذ هذا المرسوم ، وتخليصنا من هذا الإنسان البغيض ، سواء بتسليمه لنا حياً أو ميتاً ، أو بإزهاق روحه على الفور ، نعد بأن نمنحه هو أو ورثته من الأرض أو المال ، وفق مشيئته ، ما قيمته خمسة وعشرون ألف كراون ذهباً . واسوف تصدر العفو عن أية جريمة ارتكبها أيا كان نوعها ، وترفعه إلى مرتبة النبلاء إذا لم يكن نبيلاً^(٤٦) .

وكان جواب مجلس المقاطعات على هذا الجرم ، تعيين ولیم حاكماً عاماً على هولندهوزيلنده (٢٤ يولية ١٥٨١) وبعد ذلك ييومين وقع بمثل هولندهوزيلندرز وجولدرلند وأوترخت وفلاندرز وبرابانت ، في لاهاي ، قرار الاستنكار الذي طرحوا فيه بشكل مهيب ولاءهم لملك أسبانيا . وفي وثيقة مشهورة في التاريخ الهولندي ، شهرة وثيقة « إعلان الحقوق » التي أصدرها برلمان إنجلترا ١٦٨٩ في التاريخ الانجليزي ، أعلنوا أن الحاكم الذي يعامل رعاياه معاملة العبيد ويقضى على حرياتهم ، يجب ألا يعتبر بعد اليوم مليكهم الشرعي ويحق قانوناً

عزله (١٧). وكان رد وليم على هذا الحرمان في صيغة دفاع حرره له قسيسه ، أرسل إلى الجمعية العمومية وإلى كل بلاط في أوروبا ، ورحب بالحرمان على أنه وسام شرف له . واتهم فيليب بسفاح ذوى القربى والزنى وقتل زوجته وابنه . وأبدى استعدادة للتخلي عن كل مناصبه ومغادرة الأراضى الوطیئة بل حتى للتضحية بحياته ، إذا كان هذا فى مصلحة بلده ، ومهر الوثيقة بشماره . سوف أتنبث . .

ولم يلبث فيليب طويلا حتى جنى ثمار الحرمان ، الذى أصدره (١٨ مارس ١٥٨٢) . فان جين جوريجى أغرته الجائزة الموعودة ، فتسلح بمسدس واستعان بالله ، ونذر للعدراء بعض الغنيمة . واتخذ سبيله إلى وليم أورانج فى أنتورب . وأطلق الرصاص على رأسه ، فدخلت الرصاصة تحت الأذن اليمنى ونفذت إلى الفم ، ثم إلى الخد الأيسر . ولقى القاتل على الفور حتفه بيد أتباع وليم ، ولكن بدا أن المهمة قد نفذت . ولعدة أسابيع بدا أن الأمير على شفا الموت . ودعا فارنيزى المقاطعات الثائرة ، وقد هات زعيمها العنيد ، إلى المصالحة مع مليكهم الرحيم . ولكن وليم تامل للشفاء فى بطء بفضل سهر زوجته شارلوت على العناية به . وهى التى قضت نجحها فى ٥ يولية بسبب الإرهاق والحمى . وفى يولية وضع متآمران مغموران خطة لدس السم لأمير أورانج ودوق أنجو كليهما . واكتشفت المؤامرة واعتقل المجرمان وانتحر أحدهما فى السجن ، وأرسل الثانى إلى باريس وحوكم وأدين ، ومزق أربا بربطه فى أربعة خيول ، تتجاذبه فى كل اتجاه .

وفى أثناء عام ١٥٨٢ جمع أنجو حوله بعض قوات فرنسية فى أنتورب . ولم يكن الدوق ليقنع بلقبه ، وداعبه الحلم بأن ينصب نفسه ملكا . وهب أتباعه فجأة فى ١٧ يناير ١٥٨٣ ، وهم يهتفون « فيلجى القداس » ، وحاولوا أن يسيطروا على المدينة . فقاومهم الأهالى ، وهلك فى هذه الثورة الفرنسية ، قرابة ألفى شخص . وأخفقت هذه الثورة وهرب أنجو . وعانى وليم من

فقدان قدر آخر من شعبيته لأنه ظل طويلا يؤيد أنجو ويسانده . ووقعت في مارس محاولة أخرى للقضاء عليه . فلم يطمئن للاقامة في أنتورب ونقل مركز قيادته إلى دلفت . عندئذ عقدت مقاطعتا جرونينجن وجلدزلاند الصلح مع بارما ، ولم يبق مع وليم إلا اثنتين من المقاطعات المتحدة ، وهما هولنده وزيلنده . ولكنهما اثبتتا ولاءهما بأن جعلتا منصب « الحاكم العام ، وراثيا في أسرته (ديسمبر ١٥٨٣) ، وبهذا وضعت أسس بيت أورانج الذي كان يمكن أن يغزو وأن يرث نصف انجلترا في ١٦٨٨ .

وأصر القتلة ولم تفتر عزيمتهم . وفي أبريل ١٥٨٤ حاول هانز هانزون من فلاشينج أن يودي بحياة الأمير ، ولكنه أخفق وأعدم . واستبد الحواس الدينية بيلتازار جيرار من برجندي ، كما اشد به التفكير في الخمسة والعشرين ألف كراونه وقصد إلى دوق بارما يعرض عليه قتل أمير أورانج ، ولكن الدوق قدر أن شابا في العشرين من عمره غير صالح للاضطلاع بهذه المهمة ، وأنى عليه المبلغ المتواضع الذي طلبه سلفا ، ولكنه وعده بالجائزة كاملة إذا حالفه التوفيق . وقصد جيرار إلى دلفت ، وتسكر في زى كلفنى مسكين تقي ، وتلقى من وليم اثني عشر كراون صدقة . وصوب إلى جده ثلاث رضايات (١٠ يولية ١٥٨٤) فصرخ وليم « يا الهى ، رحمتك بى وبالشعب المسكين » . وفاضت روحه في بضع دقائق . وقبض على جيرار وحوكم أمام قضاة المدينة ، وأبدى فرحه واعتباطه بنجاحه فيما قصد إليه ، ثم لقي أشد العذاب وقتل شر قتلة . وورى وليم التراب في دلفت ، بأسمى مظاهر التكريم بوصفه « أبا البلاد » . ولما كان قد ضحى بكل ما يملك في سبيل الثورة فإنه لم يخلف لابنائه الاثني عشر شيئا تقريبا . وهذا شاهد صامت على ما درج عليه من نبل وشرف .

* أكد رانك في كتابه « تاريخ البابوات » (١ — ص ٤٧٢) أن أحد الجزويت شجع جيرارد على فعلته . كما أكد موتلى في كتابه « قيام الجمهورية الهولندية » ولكن أنكره باستور في كتابه : « تاريخ البابوات » (الفصل العشرون ص ١٩-٢٠) .
٣-٣ . الحضارة

ودفعت الجائزة كاملة لأبوى جيران ، وابتهج كاثوليك الأراضي الوطنية ،
قائلين أن الجريمة انتقام إلهي لانتهاك حرمة الكنائس وقتل القساوسة .
وأرسلوا رأس القاتل إلى كولون باعتباره من المخلفات الثمينة ، ولمدة نصف
قرن بذلوا أقصى الجهد لإعلانه قديسا . (٤٩)

٦ — النصر

١٥٨٤ — ١٦٤٨

وهنت بموت ولیم روح من بقى من أتباعه في الفلاندرز وبرابانت .
واستولى بارما على بروجز وغنت وبروكسل ومكلين وأنتورب ، ولم ينته
١٥٨٥ حتى وقعت الأراضي الوطنية جنوب نهر ماس — فيما عدا أوستند
وسليز — في يد الأسبان ، على أن المتسولين ، ظلوا يسيطرون على
المنغور والبحر .

وكم أهابت المقاطعات الشمالية بالملسكة الزباث لنجدتهم . واستجابت
الآن للنداء . فقد أدركت أن ثورة الأراضي الوطنية منعت أسبانيا من اعلان
الحرب على إنجلترا ، وما كان في مقدورها أن توقف هذه الفرصة التي هيأتها
العناية الإلهية — منع أسبانيا عن اعلان الحرب — هذا بالإضافة إلى أن
الهولنديين سيطروا على سوق الصدف الإنجليزي . وفي ديسمبر ١٥٨٥
أرسلت إلى هولنده قوة كبيرة بقيادة ليستروسيير فيليب مدنى . وأخذ ليستر
لنفسه ، باعتباره حاكما عاما للمقاطعات الثائرة ، كل سلطة الملك تقريبا .
ومذ رأى أن المقاطعات الجنوبية تستورد كل الحاجيات الضرورية للحياة من
المقاطعات الشمالية فإنه حرم كل اتجار مع الممتلكات الأسبانية ، ولكن
التجار الهولنديين كانوا يعيشون على هذه التجارة ، وصدروا بضائعهم إلى
أسبانيا أثناء حربهم معها . ومن ثم رفضوا الخضوع لما نهى عنه ليستر ،
الذى حلت به الهزيمة في زوتفن (٢٢ سبتمبر ١٥٨٦) فغادر هولنده مشمئزاً ،
شاعرا بالخزى والعار . وسادت الفوضى في الشمال لعدة عام كامل . وأنقذت

الجمهورية الصغيرة بفضل اشتراك فيليب لدوق بارما في خطته لغزو إنجلترا ، وبفضل هجمات بارما المضللة ضد هنرى نافر فى فرنسا ، وتحكم الهولنديين فى البحار ، وثروة التجار الهولنديين وصمودهم ، وعبقريه جان فان أولدبار السياسية ، ثم بفضل ما أوتى موريس ناسو ، ابن وليم الصامت ، من عبقرية عسكرية .

وفور وفاة وليم الصامت اختير ابنه موريس حاكما عاما على هولنده وزيلنده وفى ١٥٨٨ ، وهو فى الحادية والعشرين ، عين قائدا عاما وأميرا للبحر فى المقاطعات المتحدة . وفى ١٥٩٠ أسلمته أوترخت وأفرجىسل وجلدراند مقاليد الحكم فيها . وأفاد موريس من محاضرات سيمون ستيفن فى الرياضيات فى ليدن . فطبق العلم الحديث على القذائف والهندسة والحصار . ودرب الجيش الهولندى على أساليب جديدة للالتحام والنظام . وفى سلسلة من الحملات التى اشتهرت بسرعة الحركة والاستراتيجية المفاجئة (١٥٩٠ — ١٥٩٤) استرد موريس زوتفن ودفتر وتيميجن وجروتجن . أما بارما الذى ضيع مهاراته وأمواله فى هجمات فيليب العقيمة على إنجلترا وعلى هنرى الرابع ، فإنه قضى نحيبه فى دسبا ، بسبب الاعمى والجراح (٢٠ فبراير ١٩٥٢) .

وعين فيليب خلفا له الارشيدوق ارنست النمساوى الذى لم يلبث أن أدركته المنية ، ثم الكاردينال الارشيدوق البرت الذى تخلى عن منصبه الدينى ، وتزوج ايزابل كلارا أوجينيا ، ابنة الملك . وقبل وفاة فيليب (١٥٩٨) بفترة وجيزة ، منح البرت وايزابل حق السيادة على الأراضى الوطنية ، شريطة أن يعود هذا الحق إلى أسبانيا إذا ماتا دون عقب . وأثبت الاثنان أنهما حاكمان قديران رحمان . عجزا عن اخضاع المقاطعات الشمالية ، ولكنهما أقاما فى الجنوب حكما متحصرا ازدهرت فى ظله الفنون الكنسية فى انسجام جميل مع صور روبنز العارية .

وظهر على مسرح الحوادث فى ١٦٠٣ شخصية جديدة . وكان البرت قد استمر يحاصر أوستند عامين كاملين دون أن يصيب أى نجاح ، وجاء أحد

رجال المصارف الايطاليين ، هو امبروزيودى سمينولا ، ووضع كل ثروته في خدمة أسبانيا ، وجمع جيشا قوامه ثمانية آلاف رجل ، وجيزه بالسلاح وبالعتاد ، وحاصر أوستند واستولى عليها . ولكن ثراه العريض لم يعدل ثروة التجار الهولنديين ، الذين ثابروا على بناء وتجهيز الاماطيل التي أفضت مضاجع البحرية الأسبانية ، وهددت بقطع شريان الذهب الذي يتدفق بين أمريكا وأسبانيا . وإذا أرق الحصار والقتل البرت وايزابل فانهما استحثا المفاوضات مع الهولنديين ، وأقرهما عليها الملك فيليب الثالث الذي أرقه العسر والاملاق . وبرغم اعتراضات موريس حض أولدنبار فقلدت الهولنديين على المصالحة . وفي ١٦٠٩ عقدت هدنة هيأت للأراضي الوطيفة الراحة من عناء الحرب لمدة اثني عشر عاما .

بيد أن الوثام في الداخل شئ . يختلف كل الاختلاف عن السلام الخارجى . لقد حنق موريس على أولدنبار فقلدت هيمنته على مقاليد الأمور في الجمهورية . ومن الوجهة العملية كان لأكبر الموظفين راتبا في هولنده السلطان والسيطرة على هذه المقاطعة وحدها ، ولكن مذ كانت ثروة هولنده والضرائب التي تدفعها للجمعية العمومية تعدل ما تملكه وما تدفعه سائر المقاطعات المتحدة مجتمعة ، فان أولدنبار فقلدت مارس في الاتحاد سلطة تتكافأ مع تلك الثروة ، كما تتكافأ مع راحة عقله وشخصيته وخلقه . أضف إلى ذلك أن الملاك الذين حكموا المقاطعات والتجار والأغنياء الذين حكموا السكوميونات أحسوا بانعطاف نحو أولدنبار فقلدت الذى نبذ الديمقراطية مثلهم ، وقال : انه لمن الأفضل أن يحكمنى سيد مطلق من أن يحكمنى الرعاع ،^(٥٠) وولى موريس وجهه شطر الشعب ليحصل على تأييده ، ووجد أنه يمكنه أن يكسب الشعب إلى جانبه إذا جعل من القساوسة الكلفنيين أصدقاء له .

وكانت القضية الدينية التي أهاجت الجمهورية الآن قضية مثالية الجوانب : فهناك المعارضة المتزايدة بين الكنيسة والدولة ، وهناك الصراع بين الكاثوليك والبروتستانت ، وهناك أخيرا حرب النظريات بين البروتستانت

أنفسهم . وسعت المجامع الكنسية الكلفنية إلى أن تحدد النهج السياسى ، وتتخذ من الحكومة أداة لتقوية مذهبهم . وارتابت الجمعية العمومية فى المجامع الكلفنيه على أنها نماذج سيئة وبدور خطيرة لمؤامرة الديمقراطية . وقد جلب أولدنبار نفقذت على نفسه عداوات كثيرة حين أمر رجال الدين بأن يتركوا الحكومة للسلطات المدنية . وقد يكون غريبا أن نقول أن الغالبية الساحقة من السكان فى ١٦٠٩ كانوا من الكاثوليك حتى فى المقاطعات الشالية^(٥١) . كانت القوانين تحرم العادة الكاثوليكية ، ولكنها لم تكن تنفذ ، وكان هناك ٢٣٢ قسيسا يتلون الشعائر الكاثوليكية^(٥٢) ، وأمر مجلس المقاطعة فى أوترخت القساوسة أن يتزوجوا النساء اللاتى يستخدمون فى إدارة شؤون منازلهم ، ولكن الامتثال لهذا الامر لم يكن تاما ، ولم يلتق اقبالا .

وحدث الصراع داخل المجموعات البروتستانتية بين الكلفنيين و المتحررين ، . وهم أقلية . وأطلق هذا الاسم على هؤلاء ، لأنهم أباحيون فى حياتهم . بل لأنهم حبذوا الحرية الدينية حتى للكاثوليك ، كما أيدوا تفسيرا إنسانيا متحررا لللاهوت البروتستانتى . هؤلاء هم ورثة تقاليد أرزم (الذين كان ينسب إليهم وليم أورانج) . وكان المزمعون معتقوا الكلفنية القديمة ، الذين تمسكوا بمذهب الجبرية الصارمة ، وأحسوا بأن عقيدتهم يجب أن تكون إجبارية فى كل المقاطعات المتحدة^(٥٣) . نقول كان هؤلاء المزمعون يرمون المتحررين بانهم « بابويون » ، فى الخفاء . ودافع ديرك كورنهرت الذى كان سكرتيرا لدى وليم أورانج . عن حرية العبادة فى كتاباته التى أرست أسس اللغة الأدبية فى هولندا . وانبرى واعظ من أمستردام ، هو ج كويس أرمنيوس . لىفنيد آراء كورنهرت ، ولكنه تحول إليها واعتنقها بينما كان يدرس ليرد عليها . وحينما عين أستاذا لللاهوت فى ليدن ، صدم المزمعين بارتياحه فى الجبرية ، ولإثباته أن الإنسان تنقذه أعماله الصالحة بقدر ما ينقذه إيمانه ، وهذا يخالف ما قال به لوثر وكلفن . وسلم بأن الوثنى المتمسك

بأهداب الفضيلة قد ينجو من الجحيم . وذهب إلى أن كل الناس في النهاية سيخلصون ودمغه أستاذ زميل له في الجامعة ، فرانسيسكس جورماروس ، بأنه مهرطق ماكر .

ومات أرمنيوس ١٦٠٩ ، وكان قد كسب إلى جانبه آنذاك أتباعا من ذوى النفوذ ، من بينهم أولدنبار نفدت وهو جو جروتويس أكبر موظفي روتردام وفي ١٦١٠ صاغ هؤلاء المتحررون ، احتجاجا على نظريات التجبرية والاصطفاء والرفض أو الإخراج من زمرة الأبرار ، واقترحوا عقد مجلس وطني يضم رجال الدين وغيرهم من العلمانيين لإعادة تحديد عقيدة الإصلاح وتعريفها . وصاغ المتزمتون احتجاجا مضادا ، أكدوا فيه من جديد المذهب الكاثوليكي :

«إن الرب ، بعد خطيئة آدم ، حفظ نفرا معيننا من البشر من الدمار ، وقدر لهم الخلاص في المسيح ... وفي هذا الاصطفاء لم يعتبر الرب الإيمان أو الارتداد ، ولكنه يعمل كيف يشاء . وأرسل الرب ابنه يسوع لتخليص هؤلاء المصطفين وحدهم^(٥٤) .»

وأصر أتباع جورماروس على أن هذه القضايا لا يعالجها إلا رجال الدين وحدهم ، وبذلك نجحوا في دمج المحتجين بأنهم من أنصار البابا أو من أتباع بلاجيوس (الذين ينكرون نظرية الخطيئة الأصلية ويرون أن الإنسان منحير) أو من الموحدين (الذين لا يدينون بالثلاثية ، إلى حد أن أغلبية كبيرة من السكان البروتستانت انحازت إلى جانب المتزمتين ، وكان مورييس ناسو يغفل شأن هذه المنازعات اللاهوتية احتقارا لها ، ولكنه تحرك الآن ليصادق مؤقتا جماعة المذهب القديم ، لأنهم يهيئون له ركيزة شعبية لمحاولة استعادة الزعامة الوطنية .

وأعقبت ذلك معركة بالخطب والعظات والشرارات قاربت أن تكون حربا . وعكزت الاضطرابات الغيفة صفو الهدنة . وهوجمت بيوت المتحررين

في لاهاي ، وأخرج الوعاظ الكلفنيون المتشددون من روتردام . وجهزت هولندة جيشا للدفاع عن ديارتها ، وسرعان ماتبتها مقاطعات أخرى ، وبدأت الحرب الأهلية توشك أن تقضى على الجمهورية في مهدها ، وفي ٤ أغسطس ١٦١٧ اتخذ أولدنبار نفلدت في مجلس هولندة قراراً خطيراً — رآه موريس خطيراً حقاً — يعلن فيه سيادة الدولة على الأمور الدينية ، ويوجه مدن المقاطعة إلى تسليح نفسها حماية لها من عنف أنصار الكلفنية ، وقصد إلى أوترخت حيث أقنع مجلسها بإعداد القوات لتأييد هولندة . وفي ٢٥ يولية ١٦١٨ دخل موريس ناسو بوصفه القائد الشرعى للجيش ، أوترخت على رأس قوة مسلحة . وأرغم الفرق المجندة حديثاً على أن يتفرقوا . وفي ٢٩ أغسطس أصدرت الجمعية العمومية المقاطعات المتحدة أمراً بالقبض على أولدنبار نفلدت وجروتويس وغيرهما من زعماء المحتجين . وفي ١٣ نوفمبر اجتمع مجمع كنيسة الإصلاح في دور درخت (دورت) ، واستمع لأراء اللاهوتيين المحتجين وحكم بأنهم مهرطقون ، وأمر بطرد قساوسة المحتجين من وظائف الكهيسة والتعليم . وصبت اللعنة على أنصار أرمينوس — مثلهم في ذلك مثل الكاثوليك — وحرّم عليهم عقد الاجتماعات أو إقامة الصلوات العامة . وفر كثيرون منهم إلى إنجلترا حيث أحسنت الكنيسة الرسمية استقبالهم ودعمواهم مركز الإنجليكانيين المتحررين .

وحكم أولدنبار نفلدت أمام محكمة خاصة لم تهيم له أى سند قانونى . واتهم بأنه بطريقة مدموعة بالخيانة أشاع الفرقة في الاتحاد وعرضه للخطر ، وبأنه سعى إلى تكوين دولة داخل الدولة . وفي خارج المحكمة انمال سيل من النشرات تذيب على الملأ أخطاء حياته الخاصة . ودافع هو عن نفسه دفاعاً قوياً بليغاً إلى حد أن أبناءه أقاموا أمام سجنه عمود مايو المزدان بالأشرطة والزهور واحتفلوا بالإفراج المرتقب عنه ، وكلهم ثقة في ذلك . وفي ١٢ مايو ١٦١٩ أقرت المحكمة إدانته ونفذ فيه حكم الإعدام في اليوم التالى . وحكم على

جبروتيسوس بالسجن مدى الحياة ، ولكنه بفضل براعة زوجته هرب من السجن وعاش ليؤلف كتاباً يستحق الذكر .

وعلى الرغم من هذا الانتصار الذى أحرزه التعصب ، نمت الحرية فى المقاطعات . وبلغ السكانليك من الكثرة حداً يتعذر معه وقف نموهم . ولم يكن من المستطاع تنفيذ القرارات النظرية التى صدرت عن مجلس دورت . وفى عام ١٦١٩ نفسه أسس المتونائيتين (يعارضون حلف اليمين وعماد الأطفال والخدمة العسكرية وقبول الوظائف العامة) ، فى حرية تامة ، طائفة الطلبة الجامعيين ، وهى تشبه الكويكرز ، فى ريجنسبرج وقد وجد عندهم مدينةوزا ملجأً آمناً . وفى ١٦٢٩ امتدح ديكرمارت حرية الفكر التى نعم بها فى أمستردام ، وفى نهاية القرن السابع عشر أصبحت هولنده ملاذ المهرة طين الذين لجأوا إليها من بلاد كثيرة .

وفى ٩ أغسطس ١٦٢١ استؤنفت الحرب مع أسبانيا . ذلك أن الأرشيدوق ألبرت مات دون أن يخلف عقباً . فعادت المقاطعات الجنوبية إلى أسبانيا . وأغار سبينيولا على المدن الهولندية الواقعة على الحدود . فسار إليه موريس ناسو ، ولأسكن سنوات النضال كانت قد أنهكت قواه ، فمات فجأة (١٦٢٥) وهو فى سن السابعة والخمسين . واستولى سبينيولا على بريدا ، وبذلك فتح الطريق إلى أمستردام ، وهياً للمصور فيلاسكويز موضوع لوحة .

ونفض الهولنديون من كبوتهم واستردوا قوتهم فى إصرار وعناد . وأدهش فردريك هنرى الذى خلف أخاه فى منصب الحاكم العام ، الأعداء والأصدقاء على السواء ، بما كان يخفى حتى الآن من مواهب رجل دولة وقائد وبفضل دبلو ماسية فرانسيس آرسنز استطاع أن يحصل من ريشيليو على متحة سنوية قدرها مليون ليرة ، وجمع جيشاً جديداً ، وبعد حصار طويل استولى على هرتوجنبوخ وما سترخت وبريدا . ولحسن الحظ كان سبينيولا قد استدعى إلى لومبارديا .

وفي نفس الوقت استخدم التجار الهولنديون أموالهم في بناء السفن ،
لأن كل انتصار في البحر كان يعنى توسيع مجال التجارة . وفي عام ١٦٢٨
أسر أسطول هولندي صغير تحت أمره ييبب هين أسطولا أسبانيا كان يحمل
الذهب من المكسيك . وهاجم أسطول هولندي آخر قوة أسبانية مكونة من
١٣ سفينة في نهر سلاك ، فدمرها وأسر ٥٠٠٠ رجل (١٦٣١) . ولكن
أروع هذه الانتصارات البحرية هي المعركة التي خاضها قائمقام أمير البحر
مارتن هاربوتزون ترومب في القنال الإنجليزي (بين دوفر ودنكيرك) وكان
الأسبان قد عقدوا العزم على استعادة السيطرة على ثغور الأراضي الرطبة من
الهولنديين . فأعدوا أسطولا ضخما جديداً من ٧٧ سفينة عليها ٢٤ ألف رجل
فلما أبصر به ترومب في القنال ، أرسل في طلب المدد ، وفي ٢١ أكتوبر ١٦٣٩
أبحر ومعه ٧٥ سفينة حتى صار على مقربة من مواقع العدو ، فأغرق أو أعطب
أو أسر كل الأسطول الأسباني فيما عدا سبع سمن . وقتل ١٥ ألفاً من الملاحين
الأسبان في المعركة أو أغرقوا . ونحتل معركة القنال الإنجليزي في تاريخ
هولنده نفس المكانة التي تحتلها هزيمة الأرمادا (١٥٨٨) في تاريخ إنجلترا .
فقد وضعت حداً لكل دعاوى أسبانيا في السيادة على البحار ، وقضت شريان
الحياة بين أسبانيا ومستعمراتها ، وأسهمت مع انتصار فرنسا على أسبانيا
في معركة روكر (١٦٤٣) واحتلت الحقبة التي هيمنت فيها أسبانيا على أوروبا .

منذ انهمكت أسبانيا انهماكاً تاماً في حرب الثلاثين عاماً فإنها قررت أن
تنزل للهولنديين عن كل شيء ، حتى تتفرغ للحرب مع فرنسا . وفي مونستر
في ٣٠ يناير ١٦٤٨ وقع المندوبون الأسبان معاهدة وستفاليا التي أنهت ثمانين
عاماً من الحرب في الأراضي الرطبة . وأعلن أن المقاطعات المتحدة غير
متقيدة بأي رباط مع أسبانيا . وتم الاعتراف بفتوحاتها . ولا تصل تجارة
الراين إلى بحر الشمال إلا عن طريق الثغور الهولندية وحدها . وخول التجار
الهولنديون حرية التجارة في جزر الهند الشرقية والغربية . وهكذا انتهى أطول
وأشجع وأقبح صراع من أجل الحرية في التاريخ بأسره .

الفصل الثامن عشر

من روبنز إلى رمبرانت

١٥٥٥ - ١٦٦٠

١ - الفلمنكيون :

أنه لما يثير الدهشة أنه في قطعة صغيرة من أوروبا ، مثل الأراضى الوطيمة نشأت ثقافتان متضادتان مثل الفلمنكية والهولندية ، وعقيدتان متنافرتان مثل الكاثوليكية والسكفنية ، وفنانان مختلفان كل الاختلاف في المزاج والأسلوب مثل روبنز ورمبرانت ، وفانديك وهالس .

ولانستطيع أن نفسر التباين باختلاف اللغة لأن نصف الفلاندرز* ، مثل كل المقاطعات المتحدة ، تحدثوا اللغة الهولندية . وربما نبع بعض التباين من اقتراب هولنده من ألمانيا البروتستانتية واقتراب الفلاندرز من فرنسا الكاثوليكية . وربما ينجم جزء من الاختلاف من إرتباط أسبانيا الكاثوليكية الملكية الارستقراطية لإرتباطا وثيقا بروكسل وأنتورب . وورث أفليم الفلاندرز ديانة العصور الوسطى وفنها وأساليبها ، على حين كانت هولنده أفقر ، حتى هذا الوقت ، من أن تكون لها ثقافة خاصة بها . ويمكن أن تكون الشمس المشرقة في المقاطعات الجنوبية قد نزعت بأهلها إلى حياة شهوانية غير متمسكة بقواعد الأخلاق ، على حين أن الغيوم والمصاعب في الشمال شجعت أهلها على اعتناق عقيدة صارمة رواقية رزينة . أو على الأرجح ،

(*) نستخدم هنا ، تيسيرا ، لفظا الفلاندرز والفلمنكيين Flanders , Flemish

للدلالة على الأراضى الوطيمة الأسبانية ، ولفظا هولنده والهولنديين Hoenp Outeh
للدلالة على المقاطعات الشمالية أو المتحدة .

أن الجيوش الأسبانية انتصرت في الجنوب ، وأندحرت في الشمال نتيجة الأنهار
المعتزلة والثروة الهولندية ؟

لا بد أن أنتورب كانت جميلة عندما اكتمل صرح كاتدرائيتها بأبراجها
وواجهاتها وفنها الزخرفي ، على حين على مقربة منها ضجت البورصة بكل
حيوية التجارة وحيلها ، ورقصت المياه بكل سفن العالم . ولكن الحرب
أندلعت بعد ذلك ، فإن ضراوة دوق ألغا ومحاكم التفتيش أخرجت الصانع
المهرة والتجار البروتستانت إلى هولندا وألمانيا وإنجلترا ، وصرامة السكافنية
أتلقت الكنائس ، وعنف الأسبان نهب البيوت وأحرق القصور ، كأن ضراوة
فرنسا أفرغت عجزها في الدماء ، والحصار الذي ضربته فاز لمدة أربعة عشر
شهرا أهات الكاثوليك والبروتستانت جوعا على حد سواء . وأخيرا انصم
الكاثوليك إلى البروتستانت في الخروج من المدينة ، وانقلت نجارة أنتورب
إلى إمستردام وروتردام وهارلم وهمبرج ولندن وروان .

ولكن وحشية الإنسان متقطعة ، وسهولة التكيف عنده باقية .
وقد يكون لنا بعض السلوى في أن تتسع كيف أن بعض الأمم والمدن استطاعت
بسرعة أن تنهض من دمار الحرب ووبلاتها . وتلك كانت حال الفلاندرز
بعد ١٥٧٩ . بقيت صناعة النسيج ، وظل الطلب كبيرا على المتخمرات القلمنكية ،
وظلت الأمطار تحي الأرض وأضفى كدح الناس البهائم والفخامة على الحاشية .
واستمتعت أنتورب وبروكسل ، تحت حكم الأدواق الذين أحبا حياة الترف
ولكن مع روح إنسانية ، بيعت ونشور جديرين بالذكر . وعادت الفلاندرز
إلى كاتدرائياتها وأعيادها الدينية ومهرجاناتها الوثنية . وربما بالغ روبنز
في هذا في مهرجان اللوفر العاصف ، ولكن استمع أيها القارئ إلى تقرير
الكاردينال أنفانت فرديناند ، من أنتورب إلى فيليب الرابع ١٦٣٩ :
« أقاموا بالأمس احتفالهم الكبير أنتقل موكب طويل إلى الريف
مع عربات كثيرة تحف بها مظاهر النصر . وبعد العرض هرغ للناس إلى الطعام
والشراب ، حتى شمل الجميع آخر الأمر ، وبدون هذا لا يعتبرون أنه احتفال

أو عيد^(١) ، بل أن الكاردينال نفسه عندما قدم من أسبانيا إلى بروكسل (١٦٣٥) استقبلوه بالمهرجانات التي دامت لعدة أيام ، وسط زخارف ضخمة صممها روبنز نفسه . ووصف زائر لإيطالي مدن الفلاندرز قبل الثورة بأنها « سلسلة لا تنقطع من الاجتماعات البهيجة والأعراس وحلبات الرقص ، مع أنغام الموسيقى والأغاني المرححة في الشوارع^(٢) » ، ولم تستسلم كل هذه الروح للحرب . فإن الألعاب التي صورها بروجل كانت لا تزال تقام في الشوارع ، واستمعت الكنائس مرة أخرى للقداصات المتعددة النغمات والأصوات التي كانت قد جعلت المنشدين الفلمنكيين ، يوها ، مرغوبا فيهم في كل بلاد . ودخلت الفلاندرز أبهى عصورها .

٢ — الفن الفلمنكي :

تضافرت الحاشية والكنيسة ، والنبلاء وأبناء الشعب في البذل من أجل إحياء الفن الفلمنكي ، ورعى البرت وايزابل وشجعوا كثيرا من الفنانين ، إلى جانب روبنز . وكانت أنتورب لهفته من الزمن مركز الفن في أوروبا ، واستعاد قماش بروكسل المزركش (النسيج المنطرز بالكافاه) امتيازه وتفوقه ، مستعينا برسوم روبنز البطولية . وكان صانعو الزجاج البنادقة قد جلبوا فنههم إلى الأراضي الوطنية في ١٥٤١ ، وأنتج الصانع المهرة المحليون منه الآن قطعاً هشة آية في الإعجاز ، كان بعضها محل إعزاز وإعجاب إلى حد أنها غالبت قرونا من الفتنة والشغب فغلبتها ، وأبدع صناع المعادن أعاجيب من نسج أفكارهم وأيديهم ، مثل الآنية المعدنية الفاخرة التي تحفظ فيها الذخائر الدينية ، التي يمكن أن توجد في الكنائس الكاثوليكية في بلجيكا ، وألحت الارستقراطية التجارية في طلب القطع الفنية : وجلسوا أمام المصورون ، وشيدوا قصورا ضخمة ، ودورا البلدية ، لمثل تلك التي شادها كرنيلي دي فرندت تمجيدا لأنتورب (١٥٦١ - ١٥٦٥) قبل العاصفة . ولما جرد المتعصب الذميم الكنائس من

آيات الفن ، بات هؤلاء التجار الأرستقراطيون يشدون من أزر المراسم ويرعونها في لفقة وحاس ، يلحون في طلب التماثيل واللوحات ليصوروا العقيدة للشعب .

ولم يزدهر فن النحت هنا ، لأن فرنسوا دو كيسنوى ، ابن بروكسل ، أنجز معظم أعماله في رومه حيث نحت تمثالا ضخما لسانت أندروز بداخل كنيسة القديس بطرس ، وإن نفراً قليلاً من السائحين الذين يحرسون على رؤية «أقدم مواطني بروكسل» ، نافورة مانكن بس Manneken Pis (١٦١٩) - تمثل برونزى لصبي يزيد في مياه المدينة من موارده الخاصة - يعلمون أن هذا هو أبقي روائع دو كيسنوى على الزمن .

أما المصورون الفنلنديون فإتهم بحلون عن الحصر ، وواضح أن كل بيت في الأراضي الوطنية كان عليه أن يقنن لوحة أصلية ، وأكب ألف فنان في مائة مرسّم على تصوير الأشخاص والمناظر الطبيعية والحيوانات والمون والأساطير والعائلات المقدسة وصلب المسيح ، أما إسهامهم المتميز في تاريخ الفن فهو صور جماعية للبهائم البلدية ، وصور تمثل الحياة المزلية أو القروية وتأثر هؤلاء الفنانين في أول الأمر بالطرز الإيطالية ، فقد أبحرت السفن الإيطالية كل يوم إلى أنتورب ، وافتتح التجار الإيطاليون متاجر لهم فيها . وجاء الفنانون الإيطاليون ليهزأوا ويسخروا فأقاموا ليرسموا ، وقصد كثير من الرسامين الفنلنديين إلى إيطاليا للدراسة ، واستقر المقام ببعضهم هناك ، ومن هؤلاء جوستوس سوسترمانز أحد أبناء أنتورب ، الذي أصبح مصورا للأشخاص ، مقر باوذا حظوة لدى أدواق تسكانيا العظام ، وأن بعضاً من أجمل اللوحات في قصر بتي هي بريشة هذا الفنلندي المفعم بالحيوية ، وعاد فرانس فلوريس من دراسته مع ميكلائجلو في رومه ، وأطلق على نفسه بصراحة أنه «رومانى» ، وامتدح الشربج وأخضع اللون للخط ، وظل مرسماً في أنتورب لمدة جيل (١٥٤٧ - ١٥٧٠) كعبة للتصوير الفنلندي وذروته ، وقد يكون

جديرا أن نزور كاي نرى في متحفها لوحته الرائعة الضخمة « زوجة صياد الباز » وعاش فرانس في بحبوحة من العيش . وشاد لنفسه قصرا ، وأسرف في العطاء وفي الشراب ، وبات فقيرا ، وكان كورنلس دى فوز أقدر أفراد أسرة كبيرة من المصورين ، وعندما كان يتزاحم ذوى المسكينة أمام روبنز ليصورهم كان يرسل بعضهم إلى فوز ، مؤكدا لهم أنهم سيُفخرون منه بمثل ما يرجون من روبنز نفسه ، ولا يزال في مقدورنا أن نشاهد لوحة تمثل كورنلس وزوجته وابنتين جميلتين لهما ، معلقة في متحف بروكسل .

وذبلت الفتنة الإيطالية حوالى نهاية القرن السادس عشر ، واستأنف الفنانون الفلمنكيون موضوعاتهم وأعمالهم المحلية . وعاد دافيد تنيير الأكبر إلى أنتويرب . برغم أنه درس في رومه ليرسم « المطبخ الهولندى » و « مهر جان القرية »^(٣) ، ثم علم ابنه حتى تفوق عليه ، وشكل سليل العجوز درول بيزانته بيتر بروجل أسرة من المصورين توفرت على تصوير المناظر الطبيعية المحلية والمشاهد الريفية ، ومنها ولدها بيتر بروجل « الجحيم » ، وجان بروجل « المخمل » ، وحفيدها جان الثانى وأمبروز ، وحفيد حفيده أبراهام ، وحفيده الأكبر جان بابتست بروجل ، وقد امتد بالأسرة العمر قرابة قرنين من الزمان (١٥٢٥ — ١٧١٩) ، ولنوضح سجل أعمالهم هنا نقول بأنهم ورثوا عن سلفهم العظيم النزعة إلى المشاهد الريفية والمهرجانات القروية ، ورسم بعضهم خلفيات مناظر طبيعية لروبنز المثل بالمثل .

وأخرج فنانون الأراضي الوطيفة الفن من الكنيسة والدير إلى البيوت والحقول والغابات ورسم دانييل سيجرز الأزهار والفاكهة في تفصيل محبب إلى النفس ، وخص العذراء بأكاليله المصورة ، وانضم إلى الجرويت ، وبعث فرانس ستيدرز الحياة والتعبير في جوانب العديد من المتاحف بمناظر الصيد المثيرة ، والمفرعة أحيانا ، وبالكثير من أطباق لحم الطرائد والفاكهة ،

ولا يزال ، كما وصفه روبنز ، أعظم مصورى الحيوان ؛ لم ينافسه أحد في روعة تظليل فراء الحيوان أو ريش الطير .

وعاد أدريان بروور Brouwer إلى فلاحى بروجل ، فأبدعت فرشاته تصويرهم وهم يأكلون ، ويشربون ، ويغنون ، ويرقصون ، ويلعبون الورق ، والنرد ، ويقاثلون أو يعربدون في احتفال صاحب ، أو يغطون في النوم . ومر أدريان نفسه بأطوار كثيرة في حياته التي لم تتعد اثنين وثلاثين عاماً ، فإنه درس مع هالس لفترة وجيزة ؛ وفي سن الواحدة والعشرين أصبح أستاذاً مسجلاً في نقابة الرسامين في أنتورب ، وكان ينفق أكثر مما يحتمل دخله ، وسرعان ما غرق في للديون ، وأودعه الاسبان السجن لأسباب غير معروفة الآن ، ولكنه كان يحيا فيه مترفاً ، ثم استرد حريته وسدد ديونه بفضل صور صغيرة . زاخرة بالحياة ممتازة فنياً من ناحية الرسم الحسى وحرارة الضوء الرقيقة ، إلى حد أن رونز ابتاع منها سبعة عشرة رسماً ، وميرانت ثمانية ، ولا يبدو فلاحوه سعداء قط إلا إذا ثملوا بالنبع القوى أو الخمور الرحيصة ، على أن بروور آثر فلاحاً يغنى مع كأسه على أمير منافق يرفل في الحرير ، وفي سن الثانية والثلاثين عثر عليه وقد فارق الحياة خارج باب إحدى الحانات .

وكان جاكوب جوردانز أكثر وقاراً واتزاناً ، نقش في إحدى لوحاته « تحذيراً للظلم » : « إن أشبه شيء بالمجنون هو المخمور » . واختار أن يرسم رجالاً يستطيعون احتساء الخمر دون هذيان أو خبل ، ونساء يرفلن في حفيف الحرير في إجلال وعظمة . ولد جاكوب في ١٥٩٣ وعمر حتى الخامسة والثمانين مع كمال الوعي والإدراك . ورسم لنا شخصه في لوحة « الفنان وأسرته » (٢) ، رجل منتصب القامة . واثقاً بنفسه ، رشيقياً ، ثرياً ، يمسك بمزهري ، وزوجته مطبئة في الطوق المكشكش الخانق حول رقبتها ، وابنة لطيفة بدأت لتوها ريعان شبابه كما تبدأ تتفتح أزهار الغلاندرز ، وبناتاً صغيرة سعيدة بالبيت الهادئ والمذهب المريح انظر إلى الصليب المتدلى على صدرها . وتحول جوردانز إلى البروتستانتيّة ، ولكن في سن الثانية والستين . ورسم عدة لوحات دينية ،

ولكنه أثر مشاهد الحياة اليومية والأساطير ، وفيها يستطيع أن يبرز الرؤوس الضخمة والصور المتألقة التي كان قد رآها في أروقة البيوت في أنتورب ، مثل لوحة الملك يحتسى الخمر (٥) ، أو أفضل منها أرحمة قصة الخصب (٦) ، وهنا ، وسط الفاكمة (التي رسمها سنيدرز صديق جاكوب) والفراشات تروعننا فتاة عارية فائنة ، تشاهد من مسقط خلقي فقط ، ولكنها في كل نصارة الشباب ورشاقته ، ترى أين أثر جوردانز على نموذج لهيفاء مثل هذه في الفلاندرز على عهد روينز ؟

٣ — روبنز

١٥٧٧ — ١٦٤٠

ولد أعظم المصورين الفلمنكيين في ١٥٧٧ ، من سلسلة طويلة من رجال أعمال موفقين ، وثابع هو السلسلة . ودرس أبوه ، جان روبنز ، القانون في بادوا ، وتزوج من ماريا بيبيلنسكس . وانتخب عضوا في المجلس التشريعي في أنتورب وهو في سن الحادية والثلاثين واتهم بالبروتستانتية فاستبعد بالذات من العفو العام الذي صدر ١٥٧٤ ، وهرب مع زوجته وأطفاله الأربعة إلى كولن ، وهناك اختارته مستشارا قانونيا ، آن السكسونية (روجة ولیم أورانج التي افترقت عنه) ، وارتكب معها الفحشاء ، فأودعه الأمير السجن في ولنبرج ولكن ماريا غفرت لزوجها زلته وبعثت إليه برسائل رقيقة مؤثرة (*) ،

(*) مثال ذلك : زوجي العزيز الحبيب ، إن خطابا منك . . . أنالج صدرى ، لأنني علمت منه أنك واض عن صفحتي عنك ، ولم يدرك بجلدي قط أنك اعتقدت أن هناك أية عقبة تحول دون ذلك من جانبي ، والحق أنني لم أعتمد إلى شيء من هذا . وكيف يطاوعني قلبى أن أعضب عليك في هذه الحفة ، في الوقت الذي أضحي فيه بحياتي لأتقذك ؟ . . . وكيف تمنجح أية كراهية مريبة ، بمثل هذه السرعة في القضاء على حينا العميق ، حتى تجعل من المستحيل أن أغفر لك هذه الخطيئة اليسيرة التي ارتكبتها ضدي ، على حين أنه يجدر بي أن أدعو الله أن يغفر لي الخطايا الجسام الكثيرة التي اقترفتها ضده في كل حين (٧) .

وقد تمت الالتفاتات وكلفت من أجل الإفراج عنه ، حتى تم لها ذلك بعد عامين من المحاولة ، شريطة أن يبقى جان تحت المراقبة في سجن في وستاليا ولحققت به هناك في ١٥٧٣ ، ومن المحتمل أن يتربول رأى النور هناك ، وعمد الطفل وفق الطقوس اللوثرية ، ولكن . وهو لا يزال في المهد ، تحولت الأسرة إلى الكشلكة . وفي ١٥٧٨ انتقل جان مع أسرته إلى كولون حيث اشتغل بالقانون وأثرى وازدهر ، وعند موته (١٥٨٧) قصدت ماريا مع أطفالها إلى أنتورب للإقامة فيها .

وتلقى روبنز تعليمه الرسمي حتى من الخامسة عشر فحسب ، ولكنه زاد عليه بالدأب على القراءة وبالخبرة والتجربة . وظل لمدة عامين وصيفا في خدمة كوتس لانج في أودينار ، والمفروض أنه تعلم هناك الفرنسية والسلوك الرفيع الذي تميز به عن معظم فناني عصره . ولما لحظت أمه ميله إلى الرسم ، ألحقته للتدريب على يد طويا فرهاخت ، ثم آدم فان نورت ، وأخيراً أوتوفاينوس ، وكان رجلا واسع الثقافة لطيف الحديث ، وبعد قضاء ثمان سنوات في كنف هذا المعلم الممتاز ، قصد روينز ، وهو الآن في سن الثالثة والعشرين ، إلى إيطاليا ليدرس الروائع التي هزت شهرتها النفوس المتعلقة بالتصوير . وفي فينيسيا عرض أعماله الخاصة على رجل في حاشية فنسيز وجوزاجا دوق مانتوا . وسرعان ما التحق روبنز بقصر الدوق في مانتوا ، رساما للبلاط وهناك أبدع لوحتين قاربتا السكال الفني : « جوستوس لبسيوس وتلاميذه » (٨) وكان بين التلاميذ فيها بطرس وأخوه فيليب ، ثم لوحة تمثله هو نفسه (٩) ، أي روبنز ، وهو نصف أصلع في الخامسة والعشرين . ولكنه ملتح جريء يقظ . وقام برحلات قصيرة إلى روب لينسخ للدوق بعض الصور ، وإلى فلورنسه حيث شهد (ورسم فيما بعد بشكل مثالي) زواج ماريا مديتشى من هنرى الرابع الغائب . وفي ١٦٠٣ أوفده الدوق في مهمة دبلوماسية إلى أسبانيا يحمل هدايا إلى دوق ليرما ، وتقبل الوزير الرسوم التي كان روبنز قد قام بنسخها على أنها لوحات أصلية ، وعاد الفنان إلى مانتوا دبلوماسيا فاجحا .

وفي رحلة ثانية إلى رومه استقر به المقام فيها مع أخيه الذي كان أمين مكتبة كاردينال ، وأبدع بيتر آنذاك عدة لوحات للقدسين ، منها لوحة « القديس جريجورى يصلى للعذراء »^(١٠) ، وقد اعتبرها أولى روائعه . وفي ١٦٠٨ سمع بمرض أمه ، فاستحث السير شمالاً إلى أنتورب ، وتأثر أشد التأثر حين وجد أنها قد فارقت الحياة . وكان حبها الموسوم بالحكمة والضير قد ساعد على خلق مزاجه المرخ الذى سعدت به حياته . وفي نفس الوقت كان قد تعلم الكثير في إيطاليا . فإن لون البنادقة المغرى البديع ، والشهوانية الحسية في لوحات جيوليو رومانو الجصية في مانتوا . والجمال الأخاذ الهادىء في رسوم النساء التى أبدعتها يد كوريجيو في بارما ، والفن الوثنى في رومه الوثنية المسيحية معا وارتضاء المسيحية للاستمتاع بالجنس والنساء والغناء — كل أولئك امتزج بدمه وفنه . حتى أنه عندما عينه الأرشيدوق ألبرت مصور البلاط ، في أنتورب ١٦٠٩ ، اختفت كل بقايا الفن القوطى في التصوير الفلمنكى ، واكتمل انصهار الفن الفلمنكى والفن الإيطالى معا .

وكان ضرباً من الحكمة على غير قصد منه أنه كان متغيباً عن الأراضى الوطیئة طوال ثمانية أعوام الحرب ، وأنه تلقى قرار تعيينه في أول أعوام الهدنة ، ففي السنوات الإثنتى عشرة التالية على وجه التحديد استعادت أنتورب وبروكسل حياتهما الثقافية . ولم يكن روبنز بالعصر اليسير في هذا البعث . ويحصى مؤرخ سيرنه ١٢٠٤ من اللوحات الزيتية و ٣٨٠ من الرسوم له^(١١) ، ولا يستبعد أن كثيراً غير هذه وتلك لم يسجله التاريخ . وليس لهذا الخصب مثل في تاريخ الفن . ويكاد الأمريكون كذلك بالنسبة لتنوع الموضوعات وسرعة التنفيذ . وكتب روبنز يقول : « إن موهبتي من طراز معين ، ولم تروعنى معه أية مهمة مهما عظم حجمها أو تشعبت موضوعاتها »^(١٢) ، — لقد أنجز في خمسة وعشرين يوماً اللوحات الثلاث التى تمثل النزول عن الصليب ، لسكائدرائية أنتورب ، وفي ثلاثة عشر يوماً لوحة « عبادة الملوك » الضخمة الموجودة الآن في متحف اللوفر . وبالإضافة إلى رانبه السنوى في البلاط

وقدره ٥٠٠ فلورين كان يتقاضى أجراً عن كل إنتاج فردى . لأنه قبض مبلغاً ضخماً ، ٣٨٠٠ فلورين (٤٧,٥٠٠ دولاراً) عن التحفيتين السابق ذكرهما ، أى بمعدل أجر يومى قدره ١٠٠ فلورين (١٢٥٠ دولاراً) . وذهب جزء من هذا المبلغ بطبيعة الحال إلى المساعدين العديدين الذين كان كثير منهم مسجلاً في نقابة الفنانين بوصفهم أساتذة . ورسم جان بروجل ، المخمل ، الأزهار في لوحات روبنز ورسم جان ولدنز المناظر الطبيعية والحواشى النانوية ، ورسم بول دى فوز المعادن ، الفاكهة ، أما فرانس سنيدرز فقد صور بطريقة نابضة بالحياة الرأس المستدق بشكل دقيق للكلب في لوحة « ديانا عائدة من الصيد »^(١١) ولسنا ندرى نصيب سنيدرز ونصيب روبنز في مناظر الصيد الهائلة في قاعات درسدن وميونخ ومتحف المتربوليتان في نيويورك . وفي بعض الحالات رسم روبنز الأشخاص ، وترك لمساعديه الدهان . وكان روبنز يقدم لزبائنه بياناً صادقاً عن درجة إسهامه بنفسه في اللوحات التى باعهم إياها^(١٢) . وهذه الطريقة وحدها استطاع أن يواجه الطلبات التى انتهالت عليه . وأصبح مرممه مصنعاً يعكس أساليب العمل فى اقتصاد الأراضى الوطيفة ، وأدى الخصب فى الإنتاج والسرعة فى الإنجاز إلى الخط من نوعيته ، ولسكنه قارب الكمال إلى حد يصبح معه إله الفن الفلمنكى .

وأحس روبنز بالطمأنينة فتزوج فى ١٦٩٠ . وكانت إيزابلا برانت ابنة محام وعضو المجلس التشريعى فى أنتورب ، ومن ثم كانت شريكه صالحة لابن محام وعضو فى المجلس التشريعى فى المدينة نفسها . وأقام روبنز فى بيت أبيها حتى يتم إعداد داره الفخمة المطلة على قناة وابنز . وفى واحدة من أجمل لوحاته^(١٣) نرى بيتر وإيزبللا تنمرهما سعادة الأيام الأولى من الزواج ، أما هى فتراها مكسوة بأردية فضفاضة مشدودة الخصر بصدار مزدان برسوم الأزهار ، وقد وضعت يدها على يده فى ثقة واستئثار ، وبرز وجهها المغمم بالحيوية من طواق رقية مكشكش أزرق هائل ، وتوج رأسها بقبعة فارس ، أما هو فتراها مكتمل الرجولة والنجاح ، ذا ساقين قويتين ولحية بيضاء وملاح

وصيمة ، يرتدى قبة مزدانة بالأشرطة . ولم تعمر إيزابلا بعد الزواج أكثر
سبعة عشر عاماً ، ولسكنها أنجبت له أبناء سهر على تربيتهم ورسمهم في حب
وإعزاز ، فهناك لوحة الولد المجدد الشعر في متحف قيصر فردريك ، برلين ،
وهو يمتلىء الجسم جميل سعيد ، يلعب ببيامة ، ويمكن أن نراه مرة أخرى
في لوحة « أبناء الفنان »^(١٧) ، وقد كسسته السنوات السبع التي سلكها من عمره
بالرصانة ، وما يقضى إلا لرجل فاضل بارع أن يرسم مثل هذه اللوحات .

وكان روبنز في نفس الوقت وثيقاً أساساً ، ولو عاد دون تورغ أو خجل
بحسب الإنسان ذكراً أو أنثى ، في كل نشوة الفتوة عند الرياضى القوى ، أو
في هدوء المتقوس المنحنى ، وكان معروفًا عن الفلاندرز أو رمزاً عليها أنها
استمتعت بأساطير الوثنية الدنسة — طقوس وعادات الجسم الطليق — على
حين رحبت الكنائس بتأويله للموضوعات الدينية أو تفسيره لها . ولم يستطع
أن يفرق بين مريم العذراء وفينوس : ولعله لم يحس بأى تعارض بينهما ،
فشكلتاها جلبت له المال . وفي لوحة « عبادة فينوس »^(١٨) كان العنصر الوثني
غير مقيد — مجموعة من كاهنات إله الخمر باخوس ، يخفين في تواضع وخفر
معصبا أو ركة ، يعانقهن إلهة معبدون شهوانيون ، على حين يرقص إثنى عشر
غلاماً حول تمثال إلهة الحب . ولو أن هذه الموضوعات الوثنية تعكس أثر
مقامه في إيطاليا ، إلا أن صور فينوس يعوزها الخط الكلاسيكى ، فهي لا تستطيع
الحياة في الشمال ، على الشمس والهواء والخمر كما كان حالها في الجنوب ، بل
أنها يجب أن تأكل وتشرب لتقى المطر والغباب والبرد . والطبيعة البشرية
التيوتونية ، مثل الويسكى البريطانى — انجليزى أو اسكتلندى — دفاع مناخى
وكان عنوان إحدى لوحات روبنز - وفيها ثلاث نساء عاريات متورمات -
« فينوس بلا خبز ولا نبيذ تشعر بالبرد والضعف »^(١٩) ، وتلطف الفنان فلم يقل
« بلا لحم ولا جعة » ، وكذلك لم ير مجافاة للياقة في لوحته « راع يغازل »^(٢٠)
وهي تمثل راعياً يحاول أن يغوى فتاة بدينة ترن ثلثائة رطل ، فليس ثمة حسن
أوردى ، جميل أو قبيح ، ولكن البيئة هي التي تحدد هذا أو ذلك : وليس

في لوحة د اغتصاب السابين ،^(٢١) الاكل ما يستطيع أن يفعله جباران قويان رومانيان ليرفعا على ظهر جواد امرأة تسحر اللب من أمراهم . وحتى في لوحة د عواقب الحرب ،^(٢٢) ليس ثمة ضعف . و ديانا عائدة من الصيد^(٢٣) ، لم تكن إلهة أغريقية أنيقة طاهرة ، بل ربة بيت فلمنيكية عريضة الكتفين قوية العضلات ذات مكانة اجتماعية ، وفي كل هذه الصورة الضخمة الممتلئة لا ترى تحيلا إلا الكلب . وغابات روبنز ملأى بألهة يعتصرون أثقالا ، كما في د أكسيون وهيرا^(٢٤) ، و د أربعة أركان الدنيا^(٢٥) ، وكما يمكن أن نكون قد توقعنا لم يكن د أصل المجرة^(٢٦) ، - فرضية مستديمة ، بل ربة بيت بدينة تفيض سيلا من اللبن من ثدى متلى . أما د الرباب الأخوات الثلاث^(٢٧) ، فهن نحيلات رشقات ، نسبياً ، على أية حال . وفي د محاكمة باريس^(٢٨) ، (ابن ملك ترواده الذي خطف هيلانه - في الأساطير اليونانية) نرى سيدتين فقط - يشا كل زيهما الأزياء المتأخرة ، وأخرى تعد من أجمل صور النساء في الفن . وفي هذه الرسوم الوثنية عادة يوجد شيء أبعد كثيراً من الجسد ، فإن روبنز أسمع عليها من فيض خياله الخصب الممتلىء بالحياة والمرح ، فهناك مائة من الملحقات السكالية تملأ المنظر ، مخططة في حرص ولكن دون دراسة ، تبهر عين الناظر إليها باللون والدفء والحياة . كما أنه ليس ثمة شيء يشير الشهوة في العرض المنتفخ ، وأنه مجرد حيوية حيوانية ، فليس هناك رسم واحد يشير الشهوة الجنسية . أن روبنز نفسه كان يتجلى بسلوك قويم إلى حد غير قياسى ، بالنسبة لفنان شديد التأثر والحساسية بالضرورة للون والشكل ، وعرف عنه أنه زوج فاضل و د رب أسرة موثوق ، لم تمسه شائبة من التودد للنساء أو المخادعة^(٢٩) .

واعترف رجال الكنيسة في الفلاندرز ببراءة الناحية الحسية في رسوم روبنز ، فلم يحسوا بالخرج أو بوخر الضمير في أن يطلبوا منه أن يصور ثانية حصص العذراء والمسيح والقديسين ، وقد أجابهم إلى سؤالهم ، ولكن بطريقته

غير المهتذلة ، ومن خلفائه الذين لا يحصى عددهم استطاع أن يهصر في خيال أوسع ، أو يرسم في مهارة أدق ، الفكرة القديمة « عبادة الملوك »* ، ومن كان يجرؤ على تركيز العمل في تشكيل البطن السمين للأنثوي المعمم ذي اللون البرونزي ، وهو ينظر في ازدياد واضح إلى الوجوه الشاحبة حوله ، ومن كان يحلم أن الوثني الذي يحرق النظر بعينه وبفرشاته إلى كل ركن وكل زاوية في جسم المرأة ، يمكن أن يحب الجزويت وينضم إلى طائفتهم المريمية ، ويؤدي التمارين التي وضعها أجنات لهولا لتطهير النفس بروى الجحيم (٣١) .

وفي مارس ١٦٢٠ تعاقد مع الجزويت على أن يضع قبل أن ينصرم العام ، تصميمات لتسعة وثلاثين رسماً تغطي مقوف كنيسة الباروك الفخمة التي كانوا قد بدأوا تشييدها في أنتورب في ١٦١٤ . وأنجز روبنز الرسوم التي حولها فإن ذلك ، وآخرين معه إلى لوحات ، دمرت كلها تقريباً في ١٧١٨ ، وقام روبنز نفسه بعمل صورتين عظمتين للمذبح الرئيسى : « أجنات يبرىء الذين مسهم الشيطان » ، ، والثانية « معجزات سانت فرانسيس » . وكلتاها الآن في متحف تاريخ الفن في فيينا .

و مع ذلك فإن روبنز كان كاثوليكياً على النحو الذي كانت تعنيه الكنيسة في عصر النهضة . ومسيحياً بحكم الموطن . وعاشت وثنيتته في ظل تقواه . ولم تكن مريماته (صور السيدة العذراء في لوحاته) سوى نسوة داعرات غليظات يبدو واضحاً أنهن أصلح لإيقاع الرجال في حبائلهن ، منهن لإنجاب إله . وفي لوحة « العذراء في إكليل من الزهو » (٣٢) ، تمثل السيد المسيح صبياً أجمد الرأس ، ومريم في زى ربة بيت فلمنكية ترتدى قبعة جديدة في نزهة يوم الأحد في أحد المتنزهات . وحتى في لوحة « رفع الصليب » ، (الموجودة في كاتدرائية أنتورب) نجد أن اهتمام روبنز بالتشريح يتغلب على الفكرة الدينية فالمسيح رجل رياضي مكتمل القوة والنشاط ، لا إلهاً يعاني سكرات الموت .

* يبلغ ثمن هذه اللوحة ألف دولار في مزاد علني أقيم في لندن ١٩٥٩ .

وفي « طعنة الريح »^(٣٤) ، مرة أخرى نجد التشريع هو كل شيء : فالمسيح
والأصنام شخوص ضخمة ، والنساء تحت الصليب يتنظرن وضعاً خاصاً أمام
فنان ، أكثر منهن مغمى عليهن من الحزن ، فإن روبنز لم يستشعر هول
الموقف .

وفي خمس مرات على الأقل تحدى روبنز الرسام الفينيسي تيشيان في صعود
العدراء ، وفي أشهر هذه المحاولات^(٣٥) ، تبدو العدراء ميتة لأحياة فيها ،
والأفراد الأحياء هم المجدلية والحواريون الجزعون عند المقبرة الخالية ، وأجمل
منها اللوحة الثلاثية^(٣٦) التي أهدتها الأرشيدوقة إيزابيل إلى جمعية الدفونسو
الدينية في بروكسل : ففي الصورة الوسطى نزلت العدراء من السماء لتقدم لرئيس
أساقفة توليدو . رداءا من الجنة مباشرة ، والقدّيس في خشوع تام ديلث من
العبادة ، على حين أنه في الصورتين الجانبيتين نرى إيزابيل وألبرت قد وضعا
تاجيهما جانبا ، وركعا للصلاة ، وهنا في هذه اللوحة الثلاثية . أضفى روبنز
لوهلة قصيرة . بعض الحياة على التقوى أو صورها أحسن تصوير . وفي لوحة
سمانت أمبروزو الإمبراطور تيود وسيسوسي^(٣٧) ، أدرك روبنز ونقل إلى
الصورة سطوة الكنيسة وسلطانها الخفيين : ففيها ترى رئيس أساقفة ميلان
الذي لم يتسلح إلا بعدد من الكهنة وقندلفت (مساعد كاهن) ، ولكنه متسم
بالجلال والعظمة ، يطرد من الكاتدرائية الإمبراطور الذي يحف به حرس
رهيب ، ولكنه مثقل بالقساوة التي لا تتغير وقلما أخفق روبنز مع كبار
السنن من الرجال ، ففيهم ، وبخاصة في الوجه ، تبرز قصة حياتهم ، كأن الوجه
يعرض الشخصية والخلق واضحين أمام الفن المدرك الواعي . انظر إلى رأس
الآب في لوحة دلوپ وأسرته يغادرون سودوم^(٣٨) ، وهي واحدة من أروع
لوحات روبنز في أمريكا .

وعاد في حيوية بالغة إلى الموضوعات الدينية ، مختلطة بالأساطير ،
عندما عرضت عليه ماري دي مديتشى أكثر العقود إغراء في حياته . ووقع

في ١٦ فبراير ١٦٣٣ اتفاقية ، يرسم بمقتضاها ، في مدى أربعة أعوام ، إحدى وعشرين صورة كبيرة وثلاث صور شخصية ، تتخذ ذكرى الأحداث في حياة ماري وزوجها هنري الرابع ، ودعته الملكة للحضور ليعدش في البلاط الفرنسي ولكن هداه تفكيره السليم إلى البقاء في وطنه . وفي مايو ١٦٣٣ صحب معه إلى باريس اللوحات التسع الأولى ، وأحببت ماري هذه اللوحات . كما أعجب بها ريشليو . وأكملت المجموعة في ١٦٣٤ ، وقصد روبنز بالبقية إلى باريس حيث رآها موضوعة في قصر لسكسبرج . وفي ٢٨٠٢ نقلت اللوحات إلى اللوفر ، حيث انفردت تسع عشرة لوحة منها بقاعة خاصة بها . وإن ينكر كل من رآها أو درسها على روبنز العشرين ألف كراون (٢٥٠٠٠٠ دولار) التي تقاضاها في مقابل عمله ، أو يحسده عليها ، ولا ريب أن مساعدته قاسموه فيها . وهذه اللوحات في جملة ما هي أسمى منجزاته . وإذا تجاوزنا عن بعض هبات السرعة ، وارتضينا القصة التي لا تصدق - كما نفعل في أوفيد ، وشكسبير وفردى - فإننا سنجد هنا روبنز بكل سماته ، اللهم إلا تقواه العارضة . لقد أحب نخامة طقوس البلاط ، وجلال السلطة الملكية ، ولم يسأم قط النساء الممثلةات الأجسام ، والثياب الفاخرة ، الستائر وأغطية الأثاث البهية ، وكان قد عاش نصف أيامه مع الأرباب والربات في الأساطير القديمة ، ونراه الآن يضم هؤلاء جميعاً في قصص فياض ، مع قدرة فائقة على ابتداع الأحداث العارضة ، وغزارة في اللون وبراعة فائقة في التأليف والتصميم ، وما جعل هذه المجموعة ملهمة وأوبرا في تاريخ الرسم .

ولم يكن بعوز روبنز إلا مرتبتين اثنتين من مراتب الشرف ليلبغ ذروة التمجيد - التعيين في الوظائف الدبلوماسية ، والحصول على براءة النبالة . وفي ١٦٣٣ أوفدته الأرشيدوقة إيزابل ليفاوض ، على أمل تجديد الهدنة مع هولندا ، وكان لدى روبنز ما يحمله على توطيد السلام ، فإن زوجته كانت طموحة في أن ترث عن عمها الهولندي مالا (٢٩) . وأخفقت هذه الجهود ، ومع ذلك أنتمت إيزابل الملك فيليب الرابع بأن يخلع على روبنز النبالة (١٦٣٤)

وعينه « رئيس الديوان الخاص لصاحبة العظمة » . أى إيزابل نفسها . ولكن الملك اعترض بعد فترة من الوقت على استخدامها لمثل هذا الشخص الوضع خي المحمد غير الكريم ، فى استقبال البعثات الأجنبية ، وبحيث مسائل على قدر كبير من الأهمية^(٤٠) ، ومع ذلك أوفدت إيزابل روبنز بعد ذلك بعام (١٦٢٨) إلى مدريد لمساعد على عقد الصلح بين فيليب الرابع وشارل الأول . وأخذ الفنان معه بعض رسومه ، وعدل الملك من رأيه فى موضوع الحسب والنسب وجلس إلى روبنز ليرسم له خمس صور شخصية ، وكان الفنان الأسباني فيلا كوين لم يقم بما يكفى الملك فى هذا الصدد . وتوثقت أواصر الصداقة بين الفنانين ، وأسلم الفنان الأسباني ، وهو آنذاك فى التاسعة والعشرين ، القيادة للفلمنكى العبقري الانيس ، وهو إذ ذاك فى سن الواحدة والخسين . وأخيرا عين فيليب روبنز « الوصيح النسب » مبعوثا له فى إنجلترا ، وفى لندن نجح روبنز فى عقد معاهدة صلح ، على الرغم مما دفع ريشليو من رشوة وبث من حواسيس لعرقلة الصلح . وفى لندن رسم روبنز بعض صور شخصية انجليزية دوق ودوقة بكنينجهام^(٤١) ، والوجه المهيّب لتوماس هوارد أركل أروندل ولحيته ودوره^(٤٢) . وبعد أن مهد الطريق أمام فاندريك عاد إلى أنتورب (مارس ١٦٣٠) وقد منحته جامعة كمبردج درجة علمية ، ومنحه شارل لقب فارس .

وفى الوقت نفسه كانت زوجة روبنز الأولى قد توفيت (١٦٢٦) وطبقاً للتقاليد الفلمنكية أقيمت للاحتفال بمنازتها مأدبة باذخة كلفت الدبلوماسى الفنان ٢٠٠ فلورينات (٢٥٠٠ دولار) أنفقها على « الطعام والشراب وأدوات المائدة »^(٤٣) ، فالموت فى المجتمع الفلمنكى كان ترفا يورث الحرمان والفقر . وأغرق روبنز شعوره بالوحشة والوحدة فى الدبلوماسية . وفى ١٦٣٠ ، وكان قد بلغ الثالثة والخسين ، تزوج من هيلينا فورمنت ذات الستة عشر ربيعا . أنه كان فى مسيس الحاجة إلى جو من الجمال يحيط به ، وكان له بالفعل من دقتها ودعتها مافاض على فنه وأحلامه . ورسمها المرة بعد المرة ، فى أى زى ، ودون ثياب : فى ثوب الزفاف^(٤٤) ، وهى ممسكة بقفاز^(٤٥) ، تعلوها ابتسامة السعادة

في قبعة أنيقة^(٤٦)، وهى تخفى تركيبها فقط تحت معطف من الفراء^(٤٧). أما أروع الصور فهى تلك التى تمثلها تتنزه مع روبنز في حديقتهما^(٤٨) - وهذه الأخيرة هى إحدى القمم فى التصوير الفلمنكى، ثم صورها مع وليدهما الأول^(٤٩)، وبعد ذلك مع طفليهما^(٥٠) - مبشراً بالفنان دنوار (مصور فرنسى ١١٤٩ - ١٩١٩). وحدث ولا حرج عن اللوحات التى تمثلها فى وضع مثير للشهوة مثل فينوس، أو متسمة بالحشمة مثل دأم الإله - العذراء.

ورسم بيرنز عاهليه المحبوبين البرت وإيزابل، بغير ما نفاق ولا رياء. وإننا لنها فى متحف فيينا وبقى، فى أغلب الظن كما كانا - يحكان بلدا قلقا مضطربا، بكل النيات الطيبة التى تلتئم مع المثل العليا الأمبانية، لقد عثر الفنان فى الغلاندرز على أنماط ممتازة للرجال والنساء، فرسمها فى تصويره لجان تشارلز دى كورد وزوجته الجميلة المتجهمة^(٥١). وفى صورة ميكائيل أو فوفىوس^(٥٢) أسقف هرتوجنيوخ، وترك لنا صورة ضخمة لاسبينولا الجبار^(٥٣). ولكن رسم الصور الشخصية لم يكن موطن التفوق والامتياز فى روبنز، فهو لم يقدم لنا نظرات نافذة دقيقة أو إيحاءات صادرة من الأعماق، كما فعل رمبرانت. وأعظم صور الشخصية هى تلك التى رسمها لنفسه فى ١٦٢٤ من أجل من صار فيما بعد شارل الأول^(٥٤): قبعة ضخمة ذات أشرطة ذهبية لا تكشف إلا عن جبهة عريضة لرأس أصلع، مع عينيْن محدقتين فى نظرة فضولية. والآنف الطويل الحاد يبدو أنه يتفق مع العبقرية، والشارب المتصاب الحشن واللحية الحمراء الجميلة، وهذا يمثل رجلا يدرك كل الإدراك أنه فى ذروة البراعة فى حرفته ومع ذلك فإن شيئاً من حيويته الطبيعية. ومتعته الحسية وقباعته المهادنة، مما أشرق وتآلق فى صورته مع إيزابلا برانت (زوجته الأولى) قد ذهب على مر السنين. إن الإخفاق وحده هو الذى يرهق الإنسان ويفنيه بأسرع مما يفعل النجاح.

كان روبنز نرياً، وعاش عيشة باذخة، وكان بيته الفخم فى أنتورب أحد

مشاهد المدينة . وفي ١٦٣٥ اشترى ببلغ ٩٣ ألف فلورين ضيعة واسعة وقصراً إقطاعياً في مقاطعة ستين ، تمتد ١٨ ميلاً ، واتخذ لقب لورد ستين ، وقضى الصيف هناك ، ورسم المناظر الطبيعية وجرب يده المتعددة المهارات في رسم أحداث الحياة اليومية . ووسط ضروب الترف والرفاهية ، مع خادمات ثلاث وسائسين وثلاثة جياد ، استمر يبذل أقصى الجهد في العمل ، وهو يجد سعادته في أسرته وفي عمله ، وأحبه زوجاته وأولاده ونصراؤه ومساعدوه لأصفاء روحه وسخائه ومشاركته الوجدانية العظيمة^(٥٥) .

ويمجد ربهم أقدر منا أن يحلوا المزايا الفنية في فنه ، ولكننا نستطيع مطمئنين أن نصفه بأنه نموذج رئيسي لتصوير الباروك : أي اللون الحسى ، والحركة التي لا تحصى ، والخيال الخصب ، والزخرفة المنمقة المترفة ، على عكس ما عرف في التصوير القديم من الهدوء وتقييد الفكر والخط . واسكن في فوضى الجمال هذه ، يقول النقاد بأن هناك براعة فائقة في التخطيط والتصميم وغدت صور روبنز مدرسة من الحفارين والنقاشين الذين صنعوا الطراز الأول من اللوحات المعروفة في أوربا المسيحية ، كما فعل ريموندى مع رسوم رافائيل ، ومن يدروبنز أو من رسمه خرجت الرسوم المشهورة إلى نساخى الأقمشة المزركشة في باريس وبروكسل ، وصنعوا هدايا ملكية أو زخارف للويس الثالث عشر وشارل الأول والأرشيذوقه إيزابيل .

وشهد العقد الأخير من منى حياته نصراً مبيناً عكسه انحطاط قواه الجسمية ولم يضارغه في شهرته الفنية سوى برنيني ، ولم يحلم أحد بأن ينازعه تفوقه في الرسم وهرع إليه التلاميذ من كل الأنحاء ، ووفدت عليه بعثات البلاط من ست ممالك ، حتى من الحاكم فردريك هنرى عبر خطوط القتال . وفي ١٦٣٦ طلب إليه فيليب الرابع أن يرسم بعض مشاهد دمتاهور فوزس ، للشاعر الرومانى أوفيد لقصر الصيد فى باردو . وأنجز رسم روبنز خمسين صورة لهذه المجموعة ، منها واحد ولائز مشهداً فى متحف برابو ، وبدا للكاردينال

اتفقت فرديناند أن مشهدا منها هو محاكمة باريس ، أروع ما أبدعته يدأ روبنز على الإطلاق^(٥٦) . وقد نوثر عليه المهرجان^(٥٧) ، الصاخب الذى كان قد صورته فى ١٦٣٦ - وهو مطاردة مسعورة ، ليس فيها امرأة عجوز أو بدينة إلا اختطفها رجل ما .

أما صورته الشخصية فى سن الستين^(٥٨) فهى الوجه الآخر لخواتيم حياته رجل لا يزال مزهوا . يقبض بيده على سيف النبالة ، ولكن التحول يعرو وجهه النحيل ، ويتدلى جلده ، وتحيط التجاعيد بعينه - وهو رسم أنيق أمين وفى ١٦٣٥ ألزمه داء النقرس الفراش شهراً . وفى ١٦٣٧ شل يده لفترة من الزمن ، وفى ١٦٣٩ عاقه هذا الداء عن التوقيع باسمه . وفى ١٦٤٠ ضلته كلتا يديه . وفى ٣٠ مايو ١٦٤٠ ، وقد بلغ الثالثة والستين ، قصى نخبه متأثرا بالتهاب المفاصل وتصلب الشرايين .

لقد كانت حياة روبنز تدعوا إلى الدهشة . أنه لم يكن النموذج الشامل للمثل الأعلى للنهضة الأوربية ، ولكنه حقق طموحه فى أن يلعب دورا فى الدولة وفى الرسم على حد سواء . ولم يكن فناً شاملاً مثل ليونارد وميكلائيلو ، فلم يخلف لنا نحتاً ، ولم يصمم أى منى سوى داره . ولكنه فى الرسم بلغ ذروة الامتياز فى كل مجال . فإن الصور الدينية ، والصخب الوثنى والإلهة والإلهات ، والعناريات والمكتسيات ، والملوك والملكات ، والأطفال والعجائز ، والمناظر الطبيعية والمعارك - كانت كلها تنساب من فرشاته ، وكأنها معين متعدد الموارد لا ينضب من اللون والشكل . لقد وضع روبنز حداً لخضوع الرسم الفلمنكى للرسم الإيطالى ، ولكن بدون الثورة أو التمرد ، بل عن طريق الاستيعاب والاتحاد .

ولم يكن روبنز فى مثل عمق رمبرانت ، ولكن أوسع أفقا ، لقد فخر من الأعماق الخفية التى كشف عنها رمبرانت ، وآثر عليها الشمس والهواء الطلق ، وتراقص الضوء ، واللون ، وممتعة الحياة وسحرها ، وكافأ حفظه السعيد

بالإبتسام للدنيا ، وإن فنه تعبير عن الصحة ، مثلما أن فننا اليوم يوحى باعتلال الفرد أو اعتلال الروح العامة . ويمكن ، إذا وهنت نفوسنا أو افترت حريتنا أن نفتتح كتاب روبنز في أى مكان لننتعش ونجدد قوانا .

٤ - فانديك

١٥٩٩ - ١٦٤١

لقد كان من عادة روبنز أن يرحب ويشجع الموهبة المبكرة النضج لدى الشباب اليافع 'لوسيم' ، الذى التحق برسمه حوالى ١٦١٧ . وكان أنطون فانديك قد بدأ تدريبه وهو فى سن الثامنة عند هندريك فإن بالمن ، معلم سنيدرز . وفى سن السادسة عشرة كان له تلاميذه هو نفسه . وفى سن التاسعة عشرة سجل أستاذا فى نقابة الفنانين ، ولم يكن تلميذاً لروبنز بقدر ما كان مساعدا ذا قيمة كبيرة له . وقدر روبنز أحد أعمال فانديك الأولى بأنه يساوى فى قيمته لوحة 'دانيال' ، التى أنجزها روبنز فى نفس العام . واحتفظ فى مجموعته الخاصة بلوحة فانديك 'المسيح يتوج بالاشوك' ، ثم تنازل عنها فى وقت متأخر ، وهو كاره ، لفيليب الرابع . ليضعها فى 'الأمكورال' (٦٩) . وتأثر فانديك فى شغف بالغ بروبنز ، ولكنه كانت تعوزه حيوية الفنان العجوز فى الحركة واللون ، ومن ثم قصر عن اللحاق به فى كل شىء ، فيما عدا رسم الأشخاص . وفى صورته الشخصية الأولى (١٦١٥) (٦٠) كشف عن الخصائص التى كان يجب أن تميز وتحدد عبقريته - رقة ورشاقة وجمال ناعم ، مما لا يكاد يليق برجل . وكان زملاؤه الفنانون سعداء بالجلوس إليه لتكوين الصور التى يرسمها لهم ، مما جازا إضاقيا يحميمهم من نسيان الناس لهم . وقد رسم صورا شخصية محبة لسنيدرز (٦١) ودوكونسوى (٦٢) وجان ويلدنز (٦٣) تروجان دى وال (٦٤) - وجساردى كريبير (٦٥) ومارتن بين (٦٦) ، وكان من صفات فانديك المحمودة الكثيرة أنه أحب منافسيه . وتوحى تلك الصور الشخصية فى رسم روبنز بروح طيبة من الزمالة لا توجد دائما فى علسكة الفن .

وفي ١٦٣٠ تلقى أرل أرونديل من أنتورب رسالة جاء فيها : « أن فاندليك يقيم مع روبنز ، وتقدر أعماله بأنها تكاد تضارع أعمال أستاذه (٦٧) ، فدعا الفنان الشاب إلى إنجلترا ، فذهب فاندليك وهناك تقاضى من جيمس الأول معاشا زهيدا قدره مائة جنيه ، ورسم قليلا من الصور الشخصية ، وتمرد على ما طلبه منه الملك من نسخ حقير لصور أصيلة ، وطلب منحه أجازة لمدة ثمانية أشهر يتغيب فيها عن البلاد ، فأجيب إلى طلبه . ولكنه مد الغياب إلى اثني عشر عاما . وفي أنتورب دبر لزوجته وطفلها سبل العيش ، ثم أسرع إلى إيطاليا (١٦٣١) .

وهناك لأول مرة أسرع الخطى وشمر عن ساعد الجد ، وترك صوراً شخصية رائعة في كل مكان نزل به تقريبا ، وعكف على تأمل أعمال البنافة العظام ، لا ليدرس اللون والضخامة لديهم ، كما فعل روبنز من قبل ، ولكن ليكتشف الأسرار الشاعرية في الرسوم الشخصية عند جيورجيو و تيشيان وفيرونيز . وقصد كذلك إلى بولونيا وفلورنسة ورومه ، بل حتى إلى صقلية . وفي رومه أقام مع الكاردينال جيدى وبلتيفوجليو ، وكافأه بصورة شخصية (٦٨) وكره الفنان العلمنكيون الذين كانوا يتضورون جوعا في إيطاليا ، من فاندليك كياسته ، وإن شئت تملقه وتودده ، فنهتوه بأنه « مصور الفرسان » ، وأنوا بأعمال قيحة ، إلى حد أنه رحل مسرورا بصحبة ليدى أرونديل إلى تورين . وكان الترحيب به كبيرا بصفة خاصة في جنوة التي تذكرت روبنز ، وكانت قد سمعت بميل فاندليك إلى تمجيد النبلاء ، حتى يجعل من كل جالس أمامه أميرا . وفي متحف متروبوليتان للفن في نيويورك نموذج لهؤلاء الاستقراطيين الجنوبيين : « المركزية دورازو » : وجه حساس ويدان رشيقتان ناعمتان (كما هو الحال دائما في رسوم فاندليك) ، كما يحتفظ المتحف الوطنى في واشنطن بلوحته « المركزية بالي » ، و « المركزية جريما ليدى » . وهى مزهوة حلى . وفى برلين ولندن نماذج أخرى . واستطاعت جنوة أن

تحتفظ في قصر رونو فيها بلوحة « المركيز والمركيزة » بريشولى صالى « وعاد فاندليك إلى أنتورب (١٦٣٨) ، وقد امتلأت جيوبه وانتفخت أوداجه وتماثق في مظهره .

وصرفه مسقط رأسه عن النبلاء إلى القديسين ، وحتى يبيد نفسه لمولاء ندم على ما اقترف من فحشاء ، وأوصى بثروته الصغيرة لأختين من الراهبات ، وانضم إلى « الرابطة الحزبية لغير المتزوجين » ، وتحول إلى الموضوعات الدينية . ولم يستطع أن ينافس روبنز في هذا المضمار ، ولكنه تجنب مبالغات الأستاذ الغزير الإنتاج وتآلقه الشهوانى ، وأضفى على رسومه هولىسات من الأناقة التى تعامها فى إيطاليا . وذهب رينولدز إلى أن لوحة فاندليك « صلب المسيح » فى كاتدرائية مكليين واحدة من أعظم الصور فى العالم ، وعلى أية حال ربما كانت هذه هى طريقة سيرجوشوا فى الوفاء بالدين .

وجرب فاندليك بده فى صور الأساطير . وعلى الرغم من أنه لاحق نساء كثيرات فإنه لم يقبل على رسم الصور العارية ولم يبرع فيه . وكان موطن قوته وامتياره فى الصور الشخصية . وفى هذه السنوات الأربع فى أنتورب أقدم من زوايا النسيان ، بما رسم من لوحات « البارون فيليب لروى والكلب الأمين (٦٩) » ، و « الجنرال فرانسيسكو دى مونكادا وجواده (٧٠) » ، و « التكونت رودوكافاكس (٧١) » الذى بدا كأنه سوينبرن ، و « جان منتغورت » ، الذى بدا مثل فولستاف (إحدى شخصيات شكسبير) ، وأروع رسوم فاندليك فى فيينا هى صورة « روبرت الشاب أمير البلاطين » ، الذى سرعان ما خاض غمار الحرب دفاعا عن شارل الأول فى إنجلترا . ومن الرسوم الفاتنة كذلك صورة « ماريا لويزا أوف تأسيس (٧٣) » ، غارقة فى ثيابها الفضفاضة المصنوعة من الأطلس الأسود والحريير الأبيض . ولا يقل روعة عن هذه الرسوم كلها لوحة فاندليك لبيتر « الجحيم » بروجيل (الأصغر) ، وهو رجل عجوز لا يزال يعطرم قلبه بحموية لم ينضب معيها فى أسرة تثير الدهشة .

وأخذ فاندريك بعض هذه الصور إلى إنجلترا حين دعاه شارل الأول إليها ليحرب حظه فيها ثانية . وكان شارل — على عكس أبيه — ذواقه للفن . وظن أن هذا القلمنسكى الوسيم هو الرجل الذى يستطيع أن يصنع له ما كان يصنع فلاسكويز الأسبانى للملك فيليب الرابع . وذهب فاندريك وسجل للأجيال القادمة صور الملك والملسكة هنريتا ماريا وأطفالهما ، وهى صور برزت فيها روعة فن فاندريك بشكل لا يمحى أثره . وأشهر هذه اللوحات الملكية الخمس ، هى اللوحة الموجودة فى متحف اللوفر . وهى تمثل الملك المزهو العاجز مرتديا زى الفروسية ، واضعاً يده على خصره ، شاهراً سيفه ، وعلى رأسه قبعة أنيقة ، بالإضافة إلى لحية فاندريك ، ولكن الجواد المنهوك الذى يقضم شكيمته أثناء فترات الصيد ، قد يشغف به الناظر إلى الصورة قبل أن يشغف براكيه . وتوجد فى درسدن وتورين لوحات تبارى هذه ، وهى تمثل أبناء شارل ، وهم بعد أبرياء ولا يخشى منهم أذى . وكان شارل أكثر إنسانية فى مخبره منه فى مظهره . وبرزت حرارة العاطفة عنده فى تعلقه بفاندريك وإعزازه له . فقد ضمه إلى طبقة الفرسان ، ووهبه دوراً نفيسة فى لندن وفى الريف ومنحه معاشاً سنوياً قدره مائتا جنيه ، ومبالغاً إضافياً عن كل رسم ، وعن كل زيارة للبلاط .

وعاشر الفنان السعيد حياة تتفق مع دخله ، فأولع بالثياب الأنيقة ، وكانت له عربته التى تجرها أربعة من الخيل ، وجياده الأصيلة وخليلاته ، ومأوى بيوته بالموسيقى والفن . وبز توجهات روبنز فى تفويض غيره فى العمل . فترك رسم الملابس لمساعديه ، وأنجز صورة شخصية فى ساعة واحدة من رسم تخطيطى تم فى جلسة واحدة وكان يسارع إلى اغتنام الفرص قبل فوات الألوان . ويروى أن شارل الأول ، حين كان يعانى من تقشير البرلمان عليه ، سأل الفنان المبذر مرة : هل تعرف ماذا يقصد بقولهم أن الإنسان يعوزه المال ؟ فأجاب فاندريك ، نعم يا مولاي ، إذا مد المرء مائدة مفتوحة لأصدقائه ، وأغدق من كيس مفتوح على خليلاته ، فسرعان ما يصل المرء إلى قاع السكيس ليجمده فارغاً (٧٤) .

وإذا كان فانديك قد غرق في الديون أحيانا ، فإن ذلك لم يكن لافتقاره إلى النصرام والمحبين ورعاة فنه . فقد انتظر الارستقراطيون الإنجليز دورهم في الحصول على موافقته : مثل جيمس ستوارت ، ودوق لينوكس^(٧٥) ، الوصي مثل كلبه ، وروبرت رتشي أرل ودروك^(٧٦) ، ولورد دريتي وأسرته^(٧٧) وتوماس وتورت أرل سترافورد^(٧٨) الذي تحدى القدر . كذلك جاء دور الشمراء من كارو ، وكلجرو ، وسكلنج . وأخيرا جاء دور أولدبار^(٧٩) الذي زعم أنه بلغ من العمر مائة وخمسين عاما ، وكان يبدو عليه ذلك . ائد رسم فانديك ٣٠٠ صورة شخصية في إنجلترا ، تميزت كلها تقريبا بالكياسة والوقار اللذين رأهما في أحد اللوردات ، حتى ولو لم يوجد شيء منهما .

وتبارت خليلته مرجريت ليون مع الارستقراطية في توفير الخدمات له بما كلفه غالبا . واقترح الملك أن الزواج أيسر تكلفة ، وعاونه (١٦٣٩) في طلب يد ليدى ماري روثفن وهي سائلة أسرة مشهورة في تاريخ اسكتلنده ورسم الفنان لعروسة صورة جميلة^(٨٠) ولكنها لا تقارن بالوجه الجميل الذي رسمه لنفسه في الصورة الشخصية للفنان^(٨١) التي يعرفها العالم كله . شعر غزير متموج ، وعينان حادتان ، وتقاطيع دقيقة ، ولحية مقصوفة ، وسلسلة ذهبية تنبيء بأنه فارس . هل كان فانديك يتملق سيرا أنطوني (نفسه) إذا كان الأمر كذلك ، فليس ثمة جدوى ، لأن صحته التي أسرف في استنزائها ، بدأت الآن تتدهور ، وكره فانديك أن يذكر بمجرد رسم الصور الشخصية فحسب ، فطلب إلى شارل أن يسمح له برسم مناظر تاريخية على جدران قاعة الولايم في قصر هويتول ، ولكن الملك كان يعاني العوز . فعبر فانديك البحر إلى باريس (١٦٤٠) أملا في تكليفه بتصوير القاعة الكبرى في اللوفر ، وكان لويس الثالث عشر قد اختار بالفعل يوسان لهذه المهمة ، ولكنه تخلى عنها بعد فوات الأوان ، فقد مرض فانديك فأسرع إلى لندن حيث كانت تقيم زوجته وفاضت روحه (١٦٤١) ، بعد أحد عشر يوما من مولد ابنته ، ولم يكن قد بلغ بعد الثانية والأربعين .

لم يؤسس فاندريك مدرسة ، ولم يترك بصمات على الفن في القارة ، ولكن أثره في إنجلترا كان بالغاً . فإن الرسامين المحليين مثل وليم دويسون ، وروبرت ووكر ، وسمويل كوبر ، أسرعوا في تقليد أسلوبه المتملق الذي يدر ربها . وعندما سادت موجة عارمة من الصور الشخصية بظهور ريتوالدر وجينزبرر فإن تراث فاندريك كان مصدر كل تعليم وثقيف وإثارة . ولم تسكن الصور الشخصية التي رسمها فاندريك عميقة . لقد كان متعجلاً إلى درجة لم تتح له البحث عن الروح . وتوقف في بعض الأحيان عند الوجه أو اللحية . إن الفرسان الذين أحاطوا بالملك شارل الأول اشتهروا بسلوكهم الحميد ، وما كان متوقعا أن يبدو كثير منهم وكأنهم شعراء ، وكان من المنتظر أن تصل إلينا ، من خلال عيني فاندريك وفرشاته بعض أخيلة البطولة التي نجدها في وقفهم إلى جانب مليسكهم . وليس من العدل أن نتوقع من هذا الشاب المزيّل المحظوظ حيوية روبنز العارمة ، أو عمق ريمبرانت المؤثر . ولكننا سنبقى على اعتزازنا بهذه الصور الشخصية الجنوبية والفلسفية والإنجليزية ، على أنها معالم دقيقة ثمينة ، متألفة في تراثنا .

٥ — الاقتصاد الهولندي

أية فقرة تلك التي تنقلنا من اللوردات الإنجليز الذين يفوح منهم شذا العطر إلى مواطني هارلم ولاهاي وأمستردام الإجلال الأتقياء : هناك عالم فريد خلف السدود ، عالم ماء أكثر منه عالم أرض ، عالم سفن ومغامرات تجارية أكثر منه عالم قصور وبلاط وفروسية . ولا يكاد يوجد في تاريخ الاقتصاد شيء أشد إزعاجاً من ظهور الهولنديين باعتبارهم قوة دولية ، أو في تاريخ الثقافة شيء يبعث على الرضا والارتياح أكثر من تحول هذه الثروة إلى فن .

وفي ١٦٠٠ بلغ عدد سكان المقاطعات المتحدة نحو ثلاثة ملايين نسمة ، كان نصفهم فقط يفلج الأرض ، وفي ١٥٢٣ أقام نصفهم في المدن ، وصار كثير

من الأرض ملكها لذلك من سكان المدن الذين آمنوا بأن أرباحهم التجارية يمكن أن تزال رائجتها السريعة باستثمارها في الأرض . وحتى في مجال الزراعة أحرز النشاط والبراعة الهولنديان قصب السبق على أوروبا ، وكانت السدود والخزانات الجديدة تستصلح دوما الأرض من البحر ، وأخصبت القنوات المزراع وأنعشت التجارة ، وقامت فلاحية البساتين جنبا إلى جنب ، مع تربية الماشية ، وكلتاها على نطاق واسع ، لتكفل كل منهما الأخرى . وفي آخريات القرن السادس عشر بلغ المهندسون الهولنديون بطا حوتة الهواء ذروة الإتقان مثلبا فعل الرسامون الهولنديون بالفن . وكان نصف الصناعة لا يزال يدويا اللهم إلا في التعدين ومعالجة المعادن ونسج الأقمشة وتكرير السكر وصنع الجمعة ، فإن هذه الصناعات كانت تتقدم على نطاق أكبر وأكثر ربحا وأقل لمعاداً للناس ، وأبحر في كل عام من الثغور الهولندية ١٥٠٠ سفينة ذات صاريين لصيد السردين . وكان بناء السفن من الصناعات الكبيرة . وفي أثناء الهدنة مع أسبانيا (١٦٠٩ - ١٦٢١) أرسلت الأراضي الوطنية ١٦ ألف سفينة حوتة كل منها ٥٧ طنا في المتوسط ، عليها من الملاحين نحو ١٦٠ ألفا - أكثر من انجلترا وأسبانيا وفرنسا مجتمعة (٨٢) .

وتلف الربانة الهولنديون على المنافذ التجارية والمواد الخام فارتادوا البحار المجبولة . وفي ١٥٨٤ وطد التجار الهولنديون أنفسهم في أركنجل ، وتقدموا برغم الثلوج المتجمدة في محاولة عقيمة للعثور على طريق شمالي شرقي ، إلى الصين ، ومن ثم يفوزون بجائزة قدرها ٢٥ ألف فلورين قدمتها الحكومة الهولندية . وإن الأسماء الهولندية في الخرائط الحديثة لأرخيل سبتسبرجن (في النرويج) لتعيد إلى الذاكرة رحلاته وللم بارنت الذي فقد حياته في الشتاء على ثلوج جزر نرفايا زمليا (١٦٩٧) . وفي ١٥٩٣ أبحر الهولنديون المغامرون صبر أنهار غانة (ساحل الذهب) في أفريقية ، وعقدوا أوامر الصداقة مع المواطنين هناك ، وبدأوا معهم تجارة واسعة نشطة .

وحق ١٥٩١ كان التجار الهولنديون يشترون المنتجات الشرقية من أرصفة لشبونة ليعيدوا بيعها في أوروبا الشمالية . ولكن فيليب الثاني غزا البرتغال في ذلك العام لحرم الاتجار مع الهولنديين ، ومن ثم عقدوا العزم على أن يقوموا هم أنفسهم برحلاتهم إلى الهند والشرق الأقصى . وكان اليهود اللاجئون من أسبانيا والبرتغال أو ذرايرهم على علم تام بمراكز تجارة البرتغال في الشرق ، فانتفع الهولنديون بعلمهم^(٨٣) . وعبر التجار الهولنديون ، حتى أثناء الحرب مع أسبانيا مضائق جبل طارق ، وسرعان ما اتجروا مع إيطاليا ، ثم مع العرب ، متجاهلين الفوارق الدينية في أصرار وثبات . وشقوا طريقهم إلى القسطنطينية ، وعقدوا معاهدة مع السلطان ، وباعوا بضاعتهم إلى الأتراك وإلى أعدائهم الفرس ، على حدد سواء ، ثم ساروا إلى الهند . وفي ١٥٩٥ قاد كورنيلس دي هوتمان حملة حول رأس الرجاء الصالح ومدغشقر إلى جزر الهند الشرقية . وفي ١٦٠٢ قامت خمس وستون سفينة هولندية برحلة العودة إلى الهند . وفي ١٦٠١ أسست شركة الهند الشرقية الهولندية برأس مال قدره ستة ملايين وستمائة ألف فلورين — خمسة أمثال رأس مال الشركة الإنجليزية التي أسست قبلها بثلاثة شهور^(٨٤) . وفي ١٦١٠ بدأ التجار الهولنديون التجارة مع اليابان ، وفي ١٦١٣ مع سيام ، وفي ١٦١٥ سيطروا على جزر ملقا ، وفي ١٦٢٣ على فرموزا . أنهم في جيل واحد فتحوا أمبراطورية من الجزر حكموها من عاصمة جاوة : جاكرتا التي سموها باتافيا . وفي هذه الحقبة أدت الشركة لحملة الأسهم ربها سنويا قدره ٢٢٪ وكان الفلفل يستورد من جزر البهار ، ويباع في أوروبا بعشرة أمثال الثمن الذي يدفع للمنتجين المحليين^(٨٥) .

وحسب الهولنديون أن الأرض ملك خاص لهم . فاسملوا سفنا للبحث عن طريق شمالي غربي إلى الصين . وفي ١٦٠٩ استأجروا ربانا انجليزيا هو هنري هدمن ، ليرتاد نهر هدمن . وبعد ذلك باثني عشر عاما كونوا شركة الهند الغربية الهولندية . وفي ١٦٢٣ أسسوا مستعمرة الإراضى الوطنية الجديدة

وكانت تضم الولايات الحالية : كنسكتيكت ونيويورك ونيوجرسي وبنسلفانيا ودلاوير . وفي ١٦٢٦ اشتروا من الهنود د أمستردام الجديدة ، (منهاتان) مقابل بعض الحلي الصغيرة التي قدرت قيمتها بأربعة وعشرون دولارا . وكانوا جادين في تطوير وتطوير هذه الأراضي ، ولكن كل ممتلكاتهم في أمريكا الشمالية وقعت غنيمة في أيدي الإنجليز (١٦٦٤) نتيجة للحرب ، وكذلك وقعت ممتلكاتهم في أمريكا الجنوبية في أيدي الأسبان والبرتغال ، ولم يبق لهم إلا سورينام ، تحت اسم غيانا الهولندية .

وعلى الرغم من هذه الخسائر أسهمت الإمبراطورية الهولندية مع تجارة هولندا في أوروبا في تهيئة دعامة مالية للسلطان السياسي للتجار الهولنديين ، ودورهم الفخمة ورعايتهم للفنون . وطوال النصف الأول من القرن السابع عشر عقد للمقاطعات المتحدة لواء الزعامة التجارية على كل أوروبا ، وكانت ثروة الفرد فيها أكبر من مثيلتها في سائر بلاد العالم . وقد انزعج رالي من تفوق الهولنديين على الإنجليز من حيث مستوى المعيشة والأعمال والمشاريع (٨٦) وقال أحد سفراء فينيسيا (١٦١٨) أن كل هولندي عاش في رخاء ، ولكن يحتمل أنه لم يكن يعرف إلا القليل عن الطبقات الدنيا ، التي أدرك رمبرانت فقرها إدراكا تاما . أن أصحاب الملايين كثروا في هولنده ، وقد جمع بعضهم ثروته من بيع النفائات والبضائع الرديئة إلى الجيش والأسطول الهولنديين الذين يدافعان عن هولنده (٨٧) ، ومثل هؤلاء كانوا جاهدين للحيلولة دون إقرار السلام (٨٨) .

وتركزت معظم الثروة الهولندية في مقاطعة هولنده التي كانت تجارتها في المياه المجاورة أضعايف تجارة سائر المقاطعات الشمالية . وكان ثمة برجوازية مزدهرة في عدة مدن في مقاطعة هولنده - روتردام ، لاهاي ، هارلم ، أوترخت - ولكن أيا منها لم يجرؤ على مباراة أمستردام . وأن نمو عدد سكانها ليحكي قصتها ، فقد كان ٧٥ ألفا في ١٥٠٠ ، وقفز إلى ٣٠٠ ألف في ١٦٢٠ ، وهرع

لأنها التجار والصناع المهرة وأصحاب المصارف أفواجا من أنتورب التي دمرتها الحرب . وبعد ١٥٧٦ نقل يهود أنتورب إلى أمستردام أنشطتهم المالية وتجارتهم وصناعة الخليء ولا يزال صياغ الماس في هذه المدينة يزعمون هذه الصناعة في العالم . وأباح حكام المدينة للتجار قدراً كبيراً من الحرية الدينية لأن هذه هي الوسيلة الوحيدة لتشجيع التجارة مع الشعوب ذوات المذاهب المتباينة ، وكان بنك أمستردام الذي أسس ١٦٠٩ ، أقوى مؤسسة مالية في أوروبا في ذلك العصر . وكانت العملة الهولندية مطلوبة وموضع ثقة في كل الأنحاء .

٦- الحياة والأدب في هولنده

اتهم الهولنديين منافسوم بروح تجارية مسرفة وبحمى جمع المال ، وبطباع جافة خشنة ، ترتبط أحياناً بالانهماك في الحياة الاقتصادية ، ويسلم المؤرخون الهولنديون بهذه المزاعم عن طيب خاطر^(٨٩) . ومع ذلك فهل نستطيع أن نقول عن ثقافة بأنها تجارية ، مع أنها أولعت ولعا كبيراً بالنظافة والزينة (التوليب) والموسيقى والفن ، وشيدت مدرسة في كل قرية ومحت الأمية ، وخلقت جواً فكرياً مكرباً بالجدل والأفكار ، وأباحت حرية الفكر والكلام والصحافة ، حتى أن هولنده سرعان ما أصبحت ملجأً عالمياً للعقول الشائرة ؟ المتمردة وقال ديكارت :

« ليس ثمة بلد غير هذا البلد ، فيه الحرية أكمل . والأمن أعظم ، والجريمة أندر ، وبساطة العادات القديمة أروع »^(٩٠) . وفي ١٦٦٠ كتب فرنسي آخر : ليس في العالم مقاطعه تنعم بمثل هذا القدر من الحرية مثل ما تنعم هولنده وفي اللحظة التي يأتي فيها أى سيد إلى هذا البلد بأى أرقاء أو عبيد ، فإنهم يصبحون أحراراً ، ويستطيع أى فرد أن يغادر البلد متى شاء ويأخذ معه من الأموال ما يشاء . والطارق آمنة ليل نهار ، حتى لو سار الإنسان بمفرده . ولا يباح للسيد أن يحتفظ بخادم دون إرادته . ولا يضار إنسان بسبب دينه . وكل إنسان حر في أن يتفوه بما يشاء حتى عن الحكام »^(٩١) .

وكان أساس هذه الحرية هو النظام . ويعكس صفاء ذهن في أناقة المنزل وحسن ترتيبه . وتميز الرجال بالشجاعة والجد والعناد ، كما تميزت النساء بالاجتهاد والبراعة الفائقة في الأعمال المنزلية . ويتسم الجنسَان كلاهما بهدوء الطبع وروح المرح . واعتزل كثير من رجال الأعمال الهولنديين العمل بعد جمع ثروة معقولة ، وانصرفوا إلى السياسة والأدب والجوائف* والموسيقى والهناء المنزلية . وكتب لود وفيكو جوتيشياردني ، إن الهولنديين يفزعون من الزنى ، وأن نساءهم على أكبر قدر من الحرص والحذر ، ومن ثم منحون قسطا كبيرا من الحرية ، فيخرجون وحدهن للقيام بالزيارات بل والرحلات ، دون أن يأتين بما يخدش سمعتهن . . . إنهن مديرات المنازل ، وإنهن يحببن بيوتهن^(٩٣) . وكان ثمة نساء كثيرات ذوات ثقافة رفيعة ، مثل ماريا شورمان ، منيرفا هولنده ، (ربة الحكمة والمهارة الفنية والاختراع عند الرومان) التي قرأت إحدى عشرة لغة ، وتحدثت وكتبت بسبع لغات ، ومارست الرسم والنحت جيدا ، وبرعت في الرياضيات والفلسفة . ونظمت مارياتسلشيد شعرا جميلا في مثل جمال شخصها . وترجمت قصيدة تاسو «تحويل أورشليم» ترجمة نالت ثناء العالم ، ورسمت ونحتت وحفرت ، وعزفت على القيثارة . وغنت فأطربت إلى حد أن ستة من الأعيان من بينهم قسطنطين هوجنز ، وجوست فان دن فوندل ، وجريرانديريديرو ، كانوا يركعون تحت قدمها متوسلين إليها أن تغني لهم . وتزوجت قبطانا بحريا ، وأصبحت ربة بيت وأما مخلصة وفية . وتركت وراءها ذكريات لا زالت عزيزة لدى الهولنديين ، عن الذكاء والمآثر والنبيل^(٩٤) .

وكان حب الموسيقى أوسع انتشارا من تقدير الفن . إن جاك بيترزون سويلنك أحد أبناء أمستردام ، وأعظم عازف هولندي على الأرغن هو الذي علم هنريج تسيديمان ، الذي علم بدوره جوهان آدم رينكن . وهذا الأخير هو الذي درس على يديه جوهان سبستيان باخ . ومع كل هذا التفوق والامتياز

(*) وبما كانت هذه اللعبة من أصل هولندي ، وانتقلت إلى اسكتلندة في القرن الخامس عشر^(٩٥)

دب في التجارة الهولندية بعض الفساد ، والإدمان على الخمر ، والبغاء ، والإقبال على الميسر بجميع أشكاله^(٩٥) ، إلى حد المضاربة بأسعار الزنبق المستقبلية^(٩٦) . وكانت هارلم مركز زراعة الزنبق . وكانت الأبهال تستورد من إيطاليا وجنوب ألمانيا ، حوالى نهاية القرن الخامس عشر ؛ كذلك انتشرت الزهرة في باريس وصارت بدهة محببة ورمزا للامتياز والسمو . حتى أنه في ١٦٢٣ رفض أحد الهواة اثني عشر ألف فرنك (٣٠ ألف دولار) ثمنا لاثني عشرة بصلة من الزنبق^(٩٧) . وفي ١٦٣٦ صار كل السكان تقريبا يضاربون في أزهار الزنبق وقامت أسواق خاصة يمكن لأي إنسان أن يشتري أو يبيع فيها محصولات الزنبق الحاضرة أو المستقبلية وكان للتوليب د انهياره ، المالى ١٦٣٧ ، ففى تلك السنة بيعت نحو ١٢٠ زهرة توليب ثمينة في مزاد علنى لمصلحة أحد ملاجىء الأيتام بمبلغ ٩٠ ألف فلورين .

ولملى هذا الجو البهيج جاء اللاجئون من فلاندرز وفرنسا والبرتغال وأسبانيا والتجار الأجانب من نصف أمريكا المعمورة بتشكيلة مثيرة من الأساليب الغريبة الدخيلة ، وضمت جامعات ليدن وفرانكر وهاردرفيك وأوترخت وجرونجن مشاهير علماء العالم ، وأنجبت بدورها آخرين . فكان جوستوس ليسيوس وجوزيف سكاليجر ودانيل هنسيوس وجيرار فوسيوس يعملون جميعا في ليدن في النصف الأول من القرن من بداية افتتاحها (١٥٧٥ - ١٦٢٥) وما جاءت سنة ١٦٤٠ حتى كانت ليدن أشهر مركز للعلم والدرس في أوروبا . وكانت نسبة معرفة القراءة والكتابة بين جمهور سكان المقاطعات المتحدة أعلى منها في أى مكان آخر في العالم . وكانت الصحافة الهولندية أول صحافة حرة . وكانت صحيفة « الأخبار » الأسبوعية في ليدن ، وصحيفة « الجازيت » في أمستردام تقرأ في سائر أنحاء أوروبا الغربية ، لأنهما كانتا تتحدثان في حرية تامة ، على حين كانت الصحافة في تلك الأيام في أية بقعة أخرى خاضعة لسيطرة الحكومة ورقابتها . وكانت الدمشة تتولى أى ملك فرنسى يطلب كبح جماح أى صحفى هولندى أو وقفه عند حده ، إذا علم أن هذا مطلب مستحيل تنفيذه^(٩٨) وكان رجال الأدب في هولنده كثيرين ، ولكن كان من سوء حظهم

أنهم كتبوا باللاتينية التي كانت في طريقها إلى الفناء ، أو بالهولندية التي ضيقت
نطاق قرائهم . فإن الهولنديين لم يتسن لهم أن يجعلوا من لغتهم ، على غرار بحريتهم
واسطه مشتركة لنقل الأدب والفكر . واعتقد ديرك كورنهرت وهيدريك
سييجل أن اللغة الوطنية المفعمه بالحياة أداة لنقل الفكر والأدب ، وكانها
لتنقيتها من الإضافات الغريبة الدخيلة غير المتجانسة وغير الملائمة — وكان
كورنهرت — وهو فنان ، وكاتب ، ورجل دولة وسياسه ، وفيلسوف — أول
وأقوى شخصيه في التفتح الثقافي الذي توج الثورة السياسية . وبوضفه أميناً
عاماً للمديته صاغ بيان ١٥٦٦ لوليم أورانج ، فأودع السجن في لاهاي ، ثم هرب
إلى كليفز وكسب قوته من مهارته في الحفر على الخشب والمعادن ، وترجم
الاولديسيه وأعمال بوكاشيو وشيشرون والعهد الجديد (الانجيل) . ولما عاد
إلى هولنده كافح في سبيل نشر التسامح الديني ، ورمز إلى التاريخ الفكري في
القرن التالي — السابع عشر — حين تحلى عن عقيدته التي رأى أنها قد تشوهت
وتلوثت بالمصرعات الداميه إلى حد كبير . وأصبح د لا أدريا ، معترفاً بأن
الإنسان لم يستطيع أن يعرف الحقيقة^(٩٩) ، وعرض في كتابه الاساسي دفن
الحياة الطيبه ، مسيحيه بغير لاهوت ، أي منهجا أخلاقيا مستقلا عن المذاهب
الدينيه . ونتيجته شيء من الاغضاء أتيح له أن يموت ميتة طيعية (١٥٩٠) .
وتميزت هولنده بأن رجال الاعمال فيها كثيراً ما خلطوا بين الأدب وبين
شئونهم الماديه ، من ذلك أن رومرفسكرك . وهو تاجر ثرى في أمستردام ،
ساعد صغار الكتاب وأكرم وفادتهم ، وجعل من بيته منتدى (صالونا)
يبارى منتديات فرنسا ، ونظم هو نفسه شعراً أكسبه لقب دالهولندي الشجاع ،
أما بيتر هوفت فقد جعل من قصره في بيدون على الزيرزى ملاذا لعصر النهضه
في هولنده ، فاستقبل بالترحاب في د حلقه ميودين ، الشعراء ورجال العلم
والدبلوماسيين والقواد والأطباء . وفي العشرين سنة الأخيرة من حياته ،
كتب هو نفسه د تاريخ الأراضى الوطيئة ، روى فيه قصة ثورة الأراضى في
نثر قوى رائع ، جعل هولنده تسكرمه وتحتفل به وكأنه يمثل المؤرخ الروماني
« تاسيتس » في هولنده .

ومن بين مائة شاعر في هولنده سما ثلاثة باللغة العامية إلى ذروتها الأدبية. منهم جاكوب كاتس المتقاعد الكبير لمدة اثنين وعشرين عاما ، الذى بسط حكمة الأمثال السائرة في شعر شعبي متبل بالحكايات الطريفة المفعمة بالحياة ، حتى ظلت كتابات « الأب كاتس » ، لعدة قرون ، من مقتنيات كل بيت يعرف أهله القراءة والكتابة في هولنده ، أما جوست فان دن فوندل فقد تغلب على كل المحن وكل الأعداء ، حتى تبوأ مكانة عالية في الأدب الهولندي . وكان أبوه صانع قبعات نفي من أتورب بسبب آرائه المؤيدة لمذهب تجديد العباد . وولد جوست في كولون . وفي ١٥٩٧ استقر بالأسرة المقام في أمستردام ، وافتتح الوالد ، الذى تغلب من مذهب إلى مذهب ، محلا لصناعة الجوارب ، وورث جوست عمل أبيه واسكنه ترك إدارته لزوجته وابنه ، على حين عمل هو على تعويض ما فاتته من التعليم الرسمي بدراسة اللاتينية والإيطالية والفرنسية والألمانية ، وكتب رواياته الثمان والعشرين وفق نماذج أغريقية وفرنسية ، وحرص فيها على اتناع نظام الوحدات بدقة . وسخر من فكرة الجبرية أو القضاء والقدر ومن الجدل بين الشيع البروتستانتية . وافتن بجمال الشعائر الكاثوليكية ، وبماريا تسالكاد التى كانت كاثوليكية وجميلة معا . وبعد موت زوجها (١٦٢٤) وموت زوجته هو (١٦٣٥) توثقت وأصر الصداقة بينهما : وفي ١٦٤٠ اعتنق المذهب الكاثوليكي . واستمر ينتقد بشدة الأحقاد الدينية والمخادعات والحيل الاقتصادية والفساد السياسى ، وكسب قلوب الهولنديين بالتمغنى بشجاعة الأراض الوطيمة ومجدها . وفي ١٦٥٧ أفلست صناعة الجوارب التى أساء ابنه إدارتها ، وهرب الابن إلى جزر الهند الشرقية ، وباع الشاعر كل ممتلكاته المتواضعة ليرضى دائنيه ، وظل لعشر سنين يكسب قوت يومه من العمل بوظيفة كاتب لدى مقرض نقود ، وأخيراً أجرت عليه حكومته معاشا ، وقضى في هدوء الثلاثة عشر عاما الأخير من عمره الذى بلغ اثنين وتسعين عاما .

أما أعظم الشخصيات جاذبية في أدب الأراض الوطيمة في هذا العصر ،

فهو قسطنطين هيوجنس ، وهو هولندي جمع بين كل مظاهر وجوانب النهضة في إيطاليا . وكان أبوه كريستيان جنس سكرتير مجلس الدولة في لاهاي أما ابنه كريستيان فمكان أعظم رجال العلم في القارة على عهد نيوتن ، وبين الوالد والولد حافظ قسطنطين على ما اشتهرت به الأسرة من قدرات ومواهب ولد قسطنطين في لاهاي في ١٥٩٦ . وُلِّقَ فيها وفي ليدن وأكسفورد وكمبريدج قسطنطين وإفرا من التعليم ، وكتب الشعر باللاتينية والهولندية ، وبرع في الألعاب الرياضية ، وأصبح موسيقيا وفنانا عظيما . وفي سن الثانية والعشرين التحق ببعثة دبلوماسية إلى إنجلترا ، وعزف على العود أمام جيمس الأول ، وأحب جون دون الذي ترجم فيها بعد قصائده إلى الهولندية . وفي سن الثالثة والعشرين أرسل في بعثة دبلوماسية إلى البندقية ، ولدى عودته كاد يفقد حياته عندما كان يرقى قمة برج الكماندراية في ستراسبورج . وأصبح في ١٦٢٥ سكرتيرا لطائفة من الحكام على التعاقب . وفي ١٦٣٠ عين في المجلس المخصوص . وفي نفس الوقت أصدر عدة دواوين من الشعر تميزت بحزلة الأسلوب ورقه الشعور . وآذن موته في سن التسعين (١٦٨٧) بانتهاء أزهى عصور الأراضي الوطية .

٧ - الفنون الهولندية

أحس الهولنديون البروتستانت بأثر عمارة كنيسة العصور الوسطى وزخارفها كانت أشكالا تغذى النفوس بما يؤيد الأساطير ويدعمها ، وتبطل الفكر وتعوقه ، ومن ثم عقدوا العزم على أن يعبدوا الله بالصلوات والعظات . لا بالفن ، ولم يحتفظوا في طقوسهم إلا بفن الانشاد . ولذلك كانت هندسة بناء الكنائس عندهم تسكاد لا تهدف إلا إلى البساطة الصارمة المطلقة . بل إن الكاثوليك أنفسهم لم يشيدوا في المقاطعات المتحدة كنائس جديدة بالذکر وفي القرن السادس عشر جلب تجار ما وراء البحار ، ربما من سوريا أو من

مصر ، فكرة القباب البصلية الشكل . وانتشر هذا الطراز من هولنده وروسيا إلى ألمانيا ، وأصبح أحد معالم عصر الباروك في أوروبا الوسطى .

إن رجال الأعمال ، لرجال الدين ، هم الذين سيطروا على هندسة البناء وعمدوا أول ما عمدوا إلى تشييد مساكن راسخة البناء لأنفسهم — تكاد تكون كلها متشابهة ، لا تبعث على الخوف مثل قصور فلورنسه ، ولا تثير الحقد والحسد ، لأن كل مظاهر البذخ والترف والفن كانت داخل جدران البيت ، وفي حدائق الزهور التي غنوا بها أكبر عناية . أما المثلثات المدنية فقد أباحوا فيها بعض الزخرف والآبهة . ففي دار البلدية التي شادها ليفن دي كي لمدينة أنتورب ، جمع في انسجام تام بين عناصر من فرنسا ومن ألمانيا ومن عصر النهضة ، ودار نقابة القضاة في هارلم ، التي شادها ليفن نفسه ، تضارع في فخامتها وأبهتها أية كاتدرائية قوطية . وتظهر دار البلدية في هارلم كيف أن هولنده طوحت الطراز الكلاسيكي (القديم) تماما حتى بات يتمشى مع أهدافها ونزعاتها .

وكان ميكلانجelo هولنده في العمارة والنحت في ذلك العصر هو هندريك دي كيزر الذي أصبح وهو في سن التاسعة والعشرين المهندس المعماري لمدينة أمستردام (١٤٩٤) ، وهناك صمم الكنيسة الغربية وسوق المال ومبنى شركة الهندسة الشرقية في طراز يجمع بين طرز إيطاليا وهولنده وعصر النهضة . وفي دلفت بنى دار البلدية والنصب التذكاري لوليم الأول ، وفي ١٦٢٧ في روتردام ، صب من البرونز تحفته الرائعة . ألا وهي تمثال أرزم الرائع الذي قبع ساكنا لم يمس بأذى لعدة سنوات بين أنقاض الحرب العالمية الثانية . ودمر بعض من أجمل المنشآت الهولندية التي يرجع تاريخها إلى تلك الحقبة نتيجة الاخفاق في إدارة شؤون الدولة .

وتألفت صناعة الخزف بين الفنون الصغيرة . وفي روتردام ودلفت سما الذوق الرفيع بصناعة القرميد حتى جعل منها فنا . وأقبل الناس على

استخدام خزف دلفت المزخرف في كل بيت في الأراضي الوطيفة تقريبا . وحوالى ١٦١٠ ، فور افتتاح التجارة الهولندية مع الشرق ، بدأ خزافو دلفت في تقليد الخزف الصيني ، وأنتجوا نوعا من السيوليك (خزف مزخرف مطلى بالطين) الرقيق الأزرق أسموه «البورسلين الهولندي»^(١٠٠) ، وسرعان ما عرض تصف أوروبا الغربية خزف دلفت على الجدران أو على الأرفف .

أما أعظم الفنون جميعا في الأراضي الوطيفة فكان الرسم . وليس في التاريخ المعروف لدينا بلد غير هذه البلاد . ولا نستثنى من ذلك إيطاليا النهضة . حظى فيه أى فن يمثل هذه الشعبية العارمة . وتضم فهارس الفن فيما بين عامى ١٥٨٠ — ١٧٠٠ خمسة عشر ألف رسم هولندي^(١٠١) ، وتأثر الفن الفلمنكى تأثرا شديدا بالفن الإيطالى ، ولكن في المقاطعات الشمالية أثارت المقاومة الموفقة لسلطان أسبانيا روحا قومية وكبرياء قومية ، لم تكونا تحتاحان إلا إلى النوة المستمدة من التجارة فيما وراء البحار ، لتحداثا انفجارا ثقافيا . فتحولوا بالفن إلى معارج جديدة من التطويع لحياتهم ومن الواقعية بعد أن كاهت تنقلص عنه تماما الرعاية الكنسية والأرستقراطية ، وأصبح رعاة الفن وحماته الجدد هم التجار وعمد المدن والمحامون والمؤسسات والنقابات والكوميونات والمستشفيات ، بل حتى المنشآت الخيرية ، ومن ثم كانت الرسوم الشخصية والرسوم الجماعية ومشاهد الحياة اليومية . وكان لكل مدينة هولندية تقريبا مدرسة الفنانين الخاصة بها ، تحت رعاية محلية : هارلم ، ليدن ، أوترخت ، أمستردام ، دوردرخت ، دلفت ، لاهاى . أما المواطنون البسطاء الذين ربما كانوا في بلاد أخرى أميين من حيث الفن ، عالة على الكنيسة ، فإنهم هنا زينوا بيوتهم بلوحات اشتروها أحيانا بثمان عالى ، من ذلك أن خبازا أثبت سلامة ذوقه ، بدفع ٦٠٠ فلورين (٥٧٠٠٠ دولار ؟) ثمنا لصورة واحدة للفنان فرمير^(١٠٢) ، وكادت التزعة الدنيوية أن تكون عامة شاملة ، فلم يعد للقديسين وجود فى الرسوم ، وجاء التجار ، وانتصرت رسوم البيت والحقل على الكنيسة وازدهرت الواقعية ، فنظر البرجوازي بشئ قليل من التقدير

إلى لوحة تمثله هو وزوجته ، ولكن السدود والكثبان الرملية وحطوا حين
الهواء والأكواخ والسفن الشراعية والأرصعة الزاخرة بالبضائع ، كل هذه
أحييت صورها على الجدران في سرور بالغ ، ذكريات أشياء فعلية عامة .
ولقيت مناظر السكرارى المرحين ورواد الخانات بل حتى المواخير ، ترحيباً
في بيوت ربما كانت تعلق منذ قرن مضى صبور الشهداء القديسين وأبطال
التاريخ أو آلهة الوثنيين . ولم تكن الصور العارية من سمات هذا العصر ،
حيث لم يتهج لها الناس في مثل هذا المناخ الرطب مع الأجسام الضخمة .
وبدا في هذه البيئة الجديدة أنه ليس ثمة محل لما تميز به الفن الإيطالي من عبادة
الجمال والرقّة والتهديب والوقار ، حيث لم تتطلب هذه البيئة من الفن شيئاً أكثر
من إخراج الحياة اليومية والمشاهد المألوفة .

وثمة جانب كئيب حزين في صورة الائمة التي أغرمت بالرسم إلى حد
الجنون . وذلك أن الفنانين الذين رسموا لها عانوا في أغلب الأحيان من الفقر
ولم يحظوا إلا بأقل التقدير . على حين أن الأرشيذوق واللوردات
والأساقفة في الفلاندرز أجزلوا العطاء لمن اصطفوا من الفنانين . أما في هولنده
فكانت المنافسة بين الفنانين فزدية ، فأنتجوا للسوق العامة ، ووصلوا في معظم
الأحوال إلى العملاء عن طريق وسطاء نشأوا بين المنتجين والمستهلكين
المشترين ، وعرفوا كيف يشترون بضمن بخس ويبيعون بسعر عال . وقبلنا
حصل الفنانون الهولنديون أثماناً عالية ، فإن رهبرانت في ذروة شهرته لم
يقبض إلا ١٦٠٠ جيلدر ثمناً للوحته « حراسة الليل » ولم يحصل فان جويرين
إلا على ٦٠٠ جيلدر ثمناً للوحته « منظر لاهاي » ، وحصل الباكون على أقل
من هذا بكثير ، فإن جان ستين رسم ثلاث صور شخصية مقابل ٣٧ جيلدر ،
وباع ايزاك فان أومستاد ثلاث عشرة صورة مقابل مبلغ مائل . وكان على
الفنانين الهولنديين أن يلبأوا إلى مختلف الأعمال ليكسبوا قوت يومهم ،
فباع فان جويرين الزنق ، واشتغل هو ببيعاً بعباية الضرائب ، وأدار ستين فرزلاً ،

وكان الفنانون أنفسهم من الكثرة إلى حد أنهم أغرقوا سوقهم وأتخموها .
أن قائمة بأسماء مشاهيرهم لثلاث صفحات ، وأن ثبنا بأعمالهم المكثوزة ليزحم
كتابا ، فهلا أزجينا لهم الشكر في الهامش (*) .

(*) — ألبرت كيب : رعاة يمزفون على المزمار (نيويورك)

- كارل فريتوس : صورة شاب (روتردام)
- جان فان جويين ، وهو أعظم هذه المجموعة : مناظر طبيعية غاية في الروعة ،
محفوفة في كثير من المتاحف ، من بينها قاعة كوركوران في واشنطن .
- ديرك هالس — الأخ الأصغر لفرانس : الصلبة المرحلة (لندن)
- جيرار فان هنتورست : حفلة موسيقية (أننجراد)
- توماس دي كيرز — ابن هندريك : صور شخصية جميلة في درسدن ، نابلي ،
اللاوفر ، نيويورك وسيفت لوحته « درس التشريح للدكتور فريج » ١٦١٩
بمن طويل ، لوحة ميرانت « درس التشريح للأستاذ تولب » ١٦٣٢
- كارل فان مائدر : كتب في ١٦٠٤ « كتاب رسامى الأراضى الوطية »
الذى كاد ينافس النموذج الذى احتذاء فاسارى .
- ميشيل فان ميرفات : صور شخصية في كثير من المتاحف
- أدريان فان أوستاد : غازفو السكان المعجأ والمخدون (كلاهما في نيويورك)
- ايزاك فان أوستاد : السوق (مجموعة ولاس)
- فرانس بورييس الأكبر : صورة سيد مهذب (مجموعة ولاس)
- فرانس بورييس الأصغر : صورة شاب (قاعة بقى)
- يتر بورييس : ولية مجازية (مجموعة ولاس)
- هركيليز بيجرز : منظر رينين (برلين)

٨ - فرانس هالس

(١٥٨٠ - ١٦٦٦)

عاش أسلافه لمدة قرنين من الزمان في هارلم . وكان أبوه قاضياً هناك ، ولكن لأسباب غير معروفة ولد فرانس في أنتورب ، ولم يعد إلى هارلم ليقوم فيها إلا بعد بلوغه التاسعة عشرة من العمر . ولم نسمع عنه شيئاً قط إلا في ١٦١١ ، حيث سجلت إحدى كنائس هارلم تعميد هرمان بن فرانس هالس وزوجه آنك . أما ما عرف عنه بعد ذلك ، فكان من سجلات محكمة شرطه (١٦١٦) حيث تروى أن فرانس هالس قبض عليه بتهمة ضرب زوجته ضرباً مبرحاً ، فأنب تأنيباً قاسياً ، ثم أفرج عنه بعد تعهده بأن يكون مهذباً وأن يتجنب صحبة السكارى . وماتت آنك بعد ذلك بسبعة شهور . وبعد خمسة أشهر أخرى (١٦١٧) تزوج فرانس من ليزبت رينيرز . وبعد تسعة أيام أنجبت له أول أولاده العشرة (١٠٤) . وقد خلف لنا لوحه رائعة تمثله مع زوجته الثانية (١٠٥) التي عاشت معه طوال السنوات الأربع والسبعين التي بقيت في حياته ، واحتملت أملاكه وعوزه ومكره وعربدته . وليس ثمة ما يجذب الانتباه فيه إلا أنه كان رساماً عظيماً ذا روح مرحة .

وكان قد بلغ السادسة والثلاثين حين حقق نجاحاً هائلاً في لوحته «مأدبة نقابة رماة سانت جوريس» (١٠٦) ، وهي إحدى لوحات «دولين» ، الجنس التي هيأت لفرانس مكاتنه العالية ، ويقصد بلفظ «دولين» ، مقر المتطوعين ، الذين مارسوا الرماية وأقاموا المباريات وعقدوا التذات الاجتماعية ، وكانوا بمثابة قوات نظامية في الكوميونات . وكان ضباط مثل هذه النقابات أحياناً يأجرون فنناً ليرسم لهم صورة جماعية ، ولكن يصير كل واحد منهم على أن يتناسب بروزه في الصورة مع رتبته في الجماعه ومع إسهامه في تكلفتها . فبنا هؤلاء الضباط في أبهى حلة ، يتجمعون حول مأدبة ، ويرفع أحدهم علم فرقته الغنى بالألوان . وحصل هالس على أجره لأن كلامه هذه الرؤوس فرد يمثل شخصية قوية ، تختلف عن الأخرى ، كما يمثل سيرة حياته وتحفة رائعة .

ولم نسمع عن مهمة مماثلة أخرى إلا بعد إحدى عشرة سنة من ذلك التاريخ، ولكن هالس أنتج في هذه الحقبة رسوما تعد من روائع الفن الهولندي . من ذلك ، بائع السردين^(١٠٧)، وهي مرة أخرى تاريخ يتمثل في وجهه ، ود الثالوث المرح ، ديونكر رامب وصديقتة ، وكلاهما في نيوبورك ، واللوحة المشهورة « الفارس الضاحك^(١٠٨) » - تتجسد فيها الثقة بالنفس ، في ثياب ذات أهداب مع طوف مكشكش حول العنق . وعبلة مزدانة بالأزهار ، وابتسامة تكاد تشبه ابتسامة الجيو كندا في رقتها . وفي هذه الفترة (١٦٥٤ ؟) رسم فزانس صورته الشخصية^(١٠٩) ، وجه قوى ملبح ، وعينان حزينتان تنكران زهو الملابس الجميلة والذراعين المطويين . لقد كان الرجل منهوكا تتقاذفه الهمّة على الإتيان والسكال ، والظلم إلى الخبز .

وفي ١٦٢٧ جماعت مجموعة دولين الثانية : لوحة أخرى ، لنقابة ضباط سان جوريس^(١١٠) ، ولم تكن في صفاء وإشراق اللوحة الأولى ، فإن هالس تحول عمدا ، ولبعض الوقت ، عن البريق الهاديء للألوان القوية إلى التلاعب الأشق بالأساليب الثانوية - الألوان النصفية (لاداكن ولا فاتح) والظلال الرمادية ومخطوط السكفافية الرقيقة . وثمة لوحة دولين أخرى في هذا العام ، نقابة رماة سانت أوريان^(١١١) ، وهي كذلك في أساليب مخففة . ولا بد أن الرماة اغتبطوا لأنهم كلفوا هالس أن يرسم لهم لوحة أخرى^(١١٢) . وهنا استرد الفنان ألوانه وأبرز عبقريته ليجعل من كل وجه شيئا متعا فريدا . وفي ١٦٣٩ رسم لوحة أخرى ، لضباط نقابة سانت جوريس^(١١٣) ، ولكن في هذه اللوحة ضاع الفرد في زحمة المجموع . ولكن لوحات الدوان هذه في جملتها أروع صور المجموعات في كل العصور ، هي توضح انطلاق الطبقة الوسطى على مدلنج الظهور الموسوم بالفخار والزهو ،

وفي الفترة الثانية (١٦٢٦ - ١٦٥٠) رسم هالس صورا تنادى بتخليد ذكرائها . منها د السكير المرح^(١١٤) ، يضع فوق رأسه قبعة كبيرة تكفي لتغطية ٣ - ٦ الحضارة

رقوس حشد من السكارى : ود الذى يعدو فوق الرمال ، (١١٥) ، وهو أشعت أغبر ، فى أسمال بالية ، ولسكنه فأتى ، ود المتشردة أو العجرية ، تبتسم وتنفخ فى اللوفر ، ود المهرج ، فى أمستردام ، وبلتازار كريمان الوهمى ، فى واشنطن أما تحفة فترة ذروة النضج هذه ، فهى لوحة هالس البانعة الالهيان ، القائمون على مستشفى سانت اليزابث (١١٦) ، ، وهى تماثل ، أولا تماثل لوحة رمبرانت منسوب بقابة تجار الالقصة التى رسمت بعدها بإحدى وعشرين سنة .

أن لمراف هالس فى الشراب بغير حدود . ولو أنه يبدو أنه لم يسىء إلى فنه ، أضر بموقفه حتى فى بلد وفى عصر لجأ فيه الناس إلى الشراب بين الحين والحين ابتعانا للروح والفرح . وظل يرسم صوراً ربما كانت كفيلى بأن ترفع أى فنان إلى قمة الشهرة : د ساحرة هارلم (١١٧) ، ، ود ديكارت (١١٨) ، الذى يحرر من الوهم ، فى حاجبين كبيرين وأنف ضخمة وعينين تمان عن الشك ، ثم رسم فى سن الثمانين صورة د شاب فى قبة مترهلة (١١٩) ، . ولسكن فى الوقت نفسه تكاثرت الأرزاء على الفنان ، ففى ١٦٣٩ أرسل ابنه ييتراالى مصحة الأمراض العقلية على نفقة البلدية ، وفى ١٦٤١ وضعت ابنته الكبرى المتمردة فى إصلاحية الأحداث بناء على طلب أمها . وما جاء عام ١٦٥٠ حتى كان فرانس معدماً . وفى ١٦٥٤ أقام الخباز المحلى ضده الدعوى يطالبه بسداد مائتى جلد وحجز على أدوات الرسام . وفى ١٦٦٢ توسل الشيخ الهرم المتهم للحصول على معونة وأجيب إلى طلبه . وبعد ذلك بعامين قرر له مجلس مدينة هارلم معاشاً سنوياً ، ووهبه فوراً ثلاثة أحمال من الخث ليوقد مدفأته .

ويحتمل أنه رغبة فى منح فرانس مزيداً من الصدقات ، كلف فى هذا العام (١٦٦٤) برسم لوحتين : د مديروا ملجأ الفقراء ، ود مديرات ملجأ الفقراء ، . ويظهر فى لوحة الرجال أثر اليد المضطربة للفنان فى سن الرابعة والثمانين ، فإن معظم التقاطيع والملاحع فيها ملطخة بشكل غامض ، على نقبض اللوحة الأخرى التى تمثل النساء ، فإنه مما يثير الدهشة أن المهارة القديمة عانت سيرتها الأولى :

فهنا خمس أنفس ارتسمت على خمسة وجوه ممثلة مذعنة ، خمس نساء عجائز
أرهقتهن الأعمال غير العادية ، عابسات متجهيات متزومات ، كما يقتضى نظامهن
البيوريتانى ، وقد نسين مرح الشباب وبهجته . ومع ذلك . يلقى بشكل ما فى
هذه التقاطيع السكالحة عطف هادى . ومشاركة وجدانية حزينة . وهاتان الصورتان
الآخرتان هما آخر لمسات جرت بها يد الفنان أو ومضات لمعت فى فنه ، وهما
الآن ، إلى جانب لوحات مجموعات الدوليين ، ، موجودتان فى متحف فرانس
هالس الذى شادته مدينة هارلم فى مكان ملاجأ الفقراء .

مات هالس فقيراً معدماً (١٦٦٦) ولكنهم احتفلوا بدفنه احتفالاً مهيباً
فى هيك كنيسة سانت بافون فى المدينة التى اعتمدت شهرتها على الحصار الذى
قاومته طويلاً ، وعلى أعمال أعظم أبنائها . ولمدة قرنين من الزمان بعد وفاته
كاد النسيان يحجر عليه ذيو له ، ويبيع لوحاته بأبخس الأثمان ، أو فى المزادات ،
أو بلا شئ مطلقاً ، وإذا كان مؤرخو الفن قد تذكروه . فاذك إلا لأنهم
تذهبوا إلى ضيق مجال فنه . فلم يكن ثمة صور دينية ولا أساطير ولا صور تاريخية
ولا مشاهد طبيعية ولا صور عارية . أو إلى المجلة المدموغة بالإهال والتهاون
فى طريقة عمله ، حيث لم يكن ثمة مخططات تمهيدية ، بل لطخات من ألوان متناثرة
اعتمدت على التخمين وعلى ذاكرة الرأى ليملاها بالتماصيل . واليوم يتعالى
الهتاف للفنان ، بشكل قد يكون مبالغاً فيه ، مما يتوازن مع طول إغفال شأنه
كما يعتبر نقد كريم أن هالس ألمع رسام للصور الشخصية رآه العالم (١٢٠) .
ومادام الزمن ، وهو أجدر القضاة بالنقطة ، يتذبذب فى حكمه ، فلننزع
نحن بالإعجاب .

٩ - رمبرانت هارمنزفان رين

١٦٠٦ - ١٦٦٩

ولد في ليدن لأب طحان ثرى ، هو جريث هامنز الذى أضاف إلى اسمه « فان رين » ربما لأن بيته كان يطل على نهر الراين . ولا بد أن الفنان أحب أباه حبا جما لأنه رسمه إحدى عشرة مرة أو أكثر ، فى قبعة ومسللة نخميتين (١) وكصراف نقود (١٢٢) وكسلا فى نبيل (١٢٣) - وجه قوى حسن التقاطع يحف به الوقار - ورسمه فى ١٦٢٩ رجلا علتة السنون بالكتابة والإرهاق (١٢٤) . كما رسم أمه اثنتى عشرة مرة ، أجدرها بالذكر لوحة « المرأة العجوز » فى متحف فيينا فالقة منهوكة وزاهى فى متحف أمستردام منكبة على الكتاب المقدس . وإذا كانت الأم - كما يعتقد البعض - « منوية » (تنسب إلى طائفة بروتستانئية منومة) فقد ندرك من هذا ميل رمبرانت إلى التوراة ، وصلته الوثيقة باليهود .

وفى سن الرابعة عشرة التحق بجامعة ليدن ولكمته أنعم النظر فى أشكال أخرى غير الافسكار أو الالفاظ ، وترك الجامعة بعد عام واحد ، وأقنع أباه بالسماح له بدراسة الفن . وخيرا ما فعل ، فإنه فى ١٦٢٣ أرسل إلى أمستردام ليقتلذ على بيتر لاستمان الذى كان يعتبر آنذاك آبلان (رسام إغريقى) العصر وكان لاستمان قد عاد من رومه إلى هولنده بتوكيد كلاسيكى على الرسم الصحيح ويحتمل أن رمبرانت تعلم منه أن يكون مخططا ممتازا . ولكن بعد قضاء عام واحد فى أمستردام عاد الشاب القلق مسرعا إلى ليدن متلهفا على الزسم بطريقته الخاصة . فرسم أو صور كل ما وقعت عليه عيناه تقريبا ، بما فى ذلك الخناقات الصاخبة والقذارات المخزية (١٥٢) ، وتابع النهوض بفنه عن طريق تجارب عزيزة لديه فى تصوير شخصه فكانت المرأة هى النموذج أمامه وترك لنا صورا شخصية (٦٢ على الأقل) أكثر مما ترك كثير من كبار الرسامين من صور . ومن بين هذه الصور الشخصية الأولى رأس جميل فى لاهاي : وهى لوحة تمثل رمبرانت فى الثالثة والعشرين ، وسيا مليحا بطبيعة الحال (وهذا هو

شأن كل المرايا - تظهرنا في أجمل صورة) يتطاير شعره هنا وهناك دون مبالاة ، في ترفع الشباب عن التقاليد والأعراف ، تنهى عيافه عن اليقظة والزهو بما ثبت من قدرته وكفايته .

والحق أنه كان بالفعل قد وطد مركزه . وفي ١٦٢٩ نقده أحد الخبراء ١٠٠ فلورين اجراً لصورة - وهذا أجر مناسب لمنافس صغير في بلد كان فيه عدد الرسامين كبيراً مثل عدد الخبازين ، ولا يمكنهم لا يشبعون بطونهم مثلهم . وكانت موضوعاته - بعد شغفه ووالديه - مأخوذة من الكتاب المقدس . وفي لوحته دأرميا - يرثي لخراب أورشليم^(١٢٦) ، تجلت الحالة الصوفية التي تميزت بها لوحات رمبرانت الدينية . أما لوحة ، سمعان في الهيكل^(١٢٧) ، فإنها تعبر تمييزاً صادقا عن روح ما جاء على لسان هذا الشيخ في الإنجيل : « الآن نطلق عبدك يا سيد حسب قولك بسلام » (لإنجيل لوقا ٥ : ٥٩) ، وكلف من أمستردام بأعمال كثيرة إلى حد أنه عاد إليها في ١٦٣٨١ . وقضى هناك بقية أيام حياته .

وفي خلال سنة من وصوله إليها رسم إحدى روائع الدنيا وهي « درس التشريح للأستاذ نيقولا تولب^(١٢٨) » ، وكان ثمة تشريحات كثيرة في التصوير الهولندي ، ولم تتمهن السوابق ، أو يחדش التواضع حين كلف الجراح الممتاز الذي كان أربع مرات عمدة لمدينة أمستردام ، رمبرانت أن يرسمه ، وهو يقدم عرضاً في التشريح في قاعة نقابة الجراحين ، معترفاً أن يهدي الصورة إلى النقابة تذكاراً لأستاذيته ، وربما كان دكتور تولب هو الذي اختار سبعة من الطلبة ، ليكونوا معه في الصورة ، وواضح أنهم لم يكونوا طلبة ، بل رجالاً ناضجين من ذوى المكانة في الطب أو في مجال آخر ، وانهز رمبرانت الفرصة ، كل الفرصة ، ليعزز الوجوه منالقة بالشخصية والذكاء . وتبدو الجثة منتفخة على نحو غير ملائمة ، واتخذ اثنان من المتفرجين وضعا تشهده الأجيال القادمة ، ويمضى دكتور تولب في عمله في هدوء رجل متمرس واثق . أما الرجلان اللذان

يحددان النظر فوق رأس الجثة فكانا يمثلان حب الاستطلاع والانتباه بأجلى ممانيهما ، وكان التلاعب بالضوء على اللحم والأطواق إعلانا عن ميزة رمبرانت .

وانهالت الطلبات على رمبرانت ، حتى بلغت أربعين في عامين . أما وقد امتلأت الآن جيوبه بالمال ، واستبد به الظمأ إلى النساء وفقد حان الأوان للزواج (١٦٣٤) . وكانت ساسكيا أولنبرخ ذات وجه جميل وعينين راقصتين وشعر حريري ناعم ذهبي اللون وقوام أهيئ و ثراء كاف ، وما أجمل صورة «ساسكيا» في مدينة كاسل الألمانية ، وكانت الابنة اليتيمة لحام وقاض ترى . وربما كان عمها - وهو وسيط في تجارة التحف الفنية - هو الذى أغراها بالجلوس أمام رمبرانت ليرسمها ، وكانت جلستان فقط كافيتين للتقدم لطلب يدها . وقدمت العروس صداقا قدره أربعون ألف جيلدر ، أصبح بذلك مفلس المستقبل واحدا من أغنى الفنانين في التاريخ . وأصبحت ساسكيا زوجة صالحة على الرغم من ثروتها . وتحملت في صبر وجلد عبقرية شريك حياتها المستغرقة في العمل . وجلست إليه ليرسم لها صوراً كثيرة ، ولو أنها أبرزت جسمها الآخذ في التفتح والامتلاء ، وكان يدثرها في أزياء غريبة ليرسم لها «فلورا آلهة الأزهار» المشرقة الباسمة الموجودة الآن في لندن ، و «فلورا» الحزينة ، الأبسط شكلا ، الموجودة الآن في نيويورك . وفي إحدى اللوحات في درسدن نراه وقد غمرته السعادة ، وهو يمسك بها وهي جالسة على ركبته ، تفيض منه الابتسامة على اللوحه ، رافعا كأمها عالية ابتهاجا بموفور الصبحه والمال .

وفي سنين اليسر هذه (١٦٣٤ - ١٦٤٢) أخرج الفنان التحفة تلو التحفة . واستمر يرسم نفسه . فنراه في «صورة الفنان» (١٦٣٤) وهي الآن في اللوفر - وسيما مبتهجا ، في قبعة مزدانة بالجواهر . وسلسلة ذهبية على صدره ، ورسم في السنة نفسها «الضابط» (١٦٣٩) ، - وهو فيها جميل مهيب يضع على رأسه قبعة تغزو العالم ، ورسم لنفسه في ١٦٣٥ صورة في قبعة رائعة يكاد ريشها يداعب

السماء . وصعبا وراء الشخصية الأجل ، (١٦٣٤) السيدة العجوز ، التي لا تبالي
بتأوهى معلقة في المتحف الوطني بلندن في وجه ملأته السنون بالتجاعيد .
وبعد ذلك بعام واحد رسم المرأة العجوز على الكرسي ذى الذراعين ، وهى
موجودة في نيويورك . وعثر في خرائب أمستردام على رجل في الثمانينات ،
ألبسه عمامة وثيابا ورسم له لوحة رجل شرقى (١٣٠) ، : وكان له ولع بجمع
الثياب والمجوهرات والسيوف والقبعات والأحذية الغربية ، تستطيع أن تراها
جميعا ، فيما عدا السيف في لوحة ديلينج (١٣١) ، بالاربطة والأشرطة على
قفازه ، والأهداب على ثيابه والتروس فوق خذائه . والآن أيضا ، رسم
موضوعات دينية عتيقة في صورة صادقة جديدة متخذة نماذجها من الرجال
العجائز والشابات اللاتي فابلن في الشوارع - كل منها تلفت النظر في أسلوب
من معالجة التفاصيل ، تأخذ بالالباب في التلاعب بالضوء ، وتثير المشاعر
بتدفق العاطفة فيها الى حد أن أية لوحة منها يمكن الدفع بأنها أبدع ما رسم
الفنان ، ومثال ذلك لوحة « توضيح إبراهيم » (١٣٢) ، الملاك روفائيل يهجر
طوبيا (١٣٣) . وجاءت هذه السنوات المباركة بعدد من أشهر الصور الشخصية
مثل « السيدة ذات المروحة » (١٣٤) ، و « الرجل ذو القفاز » (١٣٥) ، وكلتاهما تجل
عن الوصف ، وتقتصر عنها أية ألفاظ .

وآخر الرسوم في هذه الحقبة ، وربما أعظم انجازات رمبرانت على
الاطلاق ، هى اللوحة الضخمة (١٤ × ١٢ قدما) تعرف في التاريخ باسم
« حراسة الليل » ، والأكثر احتمالا أن اسمها « جماعة كابتن كوك الرماة » (١٣٦)
(١٦٤٣) . ولا ينقص هذه الرقعة الهائلة أية تفاصيل ، وليس فيها أى ظل
للظلام أو أى مسقط للضوء إلا حسب حسابه ، أو أى تباين في اللون
إلا وهو مدروس . ويقف الكابتن المزهو في الوسط في لون أسمر وأبيض
وأحمر ، وإلى يساره قائم مقام فى أحذية عالية وسترة وقبعة صفراء ذهبية اللون ،
والسيوف تبرق والرماح تلمع والأعلام ترفرف ، وإلى يمين الكابتن فرقة

الناى والطبول . وتغادر الجماعة مقرها إلى ما يبدو واضحا أنه عرض في أحد المهرجانات . وتعاقد مبررات مع كل من الأشخاص الستة عشر الذين سيصورهم ، على أن يدفع كل منهم مائة فلورين . وأحس كثير منهم بأن المساواة في الأجر لم تقابلها مساواة في التألق والعظمة في اللوحة ، وشكا بعضهم من أنه وضعهم في الظل ولم يسلط عليهم الأضواء ، أو أنه قصر في تحديد ملاحظهم حتى يسهل على أصدقائهم التعرف عليهم . ولم يشتد الطلب بعد ذلك على الصور الجماعية في رسمه ، وبدأ نجمه يأفل .

ولابد أن المال كان وفيراً لديه في ١٦٣٩ لآنة اشترى في تلك السنة داراً فسيحة في شارع جودن — بريد الذى كان يقطنه أثرياء اليهود . وكلفته الدار ثلاثة عشر ألف فلورين . وهو مبلغ ضخم لم ينجح قط في دفعه كاملاً . وربما قصد ألا تتسع لأسرته فحسب ، بل لتلاميذه ولرسمه ومجموعته المتزايدة من التحف القديمة والأشياء الغريبة والفن . وبعد دفع نصف ثمن الشراء في السنة الأولى من شغل الدار ، وبقاء النصف الثانى ديناً عليه ، ارتفعت فائدته التى لم تدفع إلى حد جره إلى هاوية الافلاس .

وفي الوقت عينه كانت صحة حبيبته ساسكيا آخذة في التدهور ، وكانت قد أنجبت له ثلاثة أولاد ، مات كل منهم في سن الطفولة . وهدت ولادتهم العسرة ونهايتهم الأليمة من كيائها . وفي ١٦٤١ أنجبت له لبناً أسماه تيتوس ، وقد بقى على قيد الحياة ، ولكن أمه فارقت الحياة في ١٦٤٢ . وأوصت بكل ما تملك إلى مبررات ، شريطة أن تؤول ببقية التركة إلى ولدها إذا تزوج والده ثانية . وبعد سنة من وفاتها رسم لها مبررات صورة من الذاكرة العامة بحبها . وكدرت هذه الخسارة صفو حياته . وبدأ منذ ذلك الوقت أن فكرة الموت تستبد به وتقلق . وعلى الرغم من أنه كان شديد التعلق بأسرته ، فإنه كان دائماً يؤثر الوحدة على الرفقة ، أما الآن فقد ، آوى إلى عزلة كئيبة . وكان وهو يرسم المشاهدين الأغرار عنه قائلاً : أن رائحة الطلاء

تضر بالصحة (١٣٧) ، . ولم يكن رجل الدنيا المثقف أو المذهب مثل روبنز .
وقرأ قليلا : ولم يكده يقرأ شيئا سوى الكتاب المقدس ، وعاش في ملكة
اللون والظل والضوء التي لا تنبس ببنت شفة . وهي متنوعة مثل دنيا الأدب
ولسكنها غريبة عنها فريدة . وكان من الصعب عليه أن يقوم بالواجبات
الاجتماعية إذا قدم عليه من يجلسون أمامه ليرسمهم ، أو أن يتبادل معهم
أحاديث قصيرة بقصد تسليتهم والاحتفاظ بسكونهم وهدوئهم . وقل المترددون
عليه حين وجدوا أن رمبرانت مثل معظم أسلافه ، لم يكن يرضى أن يرسم
لهم رسما تخطيطيا في جلسة أو جلستين ، ثم يكمل الصورة من هذا الرسم
التخطيطي ، بل أثر أن يرسم مباشرة على القماش ، الأمر الذي يتطلب جلسات
كثيرة ، هذا فوق أنه كان له طريقة انطباعية في أن يرسم ما يفكر فيه
أو يحس به ، لا مجرد ما يرى ، ولم تكن النتيجة دائما مرضية .

ولم يكن عوفاله أن تقع داره في حى اليهود . وكان قد عقد منذ ذلك
الوقت صداقات مع كثير منهم . وكان قد نقش صورة لنفسه بن إسرائيل
(١٦٣٦) . والآن في ١٦٤٧ حفر على الخشب الوجه الداكن للطبيب اليهودي
افرايم بونس . ولما كان الفنان محاطا باليهود من كل جانب تقريبا ، وواضح
أنه أحبهم ، فإنه وجد موضوعات تزايد يوما بعد يوم ، بين اليهود الأسباب
والبر تغالين في أمستردام . وربما تعرف على باروخ سبينوزا الذي عاش في
هذه المدينة من ١٦٣٥ . وذهب بعضهم إلى أن رمبرانت نفسه كان يهوديا .
وهذا غير صحيح لأنه عمد ونشأ على المذهب البروتستانتى . وكانت ملاحظته
تنطق بأنه هولندى ، ولكن لم يعرف عنه أى تحيز ملحوظ بالنسبة للدين
أو الجنس . وثمة عمق خاص لتفاهمه الموسوم بالعطف في رسومه لليهود .
لقد افتن بشيوخهم ولحاهم التي تقطر منها الحكمة وعيونهم التي تشف عن الحزن
والأسى . وإنك لتجد نصف العذاب النفسى عند العبرانيين ماثلا في وجه
« اليهودى العجوز » ، وهي اللوحة التي رسمها رمبرانت ١٦٥٤ والموجودة الآن

في الارميتاج (لننجراد) ، وفي لوحة د الخبر ، (الخاخام) (١٦٥٧) في لندن
وفي هذه اللوحة الأخيرة صورة الخبر الذي وأسى رمبرانت بعد وقوعه في
الضائقة المالية وأمدّه بمعونة مادية .

وزراه في ١٦٤٩ يرسم د هندريكا ستفلز في المخدع ، (١٣٨) ، ونذكر أنه
أخذ خليفة . وكانت وصيفة سرامكيا ، وبقيت مع الفتان الأارمل وعنيت به
عناية فائقة ، وسرعان ما سرت عنه بجرارة جسمها . أنه لم يتزوجها لأنه كره
أن يتخلى عن تركه سرامكيا لابنة تيتس الذي كان بعد صبياً في الثامنة من العمر .
وعندما رسم هندريكا في ١٩٥٥ (١٣٩) ، كانت جميلة بدرجة مقبولة ذات عيني
تلازمها لحفة مكتنبة ، وربما كانت هي التي جلست أمامه مرتين لتجربة
أو دراسة فن رسم العاريات : في ١٦٥٤ د باشيا في الحمام ، (١٤٠) و د امرأة
تخوض ، (١٤١) ، وكلتاها آية في العظمة من حيث الألوان والانتساع . وفي يولية
من هذا العام دعيت للمثول أمام شيوخ الكنيسة ، حيث أثبت تأنيبا قاميا على
اقترافها الزنى ، وحرمت من تناول القربان المقدس . وفي أكتوبر وضعت له
طفلا اعترف رمبرانت ببذوته ، ودبر أمر تعميده بسلام ، وعرف كيف يحب
خليطته حبا عميقا كما أحب زوجته ، وإلا كيف كان يتسنى له أن يملأ وجهها
بكل هذه الرقة حين صورها ١٦٥٨ في رداء أحمر يلتئم مع شعرها (١٤٢) .
وكانت زوجة أب فاضلة لتيتس الذي أخذ يتزعزع صلبا فائتا . ويمكن أن
تراه في متحف متربوليتان للفن ، وهو في الرابعة عشرة ، جميلا كالابنت ،
ذا عيني ت تمثل فيهما حيرة الشباب ، تريكة الحياة ، يجد شيئا من الطمأنينة
والآمان في حب أبيه ، وتراه مرة أخرى في مجموعة ولاس ، وقد سلخ عاما
آخر من العمر . وقد نتصور كل التصور كيف أنه كان عزاء وسلوى لأبيه
رمبرانت الذي انصببت على رأسه الكوارث المالية في هذه السنة .

وبذل الفنان جهداً جباراً ليقصده في الإنفاق ويصل إلى الموازنة بين موارده
ونفقاته . وثمة لوحات دينية عظيمة يرجع تاريخها إلى هذه الحقيقة — حقبة

الزنى والديون (١٦٤٩ — ١٦٥٦) منها « يعقوب يبارك حفدته »^(١٤٣) ،
 و « المسيح عند النبع »^(١٤٤) ، و « المسيح وامرأة سامراء »^(١٤٥) ، و « النزول
 من الصليب »^(١٤٦) . ومهما يكن من أمر فإن الصور الكنسية لم تكن مطلوبة
 في هولنده البروتستانتية . ومن ثم جرب يده في الأساطير ، ولكنه لم ينجح
 إلا حين استطاع أن يكسو الأشخاص . ولم تكن لوحة « دافاي »^(١٤٧) ،
 جذابة . أما « أدينا »^(١٤٨) ، و « مارس »^(١٤٩) ، فكانتا فريدتين في بابهما .
 وظل يرسم صوراً شخصية تأخذ بمجامع الألباب . فإن صورة « نيقولا
 برونيج »^(١٥٠) ، قد التقطت في لحظة مشرقة بالحياة والفكر . وصور « جان
 سكس »^(١٥١) ، تمثل عمدة المدينة الهولندية في ذروة قوته وأسعد أوقاته ، كذلك
 فإن رمبرانت رسم في هذه الفترة بعض أشخاص غير ذوات أسماء ، بعد دراسة
 عميقة : « الرجل ذو الخوذة الذهبية »^(١٥٢) ، و « الرأكب البولندي »^(١٥٣) ،
 و « كوزيلوس فاند المائة »^(١٥٤) ، وتبدو معظم اللوحات الشخصية الأخرى
 إلى جانب هذه ، ذات بريق سطحي .

وكان رمبرانت في سن الحسین حين وقعت الكارثة . أنه قلما اهتم بأن
 يحسب ماله وما عليه ، واشترى دون مبالاة الدار والفن ، بل أسهم شركة الهند
 الشرقية^(١٥٥) . والآن وقد تخلفت معونات نصرائه ورعانه كثيراً عن الوفاء
 بمتطلباته ، فإنه وجد نفسه وقد أثقلته الديون لدرجة تدعو إلى اليأس . وفي
 ١٦٥٦ ، ورغبة في حماية تيتس ، نقلت « محكمة الأيتام » في أمستردام ، ملكية
 البيت الأبيض إلى الابن ، ولو أنه سمح للوالد في الإقامة هناك لبعض الوقت .
 وفي شهر يولية أعلن إفلاس رمبرانت ، وبيع أثاثه ولوحاته ورسومه ومجموعاته
 في عجلة كلفته كثيراً (١٥٦٧ - ١٦٥٨) . ولكن العائدات كانت أقل كثيراً
 من أن تفي بالتزاماته . وفي ٤ ديسمبر ١٦٥٧ طرد من الدار ، فتنقل من بيت
 إلى بيت حتى استقر به المقام في روزنبراخت في « حارة اليهود » . وأخذ من
 هذا الحطام نحو سبعة آلاف فلورين من أجل تيتس ، الذي كون مع هندريكا
 رغبة منهما في حماية رمبرانت ، ثم كذا أمكن بواسطتها بيع أعماله الباقية دون

أن تؤول إلى دائئيه . ويبدو أنهما أوليا الفنان الذى تتقدم به السنون ،
عناية كبيرة .

واستمر رمبرانت وسط هذه البلايا والمحن ينتج الروائع : « رجل على
ظهر جواد » وقد بيعت حديثا إلى المتحف الوطنى فى لندن مقابل ٤٠٠ ألف
دولار ، واللوحة العجيبة « رأس رجل عجوز » (١٥٦) ، - وكأنه كارل ماركس
فى الثمانينات متحررا من الآوهام ، واللوحة الطبيعية المفعمة بالحوية بدرجة
مدهشه « امرأة تقص أظافرها » (١٥٧) ، - وربما تطلبت بعض الطقوس الدينية
تنظيف الجسم كله ليلة السبت . وربما رسم آنذاك أيضا بعض صور مروعة
للفنان نفسه مثل : « رمبرانت وكراسته رسومه التخطيطية » (١٦٥٧) ، وهى
موجودة فى درسدن ، ثم اللوحة الأكثر شهرة التى يبدو فيها وجهه العابس المتجهم
وجسمه البدين المدثر (١٦٥٨) وهى فى مجموعة فريك فى نيويورك ، وصورته
بكامل جسمه (١٦٥٩) وهى فى فيينا ، وصورة الوجه الذى يعرفه القلق
والهموم (١٦٥٩) فى واشنطن.

وفى العقد الأخير من عمره (١٦٦٠ - ١٦٦٩) سهر للبقاء على حياته
ابنه وخليته . ولكن كان مسكنه ضيقا ومرسمه سىء الإضاءة ، ولابد أن
يديه فقدتا بعض أترانهما وثباتهما نتيجة كبر السن والشراب ، فلوحة « القديس
مضى الإنجيل » (١٥٨) ، غير مصقولة فى تركيبها ، ولكن الملاك الذى يهمس فى أذنه
لم يكن سوى تيتس الذى بلغ الآن العشرين من العمر ، ولا يزال جميلا
كالعروس . ثم جاءت فى تلك السنة (١٦٦١) آخر رواائع الفنان : « خبراء
نقابة تجار الأقمشة » (١٥٩) ، فإن فاحصى القماش والمراقبين كلفوا الفنان بأن يخلد
ذكرهم بصورة جماعية تعلق فى دار رابطتهم . وربما كنا نغتفر بعض التردد
فى التركيب ، وبعض الفجاجة فى التفاصيل وبعض التقصير فى إسقاط الضوء
ولكن النقد فى حيرة من الأمر ليعثر على غلطة فى الصورة . فإن أمامية الصورة
وخلفيتها اللتين تمسكن منهما الرسام جعلتا الشخوص الخمسة الرئيسية تقفز إلى

عين الرائي ، كل منها شخص واحد منفصل ، ولكنهم جميعا التقطوا في نفس اللحظة الحية التي التقى فيها تفكيرهم . وفي كثير من اللوحات التي رسمت في سنوات التهدم والتدهور هذه ، يجد الخبراء علامات على إنبهار الطاقة ولإحطاط الأسلوب بساطة الألوان ، إهمال التفاصيل ، العجلة في جريان الفرشاة وعدم الصقل . ولكننا ، حتى في هذه الأيام نجد صوراً أخاذة ، مثل « عود السخى »^(١٦١) ، - وهي تشخيص لا ينسى للصفحة المحجب إلى النفس ، ود العروس اليهودية^(١٦٢) ، وتلك ثمرة عجيبة مذهشة تأتي من شجرة تذوى وتذبل .

ولكننا لم نذكر شيئا عن مناظر الطبيعة ورسومه وحفره . ولم يبرز أو يتفوق إلا القليل من المناظر الطبيعية ، ولكن الرسوم بلغت القمة بين مثيلاتها وثمة رسمان مشهوران : « مشهد أمستردام » ، بالقلم والخبر . الموجود في فيينا . و « المرأة العجوز جالسة » ، في برلين . ويعد إنتاجه في الحفر مضارعا لأحسن ما أنتج في أوانج هذا الفن الشاق المجد . وعرف أحد أعماله في هذا الفن « المسيح يشفى المرضى » ، بأسمه القطعة ذات المائة جيلدر ، لأنها اشترت بثمن لم يسبق له مثيل (١٢٠٠ دولار ؟) . على أن نسخة منها على أيه حال قدرت في ١٨٦٧ بمبلغ ٣٥ ألف فرنك (٢٠ ألف دولار ؟) .

أن ٣٠٠ من أعمال الحفر ، ٢٠٠ من الرسوم و ٦٥٠ من اللوحات منجزات رمبرانت لا تزال باقية ، تسكاد تكون مشهورة مثل شهرة روايات شكسبير ، وتسكاد تكون متنوعة أصيلة عميقة مثلها . وكلها تقريبا من صنع يديه . فعلى الرغم من أنه كان له مساعدون ، فإن أحدا منهم لم يشاركه سره في الكشف عما خفى وما لا يرى^(١٦٣) . وكانت بعض أعماله رديشة وبعضها منفرآ ، مثل « الثور المسلوخ » ، في اللوفر . وكان أحيانا يستنفد كل جهده في الأسلوب الفني وفي أحيان أخرى يتجاوزه من أجل الرؤيا ، أي رؤيا الفنان نفسه . . . وكان ، مثل الطبيعة ، يتخذ موقفا محايدا بين الجمال والقبح ، لأن الصدق عنده كان قمة

الجمال، وإن الصورة التي تمثل القبح حقاً وصدقاً هي صورة جميلة . وأبى أن يصفى أشكالاً مثالية على الشخص في لوحاته الدينية ، وأرتاب في أن يكون العبرانيون الوارد ذكرهم في التوراة على مستوى جمال اليهود في أمستردام ، فصورهم على هذا النسق ، ومن ثم أنبعثوا من عالم الأساطير أو التاريخ إلى الحياة . ولإزداد شيئاً فشيئاً مع تقدمه في السن ، حبه للسطاء من الناس حوله ، لاجب من جردهم السعى وراء الكسب من الروح الإنسانية . وعلى حين أن بعض الفنانين ، مثل روبنز ، التمسوا موضوعاتهم بين أرباب الجمال أو السعداء أو الأفوياء وأصحاب السلطان ، فإن رمبرانت كان يسخر بفنه الخنون على المنبوذين والمرضى والنساء ، حتى المشوهين ذوي العاقات ، وعلى الرغم من أنه لم يسخر من الدين أو يهزأ به ، فقد بدا أنه على غير وعى منه ، يحسد موقف السيد المسيح وويتان تجاه أولئك الذين أحفروا ، أو أبوا أن يشتركوا ، في صراع كل إنسان مع سائر بني الإنسان .

ولكن نظرة أخيرة عليه في صورته الشخصية في شيخوخته . وليس هنا زهو أو خيلاء ، بل على النقيض ، أنها قصة حياة الفنان بمرشاة هو ، في أيام الحية والهزيمة . أنه عندما صور نفسه ١٦٦٠ ، (١٦٣) كان لا يزال يواجه الحياة بمزيج من الشجاعة والاستسلام ، فإن الوجه القصير السمين غير الخليق كان ساخراً ولم يكن حزيناً ، وكان لا يزال يتحرك قدماً . ولكن في صورة أخرى (١٧٤) في نفس العام ، كانت ثمة نظرة قلقة حائرة تعتم الوجه ويكسوه بالتجاعيد حول الأنف الضارب للحمرة وفي ١٦٦١ رأى نفسه (١٧٥) في نفس الحيرة والإرتباك . ولكنه لم يبال بالتجاعيد بطريقة فلسفية . وصور نفسه في عامه الأخير (١٦٦) ، وكأنما وجد الظمأئذنة وهذوء البال في إرتضاء قيود الحياة وحدودها ومرحها الساخر . وماتت هندريكاً ١٦٦٢ ، ولكن ظل تبس يمتعه بمنظر الشباب ، وفي ١٦٦٨ ابتهج الشيخ العجوز بزواج ابنه . ولما لحق الابن بالخلابة في هذا العام نفسه ، فقد الفنان قدرته على التثبث بالحياة . وجاء في سجل

الوفيات في الكنيسة الغربية في ٨ أكتوبر ١٦٦٩ مبرانت فان رين - الرسام...
يترك طفلين .

وكاد معاصروه ألا يلاحظوا وفاته . ولم يحلم أحد منهم قط بوضعه في مرتبة
روبنز ، أو حتى فانديك . وكتب عنسه معاصره — جويشم (يواقيم)
فون ساندرا أن ما كان يعوزه أساسا هو المعرفة بإيطاليا وغيرها من الأماكن
التي تهيم الفرص لدراسة القديم ودراسة نظرية الفن . (ويبدو لنا الآن أن هذا
هو سر عظمته) . ولو أنه عالج أموره بمزيد من الحزم والتعقل ، وأبدى
مزيدا من البقا في المجتمع ، فلربما أصبح أكثر ثراء ، ولقد عانى فنه من ميله
إلى صحبة السوق^(١٦٧) . واتفق رسكين مع مؤرخ الفن الألماني حيث قال :
« أن الفظاظ والتبليد والتجرد من التقوى تعبر دائما عن نفسها في الألوان السمراء
والرمادية ، كما هو الحال مع مبرانت... أن هدف أحسن الرسامين أن يصوروا
ما تقع عليه أعينهم في وضع النهار أو في ضوء الشمس ، ولكن مبرانت
كان يسمى إلى رسم أفقر الأشياء التي يراها وأبشعها — في ضوء شمع »^(١٦٨) .
ولكن يوجين دى لاكروا الذي عكس التطورات الديمقراطية في فرنسا
قال : ربما يأتي يوم نجد فيه مبرانت رساما أعظم من رافاييل . وأنى لا كتب
الآن — دون تحيز — هذا التجديف الذي لا بد سوف يسبب إلتصاب شعر
الأكاديميين غضبا ودهشة^(١٦٩) . وينزع النقاد اليوم إلى رفع مبرانت فوق
مرتبة رافاييل وفلاكويز ومساواته فقط بالفنان الجريكو^(١٧٠) وإنا لنذكر أن
« الصدق ، هو وظيفة الزمن وتابعه .

أية سلسلة وأية هوة من روبنز إلى مبرانت — بين الضوء البهيج والظل
الكثيب ، بين الهاوية والحاشية ، بين نبيل أنتورب السعيد بانغمسه في اللهو
والفجور في وطنه في القصور مع الملوك ، ومفلس إمستردام الذي عرف أحط
الاعماق ، ولازم الحزن والأسى . إنك إذ ترى هذين الرجلين على أنهما عنصرى

طباقي في تناغم قوى ، إنما تحس بطريقة أخرى بعظمة أمه صغيرة صارت
إمبراطورية عملاقة ، كما تحس بتعقيد المدنية التي استطاعت أن تنتج ، في ناحية ،
ثقافة كاثوليكية تزين إبتهاج مذهبها الذي لا يرقى إليه الشك ، بالأساطير
وأضرحتهم العزيزة عليها بالفن ، وفي الناحية الأخرى ثقافة بروتستانتية
استطاعت أن تفدى وتربى أعظم فنان وأعظم فيلسوف في ذلك العصر .

الفصل التاسع عشر

ظهور دول الشمال

١٥٥٩ - ١٦٤٨

١ - الدنمرك دولة عظمى :

فلنلق نظرة على الخريطة . فإن الخرائط مثل الوجوه ، هى شارات التاريخ وتوقعاته .

عندما ارتقى فردريك الثانى العرش ١٥٥٩ كانت الدنمرك من أقوى الدول وأكثرها امتدادا فى أوروبا ، ولم تكن تعلمت بعد أنه من الخدق والحكمة أن تكون صغيرة . وفى الصراع الطويل الأمد بينها وبين السويد من أجل السيطرة على التجارة بين بحر الشمال والبلطيق ، كانت الدنمرك هى المنتصرة فى بداية الأمر ، حتى امتد حكمها عبر الاسكاجراك إلى النرويج ، وعبر السكاتينجات إلى ما هو الآن جنوب السويد . واستولت على المدن الاستراتيجية كوبنهاجن وهلسينور فى الجانب الغربى ، ودالمو وهلسنبورج فى الجانب الشرقى من الأوريسوند أو السوند - أى المياه العاصفة التى لا يزيد اتساعها فى مكان واحد فقط على ثلاثة أميال ونصف الميل . والتى تفصل الآن الدنمرك عن السويد . واستولت فى أقصى الشرق ، فى معظم هذه الفترة . على جزر بورنهم وجوتلاند وأوسل ، وبذلك تحكمت فى بحر البلطيق . وكانت تضم فى الجنوب دوقى شلزيج وهولستين ، كما حكمت فى أقصى الشمال الغربى أيسلند وجرينلاند وكانت الضرائب والرسوم التى فرضتها الدنمرك على التجارة المارة عبر المضائق بين البحار هى المصدر الأساسى لموارد المملكة والسبب الرئيسى فى حروبها . وكانت السلطة السياسية فى أيدي ثمانمائة من النبلاء ملكو نصف الأرض

وجعلوا من الفلاحين أرقاء ، وانتخبوا الملك ، وحكموا البلاد عن طريق الريشستاخ أو الديت الوطنى (الجمعية التشريعية) والريجستاد أو مجلس الدولة . وأفادوا من حركة الإصلاح الدينى بامتصاص معظم الممتلكات التى كانت تابعة للكنيسة من قبل . وفى مقابل إعفائهم من الضرائب ، كان متوقعا منهم ولكنهم رفضوا فى أغلب الأحيان ، أن يسلموا فلاحهم ويقودهم إلى الحرب ، إذا استفزهم الملك . ولم يحظ رجال الدين البروتستانت المحرومين من الثورة إلا بمكانة اجتماعية هزيلة ونفوذ سياسى ضئيل ، ومهما يكن من أمر فإنهم سيطروا على التعليم وأشرفوا على الأدب ، ومن ثم لم ينتج إلا لاهوتا وتراتيل . ونعم جمهور السكان . وقد بلغ عددهم نحو مليون ، بالاسراف فى الطعام والشراب ، حتى لقد نصح حلاق جراح عملاءه قائلا : « ليه لمن الأفضل للناس أن يشربوا الخمر إلى حد التل مرة فى كل شهر ، وعندى لهذا أسباب قوية ، فإنه يقويهم ويساعدهم على النوم العميق ، ويسهل التبول والتنفس ويحلب السعادة الرفاهية عامة (١) » .

وظهر فى هذه الحقبة شخصيتان ديمقيتان من حقهما على التاريخ أن يذكرهما : تيكوبراهى أعظم الفلاسفة فى هذا الجيل ، وكريستيان الرابع الذى لم يكن ملكا على الدنمرك لمدة متين عام (١٥٨٨ - ١٦٤٨) لحسب، بل كان يمكن كذلك أن يتزعم الناس بصرف النظر عن الأصل الملكى . ولأننا نمر مرورا بإعابرا بوالده فردريك الثانى لنذكر أن المهندس المعمارى الفلمنى أنطونيوس فان أوبرجر صمم له (١٥٧٤ - ١٥٧٥) حصن قصر كرونبورج فى هلسينبور - « السينور هملت » .

وعندما مات فردريك ١٥٨٧ كان كريستيان صبيا فى الحادية عشرة ، فتولى الحكم لمدة ثمان سنوات أربعة أوصياء من النبلاء ، ثم قبض كريستيان على زمام الأمور ، وطيلة نصف القرن التالى . نعم بحياة مترفة فى بذخ وحيوية ونشاط متعدد الجوانب ، بما أدهش كل أوربا ، وبز الملك توجيهات الحلاق

الجراح سالف الذكر ، لأنه كان بانتظام في حاجة إلى من يعاونه في العودة إلى قصره بعد أمسية صاخبة مخمورة . وبلغ دنسه وتهتكه جدالاً يتفوق عليه فيه إلا لقليل من رعاياه . وخلق عدد أولاده غير الشرعيين مشكلة في علم المحاسبة . وغض شعبه النظر عن هذه الأخطاء العادية ، وأحبوه لأنه كان يرقص في أعراسهم واشترك في أعمالهم وخاطر بحياته كثيراً لخدمتهم ، وأضاف إلى هذا كله معرفته باللاتينية والعلوم ، وتذوقاً مثقفاً للفن ، وعقيدة دينية ميسرة لم تثر أى جدل حول الجدير وغير الجدير بالتصديق والثقة ، أو أى وخز للضمير حول المزاح والهزل . وساعد في أوقات فرغه على أن يجعل من كوبنهاجن (مرفأً للتجار) إحدى العواصم الأكثر جاذبية وفتنة في أوروبا ، وضاعف برعايته للبناء من محيط المدينة^(١٢) وفي عهده شيد قصر روزنبورج ، وسرعان ما قامت بعده سوق الأوراق المالية (البورصة) بواجهتها الممتدة امتداداً كبيراً ، وارتفع برجها اللولبي عالياً . وأصلح كريستيان حكومة النزويج وطور صناعاتها وأعاد بناء عاصمتها التي حملت اسمه لمدة ثلاثة قرون : دكريستيانا ، (سميت أوسلو ١٩٢٥) . وفي القرنك أصّـلح الإدارة ونهض بالصناعات ونظم الشركات التجارية وأسس الكليات والمدن ، ورفع من مستوى الفلاحين في الضياع الملكية .

وأصاح الطمع بالملك ، ذلك أنه كان يرأوده حلم توحيد اسكنديناوه بأسرها تحت حكم رجل واحد ، أى تحت حكمه هو . ولكن النبلاء اعترضوا بأنه من المتعذر غزو السويد ، ولم يمنحوه تأييدهم وعونهم وشن بالجنود المرتزقة أساماً حرب السكلار على السويد (١٦١١ - ١٦١٣) . وما أن قامت حرب الثلاثين عاماً حتى وجد نفسه على كره منه ، متحالفاً مع السويد ، دافعاً عن قضية البروتستانت . وبرغم هذا الخطر المحدق به استأنف الحرب مع السويد (١٦٤٣) ولأنه كان في السابعة والستين من العمر . وقاد قواته الهزيلة في حمامة رومانيسكية . وفي معركة كولمبيرج البحرية (١٦٤٤) قاتل طوال يوم كامل على الرغم من أصابته بعشرين جرحاً ، وفقد إحدى عينيه ،

وأحرز نصرا مؤقتا . وثبت في آخر الأمر أن السويد أقوى ، وحررها
صلح برومسيرو ١٦٤٥ من دفع الرسوم على تجارتها في مياه السويد ، وتخلي
لها عن جوتلند وأوزل وثلاث مقاطعات في شبه جزيرة اسكنديناوه . وعندما
مات كريستيان الرابع ، بعد خمسين عاما من أعمال بناء وحروب هدامة
كانت مملكته أصغر مما كانت عليه حين اعتلى العرش . ودالت دولة الدنمرك
وسطوتها .

٢ - السويد : ١٥٦٠ - ١٦٥٤

١ - المذاهب المتصارعة : ١٥٦٠ - ١٦١١ :

فيما بين جوستاف فاسا مؤسس السويد الحديثة وجوستاف أدولف منقذ
البروتستانتية ومخلصها ، تلبد تاريخ السويد بسحب الصراع بين الشيع والدينية
من أجل السلطة السياسية . وكان الملك (الفاسا) الأول قد حرد السويد من
نير الدنمرك . ووحده البلاد تحت حكم ملكية وراثية قوية . على حين أن
أولييجاريات النبلاء ساعدت على ضعف الدنمرك وبولندية وعلى الاقطاع
فيهما . وكان الفلاحون في السويد أحراراً ، وكانوا يمثلون في مجلس الديت
(الركسداج) مع النبلاء ورجال الدين ويمثل المدين . وكانت لفظه
بوندي Bonde التي كانت تعني في الدنمرك الرقيق ، تعني في السويد لقباً كريماً
للرجل الحر الذي يفلح أرضه الخاصة به . ولكن المناخ كان يحد من موارد
الأرض بشكل قاس ، كما كان يحد منها قلة عدد السكان ، وسيطرة الدنمرك
على ثلاث مقاطعات في شبه الجزيرة الاسكنديناوية وعلى مياه السويد .
وامتلات قلوب النبلاء غيظاً بسبب خضوعهم من جديد للملك ، وكانت
الكنيسة قد جردت من أملاكها في السويد ، فدأبوا على تدبير المؤمرات
للاستحواذ على الشعب واسترداد أملاك الكنيسة والاستيلاء على العرش .

ولم يكن أريك الرابع عشر - ابن جوستاف فاسا - (١٥٦٠ - ١٥٦٨)

مؤهلا لمواجهة هذه المشاكل . لقد كان يتحلى بالشجاعة والمقدرة ولكن طمعه العنيف أفسد عليه دبلوماسيته ، وأدى به إلى القتل والجفون . وأثار حفيظة النبلاء بقتل خمسة من زعمائهم ، قتل هو أحدهم بيده . وواصل ضد الدنمرك د حرب السنين السبع الشمالية (١٥٦٣ - ١٥٧٠) . ومهد بغزو ليفونيا لحروب مقبلة . وفقر منه أخاه جون باعتراض سبيله في زيجة كان يمكن أن يجعل منه وريثا لعرش بولندة ، فلما تزوج جون ، رغم أنف أخيه ، من الأميرة كاترين جاجالون ، احتجزه أريك في قلعة جريشولم . وجاءت كاترين لتشاطر جون ويلاات السجن ، وأغرته باعتناق المذهب الكاثوليكي . وفي ١٥٦٨ أرغم أريك أخوته على التخلي عن العرش . وبعد ستة أعوام قضاها في السجن أعدم بأمر من الديت والملك الجديد .

وعقد جون الثالث (١٥٦٨ - ١٥٩٢) صلحا مع الدنمرك ومع النبلاء ، وأذكى نار الخلاف الديني من جديد . فإن زوجته كانت تغريه في الليل ، أكثر منها بالنهار ، باعتناق الكاثوليكية . وبإذن منه دخل الجزويت إلى السويد متنكرين ، وأخذ أقدرهم ، وهو أنطونيو بوسيفون ، على عاتقه تحويل الملك إليها ، وكان وخز الضمير قاسيا كلما تذكر جون موافقته على قتل أخيه ، وأن عذاب النار هو العقاب الذي لامفر منه لخطيئة مثل هذه . ولكن بوسيفون أغراه بأنه لا منجاة من هذا الجحيم الذي ينتظره إلا بالاعتراف وطلب الغفران في الكنيسة التي يعتقد الناس جميعا بأن السيد المسيح هو الذي أقامها . وأذعن جون وتناول القربان المقدس وفق الطقوس الكاثوليكية ، ووعد بأن يجعل الكاثوليكية دين الدولة شريطة أن يرخص البابا لرجال الدين السويديين في الزواج ، وأن يقام القداس باللغة الوطنية ، وأن يقدم القربان المقدس بالنبيذ والخبز على السواء . وقصد بوسيفون إلى رومه ولكن البابا رفض الشروط . فعاد الجزويتي صفر اليدين . وأصدر جون أوامره إلى الجزويت بتناول القربان بكلا نوعية وتلاوة القداس باللغة السويدية فرفضوا ورحلوا . وماتت كاترين الكاثوليكية في ١٥٨٤ . وبعد ذلك بعام واحد

تزوج جون من سيدة بروتسانتيّة ردتّه ثانية إلى المذهب اللوثرى ، فى الليل أكثر منها بالنهار .

وفى أغسطس انتخب لإبنه الكاثوليكيّ لعرش بولندة تحت اسم سيجسمند الثالث . ووفقا لقانون كالمز اتفق الوالد والولد على أنه بعد وفاة جون يصبح سيجسمند ملكا على بولندة والسويد معا . ولكن سيجسمند آلى على نفسه أن يحترم استقلال السويد السياسى والمذهب البروتستانتيّ . وعند وفاة جون (١٥٩٢) انعقد مجلس الديت تحت رئاسة أخيه الدوق شارل فى مدينة أبسالّا (٢٥ فبراير ١٥٩٣) وكان يضم ٣٠٠ من رجال الدين و ٣٠٠ من العلمانيين - النبلاء وممثلو المدن وعمال المناجم والفلاحين ، واتخذ مذهب أوجزبرج اللوثرى ١٥٤٠ مذهبا رسميا للكنيسة والدولة فى السويد . وأعلن هذا المجتمع التاريخى (مجمع أبسالّا) أن الأمة لن تتقبل غير اللوثرية وإن تتسامح مع غيرها ، وألا يعين فى المناصب الكنسية أو السياسية إلا اللوثرىون الأقحاح وألا يتوج سيجسمند فى السويد إلا بعد قبوله لهذه المبادئ . وفى الوقت نفسه اعترفوا بالدوق شارل نائبا للملك عند غيابّه عن العرش .

ولكن سيجسمند الذى تلقى تعليمه على أيديّ الجزويت ، كان يحلم بضم السويد وروسيا إلى حظيرة الكاثوليكية . ولما وطأت قدماه أرض ستوكهلم (سبتمبر ١٥٩٣) وجد كلّ الزعماء السويديين تقريرا مجمعين على طلب أوثق ضمان لإمتثاله لإعلان أبسالّا . وظل خمسة أشهر يبحث عن حل وسط ، ولكن الزعماء بقوا على عنادهم ، وجمع الدوق شارل جيشا . وأخيرا أعطى سيجسمند التعهد المطلوب ، وتوجه أسقف لوثرى فى أبسالّا (فبراير ١٥٩٤) . ولكن سرعان ما أصدر سيجسمند بيانا احتجاج فيه بأنه أكره على هذا التعهد تحت الضغط والتهديد ، وعين ستة من كبار الموظفين لحماية الكاثوليك الباقين فى السويد ، وفى أغسطس عاد أدراجه إلى بولندة .

وأعد الدوق شارل وأنجرمانوس رئيس أساقفة أبسالّا العدة لتنفيذ

قرارات المجمع . ودعا مجلس الديت في سودر كوينج (١٥٩٥) إلى القضاء على كل عبادة كاثوليكية ، ونفى كل الطوائف المعارضة المذهب البروتستانتي ، وأمر بأن يضرب بالعصا كل من يتخلف عن حضور الصلوات اللوثرية ، ووقع هو العقوبة بنفسه عند زيارته للسكنائس (٣) . وأغلق كل ما بقي من الأديار ، وأزيلت كل الأضرحة الكاثوليكية .

وتوسل إلى مجسمه من مستشاروه أن يغزو السويد بجيش كبير . ورأى هو أن خمسة آلاف جندي تنفي بالغرض . وخطر رحاله بهم في السويد (١٥٩٨) واشتباك معه شارل في متجبرج فوزم . وفي اشتباك آخر في ستانجبرو انتصر الدوق . ووافق مجسمه من جديد على إعلان أبسالا وعاد إلى بولنده . وفي يولية ١٥٩٩ خلعه الديت السويدي ، وأصبح الدوق شارل الذي ما زال نائبا للملك ، الحاكم الفعلي للدولة . وأقر مجلس الديت (١٦٠٤) قانون الوراثة الذي نص على ألا يتولى العرش إلا كل ذكر أو أنثى من أسرة فاسا يرتضى العقيدة اللوثرية المقررة وأن كل مخالف لها لا يحق له الإقامة أو التملك في السويد . فمكل أمير ينحرف عن مبادئ أوجزبرج لابد بطبيعة الحال أن يفقد تاجه (٤) ، ومن ثم كان الطريق معبدا لاعتلاء جوستاف أدولف ابن شارل عرش السويد ، ولتخلي حفيده كريستينا . وفي ١٦٠٧ توج شارل التاسع ملكا .

وأصلح شارل الحكومة المختلفة ، ونهض بالتعليم والتجارة والصناعة ، وأسس مدن كارلستاد فيلبستاد وماريستاد وجوتبورج ، وهيأت هذه الأخيرة للسويد منفذا طيبا إلى بحر الشمال ، متغلبة بذلك على سيطرة الدنمرك على المضائق . وأعلن كريستيان الرابع الحرب (أبريل ١٦١١) وغزا السويد . وتحدى شارل ، وهو في الحادية والستين من العمر ، كريستيان لمبارزة فردية . فرفض هذا الأخير . ومات شارل في أكتوبر ١٦١١ ، والقتال على أشده ، ولكن قبل موته وضع يده على رأس ابنه وقال « أنت لها » . وقد كان لها فعلا (٥) .

٢ - جوستاف أدولف ١٦١١ - ١٦٣٠ :

وكان أعظم شخصية رومانتيكية في تاريخ السويد ، وهو في سن السادسة عشرة آنذاك . وكانت أمه ألمانية ، ابنة الدوق أدولفوس هولتين جوتورب . ولقنه أبوه وأمه تعليما صارما في اللتين السويدية والألمانية وفي المذهب البروتستانتى . وما أن بلغ الثانية عشرة حتى كان قد درس اللاتينية والإيطالية والهولندية . والنقط بعد ذلك شيئا من الإنجليزية والأسبانية ، بل حتى البولندية والروسية ، وأضيف إلى هذا كله جرعة قوية من الأدب القديم انسجم مع تدريبه في الألعاب الرياضية والشئون العامة وفنون الحرب وبدأ في سن التاسعة يشهد جلسات الديت ، وأستقبل السفراء في الثالثة عشرة وفي الخامسة عشرة حكم لإحدى المقاطعات ، وفي السادسة عشرة اشترك في القتال . وكان طويل القامة وسيما دمثا كريما رحيما ذكيا ، باسلا . وماذا يتطلب التاريخ أكثر من هذا في الرجل ؟ وكانت له في السويد شعبية عارمة إلى حد أن أبناء النبلاء الذين أعدمهم شارل التاسع بتهمة الخيانة ، سارعوا طائعين مختارين إلى خدمته .

ولم تبرز في جوستاف أدولف نزعة آل فاسا إلى المزاج الفردى والعنف ولكنها برزت في حبه للجروب . لقدورث عن أبيه حرب الحكم ضد الدنمرك ، فشن الحرب عليها في حماسة بالغة ولكنه أحس بأن هذه الحرب تسلك مسيلا بعيدا عن الرشاد والسداد ، فدفع للدنمرك في ١٦١٣ مليون طالير (عملة ألمانية قديمة - ١٠ مليون دولار) مقابل السلام بينهما ومقابل حرية السفن السويدية عبر المضائق ومياه السوند . وفي هذه المرحلة من نشاطه كان مهتما بإبعاد روسيا عن البلطيق ، فكتب إلى أمه يقول : « إذا أدركت روسيا قوتها في أية لحظة ، فإنها لا تستطيع اجتياح فنلندة (وكانت آنذاك جزءا من السويد) من الجانبين فحسب ، بل تستطيع كذلك حشد أسطول في البلطيق ، يعرض أرض الأجداد للخطر » (٦) فأرسل أعظم قواده دهام - جاكوب

دى لاجاردى - ليغزو انجريا ، وفي ١٦١٥ حاصر بنفسه بسكوف . وكانت المقاومة الروسية مرهقة واسكن بالتهديد بالتحالف مع بولنده ، استطاع جوستاف أن يقنع القيصر ميكائيل رومانوف بعقد صلح (١٦١٧) يعترف بسيطرة السويد على ليهونيا واستونيا وشمال غربى انجريا ، بما فى ذلك لاتفيا الحالية . وسدت بذلك منافذ البلطيق أمام روسيا . وكان جوستاف يفخر بأن روسيا لا تستطيع تسيير سفينة واحدة فى البحر دون إذن من السويد .

ثم ولى وجهه شطر بولنده حيث كان مليكها سيجسمند الثالث لا يزال يطالب بعرش السويد . وكانت الكاثوليكية آنذاك منتصرة فى بولنده ، ومتلفه على فرصة تسخ للسيطرة على للسويد ، وفوق ذلك كانت بولنده بما لها من ثغور قوية فى دانزج وميل وليبو وريغا ، منافسا أقوى من روسيا ، فى السيطرة على البلطيق والتحكم فيه . وفى ١٦٢١ قاد جوستاف ١٥٨ سفينة و ١٩ ألف جندي لحصار ريغا التى كان يمر بها ثلث صادرات بولنده ، وكانت غايبه سكانها من البروتستانت ، وقد لا يستامون من غزو سيد أجنبي لها . فلما استسلمت دون مقاومة ، عاملها جوستاف فى رفق ولين ليضمن وقوفها إلى جانبه ، وفى أثناء الهدنة التى استمرت ثلاث سنوات مع بولنده ، استطاع هو أن يقوى روح جيشه وضبطه ونظامه ، وجعل - مثل معاصره كرومويل - من التقي والورع أداة للخلق العسكرى . ودرس فن مورييس ناسو العسكرى ، وتعلم كيف يمكن كسب المعارك بسرعة الحركة وبالاستراتيجية البعيدة النظر . واستقدم من هولنده خبراء فنيين ليعلموا رجاله تكتيك الحصار واستخدام المدفعية . وفى ١٦٢٥ عبر البلطيق مرة ثانية واستولى على دوريات ، وثبت سيطرة السويد على ليفونيا ، وأوصد البلطيق تماما فى وجه لتوانيا . وبعد سنة أخرى أخضعت جيوشه بروسيا الشرقية والغربية ، وكانتا خاضعتين للتاج البولندى . ولم تصمد سوى دانزج . وصارت الأقاليم المفتوحة مقاطعات سويدية وطرد منها الجزويت . وجعلت اللوثرية المذهب الرسمى . وكانت

أوروبا البروتستانتية تنو إلى جوستاف ، على أنه منقذها المنتظر في الحرب الكبرى التي كانت تحتاج ألمانيا آنذاك .

وفي أوقات السلم واجه جوستاف مشكلات الإدارة الداخلية بذكاء وحكمة أقل منهما في الحرب . وكان أيام غيابه في المعارك يعهد بحكومة البلاد إلى النبلاء وكان يبيع لهم ، ضمانا لولائهم ، احتكار المناصب وشراء أراضى التاج الشاسعة لقاء ثمن زهيد . ولكنه وجد فسحة من الوقت لتثبيت دعائم الموارد المالية وإعادة تنظيم المحاكم والخدمات البريدية والمستشفيات وتحسين أحوال الفقراء . وأسس المدارس المجانية وجامعة دوربات ، وأغدق بسخاء على جامعة أوبسالا ، ونهض بالتعدين وعلم المعادن . ولم يكن نجاحا يسيرا ، من بين ما حققه من نجاح في مجالات مختلفة ، أن السويد توافرت فيها الموارد والخبرات والمهارة لصناعة الأسلحة . وشجع التجارة الأجنبية عن طريق منح الاحتكارات ، ومنح شركة البحار الجنوبية السويدية امتيازاً . وروع وزيره أوكسنستيرنا ، الذي عرف بهدوئه في مواجهة الأزمات ، بطاقة مليكة ونشاطه فقال : « إن الملك يشرف على المناجم والتجارة ، والصناعات والجمارك ويوجهها كما يدير موجه الدفة سفينته^(٧) ، وتوصل إلى جوستاف أن يخفف من نشاطه ، فأجابه الملك بقوله : « لو كنا جميعا في مثل برودتك لتجمدنا ، فرد عليه الوزير بقوله « ولو كنا جميعا في مثل حرارة جلالتمكم لاحترقنا^(٨) » .

وكان الآن لزاما أن تهدس الحى المدمرة التي تضطرم بين جنبي الفارس السويدي إلى « حرب الثلاثين » ، فقد قال : « إن كل حروب أوروبا يعلق بعضها ببعض^(٩) ، وكان قد لحظ بقلق بالغ انتصارات ولنشتين وتقدم جيوش آل هيسبرج في شمال ألمانيا وانهايار مقاومة الدنمرك ، وتحالف بولنده مع النمسا ، وهما كاثوليكيان ، ومن ثم فسرعان ما قد تسعى قوات آل هيسبرج إلى السيطرة على البلطيق . وبذلك قد تصبح تجارة السويد وعقيدتها وحياتها تحت رحمة الإمبراطورية والبابوية . وفي ٢٠ مايو ١٦٢٩ أرسل جوستاف إلى مجلس الديت السويدي تحذير من خطه ولنشتين في أن يجعل من البلطيق

بحيرة يتحكم فيها آل هبسبرج . وأوصى بالهجوم على أنه خير وسيلة للدفاع ، وأهاب بالأمة أن تهب لمساندته وتمويل دخوله في معركة فاصلة (هر مجدون مع سهل مجدو - العهد الجديد رؤبا يوحنا ١٦ : ١٦ - معركة فاصلة بين الخير والشر) تحدد مصير المذاهب اللاهوتية . وكانت السويد مثقلة فعلا بأعباء حملاته ، ولكن مجلس الديت والشعب إستجابا لندائه وبمعونة ريشايو أقنع بولنده بعقد هدنة مدتها ست سنوات (سبتمبر ١٦٢٩) . وقضى تسعة شهور في جمع السفن والمؤن والجنود والحلفاء . وفي ٣٠ مايو ١٦٣٠ خطب في الديت خطبة وداع مؤثرة بليغة ، وكأنما كان قلبه يحذثه بأنه لن يرى السويد ثانية . وفيما بين ٢٦ - ٢٨ يونية ألقت سفنه مراسيها على جزيرة على مسافة من شواطئ بوميرانيا ، وأنطلق جوستاف إلى ساحة المجد والموت معا .

٣ - الملكة كريستينا ١٦٣٢ - ١٦٥٤ :

عين جوستاف ، عندما كانت ابنته وريثة عرشه طفلة في الرابعة - واحدا من أقدر رجال الدولة والسياسة في هذا العصر الزاخر بالعباقرة . هو الكونت أكسل أو كسنسترا ، وصيا . وقد وصفته كريستينا فيما بعد بقولها : « لقد درس وتعلم كثيرا في شبابه ، ودأب على الدرس في زحمة العمل . وكانت قدرته ومعرفته بشئون العالم وأحواله عظيمتين جدا . وعرف مواطن القوة والضعف في كل دولة في أوروبا . وكان طموحا ، ولكنه كان كذلك مخالصا غير قابل للفساد أو الرشوة ، ومن ناحية أخرى بطيء متوان بارد المزاج لا يبالى ، إلى حد كبير ، (١٠) . وعرف عن الكونت أنه - صموت ، وأما عدم إفصاحه عن شيء ، حتى وهو يتحدث ، فهذا هو نصف في الدبلوماسية . وعلى مدى عامين حكم الكونت السديد حكما صالحا حين كان الملك جوستاف يخرج للحرب في أماكن بعيدة . ثم ، بوصفه وصيا على كريستينا ، وجه جيوش السويد في ألمانيا ، كما أدار دفة الأمور في الداخل ، ولم تنعم أية دولة في أوروبا طيلة هذه الأعوام الاثني عشر بحكومة أفضل من حكومة السويد . وفي ١٦٤٣ صاغ ما يعرف « بشكل الحكومة » حدد فيه تشيكيل كل فرع في الإدارة وصلاحياته وواجباته . وهذا هو أقدم نموذج معروف للمستور مسطور .

وفي ١٦٤٤ أحست كريستينا ، وهي الآن في ربيعها الثامن عشر ، أنها قادرة على حكم هذه الأمة الشديدة الحساسية النابضة بالحياة ، والتي بلغ عدد سكانها المليون ونصف المليون من الأنفس . والحق أنها تحملت بكل قدرات ومواهب رجل ذكي مبكر النضج . وقالت هي عن نفسها : « خرجت إلى الحياة وكل سلاحى شمرى ، وكان صوتى قويا خشنا ، بما جعل النساء يفكرن أنى صبي ، وعبرن عن فرحن بهتافات ضللت الملك فى أول الأمر (١١) . » . وقابل جوستاف نبأ اكتشاف أنها أنثى فى رجولة مهذبة ، وأحبها حبا عميقا حتى بدا أنه راض عن أن تكون هى وريثة سلطانه وعرشه . على حين أن أمها ماريا الينورا أوف راندنبرج لم تغفر لها قط كونها أنثى . وربما أسهم استياء الأم فى أن كريستينا صارت أكثر شبا بالرجل قدر ما كان يسمح لها جسمها وتكوينها بذلك ، فأهملت شخصها عن عمد ، واحتقرت الزين ، وأقسمت كما يقسم الرجال ، وأحبت أن تترى بزيمهم ، واعتادت على ألعابهم ، وركبت منفرجة الساقين بأقصى سرعة ، وأصطادت فى تهـور واندفاع ، وجندلت فريستها من أول طلقة . ولكنها كانت تقول : « لم أقتل مرة حيوانا إلا وأحسست بالشفقة نحوه (١٢) . » .

وعلى الرغم من هذا كله ، تحملت فى كريستينا بعض مفاتن النساء . وفى ١٦٥٣ كتب بيرهيوت الذى أصبح فيما بعد أسقف آفرانش يقول : « وجهها دقيق جميل ، وشعرها ذهبى وعيناها براقتان . . . يرسم التواضع على وجهها ، ويبدو عندما تحمر وجنتها خجلا لدى سماع أية لفظة نابية (١٣) . » . وقال قسيس الاعتراف الجزويقى لدى السفير الأسباني : « ولم تكن تطيق فكرة الزواج ، لأنها ولدت حرة طليقة ، ولسوف تموت حرة طليقة كذلك (١٤) . » . ويبدو أنها كانت تحس أن الاتصال الجنى ليس بالنسبة للمرأة إلا ضربا من المذلة والهوان . ولا ريب فى أنها أدركت — كما أدركت اليزابث ملكة إنجلترا ، أن زوجها لا بد أن يطمع فى أن يكون ملكا . وكانت تعى أخطاها بشكل بالغ الحساسية وتعترف بها فى شجاعة وجرأة . كفت قليلة الثقة بالناس ،

شكاكة طموحة إلى حد الافراط ، حادة الطبع ، نفورة مغرورة ، هزدرية للناس ، هجامة ، لم أرحم أحدا ، مغطورة على الشك ، قليلة التعصب أو التحمس للدين (١٥) ، ولكنها كانت كريمة إلى حد الإسراف ، مخلصه في عملها . ويقول القسيس الجزويتي : كانت لا تنام أكثر من ثلاث أو أربع ساعات ، فإذا استيقظت قضت خمس ساعات في القراءة . ولم تشرب قط إلا الماء القراح ، ولم تسمع قط تتحدث عن طعامها أهو جيد أم رديء الطهي ... وكانت تحضر إلى مجلسها بانتظام ... وافتابتها الحمى مرة لمدة ثمانية وعشرين يوما لم تهمل فيها قط شؤون الدولة ... واتصل السفراء بها وتعاملوا معها مباشرة ، فلم يمروا قط يوما على سكرتير أو وزير (١٦) .

ولم تتطالع إلى أن تنافس الشبان في ألعابهم ورياضتهم ، ورجال البلاط
في مجال السياسة فحسب ، بل أنها أرادت كذلك أن تنافس العلماء في علمهم ،
لا في اللغات والآداب وحدها ، بل في العلوم والفلسفة أيضا . وما أن بلغت
الرابعة عشرة حتى كانت قد درست الألمانية والفرنسية والإيطالية والأسبانية
وفي الثامنة عشرة درست اللاتينية ، وبعد ذلك بقليل اليونانية والعبرية والعربية ،
وقرأت للشعراء الفرنسيين الإيطاليين وأحببتهم ، وحسدت فرنسا على
مدنييتها التي تفيض حيوية ونشاطا ومرحا . ورأست في لفظة وحمامة ،
الباحثين ، ورجال العلم والفلاسفة في عدة بلاد ، واجعت مكتبة ضخمة تضم
مخطوطات قديمة نادرة ، هرع الطلبة للرجوع إليها والتزود منها من كل حذب
وصوب . وعند وفاتها تأثر الخبراء بذوقها الرفيع الذي تجلّى في اقتناء اللوحات
والتماثيل والق قطع الفنية المزخرفة بالمينا والمنقوشة على الخشب والمعدن ،
والتحف الأثرية . لقد جمعت العلماء ، كما جمعت روائع الفن . وتأقت إلى رؤية
العلماء والنقاد والمفكرين يحيطون بها ، وجذبت إلى بلاطها كلوديوس سألما
سيوسي وايزاز فوسيوسي . وهـوجو جروشيوس وليقولاهيسيوس ،
وأجزلت لهم العطاء في سخاء . ومن لم يستطع منهم الحضور أرسلوا إليها
كتبهم مع شكرهم وتقديرهم — مثل سكانرون وجي دي بلزاك ومد موازيل

١٢٤

دى سكود يرى . أما ملتون الوقور فإنه - على حين كان يثمن هجوما عنيفا على سالما ميسوس سالف الذكر - صرح بأنها د صالحة لحكم العالم بأسره ، لا أوربا وحدها^(١٧) . وأرسل إليها بسكال آلهة الحاسبة مع رمالة بالغة الرقة يهبتها ويمتدحها بأنها متربعة على عرش ملكة العقل والحكم معا^(١٨) .

وكان غرامها شديدا بالفلسفة ، ورأى جاسندى ، الذى هناها - كما هناها مائة غيره ، بأنها حققت حلم أفلاطون فى وجود ملوك فلاسفة . وجاء فيلسوف العصر المشهور ، رينيه ديكارت ، ورأى ، وعجب إذ سمعها تستنتج أفكاره الأثيرة لديه عن أفلاطون^(١٩) . فلما حاول أن يقنعها بأن كل الحيوانات آلات ، ردت عليه بقولها أنها لم ترقط ساعة يدها تلك ساعات د أطلا^(٢٠) ، أى ساعات صغيرة . ومثل هذا كثير فيما بعد .

ولم تهمل كريستينا المواهب المحلية . فقد كانت السويد متعددة جوانب الثقافة الحقة . فكان جورج ستجرنهم عالما لغويا . متضلعا فى القانون ، من رجال العلوم ، رياضيا ، مؤرخا ، فيلسوفا ، أبا للشعر السويدي . ومركزا للحياة العقلية فى هذا العصر . وأعجت به جوستاف أدولف فرفعه إلى مرتبة النبلاء . وعيسته كريستينا شاعر البلاط ، حتى لحق بأعدائها^(٢١) .

وفتنت بنظريات جون كومنيوس فى التربية ، فاستقدمته إلى ستوكهلم ليصلح نظم التعليم فى السويد . ومثما فعلت إيزابيث بالنسبة لأكسمورد وكمبردج ، زارت كريستينا جامعة أوسلا لتشجع بحضورها الأساتذة والطلبة ، وامتدعت إلى سترنهم وغيره يحاضرون فى النص العبرى للتوراة . وشادت كلية فى دوريات وأهدتها مكتبة ، وأسست ستة كليات أخرى . وطورت إلى جامعة ، السكلية التى كان أبوها قد أسسها فى آبر (توركو) فى فنلندة . وأرسلت الطلبة للدراسة فى الخارج ، وبعثت بنفر منهم إلى شبه جزيرة العرب ليدرسموا علوم الشرق . واستقدمت بعض الهولنديين المشتغلين بالطباعة ليؤسسوا دارا للنشر فى ستوكهلم . وشجعت زجال العلم السويديين على الكتابة باللغة

الوطنية ، حتى ينتشر العلم بين أفراد الشعب . ولا نزاع في أنها كانت من أعظم الحكام المستنيرين في التاريخ .

وهل وهبت هذه الملكة عقلا خاصا بها ، أم أنها كانت مجرد وعاء لا يميز تتدفق فيه كل التيارات العقلية والفكرية التي تدور حولها ؟ لقد انعقد الاجماع عن أنها فيما يتعلق بالحكومة كانت تتصرف بمحض تفكيرها ، وصنعت قراراتها بنفسها ، وحكمت وملكت سواء بسواء (٢٢) . وسنرى في فصل لاحق كيف أنها اعترضت على سياسة أوكسنسترن العسكرية ، وكلفت من أجل السلام ، وساعدت على انهاء حرب الثلاثين عاما . إن قصاصات مذكراتها فائقة المفعمة بالحياة ، وليس في الحكم والأمثال التي تركتها بخط يدها شيء مبتذل ، ومثال ذلك :

إن قيمة المرء على قدر ما يستطيع أن يحب .

ويحذر أن نخشى الحق البلاء أكثر مما نخشى الأوغاد .

إنك تسمى إلى الناس إذا لم تخدعهم .

المواهب الخارقة جريمة لا تغفر .

هناك نجم يوحد بين الناس من الطراز الأول ، رغم أن العصور والمسافات تفرق بينهم .

أن الزواج ليحتاج إلى شجاعة أكثر مما تحتاج الحرب .

إن المرء ليرتفع فوق كل شيء إذا لم يخشى شيئا ، ولم يحسب لأي شيء حسابا .

إن الذي يغضب من الدنيا أشبه بمن تعلم كل ما تعلم دون هدف أو غاية .

إن الفلسفة لا تغير الناس ولا تصلحهم (٢٣) .

وأخيرا ، وبعد اختيار عدد من الفلسفات ، وربما بعد أن امتنع عن أن تكون مسيحية ، أصبحت كريستينا كاثوليكية أنها متهمة بأنها رفضت

لبان الاتحاد والكفر من طيبيها بورديلوت^(٢٤) . وذهب مؤرخ سويدي - وكرر فولتير قوله^(٢٥) - إلى أن تحولها إلى الكيشلوك كان تمثيلية هزلية مقصودة ، وبناء على هذه النظرية ، تكون كريستينا قد انتهت إلى النتيجة التي تقول بأنه ما دامت الحقيقة شيئا لا يمكن معرفته أو الوصول إليه ، فللمرء أن يختار الديانة التي تستهوى قلبه وتتفق مع فكرة الجمال أكثر من غيرها^(٢٦) ، وتوفر أكبر قدر من الطمأنينة للناس . ولكن الارتداد إلى الكاثوليكية رد فعل صادق مخلص بعد التشكك المفرط ، فقد يحفر التصوف جذوره في أعماق الشك . لقد كان في كريستينا عناصر صوفية خفية ، فكل مذكراتها موجهة إلى الله في إخلاص بالغ . إن الإيمان ثوب واق . ولأن التجرد الكامل منه ليرتك الإنسان في حالة عرى فكري يتطلع إلى السماء والدنء . وأي ثوب أدفا من كاثوليكية فرنسا وإيطاليا الحسية النابضة بالحياة ؟ ونساءلت المملكة : كيف يكون المرء مسيحيا دون أن يكون كاثوليكيًا^(٢٧) ؟ ، .

وفكرت كريستينا مليا في هذه المسألة وفي المضاعفات التي ينطوى عليها ارتدادها فإنها إن تركت اللوثرية ، فلا بد لها ، بمقتضى قوانين مملكتها ووالدها الحبيب - أن تتخلى عن عرشها ، وأن تغادر بلادها كذلك . وأية نكسة مروعة يكون هذا التحول في العقيدة لدفاع والدها البطولي عن أوروبا البروتستانتية ، ولكنها ضاقت ذرعا ولاقت نصبا من واجباتها الرسمية ومن خطب الوعاظ والمستشارين الرثانة ، ومن الثالوث المتحذلق من العلماء والآخرين والمؤرخين . وربما تعبت منها السويد وضاقت بها ذرعا كذلك . وقد أفقرها وهبط بمواردها تخليها من أراضى التاج وهداياها وهباتها السخية لذوى الخطوة لديها والقربيين منها . وتكتلت أغلبية النبلاء ضد سياستها . وفي ١٦٥١ كان ثمة هبة توشك أن تكون ثورة . ولكن زعماءها أعدموا على عجل^(٢٨) . ولكنها خلقت وراءها امتعاضا شديدا ، ولكن انتابها المرض آخر الأمر ، لقد أضرت هي بصحتها . وربما كان السبب في ذلك كثرة العمل والدرس .

وكم من مرة أصابها الحميات الخطيرة ، مصحوبة بأعراض التهاب الرئتين . وكم من مرة غشيتها اعماء ، وظلت فاقدة الوعي لمدة ساعة . واشتد عليها المرض في ١٦٤٨ فقالت أنها قد أقسمت أن تتخلى عن كل شيء وتصبح كاثوليكية إذا برئت من سقامها وحفظ الله لها حياتها^(٢٩) ، . إنها كانت إبنة البحر المتوسط فارتعدت فرائصها من برد الشمال القاسي في الشتاء ، وتناقت نفسها إلى سماء إيطاليا ومنتديات فرنسا . فكيف يكون جميلا أن تلحق بالنساء المثقلمات اللاتي بدأن مهتمن الغدة في رعاية الحياة الفكرية والعقلية في فرنسا ، إذا استطاعت أن تحمل معها ثروة كافية !!

وفي ١٦٥٢ بعثت سرا إلى رومة بأحد الملحقين في سفارة البرتغال ليطلب قدوم بعض الجزويت ليتناقشوا معها اللاهوت الكاثوليكي ، فجاءوا متنكرين . ولكن فت في عضدهم وثبط من همهم بعض الأسئلة التي وجهتها إليهم — هل يوجد إله حقا ، هل تبقى الروح بعد فناء الجسم ، وهل ثمة تمييز بين الصواب والخطأ إلا عن طريق المنفعة . فلما أوشكوا على الرحيل — ياسا — هدأت من روعهم بقولها : ماذا نرون لو أني كنت أقرب إلى أن أصبح كاثوليكية عما نظنون ؟ ، وقال أحد الجزويت تعقيبا على ذلك : فلما سمعنا هذا أحسنا بأننا بعثنا من مرقدنا^(٣٠) ، .

وكان اعتناق الكشلكة قبل التخلي عن العرش أمرا محظورا قانونا . ولكنها رغبت قبل التخلي عن العرش ، في الحفاظ على الطابع الوراثي للملكية السويدية ، عن طريق إقناع الديت بالتصديق على اعتبارها لابن عمها شارل جوستاف . خلفا لها . ولكن طول المفاوضات أجل نزولها عن العرش حتى ٦ يونيو ١٦٥٤ . وكان الاحتفال الأخير مؤثرا قدر ما كان تخلي شارل الخامس عن العرش مؤثرا قبل ذلك بتسعين عاما . فإنها نزعَت التاج عن رأسها ، وطرحَت كل الإشارات الملكية ، وخلعت العباءة الملكية ، ووقفت أمام الديت في ثوب بسيط من الحرير الأبيض ، وودعت بلدها وشعبها بخطاب فجر

بالدموع عيون النبلاء العجائز الرابطة الجأش ، وبمثلى المدن القليلى الكلام .
ووفر لها المجلس الموارد للمستقبل . وأباح لها الاحتفاظ بحقوقها الملكية .
على حاشيتها .

وغادرت مستوكلم عند الغسق ، بعد خمسة أيام من تخليها عن العرش .
وتوقفت فى نيكوبنج لزيارة أخيرة لأمها . ثم مضت فى طريقها ، ولما لم تذق
طعم النوم لمدة يومين ، فإنها مرضت بذات الجنب ، فلما برئت تابعت المسير
إلى هامستاد . وهناك كتبت إلى جامسندى ، بأنها تمنحه معاشا وتبعث إليه
بسلسلة ذهبية . وفى اللحظة الأخيرة المقت عرضا بالزواج من الملك شارل
العاشر الذى توج حديثا ، فرفضت فى عطف وكياسة . وتنكرت فى زى رجل
تحت اسم كونت دونا ، وركبت البحر إلى الدنمرك ، دون أن تدري أنها لمدة
خمس وثلاثين سنة أخرى ستلعب دورا فى التاريخ .

٣ - بولنده تكفر عن ذنبها : ١٥٦٩ - ١٦٤٨ :

فى هذا العصر عقدت بولنده أيضا أواصر السلام مع الكنيسة
الكاثوليكية . وقد يكون من المفيد أن نرى كيف استردت الكاثوليكية
بسرعة فى هذه المملكة تقريرا كل ما كانت قد فقدته من مكانة فى حركة
الإصلاح الدينى ، ولكن فلنمر أولا مرورا عابرا ، كالمعتاد ، بالخلفية السياسية
لهذا التطور الثقافى .

١ - الدولة :

تبدأ الفترة بحدث بارز تم إنجازه فى فن الحكم . كانت دوقية لتوانيا
الكبيرة تقع إلى الجنوب الشرقى من بولنده ، يحكمها أدواقها ، وتمتد من
البلطيق عبر كييف وأوكرانيا إلى أودسا والبحر الأسود . وكان نمو قوة
روسيا يعرض استقلال لتوانيا للخطر . وعلى الرغم من توافق عقيدتها

الأرثوذكسية اليونانية إلى حد كبير مع ديانة روسيا ، فإنها أقرت كارمة أن الاندماج مع بولندة الكاثوليكية قد يكون أفضل للحفاظ على حكمها الذاتي من معانقة الدب الروسي . وميز سيجسمند الثاني عهده بتوقيع اتحاد لوبلين ، التاريخي (١ يولية ١٥٦٩) . واعترفت لتوانيا بملك بولندة دوقا أعظم ، عليها . وبعثت بمندوبين أو ممثلين لها إلى البرلمان في وارسو ، وارتضت أن يكون لهذا البرلمان حق السيطرة على علاقتها الخارجية ، ولكنها احتفظت بعقيدتها وقوانينها وحق التصرف في شؤونها الداخلية . واتسعت أطراف بولندة وبلغ عدد سكانها الآن إحدى عشر مليوناً من الأنفس ، من دانزج إلى أوديسا ، ومن البحر إلى البحر . فكانت إحدى الدول العظمى دون منازع .

وبموت سيجسمند الثاني دون عقب ذكر (١٥٧٢) انتهت أسرة دجاجالون ، التي كانت قد بدأت في ١٣٨٦ ، وهيات لبولندة خطاً متصلاً من ملوك اتسموا بالخلق والإبداع ، وحضارة قامت على التسامح الديني واستنارة قوامها الروح الانسانية . وكان النبلاء يكرهون الملكية الوراثية ، على أنها إهدار لحقوقهم وحررياتهم الاقتصادية ، فاستقر عزيمهم الآن على الاحتفاظ بالسلطة في أيديهم عن طريق ملكية انتخابية ، فأسسوا جمهورية من النبلاء وجعلوا ملوك بولندة القادمين خدماً أو أتباعاً للبرلمان . ولما لم يكن البرلمان يضم كبار النبلاء أو الأعيان فحسب ، بل كان يضم كذلك عنغار النبلاء ، فقد بدا أن هذه الخطة تحقق المثل الأعلى لأرسطو في حكومة تمتزج فيها العناصر الملكية والارستقراطية والديمقراطية ، في قيود وعضوابط متبادلة . ومهما يكن من أمر ، فإن الدستور الجديد ، في نطاق ذلك العصر ، لم يكن يعني إلا انتكاسة إقطاعية ، تفتيت السلطة والزعامة ، على حين كانت منافسة بولندة في البلاطيق — السويد وروسيا — تنصهران في وحدات عسكرية بفضل الملكيات الوراثية التي كان يحق لها أن تفكر على أساس الأجيال . وبات انتخاب الملك الآن في بولندة مزاداً لأصوات النبلاء تعطى لمن يدفع أكثر من بين المرشحين

الذين تمولهم ، عادة الدول الأجنبية . وبذلك استطاع عملاء فرنسا بتوزيع العطايا والأموال باليمين وبالشمال ، شراء تاج بولندة المنجل المنحرف هنرى قالوا (١٥٧٣) ليعيدوه بعد ذلك بعام واحد ليحكم فرنسا حكاماً سيئاً فاسداً تحت اسم هنرى الثالث .

وأصلح مجلس الديت الذى يتولى الإلتخاب خطاه ، بعد فترة خلا فيها العرش وعمت الفوضى ، باختياره متيقن باثورى ملكا (١٥٧٥) . وكان ، بوصفه أميراً على ترنسلفانيا ، قد اشتهر بالفعل فى مجال السياسة وميدان الحرب وكان عملاؤه فى وارسو قد وعدوا بأنه سيسدد إذا انتخب ، الدين الوطنى ، ويمد الخزانة بمائتى ألف فلورين . ويسترد الأراضى التى كانت بولندة قد نزلت عنها لروسيا ، ويضجى بحياته فى ميدان القتال ، إذا اقتضى الأمر من أجل شرف بولندة ومجدها ، ومن ذا الذى يستطيع أن يقف فى سبيل هذا العرض ؟ . وعلى حين أيدت قلة غنية من النبلاء ترشيح مكسميليان الثانى النمسى ، نادى سبعة آلاف عضو من الديت المنتخب بياثورى ، فقدم معه ٢٥٠٠ جندى ، وكسب قلوب كثير من الناس بزواجه من أناجاجلون ، وقاد جيشاً ضد دانزج (التى رفضت الإعراف به) وأرغم الثغر المغرور على دفع غرامة قدرها مائتى ألف جولدن للخزانة الوطنية .

وعلى الرغم من كل هذا لم يستوثق النبلاء من أنهم يحبون الملك الجديد ، بعينه الحادين النافذتين . وتفكيره الواقعى ، وشاربه المروع ، ولحيته التى توحى بالامتداد والدكتاتورية . لقد احتقر الآبهة والمواكب والاختفالات ، وارتدى ثياباً بسيطة ، بل لبس الملابس المرقعة ، وكان طعامه المفضل من لحم البقر والسكرنب . ولما طالب بالمال لتجهيز حملة على روسيا أمده النبلاء بقدر غير كاف ، وهم متذمرون . وتقدم معتمداً على معونات ترنسلفانيا ، بجيش صغير ، وحاصر بسكوف ثلاثة مدن روسيا آنذاك من حيث الحجم . وأحس ليفان الرابع على الرغم من أنه كان يرهب شعبه ، بأنه أكبر سناً من أن يلاقى عدواً فى مثل

هذه الحيوية والنشاط ، فطلب الصلح ونزل على ليفونيا لبولندية ، وسلم بأبعاد روسيا عن البلطيق (١٥٨٢) . وعندما أدركت إيفان المنية (١٥٨٤) اقترح باثوري على سكستس الخامس أن يغزو كل روسيا ويوحدها مع بولندية ، ويطرد الأتراك من أوروبا ، ويعيد كل أوروبا الشرقية إلى حظيرة البابا . ولم يعترض البابا . ولكن في غمرة هذه الاستعدادات الشاقة للحملة صليبية ، فارق باثوري الحياة (١٥٨٦) . واعترفت بولندية ، بعد ثماته وبعد أن كف عن إرهابها بأنه من أعظم ملوكها .

وبعد سنة من المساومة خلع الديت العرش على سيجسمند الثالث ، الذي يمكن بوصفه وريثا لعرش السويد ، أن يوحد البلدين لسطرا على مياه البلطيق ويعوقا توسع روسيا . وقضى سيجسمند كما رأينا ، نصف مدة حكمه في بحالات عقيمة لتثبيت سلطانه . وتدعيم المذهب الكاثوليكي في السويد . وسنحت فرصة أخرى لسيجسمند بموت يوريس جودونوف المفاجيء (١٦٠٥) ، حيث عمت روسيا حالة من الفوضى أصبحت معها عاجزة عن الدفاع عن نفسها ودون استشارة البرلمان البولندي أعلن سيجسمند ترشيح نفسه للعرش المسكوفي وسار بجيش إلى روسيا . وعلى حين قضى هو عامين في حصار سمولنسك ، هزم قائده ستانسلال زلكوسكي الروس في كلوشينو وتقدم نحو موسكو ، واقنع النبلاء بقبول لاديسوس بن سيجسمند ملكا عليهم (١٦١٠) . ولكن هذا الأخير أنكر هذه الترتيبات ، فيجب أن يكون القيصر هو لابنه . فلما استولى آخر الأمر على سمولنسك (١٦١١) ، تقدم نحو موسكو ، ولكنه لم يصل إليها قط ، فقد أهبل الشتاء بمواقاته . وتمرد جنوده الذين لم يتقاضوا رواتبهم . وفي ١٢ ديسمبر ١٦١٢ ، أي قبل نابليون بقرنين من الزمان ، تقهقر جيشه وسط سوء النظام والفناء ، من روسيا إلى بولندية . ولم يبق من هذه الحملات الباهظة التكاليف إلا امتلاك سمولنسك ومفرسكي ، بالإضافة إلى نفخة قوية من تأثير بولندية على الحياة الروسية .

وكانت بقية حكم سيجسمند سلسلة من الحروب الفاجعة ، فقد ورطه تحالفه مع آل هيسبورج - بما انتهج له الإمبراطور - ، في صراع كلفه غالبا مع الأتراك لم تنتج ، منه بولندية إلا بفضل مهارة قوادها وشجاعة جنودها . واستفاد جوستاف أدولف من انشغال بولنده في الجنوب في غزو ليفونيا . وبمقتضى صلح ألتارك (١٦٢٩) سيطرت السويد على ليفونيا وعلى البلطيق . وقضى سيجسمند نحبه عظما متهددا (١٦٣٢) .

وخلع الديت تاج بولنده على ابنه لادسلاس الرابع ، الذي كان الآن في السابعة والثلاثين ، وكان قد كشف عن نشاطه وحمته وجلده كقائد ، وكسب صداقات كثيرة بفضل خلقه الصريح المرح . وأساء إلى البابا بتسامحه مع البروتستانتية في بولنده ومع الأرثوذكسية في لتوانيا . وأباح في ثورن قيام حوار عام سلمى بين رجال الدين الكاثوليك واللوثرين والكلفنيين (١٦٤٥) وشجع الفن والموسيقى . واشترى لوحات روبنز وأقشة جوبلان المزركشة وأقام أول مسرح بولندي دائم ، ومثل عليه الأوبرا الإيطالية ، وتبادل الرسائل مع جاليليو في سجنه ، ودعا العالم البروتستانتى جروشيوس إلى بلاطه وفارق الحياة (١٦٤٨) في الوقت الذي هددت فيه الدولة البولندية ثورة عارمة في القوزاق .

٢ - المدنية :

كان الاقتصاد البولندى لا يزال يتسم بسماة العصور الوسطى . وكانت التجارة الداخلية في أيدي الباعة المتجولين ، والتجارة الخارجية مقصورة إلى حد كبير على دانزج وريغا ، ولم تكن طبقة التجار تتمتع بثراء يذكر ، وقلما سمح لأفرادها بعضوية البرلمان ، فإن النبلاء تحكموا في الديت وفي الملك وفي الاقتصاد ، وسيطروا على هؤلاء جميعا . وكان يفلج الضياع الواسعة مزارعون خاضعون لتنظيمات إقطاعية أقسى من بعض الوجوه بما كان عليه الحال في

مزارع فرنسا فى العصور الوسطى . وكان النبيل المالك يضع هذه التنظيمات بنفسه ، ويفرضها بقوة جنوده ، ويحرم على مستأجره مغادرة نطاق ولايته دون موافقته ، وينقلهم من مكان إلى مكان ، ويزيد من الأرض أو ينقص منها وفق مشيئته ، ويفرض عليها فى كل عام أيام عمل لا يتقاضون عنها أجرا ويرغمهم على أن يبيعوه أو يشتروا منه وحده ، وعلى أن يبتاعوا منه كل عام قدرا من الجعة الرديئة الصنع . وكان يستطيع تجنيد أبنائهم لخدمته فى زمن السلم والحرب . كان هؤلاء المزارعون أحراراً . « قانونا لهم ، حق التملك والتوريث ، ولكن د الأب ، الجزويى سكارجا نعتهم بأنهم أرقاء » (٢١) .

وكانت الحياة قروية فى معظمها . وكان النبلاء يتجمعون فى وارسو لإهلاء إرادتهم الجماعية ، ولكنهم عاشوا فى ضياعهم ، يصطادون ويتشاجرون ، ويستمتعون باطيب المتع ، ويتبادلون المآذب الباذخة ، ويتدربون على الحرب وكانت الزيجات تتم عن طريق الوالدين . وقلما سئلت البنت رأيها ، وقلما عارضت ، فالمفروض أن الحب الذى يولده الزواج والأبوة أقوى على البقاء والدوام من الزواج الذى ينشأ عن الحب . وكانت النساء متواصعات جادات نشيطات . وكانت آداب السلوك الجنىسى مرعية كل الرعاية . ولم نسمع بقصص غرام خارج نطاق الزوجية قبل القرن الثامن عشر (٢٢) . وكان الرجال . لا النساء ، هم الذين يضعون قواعد السلوك . باستثناء سيسيليا ريناتا التى تزوجت من لاديسلاس الرابع ١٦٣٧ ، والتى أحيت الآثار الإيطالية التى استوردتها الفنانون ورجال الدين فى أزمنة سابقة . ولويزمارى جونزاج التى تزوجها ١٦٤٨ ، والتى جلبت معها موجة من قواعد السلوك الفرنسية والكلام الفرنسى بقيت حتى القرن العشرين ، وكان فى الرقصات البولندية رقعة مهيبة . حدث برجل فرنسى فى ١٦٤٧ إلى التحدث فى إعجاب عن البولنديات .

ولم يقدر للفن البولندى أن يلاحق المستوى الذى كان قد وضعه فيت ستوس فى كراكاوا ١٤٧٧ . لقد نسجت أقشة مسجد من الثانى المراكز فى الفلاندرز

وأقام مهندسون معماريون ونحاتون إيطاليون التماثيل لسجسمند وباثورى وآنا جاجلون فى كاتدرائية كرا كاو ، وكينائس الجزويت الباروكية فى كرا كاو ونيزويو وعامود سجسمند الثالث الشهير فى وارسو ، وأصاب الوهن التصوير فى بولنده تحت هجمات البروتستانت على الصور الدينية ، ولكن مارتن كوبر رسم صورة شخصية ملهمة للملك باثورى .

وعانى التعليم — كما عانت الفنون التخطيطية من الإضطراب الدينى . ومرت جامعة كرا كاو بفترة انحطاط عابر . ولكن باثورى أسس جامعة ولنو (١٥٧٨) ، وفى كرا كاو وولنو ويوزنان وريجا وغيرها أسس الجزويت كليات بلغ من أمتيازها وتفوقها أن كثيراً من البروتستانت أنزوها لتنشئة أبنائهم عقلياً وخلقياً . وخير من كل هذه مدرسة طائفة «الموحدين» فى كراكاو التى جذبت إليها ألف طالب من مختلف الملل . وأعد جان ذاموسكى مستشار باثورى ذو النزعة الإنسانية ، فى زاموسك جامعة جديدة خصصت أساساً للدراسات الكلاسيكية .

وكانت ثمة وفرة فى الأدب فى بولنده . وكانت الخلافات الدينية فظة فى النعوت مهذبة معقولة فى الشكل ، ومن ثم فإن ستاتسلاس أورزيكوسكى ، الذى كان يدافع عن الكاثوليكية ، ناضل من أجلها بضراوة وتعصب عنيف ، وفى لغة بولندية رائعة ، تعد من أحسن ما كتب فى تاريخنا (٢٣) ، ولم يكن يقل عنها شهرة فى الأسلوب «رجل البلاط البولندى» (١٥٦٦) الذى ألفه لوكاز جورنيكى وهو تعديل لكتاب كاماستليوني «رجل البلاط» . وبرز الجزويتى بيترسكارجو فى الشعر والنثر والتعليم والسياسة . وانتقل من رئاسة جامعة ولنو إلى منصب كبير الوعاظ فى البلاط الملكى وقضى فيه أربعة وعشرين عاماً كان فيها «بوسويه» بولنده ، واستنكر فيها غير وهاب ولا وجل الفساد الذى رآه يستشرى من حوله . وتنبأ بأنه إذا لم تصل الأمة إلى حكومة أكثر استقراراً ومركزية فإنها لا بد أن تقع فريسة للدول الأجنبية ، ولكنه نادى بملكه مسئولية مقيدة

ومحددة بالقانون . وظل شعر كوكناوسكى دون منافس في مجاله وفي لغته حتى القرن التاسع عشر ، ولا يزال شعبيا مألوفا حتى اليوم . وقد بلغ الشاعر ذروة الأثارة والإلهام في رثائه وحزنه على أبنته أورشولا التي ماتت في نضارة الطفولة .

وعوق الصراع الدينى كل نواحي الثقافة البولندية في ذلك العصر . ففي النصف الأول من القرن السادس عشر بدا أن البروتستانتية قدر لها أن تسيطر على بولندية ، وعلى ألمانيا والسويد أيضا . وكسبت إلى جانبها كثيرا من النبلاء تمردا على سلطة الملك وفساد الكنيسة ، ووسيلة لا تنزاع أملا كما (٢٤) . ومنح سيجسمند الثانى بلاده تسامحا دينيا واسع النطاق . وبعد عام من وفاته صاغت لجنة من الديت (٢٨ يناير ١٥٧٣) داتحاد وأرسو الكونفدر إلى ، الذى يضمن الحرية الدينية لكل الشيع والفرق بلا استثناء . فلما عرض المشروع للتصويت عارضه الأعضاء الأسقفىون فى المجلس . ولكن أقره بالإجماع الأعضاء العلمانيون الثمانية والتسعون ، بما فى ذلك واحد وأربعون كاثوليكيًا (٢٥) ، وهذا يمثل نقطة بارزة فى تاريخ التسامح ، لأن أى إعلان رسمى سابق من هذا القبيل لم يصل إلى هذا المدى . وأنتعشت فى ظل هذه الحماية العريضة عدة طوائف متباينة ، اللوثرىون ، والكلفنيون ، وأتباع زونجلى ، وأنصار تجديد العهد ، والأخوة البوهيميون ؛ وغير القائلين بالثالوث . وفى ١٥٧٩ قدم إلى بولندية فاوستس سوسينس ، وبدأ يؤسس كنيسة قائمة على مذهب التوحيد ولكن أهالى كراكاوا أخرجه من داره ودمروا مكتبته ، وكادوا يقتلونه لولا أن المدير الكاثوليكي للجامعة هب لنجدة (٢٦) (١٥٩٨) ، واتحد الكلفنيون مع اللوثرين فى المطالبة بطرد الموحدين أتباع سوسينس من بولندية . وأمر الديت فى ١٦٣٨ بإغلاق مدارس الموحدين ؛ وفى ١٦٥٨ نفى أفراد هذه الطائفة من البلاد . ففروا إلى ترانسلفانيا والمجر وألمانيا وهولنده وإنجلترا ؛ وأخيرا إلى أمريكا ؛ ليجدوا أعظم معبر عنهم فى شخص أمرسون .

أن التعصب الشعبي والتربية الجزوية والنظام الكاثوليكي والسياسة الملكية والتشيع الطائفي البروتستانتي، اجتمعت كلها بعضها إلى بعض لتقضى على البروتستانتية في بولندية. فإن الطوائف الجديدة حاربت الواحدة منها الأخرى بمثل الضراوة التي حاربت بها المذهب القديم. وتعلق المزارعون بالمذهب القديم لمجرد أنه قديم؛ حيث كان يمثل الارتياح إلى العادة والعرف المألوف؛ ولما أنضم الملكان - باثوري وسجسمند الثالث - إليه، وجد كثير من البروتستانت المرتدين وأبنائهم، أنه من الأفضل لهم أن يعتقدوا أو اصر السلام مع الكنيسة وكان معظم الألمان في بولندية - من البروتستانت، وتلك حقيقة وجهت الشعور الوطني إلى مناصرة الكاثوليكية ومعاونتها. وتعاونت الكنيسة تعاوناً جاداً مع هؤلاء الأعوان المتفرقين على استرداد بولندية إلى حظيرة البابا، فأرسلت نخبة من أكثر الدبلوماسيين فيها رصافة، وأكبر الجزويت المغامرين، ليكسبوا إلى جانبها، الملوك والنساء والأطفال، بل حتى النبلاء البروتستانت أنفسهم. وحذر رجال الدولة الكنديون، مثل الكاردينال ستاناسلاس هوسيوس والأسقف جيوفاني كومندون، الملوك من تأسيس نظام اجتماعي أخلاقي سياسي مستقر على المذاهب البروتستانتية المائعة المتصارعة. وأثبتت الجزويت قدرتهم على الدفاع عن الأمور التي كان الناس يتشككون فيها ولا يصدقونها، ضد ما امتحدث الآن من معتقدات وطقوس. وفي نفس الوقت فإن رجال الدين الكاثوليك الذين ألزموا بقرارات مجمع ترنت، خضعوا الآن لإصلاح ديني صارم مثير للأعجاب (٣٧).

ولكن للكاثوليك أيضاً مشكلة. ذلك أن اتحاد لتوانيا وبولندية عمل على إيجاد تلاحم مثير للغضب بين الكنيسة الأرثوذكسية والكنيسة الكاثوليكية وكان الخلاف بين الكنيستين طفيفاً ولكن الصلوات الأرثوذكسية اتبعت الطقوس السلافية، كما اتخذ القساوسة الأرثوذكس زوجات. وفي ١٥٩٦، وعن طريق اتحاد برست ليتوفسك، شكل جان زاهوسكي مجموعة وسطاً من

رجال الدين والعلمانيين في «كنيسة موحد» ، اعتنقت فكرة زواج رجال الدين ، واتبعت الطقوس السلافية ، وفي نفس الوقت ارتضت المذهب الكاثوليكي الروماني واعترفت بسيادة البابا . وراود زعماء الكاثوليك الأمل في أن يؤدي مثل هذا الحل الوسط أو التوفيق بين الكنيستين ، تدريجاً ، إلى كسب الملتين اليونانية والروسية إلى جانب الأمتثال للبابا . ولكن الكنيسة الجديدة لاقت مقاومة مثيرة . وذبح أهل بولوك رئيس أساقفتها .

وظل ملوك بولندية طوال القرن السادس عشر ، يطبقون تسامحاً دينياً أكثر تقدماً منه في أي بلد مسيحي آخر . ولكن السكان الكاثوليك كثيراً ما عادوا سيرتهم الأولى إلى سياسة العداء الشديد ، فانقضوا على كنيسة بروتستانتية في كراكو ، ونهبوا قبور البروتستانت (١٦٠٦ — ١٦١٧) . وحطموا كنيسة بروتستانتية في ولفو ، وضربوا — وقيل قتلوا — قساوستها (١٦١١) وفي بورنات أحرقوا كنيسة لوثرية . وفضوا اجتماعاً خاصاً « بالاخوة البوهيميين »^(٢٨) . ولم يشترك رجال الدين الكاثوليك في هذه المظاهرات الدينية الشعبية ، ولكنهم أفادوا منها . وتعاونت كل الظروف على تأييد الكنيسة القديمة ، حتى تم لها النصر في ١٦٤٨ .

٤ — روسيا المقدسة : ١٥٨٤ — ١٦٤٥

١ — الشعب :

قال نادردين في ١٨٣١ : « ما عليك إلا أن تلمق نظرة على خريطة العالم ليتولاك الرعب ازاء قدر روسيا وما قدم لها . » وكانت قد وصلت في ١٦٣٨ إلى المحيط الهادي عبر سيبيريا ، وإلى بحر قزوين عبر نهر الفولجا ، ولم تكن على أية حال ، فقد وصلت بعد إلى البحر الأسود ، فقد اقتضى هذا حروباً كثيرة . ولم يجاوز عديد السنين عشرة ملايين في ١٥٧١^(٢٩) . وكان يمكن أن

توفر الأرض الغذاء لهذه الملايين في سهولة ويسر ، لولا أن الفلاحة الطائشة المهمله أنهكت المزرعه تلو الأخرى ، فانتقل الفلاحون إلى أرض أقوى وأخصب .

ويبدو أن هذه النزعة إلى الهجرة أسهمت في نشأة الرقيق . ذلك أن معظم المستأجرين كانوا يحصلون من النبلاء ملاك الأرض على سلفيات لتنظيف المزرعة وتجهيزها بالأدوات وأعدادها للزراع . وكانوا يدفعون على هذه القروض نحو ٣٠٪ (٤٠) ، فلما عجز الكثير منهم عن سداد ما اقترضوا صاروا أرقاء لهؤلاء الملاك . لأن قانونا صدر في ١٤٩٧ نص على أن يكون المدين المقصر في الدفع عبدا لدائنه حتى يوفى الدين . ونفاديا لهذه العبودية هرب بعض الفلاحين إلى معسكرات القوازيق في الجنوب . وحصل بعضهم على حريته بالموافقة على استصلاح أراضي جديدة غير ممدة . وبهذه الطريقة استوطنت سيبيريا، وهاجر بعضهم إلى المدن حيث اشتغلوا ببعض الحرف ، أو اشتغلوا في المناجم أو صناعة المعادن أو صناعة الذخيرة، أو خدموا التجار، أو تجولوا في الشوارع يبيعون السلع . وشكا الملاك من أن هجرة المستأجرين عن المزارع — دون دفع ديونهم عادة — قد عوقت الإنتاج الزراعي ؛ وجعلت من المتعذر على الملاك دفع الضرائب المتزايدة التي تطلبها الدولة . وفي ١٥٨١ . وضمانا لاستمرار زرع الأرض ؛ حرم أيفان الرهيب على المستأجرين لدى طبقة الأوبرشنيكي — رجال الإدارة — أن يتركوا المزارع دون موافقة الملاك ؛ وعلى الرغم من أن هذه الطبقة كانت تفقد الآن مركزها الممتاز شيئا فشيئا . فقد بقي الرقيق الذي نشأ بهذه الطريقة يعمل في ضياعها . وسرعان ما طالب النبلاء ورجال الدين الذين تملكوا الجزء الأكبر من أرض روسيا ؛ مستأجرينهم بهذا . فسكان الفلاحون الروس في الحقيقة ؛ إن لم يكن بمقتضى القانون ؛ أرقاء مرتبطين بالأرض (٤١) .

وكانت روسيا لاتزال لاصقة بالهمجية . فالسلوك فظ غليظ ؛ والنظامه ترف نادر ؛ والامية أمتياز طبق ؛ والتعليم بدائي ، والأدب في معظمه حوليات

رهبانية أوعظات دينية أو نصوص طقسية ، والكاتب الخمائة التي نشرت في روسيا بين عامي ١٦١٣ و ١٦٨٢ كانت كلها تقريبا دينية^(٤٢) . ولعبت الموسيقى دورا هائلا في الدين وفي البيت . وكان الفن خادما للعقيدة الأرثوذكسية ، وشادت الهندسة المعمارية كنائس معقدة زاخرة بأماكن الصلوات والمعابد الصغيرة الملحقة بها . وبالمباني الناشئة عنها ، وبالقباب البصلية الشكل ، مثل كنيسة عذراء الدون في موسكو . وزين فن الرسم جدران الكنائس والأديار بالرسوم الجصية التي حجب الآن معظمها ، أو بالصور الدينية والأيقونات الغنية بالإبداع التصويري لا المهارة الفنية^(٤٣) ، كما هو الحال في كنيسة معجزة سان ميكايل في كراكاو . وفي ١٦٠٠ لم يعد رسم الأيقونات فنا بل أصبح صناعة تنتج قطعاً متماثلة على نطاق واسع ، للتعبد والتبتل والتقوى داخل البيوت أما الإنتاج الفني البارز في هذا العصر فهو برج الناقوس الذي يبلغ ارتفاعه مائة متر - وهو برج ايفان فليكي (جون الأكبر) الذي أقامه أحد المهندسين الألمان في ميدان الكرملين (حوالي ١٦٠٠) كجزء من برنامج بوريس جودونوف في الأشغال العامة لتخفيف حدة التعطل .

وفي الكنائس الفخمة المتألقه بالزخارف الثمينه ، المعتمه بالكسابة المتعمدة والتي تجلب النعاس بالضقوس المهيبة والترانيل والصلوات الجهورية الرنانة ، طبع رجال الدين الأرثوذكس الناس على التقوى والطاعة والأمل المتواضع . وقل أن تعاونت عقيدة مامع الحكومة مثل هذا التعاون الوثيق . وضرب القيصر المثل في التمسك المخلص الصادق بالدين وفي البر بالكنيسة ، ولقاء هذا أحاطته الكنيسة ، بدورها ، بهالة من القداسة الرهية ، وجعلت من عرشه حرامنيا لا تفتك حرمة ، وغرست في الأذهان أن الخضوع له وخدمته واجب يلتزم به الناس أمام الله . وأسس بوريس جودونوف البطريركية الروسية مستقلة عن القسطنطينية (١٥٩٨) ولده قرن من الزمان نافس مطران موسكو المقام السامي للقيصر ومكانته العالية ، وفي بعض الأحيان تحدى سلطانه . وفي ١٥٩٤ عندما أوقد البابا كليمنت الثامن إلى موسكو ، بعثة تقترح اتحاد الكنيسة

الأرثوذكسية واللاتينية تحت زعامة البابا ، رفض بوريس الافتراح قائلا :
« أن موسكو هي الآن رومة ذات المذهب القديم الحق » (الأرثوذكسى) .
وجعل الجميع يواجهون الدعوات و يقيمون الصلوة من أجله وهو وحده بوصفه
« الحاكم المسيحى الوحيد على الأرض » (٤٤) .

٢ - بوريس جود ونوف : ١٥٨٤ - ١٦٠٥

لم يكن بوريس فى الواقع بعد إلا حاكما فقط . أما القيصر فكان فيودور
الأول ايفانوفتش (١٥٨٤ - ١٥٩٨) ، الابن الهزيل لايفان الرابع الرهيب
وآخر أفراد آل روريك ، (مؤسس روسيا) . وكان فيودور قد شهد موت
أخيه الأكبر بضربة شيطانية من أبيه ، فلم يشأ أن يتشبث بارادته أو يعارض
فى شىء ، وانزوى هربا من مخاطر القصر ، منصرفا إلى العبادة والتبتل ، وعلى
الرغم من أن شعبه لقبه « بالقدیس » فإنه أيقن أنه كانت تعوزه القوة والصلابة
ليحكم الرجال . وكان ايفان الرابع قد عين مجلسا لتوجيه الشاب وتقديم النصيح
والمشورة له . ولكن أحد أعضائه ، وهو أخو زوجة فيودور - بوريس
جود ونوف - سيطر وقبض على زمام الأمور ، وأصبح حاكما البلاد .

وكان ايفان الرابع قد خلف من زوجته السابعة والأخيرة ، ابنا آخر ،
هو ديمترى ايفانوفتش الذى كان آنذاك (١٨٥٤) فى الثالثة من عمره ، ورغبة
من المجلس فى أن يجنب الطفل أخطار الدسائس - بخلاف دسائسه هو ، أى
المجلس - أرسل الطفل وأمه للإقامة فى أوغليدش ، على بعد نحو ١٢٠ ميلا إلى
الشمال من موسكو . وهناك فى ١٥٩١ قضى ابن القيصر نحبه بطريقة لم يتم التحقيق
منها بعد . وتصدت إلى هذا البلدة لجنة للتحقيق فى الحادث ، يرأسها الأمير
فاسيلى شويسكى أحد أعضاء المجلس ، وجاء تقريرها يقول بأن الصبي قطع
حلقومه فى نوبة صرع ألمت به . ولكن أم ديمترى وجهت الاتهام بأنه قتل
بأمر من جود ونوف (٤٥) . ولكن جريمة بوريس لم تثبت قط ، ولازال ماثرا
جدل بين بعض المؤرخين (٤٦) . وأجبرت الأم على التهرب ، ونفى أقرباؤها

من موسكو ، وأضيف ديمتري إلى قائمة القديسين الأرثوذكس ، وطواء النسيان إلى حين ..

وكان بوريس — مثل ريتشارد الثالث في إنجلترا — أكثر توفيقاً في الحكم أثناء وصايته على العرش ، منه بعد تربيته عليه فيما بعد . وعلى الرغم من إنه كان ينقصه التعليم الرسمي النظامي ، بل ربما كان أمياً ، فقد أوتي بمقدرة جبارة ، وببدوانه بذل جهود مضمّنة لمواجهة مشكلات الحياة في روسيا . فأصلح الإدارة الداخلية ، وحدث من فساد القضاء ، وأولى الطبقات الدنيا والوسطى عطفاً ورعاية ، وكلف الأشغال العامة بتهيئة فرص العمل للفقراء من سكان المدن ، وخفف من أعباء الأرباب والتزاماتهم ، وكان — كما يقول أحد كتاب الحوليات المعاصرين — محبوباً لدى كل الناس^(٤٧) . وحظى باحترام الدول الأجنبية وثقتها^(٤٨) . ولما مات القيصر فيودور الأول (١٥٩٨) طلبت الجمعية الوطنية من جودونوف بالاجتماع أن يتولى العرش . فقبله مع تظاهره بالمعارضة خجلاً من أنه غير جدير به ، ولكن ثمة شبهة بأن عملاءه كانوا قد مهدوا السبيل في الجمعية الوطنية . ونازع جماعة من النبلاء من الذين كرهوا منه دفاعه عن طبقة العامة^(٤٩) . نازعوا في حقّه في اعتلاء العرش . وتأمر وأعلى خلعه ، فأودع بوريس بعضهم السجن ونفى آخرين . وأرغم فيودور رومانوف (والد أول قيصر من أسرة رومانوف) . على أن يدخل في سلك الرهبنة . ومات نفر من هذه المجموعة المغلوبة على أمرها . في ظروف مؤاتية لبوريس إلى حد اتهامه بتدبير قتلهم . ولما كان يعيش آنذاك في جو من الشك والفرع . فإنه بث العيون والأرصاء هنا وهناك . وأبعد المشتبه فيهم وصادر أملاكهم . وإعدام الرجال والنساء . وانهارت شعبيته الأولى . وتركته السنوات العجاف من (١٦٠٠ — ١٦٠٤) ، بغير تأييد ومساندة من الأهالي الذين يتصورون جوعاً في مواجهة المسكند التي كان يديرها النبلاء في تصميم وعناد .

وثمة مكيدة أصبحت ذات شهرة في التاريخ، والأدب والموسيقى . ففي ١٦٠٣ ظهر في بولنده شاب ادعى أنه ديمتري المفروض أنه مات . والوريث الشرعي

لعرش فيودور ايفانوفتش . واعتبر بوريس ، الواثق من نفسه (٥٠) ، أن هذا الشاب ليس إلا جريشكا أوترييف الراهب الذى جرد من رداءه الكهنوتى ، والذى كان من قبل فى خدمة آل رومانوف . أما البولنديون الذين كانوا يخشون توسع روسيا ، فقد سرهم أن يجدوا بينهم وفى متناول يدهم ، من يطالب بالتاج المسكوفى ، وابتهجوا أكثر من ذلك بزواج ديمترى ، هذا من بنت بولندية ، واعتناقه الكاثوليكية . وتغاضى مجلس من الدلائل الذى كان قد وقع لتوه (١٦٠٢) هدنة مدتها عشرون عاما مع روسيا . عن حشد ديمترى لمتطوعين بولنديين . وناصر الجزويت بشده قضية هذا المدعى . وفى أكتوبر ١٦٠٤ عبر ديمترى نهر الدنيبر مع أربعة آلاف رجل . فيهم المنفيون الروس ، وجنود مرتزقة ألمان ، وفرسان بولنديون . وأيده النبلاء الروس سرا ، ولو أنهم تظاهروا بالحياد . وانضم الفلاحون الآبقين إلى القوات المتقدمة ، ورحب الشعب الجائع الذى طال انتظاره للتعلل بأمل كاذب ، بديمترى الجديد ، ورفع لواء رمزا للملكية الشرعية والأمانى اليائسة . ووسط الهتاف بحرك الجمهور المتضرع نحو موسكو من الغرب ، وانقض من الجنوب القوداق المستعدون دوها للنزال . وانقلبت الحركة إلى ثورة .

ولما رأى بوريس أن هذا بمثابة غزو بولندى ، بعث بجيشه إلى الغرب ، وهزم فصيلة من قوات ديمترى ، ولكنه لم يدرك البقية . ولم يتاق جودونوف وهو قابض فى قصر الكرملين إلا أنباء جمهور الرعايا الزاحف المتزايد عدده . والسخط الذى ينتشر ، والانتخاب التى يشربها البويار (النبلاء) حتى فى موسكو ، فى صحة ديمترى الذى أعلنوا على الشعب أنه ابن القيصر المقدس الذى اختاره الله ليكون قيصرا . وبقاة ، وبعد شكوك وآلام مبرحة معروفة لدى بوشكين وموسورحسكى ، ولا يعلم التاريخ عنها شيئا — مات بوريس (١٣ أبريل ١٦٠٥) وأوصى البطريك بسمانوف والنبلاء بابنه خيرا . ولكن البطريك والنبلاء تحولوا إلى المدعى . وقتل ابن جودونوف وأرملته ، وفى غمرة النشوة الوطنية رجب ديمترى الزائف ، وتوج قيصرا على روسيا بأسرها .

٣ — د زوين القديس ، : ١٦٠٥ — ١٦١٣ :

لم يكن القيصر الجديد حاكما غير صالح ، كما هي شيمية الملوك ، ولم يكن ذا قوام يبعث على الرحمة ولا بهي الطلعة ، ولكنه كان برغم هذا وذاك قادرا على امتشاق الحسام وامتطاء الخيل ، مثل أى نبيل كريم المعتقد وتحلى القيصر الجديد بزجاجة العقل وسعة الإدراك وفصاحة اللسان وحلاوة الشجائر ، وبساطة غير متكلفة صدمت قواعد السلوك والتشريعات في حياة القصور . وأدهش موظفيه باهتمامه الجاد بالإدارة ، كما أدهش جيشه بتوليته تدريبه بنفسه . ولكن تعاليه على يده كان متعمدا واضحا أكثر مما ينبغي . فأبدى احتقاره صراحة لخشونة النبلاء وأمية وجملهم ، واقترح إرسال أبنائهم لتلقى العلم في الغرب ، وصعد إلى استقدام معلمين أجانب لتأسيس مدارس ثانوية في موسكو . وسخر من للعادات الروسية ، وأغفل الطقوس الأرثوذكسية ، وأهمل تحمية صور القديسين ، وتناول طعامه دون أن ترش مائدته بالماء المقدس ، وأكل لحم العجل الذي اعتبرته الطقوس نجسا . وأخفى — وربما لم يأخذ يوما بما أخذ الجدد — تحوله إلى الكاثوليكية ، ولكنه أحضر إلى موسكو زوجته البولندية الكاثوليكية ، يحف بها أحوة فرنسيه كان ويمثل البابا . وكان في بطانته هو نفسه نفر من البولنديين والجزويت ، وأنفق في سخاء من أموال الخزنة ، فضاغف رواتب ضباط الجيش ، وخصص لأصدقائه الضياع المصادرة من أسرة جودونوف . ولما كان لايهوى السكون ، كما كان رجلا عسكريا يخافه دبر حملة ضد خان القرم وأعلن الحرب عمليا بإرساله سترة من جلد الخنزير إلى الحاكم المسلم . وربما أكد أن يخلى موسكو من الجنود تماما ، بإصداره أوامره اليهم بالتحرك نحو الجنوب ، وخشى النبلاء من أنه كان يفتح العاصمة لغزو بولندي .

وبعد اعتلاء ديمتري عرش روسيا بيضعة أسابيع تأمرت زمرة من النبلاء بزعامة شويسكي على خلعه . واعترف شويسكي بأنه لم يقرأ أو يعترف بالمدعى ، إلا لجرد التخلص من جودونوف ، أما الآن فيجب إبعاد الآداة

التي اعطىته لهذا الغرض ، واجلاس نبيل أصيل على العرش (٥١) . وكشف ديمتري المؤامرة ، واعتقل زعماءها ، وبدلا من الإسراع باعدامهم ، كما تقضى بذلك التقاليد ، منحهم الحق في أن يحاكموا أمام الجمعية الوطنية التي اختير أعضاؤها لأول مرة من بين جميع الصفوف والطبقات . فلما أصدرت حكمها على شويسكي وآخرين بالاعدام خفف ديمتري الحكم إلى النفي ، وبعد خمسة أشهر أباح المنفيين العودة . وكان كثير من الناس يعتقدون أنه ابن إيفان الرهيب ، ولكنهم شعروا الآن — بعد تصرفه على هذا النحو — أن مثل هذا الاعتدال أو الرفق غير التقليدي يلقي ظلالا من الشك على أبوته الملكية . وعاد المتآمرون المعفو عنهم إلى تدير المؤامرات من جديد . واشتركت فيها أسرة رومانوف التي احتسب ديمتري بظل الانتساب إليها . وفي ١٧ مايو ١٦٠٦ اقتحم شويسكي الكرملين بأتباعه المسلحين . ودافع ديمتري عن نفسه دفاعا مجيدا ، وقتل بيده كثيرا من مهاجميه ، ولكنه في النهاية غلب على أمره وذبح . وعرضت جثته في ساحة الاعدام ، وألقى على وجهه قناع حقيير ، ووضع في فمه مزمار ، ثم بعد ذلك أحرقت الجثة ، وأطلق عليها مدفع حتى تذرو الرياح رمادها فلا تبعث بعد الآن .

ونادى النبلاء المنتصرون بشويسكي قيصرا تحت اسم فاسيلي الرابع ؛ وآلى على نفسه ألا يعدم أحدا ولا يصادر أملاكه ، دون موافقة الدوما ، (مجلس النبلاء) . وأقدم في كاتدرائية أوسبنسكي أغلظ الإيمان بأنه لن يلحق بأى إنسان أذى دون موافقة المجلس ، أى الجمعية العمومية التي تضم كل الطبقات . وغالبا ما انتهكت هذه الضمانات ، ولكنها كانت على أية حال خطوة تاريخية على طريق تطوير الحكومة في روسيا .

وأخفقوا في تهدئة تلك العناصر الكبيرة من السكان التي تولاهم الحزن والأسى لخلع ديمتري . فاندلعت ثورة في الشمال ، ونصب زعيما لها ديمتري ، زائف آخر ، أمده سجن منذ الثالث ملك بولنده بعون غير رسمي . فالتبس

شويسكى العون من شارل التاسع ملك السويد ، عدو سيجسمند ، وأرسل شارل قوة سويدية إلى روسيا ، فأعلن سيجسمند الحرب عليها ، واستولى قائده زاكوسكى على موسكو ، وخلع شويسكى (١٦١٠) وحمل إلى وارسو حيث أرغم على التهرب في أحد الأديار . واتفقت زمرة من النبلاء على الاعتراف ببلادسلاس - ابن سيجسمند ، البالغ من العمر أربعة عشر عاما قيصرًا على روسيا ، شريطة المحافظة على استقلال الكنيسة الأرثوذكسية ، ومساعدة الجيش البولندى للنبلاء في اخماد الثورة الاجتماعية التي كانت تهدد الحكومة الارستقراطية في روسيا .

وكانت الثورة في بداية أمرها استنكارا دينيا ووطنيا لتنصيب قيصر بولندى ، ومنع هرموجنس بطريك الأرثوذكسية الشعب من حيايمين الولاء للملك كاثوليكي . وقبض البولنديون عليه ، وصرعان ما قضى نحبه في سجنه ، ولكن نداءه جعل من المتعذر على لادسلاس أن يحكم البلاد . ودعا الزعماء الدينيون الشعب إلى طرد البولنديين بوصفهم كاثوليك مهرطقين . وبدأ أن الحكومة تنهار ، وعمت الفوضى روسيا . واستولى الجيش السويدي على نوفجورود واقترح أن يتولى عرش روسيا أمير سويدي . ورفض الاعتراف ببلادسلاس الفلاحين في الشمال والجنوب ، والقوازق في الجنوب ، وأقاموا حكاما خاصا بهم في المقاطعات . وأعملت عصابات قطاع الطرق لسلب والنهب في القرى والمدن ، ونكلت بكل من يقاوم . وتعطلت الزراعة ، ونقص انتاج الأعذية ، واختلت وسائل النقل ، وعمت المجعة ، واضطر السكان في بعض الأقسام إلى أكل لحوم البشر^(٥٢) . ودخل جمهور نثر موسكو ، وفي غمرة العوضى والشغب أشعل الحريق فأتت النار على معظم المدينة (٩ مارس ١٦١١) ونهقرت الحامية البولندية إلى الكرملين ، ترفب عبثا قدوم سيجسمند لنجدتها .

وفي نثر نوفجورود نظم قصاب يدعى كوزمانين ، جيشا ثوريا آخر ، يحدوه الأحلاص للأرثوذكسية ، ودعا كل أسرة إلى التنازل عن ثلث ماعملك

للقوميل المهجوم على العاصمة . وتم هذا بالفعل ، ولكن الناس لن ينقادوا إلى زعيم غير ذى لقب . فدعا متين الأمير ديمتري بوجارسكى ليتولى القيادة ، وقبل المهمة ، وانطلق رجال الجيش الجديد إلى موسكو صائحين ضارحين ، وما أن وصلوا حتى حاصروا الحامية البولندية في الكرملين ، وصعدت الحامية إلى حد أنهم أكلوا الفيران ولحم البشر ، وكانوا يغنون المخطوطات اليونانية ليحفظوا على المرق ، ثم استسلموا وفروا (٢٢ أكتوبر ١٦١٣) وظلت ذكرى هذا العام حية عزيزة في أذهان الروس ، على أنه عام التحرير ، وعندما أُجلى الفرنسيون بعد ذلك بقرنين من الزمان ، عن موسكو التي جعلها رماد الحريق مرة ثانية ، أقام الروس المنتصرون نصباً تذكاريًا لمُتِن بوجارسكى ، الجزار والأمير الملقين ضرباً لهما أروع مثل للبطلية في ١٦١٣ .

ودعا بوجارسكى والأمير ديمتري ترويتسكوى ممثلين علمانيين ودينيين عن كل أجزاء الامبراطورية إلى مجلس لانتخاب ملك جديد . واستخدمت مختلف الأسرار نفوذها بطريقة خفيفة لتحقيق أغراض خاصة ، ولكن كانت الغلبة آخر الأمر لأسرة رومانوف ، واختار المجلس ميكائيل الذى لم يتجاوز الخامسة عشرة من العمر آنذاك ، وفى ٢١ فبراير ١٦١٣ نادى به قيصراً سكان موسكو الذين يمكن تجميعهم بسرعة . وبعد أن أنقذ الشعب للدولة ، نسب الفضل في ذلك ، تواضعاً إلى النبلاء .

وقضت الحكومة الجديدة على الخلل الاجتماعى والثورة ، وثبتت دعائم الرق وتوسعت فيه وهذأت من روع السويك بالتخلي عن انجوليا ، ووقعت مع بولندا هدنة مدتها أربعة عشر عاماً ، وفككت الهدنة أسر فيودور رومانوف ، والد ميخائيل ، الذى طال أمد أمره . وكان بورييس قد أرغمه على التهرب ، وأطلق عليه اسم الراهب فيلارت . وعينه ابنه ميخائيل بطريرك موسكو ، ورحب به مستشاراً لدولبلغ من القوة والنفوذ جداً أطلق عليه الشعب عليه اسم « القيصر الثانى » . وتحت الحكم المزدوج الذى شارك فيه الوالد والولد

وبرغم المزيد من الثورات والحروب ؛ حققت روسيا بعد جيل من الفوضى ،
سلاما مزعزعا مقرونا بالهتف والامتنان . أن زمن الشدائد والمتاعب
الذي بدأ بموت بوريس ، اختتم باعتلاء ديترى العرش ، وهذا بدوره
كان ابتداء عهد أسرة رومانوف التي قدر لها أن تحكم روسيا حتى
عام ١٩١٧ .

الفصل العشرون

الإسلام يتحدى

١٥٦٦ - ١٦٤٨

١ - الأتراك

في غمرة الصراعات الداخلية - سياسية ولا هوية - في العالم المسيحي أحس بعض المفكرين بالانزعاج والقلق من أن العناية الإلهية أطلت ، في حياد ظاهر ، على الصراع الأكبر بين المسيحية والإسلام . ولقد تم طرد الإسلام من أسبانيا ، ولكن دار الإسلام ، (العالم الاسلامي) كانت لا تزال شاسعة مترامية الأطراف ، ضمت أندونيسيا وشمال الهند . وألحق أن هذا كان عصر أسرة المغول الزاهر في دلهي (١٥٢٦ - ١٧٠٧) . وضم الإسلام أفغانستان وآسيا الوسطى وإيران كلها ، حيث أذنت عظمة الفن الفارسي بالغروب في هذه الحقبة . وإلى الغرب من إيران كانت دولة الإسلام هي الامبراطورية العثمانية أو التركية - التي لم يكن ينافسها آنذاك في اتساع أطرافها الا الامبراطورية الاسبانية ، واحتفظت بالسيطرة على شواطئ البحر الاسود ، وتحكمت في مصبات الدانوب ، والدنيبر والدينستر ، وساعدت حلفاءها خانات التتار ، على السيطرة على القرم ومصب نهر الدون . وأستولى الأتراك على أرمينيا وآسيا الصغرى وموريا وبلاد العرب - الشرق الأدنى بأسره - . وهناك كان في حوزتها أشهر مدن العالم القديم والوسيط - بابل ، نينوى ، بغداد ، دمشق ، أنطاكية طرس ، أزمير ، نيقية ، مكة وبيت المقدس - حيث كان المسيحيون ، بترخيص من المسلمين ، يحجون إلى قبر المسيح . واستولوا في شرق البحر الأبيض على الجزر العظيمة قبرص ورودس وكريت ، وكانت الأغلبية الساحقة في شمال افريقية

من المسلمين ، من البحر الأحمر إلى الأطلسى ، فكان يحكم مصر بأشوات يعينهم السلاطين ، وكان يحكم طرابلس وتونس والجزائر ومراكش أسرات مسلمة محلية يختلف خضوعها للسلاطين باختلاف البعد بينها وبين الأستانة ، وكان هذا هو عهد أسرة السعديين (١٥٠٠ - ١٦٦٨) في المغرب ، وكانت عاصمتها مراكش تعج بالتجارة وتتألق بالفن . وأمتدت الدولة العثمانية في أوروبا من البسفور عبر اليونان (بما فيها أثينا واسبرطه) والبلقان والمجر ، على بعد مائة ميل من فيينا ، وعبر دالمشيا إلى أبواب البندقية ، وعبر البوسنة والبنانيا ، وما كان ثمة الأفقرة واحدة عبر الأدرياتيك حتى تصبح في إيطاليا البابوية . وهناك ، وفي فيينا الواقعة تحت الحصار ، لم يكن الحوار الكبير بين البروتستانت والكاثوليك بل بين المسيحية والإسلام . وداخل هذا النطاق الإسلامي عاشت المسيحية حياتها الممزقة .

ومهما كان من أمر امتداد الإسلام غربا فإنه ظل شرقيا . وكانت القسطنطينية نافذة على أوروبا وليكن جذور العثمانيين أمتدت كثيرا إلى الورا ، إلى آسيا وبذلك امتطاعت تركيا المزهرة المبهجة أن تقلد أوروبا . وفي بعض بقاع العالم الإسلامي قتلت حرارة الصحراء أو الحرارة المدارية روح الحيوية . ووقت المسافات الشاسعة غير المسكونة التجارة ، ولم يجد الناس في أنفسهم تحمسا إلى كسب المعرفة وتحصيلها مثل الأوروبيين الغربيين ، فشجعوا الجمود وعدم التحرك ، وكانوا أكثر استعدادا للقناعة ولم يتصفوا بالطموح . وكانت الحرف والصناعات غير المتغيرة في الإسلام متقنة ، ولكنها كانت تتطلب وقتا ، وكان يعوزها الذوق ، ولم تتجه إلى الصناعة على نطاق واسع وكانت القوافل مثابة صابرة ، ولكنها لم تقو على منافسة الأساطيل التجارية التابعة للبرتغال وأسبانيا وإنجلترا والأراضي الوطيفة التي كانت تجوب كل المسالك المائية إلى الهند . على أن بعض الثغور الواقعة على البحر المتوسط مثل أزمير ، ازدهرت بفضل نقل البضائع بين السفن والقوافل . وينفخ الإسلام في الناس روح

العبادة المفعمة بالآمل. زمن الحرب ، واسكنه كمان يخرس في نفوسهم. وقت
وقته السلم روح التسليم بالقضاء والتقدير التي تنبسط من غرائهم* وأغراهم بحلقات
الذكر والأحلام الضوئية . وعلى الرغم من أن الإسلام في عصر الفتوة والشباب
أجازه قدراً كبيراً من العلوم . فإنه هبط آنذاك بالفلسفة إلى حذقة جوفاء
قوامها التعاليم والأساليب التقليدية . وعمل العلماء من رجال الدين الذين سئوا
القوانين على أساس القرآن الكريم على تنشئة الأطفال على الدين القويم ،
وحرصوا على كل الحرص حتى لا يطل عصر العقل برأسه على العالم الإسلامي.
وهناك هيّا الصراع بين الدين والفلسفة نصراً حاسماً للدين .

أضف إلى ذلك أن هذا الدين تيسر له غزو البلاد التي اقتطعت من العالم
المسيحي . فقد كان للكنيسة الشرقية بطاركتها في القسطنطينية وانطاكية ،
وأورشليم والأسكندرية ، واسكن عدد المسيحيين فيها كان يتناقص بسرعة ،
وظل الأرمن في آسيا الصغرى والأقباط في مصر على عقيدتهم المسيحية ،
ولكن الجماهير عامة في آسيا وأفريقية والبلقان اعتنقت الإسلام . وربما
كان لهذا أسباب عملية ، فلو أنهم بقوا على عقائدهم المسيحية لحرّموا من
الوظائف العامة ، ودفعوا ضرائب باهظة مقابل إعفائهم من الخدمة العسكرية
وسلموا واحداً من كل عشرة من أبنائهم ليربي تربية إسلامية تؤهله للانضمام
إلى الإنكشارية ليعمل في الجيش ، أو ليتولى الوظائف الحكومية .

وفيما عدا هذا ، تمتع المسيحيون في العالم الإسلامي بتسامح ديني ما كان
حاکم مسيحي ليحكم بمنحه للمسلمين في أي بلد مسيحي . من ذلك ، على سبيل
المثال ، أن المسلمين كان لهم في أزمير ١٥ مسجداً ، وللمسيحيين ٧ كنائس
ولليهود ٧ معابد^(١) . وكانت السلطات في تركيا والبلقان تتولى حماية
الكنيسة اليونانية الأرثوذكسية ضد أي تحرش أو ازعاج أثناء العبادة

* هذا كلام يدل على عدم التعمق في فهم حقيقة الإسلام ؛ ولسنا نورد به نصه
توخياً للأمانة في الترجمة — (المترجم)

والصلوات^(٢) . وذهب صمويل ببس في يومياته إلى أن معظم المجر استسلم للأتراك لأن البلاد نعمت في ظل الحكم العثماني بحرية دينية أكبر مما نعمت به في ظل الأباطرة الكاثوليك . وهذا حتى كل الحق من جانب المسيحيين المهر طفيق . فقد ذكر سير توماس أرنولد : « أن الكلفين في المجر وترنسلفانيا والموحدين في هذا البلد الأخير آثروا الخضوع للأتراك على الوقوع تحت نير آل هابسبرج المتعصبين وأن البروتستانت في سيليزيا تطلعوا إلى الأتراك ، وربما أرتضوا عن طيب خاطر أن يشتروا حريتهم الدينية مقابل الخضوع للحكم الإسلامي^(٣) » وما يلفت النظر أو يثير الدهشة أكثر من ذلك ، حكم السلطات المسيحية القيادية على تاريخ اليونان الحديث : —

إن كثيرا من اليونان ذوي المواهب العظيمة والخلق الرفيع كانوا أكثر إدراكا لنفوق المسلمين ، حتى أنهم ، حين نجوا من سوقهم إلى خدمة السلطان في نطاق « صرية الأطفال » ، اعتنقوا الإسلام طوعية واختيارا . ولا بد من التسليم بأن السمو الخلقى في المجتمع العثماني كان له دخل كبير في هذا التحول إلى إسلام ، قدر ما كان للطموح الشخصي لدى الأفراد^(٤) .

ولكن من الصعب تحديد هذا « السمو الخلقى » لدى أتراك القرن السابع عشر . فإن تافريه الذي تجول واشتغل بالتجارة في البلاد الإسلامية في ١٦٣١ — ١٦٣٣ ، ١٦٣٨ ، ١٦٤٣ وما بعدها ، قال : « في تركيا لصوص كثيرون يتجمعون في عصابات . تقطع طريق التجار^(٥) » ، وكان الأتراك معروفين بنزعتهم الهادة إلى الخير ولكن نفس الديانة التي روضت دوافعهم غير الاجتماعية وقت السلم ، أطلقت لهم العنان في ضراوة وعنف في حروبهم مع الكفار ، وكان استرقاق الأسرى المسيحيين مباحا . ووقعت غارات في الأراضي المسيحية القريبة من الحدود العثمانية لاصطياد المسيحيين واسترقاقهم . ومهما يكن من أمر ، فإن اتجار العثمانيين في الرقيق كان أقل بكثير ، عددا وقسوة ، من الحملات التي قام بها المسيحيون لجمع الرقيق في القارة السوداء . وكان الانغماس في الشهوة الجنسية في العالم الإسلامي أشد

وأكثر أرهاقا منه في العالم المسيحي ، ولو أنه كان عادة في نطاق الحدود المنظمة لتعدد الزوجات . وكان المجتمع التركي ، عل وجه التحديد . مجتمع رجال ، ولما كان اتصال الرجال بالنساء محظورا خارج البيت . فقد أنس المسلمون بمعاشرة الغلمان ، عشرة عذرية (أفلاطونية) أو جسدية . وانتشر السحاق داخل الحرم^(٨) .

وسادت حياة عقلية نشيطة ، ولو أنها مقيدة ، بين أقلية كبيرة من المسلمين . وربما كانت نسبة معرفة الكتابه والقراءة في تركيا أوربا في القرن السابع عشر أعلى منها في العالم المسيحي وربما حكمنا على وفرة الكتب من ثبت جمعه حاجي خليفة (١٦٤٨) ، يضم أكثر من ٢٥ ألف كتاب في اللغات العربية والتركية والفارسية . وكانت هناك مئات المجلدات في الدين والفقه والعلوم والطب والبلاغة والسير والتاريخ^(٩) . وكان من أشهر المؤرخين أحمد بن محمد ، غالبا ما استندنا في كتابتنا هذه إلى مؤلفه « تاريخ الأسرات الإسلامية في أسبانيا » (نفح الطيب) . وقد عرفناه أساسا باسم « المقرئ » ، وقد أشتق اسمه من اسم مسقط رأسه في قرية في الجزائر . ومعظم كتابه عبارة عن قطع منقولة أو مختصرة من كتب قديمة ، ومع ذلك فهو إنتاج جدير بالذكر في عصره ، لم يزودنا بأخبار السياسة والحرف فقط ، بل أمدنا كذلك بشيء عن الأخلاق والقانون والنساء والموسيقى والأدب والطب . وأحيا مدونته بالتفاصيل الممتعة والحكايات والنوادر التهذيبية .

ونظم الشعر كل من عرف القراءة والكتابة في تركيا تقريبا . واشترك الحكام بحماسة في هذه المباراة (كما هو الحال في اليابان) . وألف محمد سليمان أوغلو المعروف « بالفضولى » (وهو أسم أخف على السمع) ، أرق أغاني الحب في ذاك العصر ، وربما بدت ساذجة في الترجمة . الإنجليزية الحديثة التي توفرت لنا ، ولسكننا ندرك مراميها — تميزت غادات بخداد بالدفء والحرارة والطرلوة ونعومة اللمس ، والخفر والرقه حتى

يتزوجن . أما محمود عبد الباقي (المتوفى ١٦٠٠) وهو أعظم الشعراء الغنائيين العثمانيين ، فإنه بعد أن كان المغنى الأثير لدى سليمان القانونى ، ظل يشدو لمدة أربعة وثلاثين عاما بعد وفاة راعيه . وكتب نافع الذى عاش فى أرضوم ، هجاء لا ذها ، لا بد أن شيئا منه صعد إلى السماء ، فإنه بينما كان السلطان مراد الرابع يقرأ قصيدة منه نزلت صاعقة على قدميه ، فمزق السلطان الكتاب ونفى الشاعر من القسطنطينية ، وسرعان ما أعيد إليها ، وأمكن قصيدة هجائية أخرى لذعت الوزير بيرم باشا ، فأمر بقطع رأسه (١٠) .

وظل الفن العثمانى ينتج التحف والروائع ، فقد بنى مسجد أحمد الأول فى ١٦١٠ ليشرف على العاصمة بماأذنه الست المحلقة فى الجو ، وسلسلة قبابه المتفتحة (البصلية الشكل) ، وأعمدته المحززة الضخمة فى الداخل ، وأقواس الفسفساء ، والكتابات الفخمة والزخارف المتألقة . وبعد ذلك بخمسة أعوام أهدى السلطان لزوجته ذات الخطوة لديه مسجد يبنى فالدى جاميسى الرائع . وبنى فى هذه الحقة فى دمشق مسجداً ثقيماً . أما فى أدرنه فإن المهندس المعمارى الذى لا نظير له . سنان الذى كان قد وضع تصميم مسجد سليمان شاد للسلطان سليم الثانى مسجداً بعده بعض الناس أعظم من أى مسجد آخر فى القسطنطينية .

ولم تتفوق أية حضارة على الإسلام فى صنع تربية القرميد الجميلة التى نشاهدها ، على سبيل المثال فى مسجد أحمد الأول ، وأجل منها تلك التى تزين مدخل ضريح سليم الثانى بالقرب من أيا صوفيا بباقات من الأزهار البيضاء والزرقاء وسط أغصان وأوراق خضراء وزرقاء وحمراء ، ولا يمكن أن تكون الزهور الحية أجمل من ذلك ، بل قد تحسد نظيراتها المصنوعة على طول بقائها . وكانت أزينق — حيث رأس قسطنطين منذ ثلاثة عشر قرناً المجمع التاريخى الذى ثبت العقيدة المسيحية — نقول كانت مشهورة بتربعاتها البراقة وثمة نماذج مقنعة منها فى متحف المتروبوليتان للفن .

وكان رسم المنمنمات فى تركيا يحاكي نظيره فى فارس التى سنتحدث عنها وشيكا أما الخط فقد ذاع صيته (يقال أن سطرأ واحداً بخط مير عماد بيع بقطعة

من الذهب أثناء حياته^(١١) إلى حد أنه لم يطبع أى كتاب فى تركيا قبل عام ١٧٢٨ . وفى المسيحية كذلك كان الأتراك تلاميذ الفرس ، ولكن لم يتفوق عليهم فيه إلا هؤلاء . ولم يبلغ السجاد التركى درجة الإيرانية فى رقة المسيحية ودقة التصميم والرسم أو الثراء فى الألوان . ولمسكنهم يحتلون مكانة عالية فى تاريخ هذا الفن . وكان السجاد التركى فى القرن الخامس عشر قد كسب شهرته بالفعل فى الغرب لأننا نراه فى لوحات الرسام الإيطالى أندريا مانثنيا ، وبعده فى بنتوريكيو ، وفى باريس وردون وهولبين . وكسى كثير من قصور اليهود بالفساد التركى ، بل إن كرومول المتشدد نفسه كان لديه اثنتان وعشرون قطعة منه^(١٢) . ولأننا لنجد هذا السجاد مثلاً فى قطع المسيحية الموزكش (السكانقاء ، الجويلان) ، يوضح للناس حياة لويس الرابع عشر . لقد كان الغرب يدرك أن الشرق لديه الفنون والمدافع سواء بسواء .

٢ — معركة ليبنتو

ومهما يكن من شئ ، فقد كان على حكام الغرب أن يرقبوا المدافع ، لأن سلاطين آل عثمان كانوا قد أعلنوا عن عزيمتهم على تحويل أوروبا بأسرها إلى الإسلام . أن رصيدهم اليسرى وثروات ملكيتهم الزاحفة فى كل مكان هيات لهم أكبر جيش وأحسنه عتادا وعدة فى أوروبا . وكان عدد الانكشارية وحدهم خمسين ألفا . وربما كان خلاص الغرب وخلاص المسيحية فى ترامى أطراف الإمبراطورية العثمانية على هذا النحو ، فما كانت المسافات البعيدة لتساعد على تجميع الموارد المبعثرة فى الوقت المناسب ، كما أن السلاطين ، ولو أنهم شكلوا أسرة حاكمة أبقى على الزمن من أية أسرة حاكمة مسيحية ، دب فيهم الفساد وانتابهم التدهور حيثما تهيأت للحريم ، فرصة لتحقيق مآربهم ، وكانوا يكلون أمور الحكم إلى وزراء مؤقتين سريعى الزوال ، نزع بهم تزعزع مراكنهم إلى التخفيف من وطأة سقوطهم واعتزال مناصبهم ، بجمع الثروات أيام سقوطهم .

وهكذا كان سليم الثاني الذى خلف سليمان القانوني ١٥٦٦ ، حاكما منعزلا خاملا ، لم تتجلب عبقريته إلا في أنه عهد بالإدارة والسياسة إلى وزيره القدير محمد سوكلي . وانقطعت غارات الأتراك على الإمبراطورية الرومانية المقدسة لأن الإمبراطور مكسيميليان الثاني اشترى السلام مقابل جزية سنوية قدرها ٣٠ ألف دوكات . وحول سوكلي وجهه سطر فريسة أقرب . فقد احتفظت بلاد العرب من قبل ، باستقلالها الديني ، ولكن تم الآن للباب العالي فتحها (١٥٧٠) وكانت ممتلكات البندقية لا تزال متناثرة في بحراجه ، تعوق أساطيل تركيا وتجارها . وقصد لا لا مصطفى على رأس ٦٠ ألف مقاتل لمهاجمة قبرص وأهابت البندقية بالدول المسيحية لنجدها ، فلم يستجب لندائها إلا البابا وأسبانيا . فإن بيوس الخامس لم يكن قد نسي أن الأسطول التركي في ١٥٦٦ هدد أفكونا ثغر البابا وقلعته على الإدريانيك . كما علم فيليب الثاني أن عرب الاندلس استصرخوا السلطان لإنقاذهم من ويلات الحكم الأسباني (١٥٦١) وأن السلطان رجب بمبموثيم إليه . وكان الموقف الدبلوماسي مواتيا . ذلك أن الإمبراطور لم يكن يشترك في الحرب ضد تركيا ، لأنه كان قد وقع من فوره معاهدة سلام معها ولم يكن من الشرف ولا في مصلحة أمنه أن ينقضها . وعارضت فرنسا أية خطة تزيد من قوة أسبانيا وترفع من شأنها . ووثقت معبري للصداقة مع الأتراك عوناتها على مواجهة الإمبراطور . وخشيت إنجلترا مغبة الدخول في مغامرة مشتركة مع فيليب الثاني يحملها تحت رحمة أسبانيا السكاثوليكية في حالة انتصارها . وساور البندقية بعض القلق من أن الانتصار قد يأتي بالقوات الأسبانية إلى الأديانيك . فتقضى على احتكار البندقية لهذا البحر وسيطرتها عليه . وقضى بيوس عاما كاملا في التغلب على هذه الحيرة والتردد . وكان عليه أن يرضى باستخدام البندقية وأسبانيا لأموال الكنيسة . وأخير في ٢٠ مايو ١٥٧١ انضمت القوى الثلاث في مقدسة ، واستعدت للحرب .

وفي أثناء هذه المفاوضات تقدم الهجوم التركي على قبرص . مع خسائر

جسيمة تكبدها الطرفان . وسقطت نيقوسيا بعد حصار دام خمسة وأربعين يوما . وأعدم بحد السيف عشرون ألفا من سكانها ، وقاومت فاما جوستا زهاء عام . وعندما سقطت (٦ أغسطس ١٥٧١) سلخ البطل المدافع عنها ، مارك أنطونيو براجادينو ، حيا ، وحشى جلده بالقش وأرسل إلى القسطنطينية تذكارا للنصر .

وكانت الظروف تستحث العصبية المقدسة على العمل ، تجمعت فوانها . وأسهمت بالسفن والرجال ، كل من فلورنسة وبارما ولوكا وفرانكا وأوربينو وجنوة ، عدد البندقية القديم . وفي نابلي تسلم دون جران النموسى لواء العمادة في احتفال مهيب من الكاردينال دى جرانفل . وفي ١٦ سبتمبر ، بعد أن تناول البجارة والجنود القربان المقدس من يد الجزويت والكيوشيين الذين التحقوا بالحملة ، أنجز الأسطول الضخم (الأرمادا) من مسينا إلى جزيرة كورفو في محاذة جنوبي إيطاليا ، عبر مضيق أوترانتو . وهناك ترامت أنباء المذابح والفظائع التي أقرنت بسقوط قبرص . وتعالمت صيحات النصر ، فليحي المسيح ، عندما أصدر دون جوان أوامره بالانطلاق إلى القتال .

وفي ٧ أكتوبر ١٥٧١ تحرك الأرمادا عبر خليج بتراس إلى خليج كورنث . وكان الأسطول التركي ينتظر بعيدا عن ثغر ليبنتو ، وهو يضم ٢٢٢ سفينة شراعية كبيرة ، و ٦٠ سفينة صغيرة ، و ٥٧٠ مدفعا ، و ٢٤ ألف جندي ، و ١٣ ألف ملاح ، و ٤١ ألف بحداف . وكان لدى المسيحيين ٢٠٧ سفن شراعية ، وست سفن شراعية فينيسية ضخمة تحمل المدافع ، و ٣٠ سفينة صغيرة و ١٨٠٠ مدفع . و ٣٠ ألف جندي و ١٣ ألف وتسعمائة ملاح ، و ٤٣ ألف بحداف (١٣) . ورفع الأسطول المسيحي علم المسيح مصلوبا . ورفع الأسطول التركي علم السلطان يحمل لفظ الجلالة ، الله ، موسى بالذهب . وتراجع جناح المسيحيين الأيمن أمام الأتراك ، ولكن الجناح الأيسر الذي كان يقوده البنادقة حول المقاومة الضارية إلى هجرم منظم ، وأودت مدفعيتهم

بحياة آلاف من الأتراك . وأصدر دون جوان أمره بأن تتحرك سفينة قيادته قد مانحو سفينة أمير البحر التركي موسيناد على . فلما ألقت السفينتان ، قفز ثلثمائة من جنود دون جوان الأسبان المحنكين إلى السفينة التركية بقيادة راهب كبوشي ، يلوح بالصليب عاليا . وتقرر مصير المعركة ، عندما أمرت السفينة ، ورفع رأس على المنفصل عن جسده فوق سارية عليه^(١٤) . وانهارت الروح المعنوية لدى الأتراك . وهربت ٤٠ من سفنهم ، وأسرت ١١٧ أخرى ، كما أغرق أو أحرق خمسون سفينة . ولقي حتفه في المعركة أكثر من ثمانية آلاف رجل من الأتراك ، وأسرى عشر آلاف ، وزع معظمهم رقيقا على المنتصرين . وحرر نحو ١٢ ألفا من الأرقاء المسيحيين الذين كانوا يقومون بالتجديف على المراكب التركية . وفقد المسيحيون ، وقتل منهم ٧٥٠٠ رجل من بينهم أفراد من أعرق وأشهر الأسرات في إيطاليا . ولا نزاع في أن معركة ليبنتو كانت أعظم معركة بحرية في التاريخ الحديث . ووصفها سرفنتيز الذي كان من بين الجرحى المسيحيين البالغ عددهم ٧٥٠٠ بأنها «أعظم حدث بارز جدير بالذكر شهدته العصور الخوالي أو العهود الحاضرة . وقد لا يكون له نظير في المستقبل» (*) ،^(١٥) .

وكان يجدر أن تكون هذه أكبر معركة فاصلة في التاريخ الحديث ، لولا أن استنزاف المجدفين والأضرار التي لحقت بالأسطول المنتصر ، وهبوب عاصفة عنيفة ، حال دون تعقب الأتراك . فقد ثار النزاع بين المسيحيين حول اقتسام المجد والغنائم . ولما كانت أسبانيا قد أسهمت في القتال بنصف السفن والنفقات ، والبندقية بثلاثها والبابا بالسدس ، فقد وزعت الغنائم بقدر هذا الاسهام . ووزع الأسرى الأتراك بهذه النسبة ، فخص أسبانيا ٣٦٠٠

(*) على بعد نحو مائة ميل إلى الشمال الغربي ، قرب ا.كتيوم . على خليج آرثا الحالي ، انتزع ا.كتافيوس بأربعمائة سفينة حربية السيادة على عالم البحر المتوسط القديم من أنطونيوس وكليوباتره ، وسفنها الحربية الخمسمائة (٢ سبتمبر ، ٣١ ق م) .

عبد مكبلين في الأصفاد ، ومن نصيب البابا منح دون جوان ١٧ عبدا مكافأة شرفية لقاء خدماته^(١٦) . ورغب بعض الزعماء المسيحيين في الاحتفاظ بالارقاء المسيحيين الذين حرروا من السفن التركية ، ولكن البابا بيوس الخامس حرم هذا التصرف^(١٧) .

وابتهجت أوروبا الكاثوليكية بأسرها حين وصلت أنباء النصر . وازدانت البندقية بأكاليل الزهر والتحف الفنية ، وتبادل الرجال القبلات في الشوارع ، ورسم تيشيان وتنتورنو وفيرونيز لوحات ضخمة عن المعركة ، واحتفل بالقائد الفينيسي سباميتيان فنييرو أياما وإيلى كشيرة ، وأخيرا اختبر لتولى منصب الدوج ، (القاضي الأول في جمهورية البندقية) . أما في رومه ، حيث قضى رجال الدين وعامة الناس ساعات كل يوم في الصلوات وأحر الدعوات منذ غار الارمادامسينا ، فقد تعالت صيحات الشكر للرب ، في مرح وابتهاج وارتياح ، وكاد البابا بيوس الخامس ، منظم النصر ، أن يرفع دون جوان إلى مرتبة القديسين وأطلق عليه عبارة الإنجيل : هناك رجل أرسل من عند الله اسمه يوحنا ، (انجيل يوحنا ، ١ : ٦) وتليت القداسات وأطلقت الألعاب النارية ، ودوت طلقات المدافع . ورجا البابا من المنتصرين أن يحشدوا أممطولا آخر ، وتوسل إلى حكام أوروبا أن ينتهزوا الفرصة ليتحدوا في حرب صليبية لطرد الأتراك من أوروبا ، ومن الأرض المقدسة . وأهاب بشاه إيران ، وبأمير اليمن السعيد أن ينصبا إلى المسيحيين اللانقضاض على الأتراك^(١٨) . ولكن فرنسا الحاقدة على أسبانيا اقترجت على السلطان ، عقب ليبنتو مباشرة ، تحالفا مباشرا ضد فيليب الثاني^(١٩) . *

(*) في عام ١٥٣٦ حصلت فرنسا من تركيا على « الامتيازات » . وجددت في ١٥٦٩ ولم تكن تنازلات بل معاهدة اتفق بمقتضاها ، أساسا ، على أن يعامل الرعايا الفرنسيون في الأراضي التركية ، وبما كوا وفق القانون الفرنسي « الفضلاء . خارج أراضي الدولة » ووقعت تركيا مثل هذه الامتيازات مع إنجلترا في ١٥٨٠ ، ومع المقاطعات المتحدة (في الأراضي الوطيدة) في ١٦١٣

واشتركت أنباء هذا العرض مع عوامل أخرى في ثنى فيليب عن عزمه على القيام بعمل جديد ضد القوة العثمانية الرئيسية . وتورط في النزاع مع إنجلترا ، وفي المازق الذى أوقعه فيه دوق ألفا في الأراضى الوطيشة ، كما استاء من إصرار البندقية على احتكار التجارة فى الأدرياتيك ، وخشى من أن انتصار ثانيا على الأتراك قد يبعث القوة والحياة فى امبراطورية البندقية المتداعية ، فتصبح منافسا قويا لاسبانيا . أما بيوس الخامس الذى أرهقته الانتصارات والهزائم معا ، فإنه لقي ربه فى أول مايو ١٥٧٢ ، وماتت معه العصبة المقدسة .

٣ - اضمحلال السلاطين

وفى نفس الوقت ، وبنشأط أفزع الغرب . بنى العثمانيون أسطولا آخر ، فى مثل ضخامة الأسطول الذى كاد أن يدمر عن آخره . وفى بحر ثمانية أشهر بعد معركة ليبنتو ، كان ثمة أسطول تركى مكون من ١٥٠ سفينة يحوب البحار بحثا عن الأسطول المسيحى الذى بلغ من سوء النظام حدا لم يجرؤ معه على الخروج من مكنمه . وشجع الجميع البندقية على استئناف الحرب ، ولكن أحدا لم يد لهايد المساعدة ، ومن ثم فإنها عقدت مع السلطان (٧ مارس ١٥٧٣) صلحا لم تنازل بمقتضاه عن قبرص لحسب ، بل دفعت كذلك للسلطان تعويضا يغطى ما تكبدته من نفقات فى فتح الجزيرة . لقد خسر الأتراك المعركة ولكنهم كسبوا الحرب . ويبدو كيف أنهم لم يصيبهم أى وهن ، من العرض الجرىء الذى تقدم به صوكولى إلى البندقية (١٥٧٣) ، وهو أنها إذا انضمت إلى الأتراك فى حربهم ضد أسبانيا ، فلسوف يساعدونها فى غزو مملكة نابلى لتكون تعويضا سخيا لها عن ضياع قبرص . ورفضت البندقية هذا العرض لأنه يشجع السيطرة التركية على إيطاليا والعالم المسيحى . وفى أكتوبر أحميا دون جوان مجده بالاستيلاء على تونس لحساب أسبانيا ، ولكن فى بحر عام واحد استطاع الأتراك بأسطول صخم آنذاك (٢٥٠ سفينة) استعادة المدينة

وذبح الأمبان الذين كانوا قد استوطنوها حديثاً . وعلى سبيل الاحتياط أغاروا على سواحل صقلية . ومات سليم الثاني في ١٥٧٤ م ولكن ظل سوكوللي يتولى شؤون الدولة ويدير دفة الحرب .

وقد يدعو إلى حيرة الفلاسفة أن يرى المؤرخون اضمحلال الدولة العثمانية في عهد مراد الثالث (١٥٧٤ - ١٥٩٥) على حين أنه كان يحب الفلاسفة . ولكنه كان مولعاً بالنساء كذلك . وأنجب مائة وثلاثة أطفال من عدد غير كبير من الزوجات . وكانت دافو ، الزوجة ذات الحظوة لديه ، وهى أمة من أسرى البندقية ، أسرته بمفاتها ، وتدخلت في شؤون الدولة ، واشترى نفوذها بالمال ، وتقلص نفوذ سوكوللي ، ولما أقترح بناء مرصد ثارت ثائرة الشعب ضده في نكرة تعصب ذميم ، فقتلوه (١٥٧٩) ، وربما كان هذا بأمر السلطان مراد . وعمت الفوضى ، وانخفضت قيمة العملة ، وتمرد الانكشارية لهبوط قيمة أجورهم لأنهم يتسلمون نقداً رديئاً ، وأفسدت الرشوة الموظفين ، بل أن أحد الباشوات كان يفاخر بأنه رشا السلطان . وانغمس مراد في ملذاته الجنسية ومات متأثراً بالإفراط فيها .

وسيطرت دافو ، على أبنها محمد الثالث (١٥٩٥ - ١٦٠٣) قدر سيطرتها على والده . وبدأ حكمه بالعملية التقليدية ، فقتل تسعة عشر من أخوته ، لغراء وحشا لآل بيته على أن يركنوا إلى الهدوء والمسالمة ، ولكن اخصاب مراد ، أو ذريته الكبيرة ، جعلت من هذا السلام المنشود مشكلة عسيرة ، فإن كثيراً من أبناء السلطان بقوا على قيد الحياة تحدى بهم الأخطار . وانتشر الفساد ومادت الفوضى . وضيعت الهزيمة في الحرب مع النمسا وفارس قيمة الانتصارات التركية . وواجه أحمد الأول خطر ظهور الشاه عيسى الأول حاكماً قوياً في فارس ، فقرر حشد قواته على الحدود الشرقية ، ورغبة في التخصيف منها في الغرب ، أمر السلطان وكلاءه بتوقيع صلح د زنفانوروك ، (١٦٠٦) ، وهى أول معاهدة تنازل الأنراك المزهوون بتوقيعها خارج القسطنطينية . ودفعت النمسا للسلطان مائتى ألف دركات ، ولكنها أعميت من أية جرية

بعد ذلك . وقبلت ترانسلفانيا السيادة التركية طواعية واختياراً ، كذلك عقدت فارس الصلح (١٦١١) ، وأعطت تركيا مليون رطل من التحرير ، وتعويضاً عن الحرب . وتميز هذا العهد في جملة بالتوفيق والسلامة لولا ما شابهه من استمرار الانكشارية في تمردهم . وكان السلطان أحمد رجلاً تقياً حزين النية ، وبذل للجهد ، ولكنه أخفق في القضاء على قتل الإخوة أخوتهم في الأسرة المالكة .

واقترح عثمان الثاني (١٦١٧ - ١٦٢٢) تنظيم الانكشارية والإصلاح من شأنهم ، ولكنهم اعترضوا وقتلوه ، وأجبروا أخاه الأبله المعتوه مصطفى الأول على اعتلاء العرش ، ولكن مصطفى أوتى من رجاحة العقل ما جعله يتخلى عنه (١٦٢٣) لابن أخيه مراد الرابع البالغ من العمر اثني عشر عاماً (١٦٢٣ - ١٦٤٠) . واختار الانكشارية كبار الوزراء ، وكانوا يذبحونهم كلما لاح لهم أنه قد آن الأوان لأحداث تغيير . واقتحموا القصر الملوكي وأجبروا السلطنة قسيم على أن تفتح لهم أقبية الكينوز استرضاء لهم . وفي ١٦٣١ عادوا إلى القصر ثانية ، وتعقبوا السلطان الشاب إلى جناحه الخاص وطالبوا برؤوس سبعة عشر موظفاً . وقدم أحدهم - حافظ - نفسه للجماعة ، فدأ للباقيين ، فمزقوه لرباً . وقابلهم مراد ، وهو لا يزال بعد غض الإهاب ، بما بدا أنه تهديد هين لين : « إلى لأرجو أن يمدني الله بعون من عنده : يا رجال الدم ، يا من لا تخشون الله ، ولا تشعشعون الخجل أمام رسوله ، سيحل عليكم أشد الانتقام »^(٢٠) . وانتهز الفرصة الملائمة ليشكل قوة موالية له ، ودبر قتل الواحد تلو الآخر من زعماء التمرد . وسحقت محاولات أخرى للثورة والعصيان ، بقسوة شديدة . وفي بعض الأحيان ، شارك السلطان بنفسه ، مثل - بطرس الأكبر - في تنفيذ أحكام الأعدام . وقتل كل أخوته فيما خلا واحداً ظنه أبله لا يخشى منه شيء . وفي نشوة سلطته الملكية فرض عقوبة الأعدام على تناول التبغ أو القهوة ، والافيون أو الخمر . وقيل أن جملة من أعدموا في عهده مائة ألف شخص ، باستثناء من لقوا حتفهم في

الحرب (٢١) . واستتب لبعض الوقت النظام الاجتماعى ونزاهة الإدارة . ولما أحس الآن بأنه فى مأمن إلى حد معقول ، استأنف الحرب مع فارس ؛ وقبل أن يتحداه محارب فارسى فى نزال فردى ، فأرداه قتيلا ، واستولى على بغداد (١٦٣٨) ، وجاد بصلح على نصر ، ولدى عودته إلى القسطنطينية استقبله أهلها استقبال المنتصر الظافر . ومات بعد ذلك بعام واحد متأثرا بداء النقرس الذى سبب له الادماع على الخصر . وكان فى الثامنة والعشرين من العمر .

وبعد وفاة مراد الرابع ، عاد اضمحلال تركيا سيرته الأولى . فإن إبراهيم الأول نجح من موت محقق بيد أخيه ، لكونه مخبولا ، أو لتظاهره بالخبل ، وتجددت الفوضى والفساد فى ظل حكمه الضعيف الطائش . وشن الحرب على البندقية وأرسل حملة إلى كريت . وسد البنادقة منافذ الدردنيل . وتصور أهالى القسطنطينية جوعا . وثار الجيوش وشنق السلطان . وعادت إلى ذاكرة الغرب المسيحى قصة الحرس البريتورى فى رومه ، وانتهوا إلى أنه لم يعد ثمة مبرر لأن يرهبوا قوة الأتراك وفى بحر خمس وثلاثين سنة أخرى كان الأتراك على أبواب فيينا من جديد .

٤ — الشاه عباس الأكبر : ١٥٨٧ — ١٦٢٩

انه لمن حسن حظ الغرب المسيحى أنه فيما بين عامى ١٥٧٧ و ١٦٣٨ ، حين كانت فرنسا أولا ، ثم ألمانيا من بعدها ، قد شملت حركتها الحروب الدينية ، أن الأتراك الذين كان يمكن أن يمدوا حدودهم الغربية إلى فيينا ، وجهوا كل همهم وطاقتهم إلى فارس . وهنا أيضا كان الدين مبررا يستر وراءه شهوة السلطان والسيطرة . فإن الأتراك الذين كانوا يتبعون المذهب السنى ، رموا الفرس بالمروق لأنهم اتبعوا مذهب الشيعة ، ودمغوا كل من ولى الخلافة بعد على ، وهو زوج بنت الرسول ، بأنه مغتصب لها . وكانت ذريعة

الحرب بطبيعة الحال دينوية أكثر منها دينية — وهى الرغبة فى حكم الأقليات طمعا فى مزيد من الأراضى والموارد والسكان الذين يمكن أن تفرض عليهم الضرائب . ونتيجة لسلسلة من الحروب المتواصلة تقدم الأتراك نحو الفرات والقوقاز وبحر قزوين ، مستحوذين على العاصمة الفارسية الجديدة تبريز ، والعاصمة العربية القديمة بغداد ، التى وصفها بيدرو تكسييرا (١٦١٥) بأنها مدينة غنية عامرة بالأتراك والفرس والعرب واليهود ، الذين يعيشون فى ٢٠ ألف بيت من الأجر ، تزحمها حركة الثيران والجمال والخيل والحمير والبغال المحملة ، والرجال نظيفى الثياب ، وكثير من النساء الملبعات الوسيمات ، وعيونهن ، كاهن تقريبا ، جميلة تحديق فوق خمرهن أو من خلالها ، (٢٧) . وقد كلف أحد الموظفين بالسهر على حماية الغرباء هناك .

وإلى الشرق من بغداد والفرات كانت تقع الولايات الفارسية الممزقة ، وتمتد إلى القوقاز وبحر قزوين فى الشمال الغربى ، وإلى تركستان فى الشمال الشرقى ، وإلى أفغانستان شرقا ، وإلى المحيط الهندى جنوبا ، وإلى خليج العرب (الخليج الفارسى) فى الجنوب الشرقى ، وكأنها أجزاء مبعثرة لجسم واحد ، تنتظر أن تحل فيها رح تضم شتاتها .

وكان عباس الأكبر خامس شاه ، أو ملك ، من الأسرة الصفوية التى كان قد أسسها إسماعيل الأول فى تبريز ١٥٠٢ . وفى عهد الشاه الثانى طهما سب الأول الذى امتد حكمه طويلا (١٥٢٤ ت ١٥٧٦) تعرضت الدولة الجديدة لغارات كبيرة من الأتراك . وبعد موته فتح الأتراك الولايات الفارسية : العراق ولورستان وخوزستان وضموها إلى أملاكهم . وفى نفس الوقت جاء الأزابكة من بلاد فيما وراء النهر ، واستولوا على هراة ومشهد ونيسابور ، واجتاحوا الولايات الساسانية الشرقية . ولما ارتقى عباس العرش (١٥٨٧) وهو فى الثلاثين من العمر ، دون أن يكون له عاصمة ، عقد الصلح مع الأتراك ، وتقدم شرقا ليقابل العدو الأصغر شأنا وأقل نفرا . وبعد حروب دامت أعواما استرد هراة وطرده الأزابكة من فارس ، ومات بعد ذلك متلهفا

على ملاقاته الاتراك . ولكن الخسائر والاحقاد القبلية كانت قد استنزفت جيشه القوي كان كذلك تعوزه أحدث وسائل الفتك والتدمير .

وحوالي هذه الفترة (١٥٩٨) وصل من انجلترا إلى فارس في بعثة تجارية انجليزيان مغامران هما سير أنطوني شيرلي وأخوه الأصغر روبرت ، يحملان هدايا ثمينة وخبرة عسكرية . وكان برفقتهما خير في صنع المدافع . وتمكن الشاه عباس بمساعدتهما من إعادة تنظيم جيشه ، وزوده بالبنادق والسيوف معا ، وسرعان ما توافر لديه ٥٠ مدفعاً . وقاد قواته الجديدة ضد الاتراك وطردهم من تبريز (١٦٠٣) ، واسترد اريقان وشروان وكادن . فأرسل عليه الاتراك جيشاً عروما قوامه مائة ألف رجل ، هزمه عباس بستين ألفاً فقط (١٦٠٥) ، واسترد بذلك أذربيجان وكردستان والموصل وبغداد وامتد حكم عباس من الفرات إلى السند .

وحتى قبل هذه الحملات الشاقة ، كان الشاه عباس قد شرع (١٥٩٨) في تشييد عاصمة جديدة ، أبعد مثالا على الغزاة من تبريز ، وأقل تدنسا بذكريات الأجانب واقدام السنين ، كانت أصفهان موعلة في القدم لمدة ألفين من السنين (ولو لم تكن تحمل هذا الاسم) ، وكان عدد سكانها ثمانين ألفا . وعلى مسافة نحو ميل من المدينة القديمة أقام مهندسوه رقعة مستطيلة اسمها ميدان الشاه أو الميدان الملكي ، طولها ١٦٧٤ قدما وعرضها ٤٤٠ قدما ، وتحوطها الاشجار وعلى جانبيها منها متنزهات مغطاة اتقاء المطر والشمس . وفي الناحية الجنوبية شيد مسجد الشاه أو المسجد الملكي ؛ وإلى الشرق بني مسجد لطف الله والقصر الملكي ؛ وشغلت بقيت المساحة بالحوانيت والخانات والمدارس . وإلى الغرب من الميدان شق طريق باتماع مائتي قدم « شاهار باع » (البساتين الأربعة) تحف به الاشجار والحدائق تزيينه البرك والنافورات وعلى جانبي هذا الطريق المزدان بالاشجار قامت قصور الوزراء . وجرى عبر المدينة نهر زياندا الذي بنيت عليه ثلاثة جسور ، كان أحدها « الله فردي خان » تحفة

جميلة في فن البناء ، يمتد ١١٦٤ قدما مع طريق عريض مهد ، وعمر مقنطر على الجانبين المشاة ؛ وكانت المدينة الجديدة تروى وتبترد بواسطة القنوات والخزانات والنافورات والشلالات . وكان التصميم في مجموعة قطعة رائعة في تخطيط المدن . تضارع أروع ما عرفه ذلك العصر في أى مكان آخر (٢٣) .

وعندما زار الرسام الفرنسى سيمون شاردان أصفهان (١٦٧٣) دهش عند رؤية حاضرة على مثل هذا النمق في الإدارة والتجارة والصناعات والفنون . تحوزها ١٥٠٠ قرية ، ويسكنها ٣٠٠ ألف نسمة . وكان بالمدينة وضواحيها ١٦٣ مسجداً و ٢٨ كلية و ٢٧٣ حماما عاما و ١٨٠٠ خان (فندق صغير) . ووصف تافرنيه أصفهان عندما رآها في ١٦٦٤ بأنها تضارع باريس في الاتساع ولكن سكانها يبلغون عشر سكان العاصمة الفرنسية ، لأن كل أسرة في أصفهان كان لها بيتها وحديقتها ، وأن الأشجار بها كانت كثيرة إلى حد أنها بدت غلبة لا مدينة ، (٢٤) أنها صورة جميلة لولا أن تافرنيه يستطرد فيقول : « وأمام كل بيت حوض تلقى فيه كل أسرة فضلات بطونها . ثم يأتي الفلاحون يومياً ليحملوها ليستخدموها في تسميد أراضيهم ، ولا بد أن تقابل في كل البيوت فتحات في الجدران تطل على الشارع . يقبع فيها الناس ، ولا يخرجون من الخياط والتبويل على مرآى من الدنيا بأسرها » (٢٥) .

وكان الشاه عباس يدرك تمام الإدراك أن أوربا الغربية تحمده شغله الأتراك في الشرق ، فأرسل سير أنتوني شيرلى في بعثة لاقامة العلاقات بينه وبين الحكومات المسيحية ، وفتح الطريق أمام صادرات فارس من الحرير دون تدخل الوسطاء الأتراك . وعندما قدم المندوبون الأوروبيون إلى أصفهان أكرم وفادتهم وأباح لهم الحرية الدينية . وكان قد أسر خمسة آلاف من الأرمن أثناء حروبه مع تركيا ، فلم يستعبدهم ، ولكن أباح لهم النهوض بمقرهم في جوفنا بالقرب من أصفهان ، وأفاد من نشاطهم التجاري ومن مهاراتهم . وهناك شادوا كنيستهم الخاصة بهم وزينوها بتخليط من الصور المقدسة

المسيحية والزخارف الإسلامية ولعبت برأس الشاه عباس فكرة صهر الأديان كلها في دين واحد وفرض السلام على السموات والأرض، (٢٦). وبطريقة أكثر واقعية استغل الشاه الخراساني الشيعي لدى الفرس كأداة لرفع معنوياتهم وروحهم القومية، وشجع شعبه على الحج إلى مشهد على أنها مكة مسلمي فارس، وسعى هو بنفسه ثمانمائة ميل من أصفهان إلى مشهد ليؤدي المناسك ويوزع الهبات والصدقات .

ومن ثم فإن العمارة التي جعل أصفهان تتألق بها ، كانت دينية أساساً ، مثل كنيسة العصور الوسطى في الغرب . فكان يحول أموال الفقراء إلى أماكن للعبادة تكون عظمتها وجمالها وهندستها مفعزة وملكا للجميع . وكان أعظم ما يشير الإعجاب في مباني العاصمة الجديدة مسجد الشاه الذي بنىه عباس (١٦١١ - ١٦٢٩) . وكان الميدان ، مدخلها الرائع وطريقها الفاخر ، وبدأ الميدان كله وكأنه يؤدي إلى البوابة التي ترحب بالداخلين إليها . وأول ما يهر العين المآذن التي تطوق المدينة بأبراجها النائية الممخزمة التي يوحد المؤذنون فيها الله ، والخزف اللامع الذي يكسو أطار الأبواب ، ثم الأفريز وما عليه من عبارة منقوشة . يتقرب بها عباس إلى الله بهذا الضريح . حتى حروف الهجاء في فارس كانت فنا . وكانت الحوائط داخل العقود مزدانة بعناقيد موشاة بزهور بيضاء . ثم الساحة الداخلية المكشوفة للشمس ، ومنها عبر أقواس أخرى إلى الحرم المقدس تحت القبة الكبرى . ويجدر بالمرء أن يقصد إلى الخارج مرة أخرى ليتفحص القبة ، والخط الكوفي الرائع عليها . وشكاها المنتفخ ، وهي مع ذلك رشيقة جميلة ، مغطاة بالتريبات المطلية بالميناء ، في لون أزرق وأخضر في زخرفة عربية بديعة فوق أرضية لا زوردية . وعلى الرغم من جور الزمان فإن هذه د حتى في يومنا هذا من أجمل المباني في العالم ، (٢٧) .

وثمة مسجد قد لا يشير الإعجاب بمثل هذا القدر ، ولكنه أدق وأرق ،

وهو الذى شاده الشاه عباس تخليداً لذكر والد زوجته ، وهو من أولياء الله الصالحين ، وهو مسجد الشيخ لطف الله ، وله باب رشيق ، وحرم وبحراب هن الفسيفساء الفاتنة ، وفوق كل هذا ، فإن جماله من الداخل يجعل عن الوصف ، وأبعد عن التصديق - الزخارف العربية ، والأشكال الهندسية والزهور والحليات الدرجية فى رسم متقن موحد . وهذا هو فن تجرىدى ، ولكن فى منطق وتكوين واتساق لا يربك العقل أو يشوش الذهن ، بل فى نظام يسهل إدراكه ، يبعث فى النفس الارتياح والهدوء .

وفى الجانب الشرقى من الميدان بنى الشاه عرشاً مكشوفاً تحت قوس كبير « الباب العالمى » . وفيه استقبل الناس أو شهد سباق الخيل أو مباريات البولوى فى الميدان * . وخلف هذه البوابة كانت تقع الحدائق الشاهانية ، وهى تضم عدة قصور إستخدامها الشاه لأغراض خاصة . ولا يزال أحد هذه القصور موجوداً ، ولكن نال منه الزن كثيرأ . أربعون عمودأ ، قاعة الاستقبال ، حجرة العرش قائمة على عشرين عمودأ من شجر الدلب ، مكسوة بالمرابا ، وقاعة طويلة تزينها رسوم زيتية تحكى أحداث عصر الشاه . وكانت أبواب القصر مصنوعة من الخشب المصقول المزدان بمنظر الحدائق ومجموعات الزهر . وفى متحف المتروبوليتان للفن يوجد أثنان من هذه الأبواب . ولا تزال قائمة فى مكانها الزخارف الجصية اللامعة ، مذهبة ، وفى ألوان أخرى ، من سقف قاعة الاستقبال . وهنا أيضاً نجد الفن التجرىدى ، وقد بلغ حد السكال . فى المنطق وفى التصميم .

ووجه الشاه عباس من قصوره المتعددة ومن معسكره حياة مملكتيه الآخذة فى الاتساع . لقد أهتم ، مثل معظم الحكام العظام ، بكل الجوانب فى حياة شعبه . فبنى الطرق والجسور ، ومهد الأميال الكثيرة من الطرق ورصفها

(*) لا تزال أعمدة الرمر الرخامية قائمة فى الميدان . وجاءت لمبة البولوى إلى أوروبا من فارس .

بالحجارة . و مشجع الصناعات والتجارة الخارجية واستخراج المعادن من بطن الأرض . وبنى السدود ، وتوسع في روى الأراضي ، وأمد المدن بالماء النقي . وجدد المدن التي لحقت بها أضرار — مشهد ، قزوین ، تبریز ، همدان قال تافرنیه : « كثير ما تنكر الشاه وجلب أنحاء أصفهان ، كأى مواطن عادى ، مدعياً أنه يبيع ويشترى . وكل همه أن يكشف عن التجار المطففين الذين يستخدمون موازين ومقاييس زائفة فرأى اثنين بحرين منهم ، فأمر بدفعهما أحياء ، (٢٨) تلك هى الطريقة الشرقية لغرض إحقاق القانون وتدعيمه وعند قصور الإشراف والرقابة والشرطة ، يكون الهدف من صرامة العقوبة كبح جماح النزعة الطبيعية فى الإنسان إلى التحمل من القانون أو خرقه . وربما كانت الحياة الحافلة بالحروب هى التى جنحت بالشاه عباس إلى اللجوء إلى هذه القسوة أداة لكبح جماح الناس أو للانتقام . فقتل أحد أبنائه وسمل عينى آخر (٢٩) . ومع ذلك فإن هذا الرجل نفسه نظم الشعر ، وقام بكثير من أعمال البر والاحسان ، ورعى كثيراً من الفنون .

وموت الشاه عباس (١٦٢٩) أنقضى العصر الذى بلغ فيه الحكم والفن فى ظل الأسرة الصفوية ذروة المجد . ولكن النظام الذى أرسى دعائمه نشاطه المتصل فى كل الميادين ، ظل سائداً قرابة قرن من الزمان بعده . وعلى الرغم من تعاقب عدد من الملوك الضعاف احتفظت الأسرة الصفوية بالعرش حتى دهمها غزو الأفغان المفاجئ . العنيف بلاد الفرس (١٧٢٢ — ١٧٣٠) وعلى الرغم من فترة الانحلال السياسى هذه ، ظل فن الصفويين محتفظاً بمكانته بين أعظم نتاج لذوق الانسان ومهارته .

٥ — فارس تحت حكم الأسرة الصفوية : ١٥٧٦ — ١٧٢٢

والآن تلقى بنظرة على عهد الصفويين ، من وفاة طهماسب الأول (١٥٧٦) ، حتى نهايته (١٦٢٩) ، لأن هذا تطور ثقافى لا يمكن إغفاله ، تشيهاً مع تسلسل الأحداث فى أوروبا . لقد ترك الكثير من السامعين الغربيين يمانات مشرقة عن

هذا العصر في فارس . منهم بدر و تكسير آ الذي كان هناك في ١٦٠٠ والاب
الجزيني كنه تسنكي الذي أقام في أصفهان من ١٧٠٢ - ١٧٢٢ وكتب
« تاريخ التوراة في فارس » وهو يتناول الأسرة الصفوية بأسرها ، وجمال تافريه
الذي وصف بالتفصيل رحلاته (١٦٣١ - ١٦٦٨) في تركيا وفارس والهند
وجنوب الهند الشرقية ، وجمال شردان الذي دون في عشرة مجلدات أنباء إقامته
في فارس (١٦٦٤ - ١٦٧٧) فإنه على الرغم مما لاقاه من ربح السموم بالقرب
من أيج ، وقع في غرام فارس ، وآثر أصفهان على باريس وقت الصيف ،
ووجه . أصفهان من « الروعة والجمال » ما جعله يقول « أنا نفسي
لا أستطيع أن أنساها أو أمسك عن ذكرها لكل إنسان » . وقال أن سماء
فارس العنابية بان لها أثرها على الفن الفارسي فأصفت عليه بهاء ورواء ولونا
براقاً . كما كان لها أثرها الطيب على أجسام الفرس وعقولهم (٣٠) (*) واعتقد
أن الفرس أفادوا من اختلاطهم بأهل جورجيا والقوقاز الذين اعتبرهم أجمل
واشجع أهل الأرض - ولكنهم لا يضارعون الجياد الفارسية في رشاقها
وجمالها (٣١) .

ولكن هذه البلاد التي كانت يوماً جنة عدن ، ومقر الخلفاء الذين ازدانوا
بالبجواهر الثمينة ، والشجر المزهرة الذين نظموا أعذب الشعر ، ودمرتها غارات المغول
وتمزق الحكومة ، وإهمال الترع وهي شرايين الحياة ، وامتلاؤها بالطمس ،
وتحول طرق التجارة ، فإن اكتشاف طريق مائي في كل أجزاء من غرب
أوربا إلى الهند والصين قد أصاب تجارة فارس بالكساد . على أن بعض
التجارة انتقل عبر الأنهار إلى الخليج . وفي ١٥١٥ استولى البرتغاليون على
هومز وهي أهم الشغور على الخليج ، وظلوا فيها لمدة قرن . وفي ١٦٢٢
طردهم منها جيش الشاه عباس بمعونة سفن شركة الهند الشرقية الانجليزية ،

(*) أنظر شيشرون حيث يقول : « ان هواء أثينا الطيب يقال أنه ساعد على
توقد الذكاء عند أهل أثينا »

وبنى الشاه بالقرب منها مرفأ تجاريا آخر هو بندر عباس (نغر عباس) ، فساعدت التجارة التي نمت فيه على تمويل الفن والبذخ في عهده . وظلت القوافل تسير من الغرب إلى الشرق عبر فارس ، وخلقت شيئا من الثراء في المدن الواقعة على طريقها ، ووصف تكسييرا حلب بأنها مدينة تضم ٢٦ ألف بيت ، كثير منها مبنى من الحجر المصقول ، وبعضها يليق لسكنى الأمراء ، كما تضم المسلمين والمسيحيين واليهود جنبا إلى جنب ، كما كان بها حمامات عامة نظيفة جميلة ، وعدة شوارع مرصوفة بالبلاط المصنوع من الرخام (٣٢) .

ولم تكن الصناعة قد تجاوزت بعد طور الصناعات اليدوية — صناعة العصور الوسطى التي تنسم بالمثابرة على بذل الجهد والتذوق الرفيع مع الآفة والبطء — ولكن كان في حلب مصنع للحريز ، وكان التبغ يزرع في كل مكان ويقول شاردان أنه كان للفرس طريقة في ترشيح التبغ ، فكان الدخان يمر بالماء ، ومن ثم دينق التبغ من كل العناصر الزيتية والضارة (٣٣) ، وأصبح التدخين ضرورة ملحة لدى الفرس ، فكانوا يغفلون الطعام ولا يغفلون الترجيلة (٣٤) ، وكان الشاه على التقيض من ذلك ، فكره عادة التدخين ، وحاول أن يشفى منها رجال حاميتة بحيلة . فأتى بروث الخيل وجففه ، ووضع به بدلا من التبغ في الأواني التي يملأون منها الأراجيل ، وأوضح لهم أن هذا تبغ غالى الثمن أهدهم مهدان ، فدخنوه ، وبالغوا في إمتداحه . وأقسم أحد الضيوف أن له رائحة تعدل عبير ألف من الزهور . فصاح الشاه دئس هذا العقار ، أنه لا يمكن التمييز بينه وبين روث الخيل (٣٥) .

وكان أى رجل و به الله المقدره والكياسة يستطيع أن يحتل مكانا في حاشية الشاه ، فلم يكن هناك اعتبار لأرستقراطية المولد ، أو الحسب والنسب (٣٦) . فثياب الجنسين من كل الطبقات كانت في أساسها واحدة . رداء يصل إلى الركبتين ، ذو أكمام ضيقة ، وحزام عريض (مصنوع أحيانا من الحرير الموشى بالزهور) حول الخصر ، وقيص من القطن أو الحرير تحت الرداء ، وسروال مضموم عند رسغ القدمين ، وعمامة تتوج هذا كله . وكتب تافرنيه:

« كانت ملابس النساء ثمينة ، وفيما عدا هذا لا يفترقن عن الرجال في شيء كثير ، فارتدين السراويل مثلهم » (٣٧) . وأقن في عزلة في الحريم ، وقلبا غادرن البيت ، فإذا فعلن فنادرا ماسرن على الأقدام . وكان ثمة ثلاثة أجناس ، فكلان الرجال يوجهون كثيرا من شعر الغزل إلى الغلمان . ورأى توماس هربرت ، وهو انجليزى فى بلاط الشاه عباس — « سقاة من الغلمان فى صدرات من الذهب ، وعمامات مزدانه باللمع (الترت) ، وأخفاف فاخرة ، تتدلى خصلات الشعر على أكتافهم ، عيونهم يقظة تحوم فى كل زاوية ، ووجناتهم متوردة » (٣٨) .

ولخط شاردان نقصا فى السكان فى زمانه ، ونسبه إلى :

أولا : البرقة النكراء لدى الفرس إلى أتيان الفعلة البغيضة ، ضد الطبيعة مع الجنسين كليهما .

ثانيا : الترف المفرط (الحرية الجنسية) السائد فى البلاد ، فالنساء هناك يبدأن الحمل فى سن مبكرة ، ويستمر الإنجاب لفترة قصيرة ، وما ان يجازون سن الثلاثين حتى ينظر لاهن على أنهن عجائز تقدمت بهن السنون . ومن ثم يسرع الرجال إلى التردد على نساء فى ميعة العبا والشباب ، فى إفراط شديد ، وعلى الرغم من أنهم يستمتعون بعدد كبير من النساء ، فإنهم لا ينجبون منهم مزيدا من الأطفال قط . وهناك كذلك نساء كثيرات جدا يعتمدن إلى الإجهاض ، ويلجأن إلى مختلف أنواع العلاج ضد الحمل ، لأنهن إذا بلغن الشهر الثالث أو الرابع من الحمل ، ينصرف عنهن أزواجهن إلى نساء أخريات حيث يرون أنه ينافى اللياقة أن يقربوا امرأة تقدمت بها أيام الحمل إلى هذا الحد .

وكان هناك ، عل الرغم من تعدد الزوجات ، عاهرات أو بغايا كثيرة وانتشر شرب الخمر انتشارا واسعا ، رغم تحريم الاسلام للخمر . وكثرت المقاهى واشتق اللفظ الأوربى من نظيره العربى « قهوة » . وكانت النظافة

أكثر شيوعاً في المظهر منها في الحديث . وكانت الحمايات — منتشرة ، وكانت أحياناً مزخرفة بشكل جميل . ولكن كثر هناك الابتذال والفحش . وقال عنهم تافرنبيه : أنهم مخادعون مرأون كبار ، ويقول شاردن أنهم اعتادوا الكثيراً على الغش ، ولكنه يضيف أنهم ألطف الناس في الدنيا ، متساهلون كرام ، أساليبهم جذابة غاية الجاذبية ، وطباعهم لينة غاية اللين ، وحديثهم ناعم غاية النعومة ... وهم في مجموعهم أكثر الشعوب تمدناً في الشرق وكانوا مولعين بالموسيقى وكان شعراؤهم ، في العادة ينفنون — القصائد التي ينظمونها .

ويمكن أن نحكم على تفوق الشعراء الفارسيين من مبلغ شعبيتهم وحظوتهم في بلاط المغول في دلهي ، ولكن لم يتهياً لأحد منهم في تلك الحقبة مترجم مثل قزجر الد لينقل إلى أسماع الغرب قصيدهم . وأنا أعلم أن (عزفي الشيرازي) كان على رأس الشعراء في القرن السادس عشر . وكان يرى أنه أعلى مكانة من (سعدى) على الأقل ، ولكن من منا ، نحن المحليين في تفكيرنا واهتماماتنا سمع عنه ؟ . وكان شعره أحب إلى الناس من شخصه ، كما نستخلص من (الأصدقاء) الذين جاءوا ليستمتعوا بعلته القتالة .

لقد انحطت قواي إلى هذا الحد ، ووقف أصدقاؤى الفصحاء كالمنابر حول فراشي ووسادتي . واحد منهم يداعب لحيته بيده ، وينصب رقبة ويقول . (واأبتاه) . لمن دامت الدنيا ؟ (سبحان من له الدوام) .

جدير بالإنسان ألا يتعلق قلبه بالمراتب الزائفة والثروة الزائلة . أين امبراطورية جامشيد وأين الأسكندر ؟ .

ثم يأتي آخر ، ويمسح بأكمامه عينيه المبللتين بالدموع ، ويقول في صوت رقيق ولفظ حزين : دأيتها الحياة كلنا يسير على هذا الطريق لنرحل عن هذه الدنيا . كلنا مسافرون نعبث عليه ، ويمضي بنا الزمن .

وآخر ينمق كلامه بالفاظ أرق فيقول : استجمع قواك ، وهون عطيك
فاني ، لهدف واحد ، سوف أجمع أشعارك ونثرك وبعد نسخها وتصحيحها ،
أقدمها عقوداً من الدر تعزز من شأنك وترفع من قدرك .. فلعل الله يمن على
بالشفاء فأسترد عافيتي . ولسوف ترى كيف أصب جام غضبي على رثوس
هؤلاء المنافقين التعساء .

وكان منافس د عرفي ، في الشعر هو د صائب الأصفهاني ، الذي أخذ
بمسنة الهجرة إلى دلهي ، كما هاجر الفناون الفرنسيون والفلمنكيون في ذلك
العصر إلى رومه . ولكنه عاد بعد عامين إلى أصفهان ، وأصبح شاعر البلاط
لدى الشاه عباس الثاني (١٦٤٢ - ١٦٦٦) ، وكان ينحوي قليلاً نحو الفلسفة ،
فنظم أبياتاً تفيض بالحكمة :

أن الحديث عن الكفر والإيمان كليهما يؤدي في النهاية إلى نفس المسكان
والحلم هو الحلم ، ولكن المفسرين هم الذين يتلفون .. وإن العلاج الوحيد
لهذه الدنيا التي لا تستقيم أمورها ، هو إغفالها وتجاهلها ، فإن اليقظ فيها هو
الذي يستغرق في سمات عميق .

وأن الموج ليجهل طبيعته الحققة للبحر . وكيف يدرك الفاني العابر حقيقة
الخالد الباقي ، أن أشد ما يقض مضجعي حول يوم البعث هو لأنه لزام علينا
أن نرى ثنائية وجوه البشر .

وإذا فاتنا أن نتمتع بموسيقى الشعر الفارسي ، ففي مقدورنا أن نستمتع
بفن فارس قبي الفن . حديث يمكن استيعابه وفهمه ، فإن البراعة والاناقة
والذوق ، أي كل ما تشكل في فارس على مدى ألفى سنة . أينع وأنى أكله
الآن في العمارة والحزف والتذهيب والخط وحفر الخشب وأشغال المعادن
والسبيج والأقشة المزرکشة والسجاد ، وكل أولئك روائع تزدان بها متاحف
العالم اليوم . وقد علمنا من قبل أن أحسن عمارة هذا العصر شيدت في عهد
الشاه عباس الأول في أصفهان . وهناك بني عباس الثاني (مسجد الأشرف

(١٦٤٢) ، وهناك في غروب شمس الصفويين شاد الشام حسين (مدرسة أم الشام) التي قال عنها لورد كيرزون أنها من أفخم أطلال فارس ، وثمة مدن أخرى كانت تفاخر بمنشآت جديدة : مثل مدرسة الخان في شيراز ، والضريح الضخم لخوجة ربيع في مشهد ، والمقبرة المخربة الآن ، ولو أنها لاتزال جميلة ، وهي مقبرة (قدم جاه) في نيسابور ، والجامع الأزرق في أريغان .

وأسس الشاه عباس في أصفهان أكاديمية للرسم ، كان مطلوباً من الطلبة فيها — كجزء من برنامجهم ، وأن يفسخوا أشهر المنمنمات حيث يغلب جمال التصميم ودقة الرسم على الموضوعات والأشخاص . والآن ، وواضح أنه نتيجة لأثر أوربا ، استباح الرسامون العلمانيون التحول عن التقليد الإسلامي ، برسم منمنمات يبرز فيها لإنسان على أنه الفكرة الرئيسية والتسلسل هنا قلب الطراز الإيطالي رأساً على عقب . ففي الرسم في عهد النهضة أهملت المناظر الطبيعية أول الأمر ، ثم أصبحت خلفية ثانوية ، (وربما باضمحلال النزعة الفردية في ظل الإصلاح المضاد) طغت على الأشخاص . ولكن في التصوير الإسلامي كانت رسوم الأشخاص مستبعدة أول الأمر ، ثم أيجت على أنها شيء ثانوي عارض ، وفي المراحل المتأخرة فقط (ربما بنمو النزعة الفردية نتيجة للثروة) طغت رسوم الأشخاص وبرزت في الرسم . ومثل هذا في « مدرب الياز »^(٤٦) : رجل عظيم يرتدى ثوباً أخضر يعبث بطائر على معصمه مع خلفية أقل بروزاً من زهور ذهبية اللون . وفي « شاعر يجلس في الحديقة »^(٤٧) تكشف كل التفاصيل عن الرشاقة الفارسية المتميزة ، وثمة ابتداع آخر في الرسوم الحائطية ، التي رأينا مثالا لها في « شهيل سوتون » . ولكن الأساتذة العظام تخصصوا في زخرفة القرآن الكريم ، أو تذهيب الآثار الأدبية القديمة مثل الشاهنامة للفردوسي ، أو جولستان لسعدى ، التي ذهبها « مولانا حسن » البغدادى بماء الذهب .

وتفوق في الرسم في هذه الفترة الصفوية الثانية ، رضا عباسي . الذي أضاف

إسم الشاه إلى إسمه تقديرا واعترافا بالرعاية الملكية . وفاقت شهرته شهرة بهزاد لمدة جيل . وتدهور بعده الفن ، فإن حساسية الفن وصفاء الرسم أو دقته ، انتهيا إلى إفراط مبحث . وفي نفس الوقت فإن الطراز الفارسي الذي تأثر بالفن الصيني ، أثر بدوره في رسم المنمنمات في بلاط المغول ، بل حتى في عمارتهم . وذهب حروسية إلى أن دتاج محل ، لم يكن إلا فصلا جديدا في فن أصفهان^(٤٨) .

وظل الخط فنا رئيسيا في فارس . وكاد مير عماد لنسخه الدقيق للمخطوطات القديمة ، أن يظهر بمثل الحب الذي حظى به لدى الشاه عباس رضا العباسي من أجل منمنماته . وكانت المكتب موضع إعزاز وحب لشكلها قدر ما هي لمحتوياتها . فالتجليد الرائع يبهج العينين واليدين كما تفعل الزهرية الرقيقة ووقع الفنانون تجليدات المكتب بمثل الفخر الذي وقعوا به الصور ، فنقش على جلدة كتاب مذهب من أوائل القرن السابع عشر ، دمن صنع محمد صالح التبريزي^(٤٩) . وثمة غلاف آخر مصنوع من الورق المعجن ، وعليه رسوم دبوريش اللك ، ، موقع عليه باسم علي رضا . ومؤرخة في ١٧١٣^(٥٠) وكلاهما جميل إلى حد مفر .

إن التريعات المحلاة بالرسوم في المدن الفارسية لتبهر الأنظار ، بعد القباب أو عليها ، إن طول عمرها ليثير الدهشة من فن صناعة الخزف ، الذي يهيء طول البقاء لمثل هذا البريق . وإطالة عمر اللون بتزجيجه بالنار كانت من المهارات القديمة في فارس . لقد كانت التريعات المزججة في سوسة عاصمة دارا الأول ملك الفرس (٤٨٠ ق . م .) فريدة من نوعها بالفعل . وكانت سبائك الذهب والفضة والنحاس وسائر المعادن تصهر لتخرج ألوانا أكثر لمعانا ، وخاصة الأحمر الياقوتي والأزرق الفيروزي ، وكانت مضاعفة الاحراق تزيد من صلابة الصلصال والتزجيح ليقاوم قلع الزمن . ويحتمل أن يكون الأرمن قد استخدموا الخزافين الفرس لصنع التريعات في كنائسهم المسيحية في جولفا وهي تبلغ في دقتها المنمنمات . وربما كان أجمل منها ، التريعات المحلاة

بالرسوم في مجموعة كوركمان ، المنسوبة إلى أصفهان في النصف الثاني من القرن السابع عشر (٥١) .

واستمر الخزافون في أصفهان وكاشان وغيرهما ، يدعون أشكالا من الخزف — القناني والزبديات والأباريق والأطباق والفناجين ، مطلية تحت التزجيج بألوان مختلفة على أرضيات متنوعة . وأصبح الخزف المزخرف الفسيفسائي مادة أثيرة لتغطية الجدران في المساجد والقصور . واستورد الشاه عباس الخزف الصيني ، وحاول خزافوه أن ينسخوه طبق الأصل ، ولكن أعوزتهم الطينة والمهارة . ومرة أخرى بفضل استحداث الحالك وتشجيعه بذلت المحاولات في أصفهان وشيراز لمنافسة زجاج البندقية . وتفوق صناع الأشغال المعدنية في نقش النحاس وتطعيمه ، وثمة نموذج جميل منها يرجع إلى ١٥٧٩ شمعدان موجود في متحف متروبوليتان للفن ، وفي الارميتاج في لنتنجراد غمد صيف من الذهب مرصع بقطع كبيرة من الزمرد دقيقة الصنع .

وكانت صناعة النسيج صناعة رئيسية وفذا . وشغل الرسامون والنساجون والصباغون حيزا كبيرا في أصفهان . وكانوا يعدون بالآلاف . وكان لإنتاجهم هو السلعة الرئيسية في تجارة الصادرات . كما أنه أكسب فارس شهرة عالمية في أقمشة الأطلس والخممل والتفتة والمطرزات والخرائر . وكان الشاه عباس كلما أراد أن يقدم هدية خاصة ثمينة ، اختار بعض التحف من لإنتاج الأنوال الفارسية . ويقول شاردان د أن الثياب التي أهداها بهذه الطريقة لا حصر لها ، (٥٢) والثياب التي كان يرتديها الشاه ورجال حاشيته من الحرير والأقمشة المقشبة والمطرزة كانت رائعة الجمال إلى حد ذهب معه شاردان إلى أنها لا مثيل لها في ملابس أي بلاط في أوروبا . وكتب يقول : إن فن الصباغة أدخل عليه في فارس تحسين أكثر منه في أوروبا ، فكانت الألوان أكثر ثباتا ولمعانا ، ولا تحول بسرعة (٥٣) . ولم يكن الخممل كاشان نظير في أي مكان آخر . ولا تزال بعض قطع منه من أروع المعروضات في متاحف بوسطن ونيويورك

وصان فرانسيسكو وواشنطن . ومن بين التحف التي استولت عليها القوات المسيحية بعد ارتداد الأتراك عن فيينا بباط من المخمل الحريري المقصب ، من الواضح أنه صنع في اصفهان في عهد الشاه عباس (٥٠) .

وبلغ النسيج الفارسي ذروته في التصميم وصنع الجلد ، وشهد عصر الشاه عباس غاية مجد هذا الفن في فارس . وكاد السجاد أن يكون ضروريا للفارسي قدر حاجته إلى الملابس ، وقال توماس هربرت في القرن السابع عشر : « كان في بيوت الفرس قليل من الأثاث والأدوات المنزلية ، اللهم إلا السجاجيد وبعض أشغال النحاس ... وكانوا يتناولون الطعام وهم متربعون على السجاد على الأرض ، مثل حائكي الملابس . وليس ثمة إنسان مهما قل شأنه إلا يجلس على سجادة ثمينة أو غير ثمينة . وكل الدار أو الحجر ... مغطاة بالسجاد » (٥٥) . وساد آنذاك اللون القرمزي القائم أو الأحمر الخمرى الداكن ، ولكن التصميم أو الرسم كان هادئا مريحا للنظر ، بغية أحداث التوازن بين هذه الوفرة التي تزخر بها السجادة ، لو أنها صممت لإبراز موضوع رئيسي بمنطق مقبول . وقد يكون هذا التصميم هندسيا ، وهنا تكون متنوعات لا حصر لها ، تضي على أفليدس جمالا وبهاء . وكثيرا ما قام التصميم على الأزهار ، وهنا تستمتع العين بتشكيلة غنية من الأزهار ، ولكنها منسقة تنسيقا جميلا ، تمش التناج المحبب إلى الناس في حدائقهم : أزهار مصفوفة في أصص ، أو منشورة هنا وهناك ، أو أزهار يصورها الخيال ولا تراها العين ، مع زخارف عربية تنساب هنا وهناك في رشاقة وروية . وفي بعض الأحيان كانت الحديقة نفسها تزود بالتصميم : الأشجار والشجيرات والمزاهر ، والمياه الجارية ، ربت كلها في شكل هندسي ، وقد يتركز التصميم حول رسم كبير نافذ تتدلى منه فتوات في كل الأطراف ، وقد يغرض الزخارف الحيوانية أو مناظر الصيد .

ويأتي بعد ذلك الجهد المضني والصبر الطويل : مد الخيوط طولاً في اللحمة على النول ونسجها مع خيوط السداة العرضية ، وحياكة عقد صغيرة من

الصوف أو الحرير الملون في اللحمة ، لتلوين د الور ، والرسم ، وقد يكون في البوصة المربعة ١٢٠٠ عقدة ، أو ٩٠ مليوناً من العقد في سجادة مساحتها ٢٣ قدماً مربعاً^(٥٦) . ويبدو أن العبودية قد نسجت هذا الفن أو ارتبطت به ، ولكن العامل كان يتيه عجباً بدقة وجمال ما أخرجت يدها ، بحول هذه التشكيلة العجيبة من المواد إلى كل منتظم متناسق متسلسل الأجزاء . وكان هذا السجاد يصنع في اثني عشر مركزاً في فارس وأفغانستان والقوقاز ليضفى رواء وبهاء على القصور والمساجد والبيوت ، أو ليقدّم هدايا ثمينة إلى الملوك والأصدقاء .

ومر السجاد الفارسي والتذهيب الفارسي بتطورات مشابهة في القرنين السادس عشر والسابع عشر ، وتأثرا بأشرطة السحاب ، وغيرها من الرسوم من الصين . وكان لهما بدورهما أثر على الفنون في تركيا والهند . وبلغا ذروة التفوق والامتياز على عهد الصفويين وما أن جاء عام ١٧٩٠ حتى أنتج السجاد الفارسي على أساس السكم ، فتسرعوا في تصميمه ونسجه لسوق أوسع وأقل إلحاحاً على البراعة والإتقان ، وبخاصة السوق الأوروبية . ومهما يكن من أمر ، فإنه حتى في هذه الحقبة ، كانت هناك قطع نادرة فريدة ، لا نظير لها من حيث النسيج واللون والرسم في أى مكان آخر في العالم .

وهكذا كانت فارس ، وهكذا كان الإسلام في آخر ازدهار لسلطانها وفنهما — حضارة تختلف اختلافاً عميقاً عن حضارتها في الغرب ، وفي بعض الأحيان معادية عداء مقروناً بالازدراء ، تدمغنا بأننا مشركون ماديون ، وتسخر منا أخذنا بنظام الزوجة الواحدة وهو أشبه ما يكون بنظام الأمومة ، وأحياناً انقضت علينا تقتحم أبوابنا كالسيل الجارف ، وما كان ينتظر منا أن نتفهمها أو نعجب بفنها حين كان الجدل شديداً بين المسلم والمسيحي ، ولم يكن قد ثار بعد بين دارون والمسيح ، ولم تنته المنافسة بين الثقافتين بعد ، ولكنها في الكثير الغالب توقفت عن سفك الدماء ، ولكل منهما مطلق

الحرية في الامتزاج بالآخرى عن طريق التأثير المتبادل ، فالشرق يأخذ عنا
صناعاتنا وأسلحتنا ، ويصبح غربا . ولقى الغرب نصبا من الثراء والحرب ،
وبات يلتبس شيئا من هدوء البال وطمأنينة النفس . وربما ساعدنا نحن
الشرق على التخفيف من الفقر والخرافة ، وأعاننا الشرق على التواضع في
الفلسفة والتهذيب في الفنون . فالشرق غرب ، والغرب شرق ، ولا بد عاجلا
أن يلتقي الإثنين .

الفصل الحادي عشر

« هر مجدور »

أو

الحرب الإمبراطورية الفاصلة

١٥٦٤ - ١٦٤٨

١ - الأباطرة

في عام ١٥٦٤ كانت الإمبراطورية الرومانية المقدسة - برغم أنها ، كما قال فولتير ، لم تكن ، لا إمبراطورية ، ولا رومانية ، ولا مقدسة - ، خليطاً رائعاً من دول نصف مستقلة : ألمانيا ، ولكسمبورج ، وفرنس - كوتيه ، واللورين ، وسويسرا ، والنمسا ، وبوهيميا ، ومورافيا ، وجزء من المجر . وكانت هذه كلها تدين بالولاء والسلطان للإمبراطور مكسمليان الثاني سليل بيت هابسبرج العريق ، الذي حكم الإمبراطورية منذ ١٤٣٨ وسبواصل حكمها حتى ١٨٠٨ . وبعد أن اعتزل شارل الخامس الملك (١٥٥٥ - ١٥٥٦) اقتسمت الأسرة نصف أوربا بين فرعيها ، فحكم الهابسبرج النمسيون الإمبراطورية ، أما الهابسبرج الأسبان فحكموا أسبانيا وولاياتها . ونذر في التاريخ أن تسلطت أسرة واحدة حقبة هذا طولها على أناس هذا عددهم .

وكان حكم آل هابسبرج أكثر تحمراً في الإمبراطورية في أسبانيا ، لأن الدول التي تألفت منها الإمبراطورية كانت تختلف أشد الاختلاف سواء في الحكومة ، أو اللغة ، أو الدين ، أو الصفات العرقية ، بحيث عجزت حتى

سلطة آل هابسبرج وهيبتها عن منع هذه القوى المندفعة بعيدا عن المركز من أن تحيل^١ الامبراطورية إلى رابطة واهية عن وحدات تحكم ذاتها في عزق وكبرياء أما الديت الامبراطورى ، الذى لم يكن يلتئم شمله الا بين الحين والحين ، فقد وجد أن الحد من سلطان الامبراطور. أيسر من تشريع قوانين تقبلها كل دولة ، وأما الناخبون الامبراطوريون السبعة الذين كانوا يختارون الامبراطور ، فقد سيطروا عليه بالعهود والمواثيق التى اتزعوها منه ثمنا لانتخابه . وهؤلاء الناخبون هم ملك بوهيميا ، وحكام سكسونيا ، وبراندنبورج ، والبالايتينات ، و الناخبون الروحيون ، أى رؤساء أساقفة كولونيا ، وترير ، وماينز . ولم يحكم الامبراطور حكما مباشرا سوى النمسا ، واستريا ، وكارثيا ، وكاربولا ، والتيرول ، وأحيانا بوهيميا ، ومورافيا ، ومسايزيا ، وغرب المجر . وكانت موارده المستقلة ثابتة من هذه الأقطار ، فاذا أراد مزيداً من الموارد فعليه أن يتخذ سمته وقبته في يده ، إلى الديت الامبراطورى الذى بيده مفاتيح المال .

حين مات فرديناند الأول (أخو شارل الخامس) فى ١٥٦٤ ، نقل الناخبون التساج الامبراطورى لولده مكسميان الثانى ، الذى ظفر من قبل بتاجى بوهيميا والمجر . وكان محببا للناس إلى حد لا يناسب امبراطورا . فقط اصطفى الجميع فى دفء طبعة الطيب وروحه المرححة ، ولطفه وأدبه مع كل الطبقات ، وعقله وفؤاده المفتوحين ، فاذا أضفت إلى ذلك كله ذكاه وتسامحه وتشجيعه للعلم والموسيقى ، والفن ، اجتمعت لك صورة سيد مذهب «جنتلمان» لم يصدق الناس أنه توج . ركان قد عرض تبوأه العرش للخطر حين آثر الوعاط اللوثرين على فطر انهم الكاثوليك ، وأصر على تناول الأسرار المقدسة بالخمر وبالخبز ، ولم يمثل للطقس الكاثوليك ، أمثالاً ظاهرياً الا حين اكره على الخيارين الرجوع إلى حظيرة الكنيسة الرومانية أو أعترال الحياة العامة على أنه حمى البروتستانت خلال ذلك من الاضطهاد . وقد ندد بمذبحة القديس برثلميو وقال انها قتل بالجملة^(١) ، وممنح لوليم أونج بتجنيد جيش فى المانيا

لقتال دوق ألفا في الاراض المنخفضة . وفي هذا العصر الذي سادته التعصب والحرب ، ضرب لدول الامبراطورية وعقائدها مثالا رائعا في تسامح يرى من اللامبالاه ، وسلام لم يشبهه المجن . وحين حضرته المنية (١٥٧٦) أبى أن يتقبل آخر الشعائر من كنيسة رومه ، ولكن الامبراطورية بأمرها اجتمعت على الترحم عليه .

وكان قد أقنع الناخبين بقبول ولده رودلف خلفا له ، برغم ما رآه فيه - بلاريب - من طباع أو آثار تعليم خطيرة على الوفاق الديني . فلقد كان رودلف الثاني بطبعه شككا كالمكتئب . وكان من الجائز أن يصبح الوريث لفيليب الثاني لذلك بعث به إلى أسبانيا ليتلقى جزءا من تعليمه المدرسي ، فقضى اليسوعيون هناك على كل ميل فيه للتسامح . وما لبث عقب ارتقاء العرش أن فرض القيود الصارمه على حرية العبادة البروتستنتية وعمل على الحد من انقشارها زاعما - وله بعض الحق (٢) - أن عنف الجدل الديني ، وتعصب الشيع البروتستنتية فيما بينها ، يقوضان سلام الامبراطورية واستقرارها . على أنه لم يكن خلوا من الفضائل التي حبيبت الناس في أبيه فقد عاش في بساطة وتواضع دون تكلف لأبهة الامبراطورية . وحين انتقد أحد أخوته رفعه الكلفة مع الفقراء والوضعاء أجاب : ينبغي ألا ينسينا سمونا فوق الناس بمكانتنا وعراقة محنتنا أننا مرتبطون مع سائر البشر بنقائصنا وعيوبنا (٣) .

والحق أنه أثر أن يكون عالما على أن يكون امبراطورا . تعلم ستة لغات ، ومارس كل علم وفن تقريبا ، واقتنى مجموعات ثمينة من الصور والتماثيل وأنواع النبات وعينات الحيوان . وأعان الشعراء والمؤرخين ، وأنشأ الكثير من المدارس . وحقق الرياضيات والفيزياء والكيمياء والفلك والطب وكذلك الكيمياء القديمة والتنجيم ، وأمد بالمال البحوث الفلكية التي اضطلع بها تيكوبراهي وكبلر اللذان أهدياه جداولهما الرودلفية للنجوم . وإذا استغرقه العلم وهو في قصره ببراغ - التي اختارها عاصمة له - فإنه لم يجد

وقتنا للزواج ، ولم يتسع له الوقت الكثير للحكم . فلم يحضر أى اجتماع للديت بعد ١٥٩٤ ، ورفض أن يوقع أوراقا رسمية بعد ١٥٩٨ وفوض بالسلطة نوابا ذوى حظوة لدية ، ولكن تعوزهم الكفاية . ولما تقدم به العمر انحدر عقله لا إلى درك الجنون ، بل إلى حال من العزلة يشوبها الاكتئاب وطول التفكير ويلازمها خوف الاغتيال . فانه رأى فيما يرى النائم — أو لعل تيكوبراهى قد طالع في النجوم^(٤) — أن قاتله سيكون راهبا فانتهى به الأمر إلى الارتباب فى رجال الدين الكاثوليك ولا سيما اليسوعيين^(٥) ، ثم أكرهته الضغوط الداخلية والخارجية على التخلي لأخيه الأصغر مانياس فى ١٦٠٨ عن حكم النمسا والمجر ومورافيا ، وفى ١٦١١ عن عرش بوهيميا وكل مابقى له من سلطات . ومات فى ١٦١٢ .

أما مانياس فكان قد بلغ الخامسة والخمسين ، بعد أن أهدته الحملات الحربية عن الاستمتاع بالحكم النشط . لذلك عهد بالحكم والسياسة جميعا إلى ملشيسور كايزل أسقف فيينا القدير الحى الضمير . ولكن كايزل أغضب الكاثوليك بما قدم للبروتستنت من تنازلات ، وأغضب البروتستنت لأن هذه التنازلات كانت دون ما يبتغون . وأعتقل فرديناند ، أرشيدوق استيريا ، وابن عم مانياس ، الأسقف كايزل (١٦١٨) ، وظفر بإنتخابه لإمبراطورا عقب موت مانياس (١٦١٩) . وهنا كانت هرجمجدون قد أندلع لها فيها .

٢ — الإمبراطورية

لم تكن سويسره جزءا من الإمبراطورية لإلاصوريا ، وتركزت الانتعمرات المؤثرة التى أحرزتها البلاد على الأباطرة وكبار الأدواق ، الولايات السويسرية (الكانتونات) حرة فى التنافر فيما بينها ، فانضمت سافوى وأسبانيا إلى الولايات الكاثوليكية التى تزعمتها لوسرن ، فى جهود دبلوماسية أو حرية لأرجاع الولايات البروتستنتية إلى حظيرة الكنيسة الرومانية . وبدأ اليسوعيون

من كليلتهم يلو سرن في ١٥٧٧ حملة من التعليم والوعظ والدس . وأصلح ممثلوا البابا في مويسرة الفساد في رجال الدين الكاثوليك ، وقضوا على القسرى بين الكهنة ، وصدوا التأثيرات البروتستنتية المنبعثة من زيوريخ وجنيف وبرن .

وكانت جنيف تفيق ببطء من سلطان كلفن . فقد خلف تيودور دي بين أستاذة (١٦٦٤) زعيما لجماعة د الرعاة ، الموقرة والمجمع الكنسى د الرعاة والعلمانيين ، وعن طريقهم وأصل عمل الكنيسة المنصلحة في لباقة وكياسة لم يقو على إحباطهما سوى « الكراهية اللاهوتية » وسافر في أرجاء فرنسا ليحضر المجمع الكلفنية ، وقد شهدناه يدافع عن قضية البروتستنتية في مؤتمر بواسى . وكافح في وطنه ، وإن لم يوفق كل التوفيق في كفاحه ، ليحافظ على التفضيلة الصارمة التي فرضها كلفن على الناس . فلما انحرف كبار رجال الأعمال أكثر فأكثر عن هذه الجادة ، قاد بين رجال الدين حملة للتنديد بالربا ، والاحتكار ، والإستغلال ، وحين اقترح مجلس المدينة أن يقتصر الوعاظ في وعظهم على مسائل الدين ، أجاب بين بأنه يجب ألا يقهى أى شأن من شؤون البشر عن دائرة الدين^(٦) . وهو من بين كبار زعماء الإصلاح البروتستنتى الوحيد الذى أدرك القرن السابع عشر ، وقدمات في ١٦٠٨ بالغا التاسعة والثمانين .

أما دور النمسا في الإمبراطورية فكان مركزيا . ذلك أنها كانت عادة وطن الأباطرة ، وكانت حصن الحضارة الغربية الحصين في وجه الأتراك الطامعين ، للإصلاح الكاثوليكي . ومقر القوة الكاثوليكية في حرب الثلاثين . ومع ذلك فقد أتى عليها عهد كانت تنذبذب فيه بين الكاثوليكية والبروتستنتية بل بين المسيحية والكفر . ففي عهد فرديناند الأول (١٥٥٦ — ١٥٦٤) قررت معظم الأبرشيات النمساوية كتاب التعليم المسيحي اللوثرى . وكانت اللوثرية المذهب السائد في جامعة فيينا ، وأباح الديت النمساوى تناول القربان بالخمر وبالحبز ، وزواج رجال الدين . « كان الناس يعدونها علامة من علامات

العقل المستنير أن يحتقر صاحبه عادة الدفن المسيحي . وأن يدفن الميت دون مساعدة من قسيس وبغير صليب . ، وفي تقدير أحد الوعاظ في ١٥٦٧ د أن الآلوف وعشرات الآلوف في المدن — أجل . بل في القرى — لم يعودوا يؤمنون بالله (٧) . فلما خشي الإمبراطور فرديناند أنهيار الدعم الديني للحكومة النموية وسلطة آل هابسبرج . دعا بطرس كانيسوس وغيره من اليسوعيين إلى جامعة فيينا . وبدأت الكاثوليكية تستعيد مكانها بفضل زعامتهم ، لأن هؤلاء الرجال المتتمرسين جمعوا بين العقل المرفف الصابر ، وبساطة العيش التي وقعت أفضل موقع في النفوس . فلما وافى عام ١٥٩٨ حتى غدت كنيسة رومه سيدة الموقف .

ومثل هذا التغيير طرأ على المجر المسيحية . فقد دان ثلثا المجر للحكم التركي منذ ١٥٢٦ ، وكانت الحدود التركية تبعد عن فيينا بأقل من مائة ميل ، ولم يقو الأباطرة على المحافظة على السلام مع تركيا إلا بدفع جزية سنوية للسلطين حتى عام ١٦٠٦ . وكانت ترانسلفانيا الواقعة إلى الشمال الشرقي من المجر التركية تؤدي مثل هذه الجزية ، ولكن حدث في عام ١٦٠٦ أن أوصى أميرها ستيفن بوكسكاى بالإقليم لآل هابسبرج قبيل موته دون عقب .

أما ديت المجر النموية فكان منذ ١٥٢٦ يؤيد حركة الإصلاح البروتستنتي ، فقد دهم عليه النبلاء الطامعون في الاستيلاء على أملاك الكنيسة الكاثوليكية (٨) . وفي ظل الحرية الدينية التي صانوها خلفت البروتستنتية بمكان السيادة بين الطبقات المتعلمة . ولكن سرعان ما انقسمت شيعة لوثرية ، وكافنية ، وتوحيدية ، وتفرق التوحيديون مللا أصغر لاختلافهم على صواب توجيه الصلوات إلى المسيح . ولم ير النبلاء بعد أن استتب لهم الأمر في امتلاكاتهم مبررا بعد ذلك للبروتستنتية . لذلك رحبوا ببطرس بازهاني وغيره من اليسوعيين ، وقبلوا التحول المماثل ، إلى الكاثوليكية ، وطردها البروتستنت (٩) . واستبدلوا بهم القساوسة الكاثوليك . وفي عام ١٦١٨ أصبح فرديناند أرشيدوق

أستيريا ملكها على البحر ، فعزز حركة الإصلاح الكاثوليكي تعزيزا نشيطا .
وفي ديت ١٦٢٥ لاستعداد الكاثوليك أغلبيةهم . وأصبح بازمانى كرينالا وكاتبا
من أبلغ مؤلفي العصر المجريين ، مع أنه ابن رجل كافئ المذهب .

وأما بوهيميا والاقاليم التابعة لها — وهى مورافيا وسيليزيا ولوزانيا —
فكانت تغلب عليها البروتستنتية عام ١٥٦٠ . واعترفت الولايات الأربع
بملك بوهيميا سيدا عليها ، غير أنه كان لكل ولاية مجلسها القومى وقوانينها
وعاصمتها — براغ ، وبرون (برنو) ، وبرسلاو ، وبوتزن ، وكانت براغ فى
ذلك الحين من أجمل مدن أوروبا وأكثرها ازدهارا . ولم يكن مسموحا
بالتصويت فى الديت البوهيمى الا لملك الأرض البالغ عددهم ألفا وأربعمائة
ولكن كان من بين أعضائه : ثلثون لسكان المدن والفلاحين ، أتاح لهم سلطان
المال نفوذًا جاوز مجرد الكلام . وكان معظم النبلاء لوثرين ، ومعظم مدائنى
المدن لوثرين أو كلفنين ، ومعظم الفلاحين كاثوليك . ولكن قلة منهم كانت
أوتراكية ، تخلوا فى عام ١٥٨٧ عن تقاليدهم الهسية (مذهب المصلح الدينى
البوهيمى ، والشهيد جون هس ١٣٦٩ - ١٤١٥) ، ولم يتمسكوا الا بتناول
القربان بالخبز وبالخمر ، وأخيرا تصالحوا مع كنيسة روما (١٥٩٣) . أما
أكثر الطوائف الدينية اخلاصا فكانوا الأنيثاسفرا تروم ، — وهم الاخوان
البوهيميون أو المورافيون — الذين أخذوا موعظة المسيح على الجبل مأخذ
الجد ، وعزفوا عن كل الحرف والمهن الا الزراعة ، وعاشوا فى بساطة
كبساطة تولستوى المسالمة .

وفى عام ١٥٥٥ جلب فرديناند الأول اليسوعيين إلى بوهيميا . فأنشأوا
كلية فى براغ وربوا دكادرا ، من الكاثوليك الغيورين ، واكتسبوا الكثيرين
من النبلاء الذين تزوجوا بنساء كاثوليكيات . ثم أصدر رودلف الثانى
مراسيم . نفى فيها الاخوان البوهيمين أولا ، ثم السكلفنيين ، غير أن الوسائل
أعوزته لتنفيذ هذه المراسيم . وفى عام ١٦٠٩ أقنعة البروتستنت بأن يوقع

الميثاق الملكي الشهير ، الذي كفل حرية العبادة للبروتستنت في بوهيميا . وبعد عامين نزل رودلف عن العرش لما تياس ، ونقل هذا قضية الامبراطورية الى فيينا ، وترك براغ مغیظة نائرة . وفي عام ١٦١٧ اعترف الديت البوهيمي بالارشيدوق فرديناند الاستيري ملكا على بوهيميا ، وكان عدد السكاؤوليك يتسكاثر في هذا الديت برغم أن البلاد مازال أغلب أهلها من البروتستنت^(١١) وكان فرديناند هذا قد تعلم على يد اليسوعيين وأقسم ان يستأصل شأفة البروتستنتية أن حكم . واتخذ بروتستنت بوهيميا أهبتهم للحرب .

أما المانيا فكانت أخلاطا من الأمم داخل كيان معقد ، كانت إمسا لاشعبا ومزيجا من امارات تتفق في لغتها واقتصادها ، وتباين أشد التباين في عاداتها ، وحكمها ، وعملاتها وعقائدها (*) . ولم تعترف أى من هذه الوحدات بسيد عليها الا الامبراطور فقط ثم هي تتجاهله خمسين أسبوعا في السنة . وقد وجد بعض الأجانب عزاء في انقسام المانيا على هذا النحو فكتب سير توماس أوفريري في ١٦٠٩ يقول . لو أنها كانت كلها خاضعة لنظام ملك واحد لكان ذلك

(*) كانت ألمانيا في القرن السادس عشر مقسمة إلى سبع دوائر ادارية :

- ١ — فرانكونيا : وتشمل ورزبرج ، بيمبرج ، بايريت .
- ٢ — يافاريا : وتشمل ميونخ ، ورختزبرج (راتسبون) وسالزبرج .
- ٣ — سوابيا : وتشمل بادن ، ستنجارت أو جزبرج ودوقية ورتمبرج .
- ٤ — الراين الأعلى : ويشمل فرانكفورت (آم مين) وكاسل ودرمستاد وزيانن ومقاطعة ناسو وافليم هس ودوقية اللورين وجزء من لاراس .
- ٥ — الراين الأدنى : ويشمل وستفاليا جوليش وكليف والبلاتينات وأسقفيات كولون وترير وماينز .
- ٦ — سكسونيا السفلى : ويشمل مكلنبرج وبريمن ومجدبرج ودوقيات برنزيك ولونبرج وهولشتين .
- ٧ — سكسونيا العليا : وتشمل ليمزج وبرلين ودوقية بوميرانيا الغربية ومقاطعة سكسونيا وبراندنبرج .

أمرار هيبا بالنسبة لباقي أوروبا (١٢) لابل أن هذا الوضع ارتاحت الية ألمانيا من وجوه كثيرة . صحيح أنه أضعفها في المناقسة السياسية والحرية مع الدول الموحدة ، ولكنك أعطاهها حرية محلية ، وتنوعا دينيا وثقافيا قد يفضلها الألمان بحق على أرسنقراطيات متمركزة مضنية كارسنقراطيات فيليب الثاني في أسبانيا ولويس الرابع عشر في فرنسا . فلم تسكن هنا باريس تطغى وتنج بسكانها وتمتص دم الحياة من قطر بأكملة بل كوكبة من مدن مشهورة لىكل منها طابعها وحيويتها .

على أن ألمانيا لم تعد تحظى بذلك التفوق الاقصادى الذى كان لها في شمال أوروبا قبل لوثر ، رغم هذه التشكيلة من المدن العظيمة والبلاطات الصغيرة . ذلك أن كشف طريق بحرى خالص من غرب أوروبا إلى الهند ، وفتح الاطلنطى للتجارة ، أفادا البرتغال وأسبانيا أولا ، ثم إنجلترا والأراضى الوطيمة بعدعما ، وقد أضر بإيطاليا التى هيمنت من قبل على تجارة الشرق ، وشاركت في اضمحلال إيطاليا تلك الأنهار والمدن الألمانية التى كانت تنقل التجارة من إيطاليا إلى الشمال . فأخذت ثغور الأراضى الوطيمة في بحر الشمال ، وثغور الدنمرك وبولندة في البلطيق ، معظم التجارة والمكوس . أما عصبة اطانسا فكانت قد فقدت تفوقها الماضى منذ زمن طويل ، ودمرت لوبك في حربها الطويلة مع السويد (١٥٦٣ — ١٥٧٠) . ولم تحتفظ بثرائها غير فرانكفورت على الراين ، وظلت سوقها السنوية أحفل أسواق أوروبا بالقصاد ، وقد أحالت المدينة إلى مركز لتجارة ألمانيا الداخلية والمالية الدولية .

أما إقبال الناس على المال فظل على حاله . وتهرب الناس في كل مكان من المراسيم التى حرمت تقاضى فائدة تربو على ١٠٪ . قال قسيس في ١٥٨٥ : إن رذيلة الربا الكافرة يمارسها الآن المسيحيون في حرص أشد من حرص اليهود في الماضى ، وشكوا واعظ في ١٥٨١ من أن دولعا غير مسيحي بالذهب

قد تسلط على كل الناس من جميع الطبقات . فكل من ملك شيئاً يغامر به ، يفكر في الإثراء . . . بشئ أساليب المضاربة ، والتعامل في النقود ، وعقود الربا ، بدلا من القيام بعمل أمين شاق ،^(١٣) . واستثمر المئات من العاملين مدحراتهم مع أحد بيوت فوجر ، أو فيلزر ، أو هوخشتير المالية ، ثم خربت بيوتهم في افلاسات متكررة . وفي عام ١٥٧٢ أفلس بنك إخوان لوتيز بعد أن جمع أموالا طائلة من صغار المستثمرين ، فأفقدهم بذلك مدحراتهم بل بيوتهم^(١٤) . أما بيت فوجرز فقد جلب عليه الخراب افلاس فيليب الثاني ودوق ألغا اللذين شارك هذا البيت في تمويلهما^(١٥) . كذلك أفلس بيت فيلزر في ١٦١٤ وبلغت ديونه ٥٨٦,٠٠٠ جولدن . ولعل الخوف من التضخم دفع الناس إلى مثل هذه الاستثمارات ، لأن كل أمير ألماني تقريباً كان يسرق من شعبه بتخفيض العملة ، ولأن الذين زيفوا العملة أو اقتطعوا حوافها تكاثر عددهم . فما وافى عام ١٦٠٠ حتى كانت العملات الألمانية تتردى في فوضى شائعة.

وزاد عدد السكان بينما تخلف الإنتاج ، ودفع برد الشتاء الناس إلى شفا الثورة . وأكره الفلاحون في جميع الأقاليم — باستثناء سكسونيا وبافاريا على أن يصبحوا أقنانا . وفي بوميرانيا وبراندنبورج وشلزويج وهولشتين وميكلمبورج شرعت القنبية (رق الأرض) في سنة ١٦١٦ أو بعدها^(١٦) وقد تساءل كاتب في سنة ١٩٥٨ : ترى في أى أرض ألمانية مازال الفلاح الألماني يتمتع بحقوقه القديمة ؟ وأين يتاح له أى انتفاع أو ربح من الحقول أو المراعى أو الغابات المشاعة ؟ وأين يتوقف عدد الخدمات أو الالتزامات الإقطاعية ؟ وأين يجد الفلاح محكمة الخاصة ؟ ألا فليسيغ الله عليه رحمته^(١٧) وذهب الكثير من الفلاحين للعمل في باطن الأرض ، ولكن أرباح التعدين وأجوره الحقيقية تضائلت حين دخلت الفضة الأمريكية ألمانيا لتنافس المعدن المستخرج بفقر الأنفس من عروق معدنية مستهلكة . أما في المدن فإن زمالة النقابات القديمة أفسحت الطريق لاستغلال أرباب الصناعات لعمال اليومية . وكان يوم العمل في بعض الصناعات يبدأ في الرابعة صباحا وينتهي في السابعة مساء ، يتخلل ذلك

د فترات لتعاطى الجمعة ، ، وقد انتزعت نقابة النحاسين من العمل فى عام ١٥٧٣ أسبوع عمل بلغت جملة ساعاته اثنتين وتسعين^(١٨) . ومنذ عام ١٥٧٩ نسمع بإضرابات ضد استخدام الآلات فى صناعة النسيج بألمانيا^(١٩) . وهكذا لم يبق إلا نشوب الحرب حتى يصبح الفقر المدقع كارثة لا نظير لها .

٣ - الأخلاق وآداب السلوك

إذا صدقنا مزاعم الأخلاقيين فى نصف القرن الذى نحن بصدده ، كانت صورة الأخلاق لا تقل قياما عن صورة الاقتصاد . فقد شكوا المدرسون من أن الصغار الذين يهد إليهم بتعليمهم ليسوا مسيحيين بل همج . وكتب ماتيئاس بريدنباخ عام ١٥٥٧ يقول : د أن الناس يربون أبناءهم تربية بلغت غاية السوء بحيث أصبح واضحا للبعدين المساكين . . . أن عليهم أن يتعاملوا . . . مع وحوش ضارية^(٢٠) ، وقال آخر عام ١٥٦١ د يبدو أن كل نظام أصبح فى خبر كان ، إن التلاميذ جاوزوا الحدود فى العصيان والوقاحة^(٢١) . وفى معظم مدن الجامعات كان المواطنون يترددون فى الخروج ليلا خوفا من الطلاب الذين يهاجمونهم أحيانا بمدام المفتوحة^(٢٢) . كتب ناتان كترانسين فى ١٥٧٨ يقول : د لاشك أن من أهم أسباب انحلال أخلاق الطلاب الذى عم الآن هو تدهور التربية المنزلية . فلا عجب ، بعد أن خلعنا عن أعناقنا نير القوانين والشرائع القديمة . . . أن نشهد بين الشطر الأعظم من شبابنا مثل هذه الإباحية المطلقة ، والجهل المطلق ، والوقاحة المستعصية ، والإلحاد الرهيب^(٢٣) . ورأى غير هؤلاء د أن التمثيلات الهزلية والعروض والمسرحيات ليست من الأسباب الهينة التى ألقت بالشباب فى مهاوى الرذيلة والفجور^(٢٤) .

أما الكبار فقد قال الوعاظ فى وصفهم أنهم منافقون ، مشاكسون ، نهمون مسكرون ، زناة^(٢٥) . وشكوا الراعى يوهان كوفو فى ١٥٧٩ من أن الرذيلة بأنواعها انتشرت حتى ليرتكبها الناس دون حياء ، لا بل أنهم يهاخرون بها مفاخرة اللوطيين ، وأصبحت أقبح الكبائر وأغلظها تعد فضائل . . . فن

الذى ما زال يرى، أرتكاب الفجشاء خطيئة؟^(٢٦) كتب الراعى برتلمايو ونجفالت في ١٥٨٥ يقول: «هذا الزمان آخر الأزمنة التى نكتب بها العالم، وأشدها فسادا»^(٢٧) وأصبح التعذيب وتدنيس المقدسات شأننا بين كل الرجال تقريبا من جميع المذاهب^(٢٨) واستنرى الافتراء على الناس . وكتب كونت أولدنبورج في ١٥٩٤ يقول: شكالى ملاحظ أعمالى من الطريقة التى أساء بها الدكتور بيزل في برلين إلى سمعته وفتري عليه في أحد كتبه، إذ زعم أنه ينفق نهاره في الشره والسكر والفجور، وأنه . . . ذئب مفترس للحملان، وأفمى، وتيس، وسقط جحيض . . . وأنه يحب التخلص منه أما بشنقه أو لغرقه أو سجنه، وإما بدولاب التعذيب أو بحد السيف، . . . ووجد واعظ بلاط أمير سكسونيا الناخب أنه «في طول ألمانيا وعرضها تقريبا اشيع كذبا «أننى أ كسب أقداحا مذهبة كبيرة في مباريات الشراب . . . وأننى أفرط في شرب النبيذ . . . حتى ليضطر القوم إلى مساعدتى ودفعى على عربة جركأننى عجل أو خنزيرة مخمورة»^(٢٩) .

وكان تناول الطعام والشراب شغلا شاغلا للناس، فنصف نهار الألمانى الميسور ينفقه في دفع الطعام من إحدى طرفى القناة الهضمية إلى طرفها الآخر وكان أهل المدن يفخرون بشبهتهم الطيبة التى تفصح عن ثرائهم كما تفصح عنه ثياب زوجاتهم . وقد ذاع صيته أحد لاعبي السيرك في أرجاء ألمانيا كلها لأنه أكل في وجبة واحدة رطلا من الجبن، وثلاثين بيضة، وورغيدا كبيرا من الخبز — وهى مهمة خر بعدها صريعا . ولم يكن من الأمور الشاذة أن يتصل الغذاء أو العشاء سبع ساعات يتخللها شرب أربعة عشر نجبا . أما حفلات الزفاف فكمالت في أكثر الأحيان قصفا صاخبا يحفل بالهم والسكر وقد ألف أمير موح أن يوقع رسائله بهذه العبارة (كن معافى وأسكر) . وقد أسرف كريستيان الثانى أمير سكسونيا الناخب في تعاطى الخمر حتى أودت بحياته، ولما تجاوز السابعة والعشرين . وكأخت جمعية الامتناع عن السكرات لمقاومة هذه الرذيلة، ولكن أول رئيس لها مات من السكر^(٣٠) . وقد أكد

بعضهم أن البطنة قصرت أعمار الناس ، وكتب إرزمس فنتر في ١٥٩٩ يقول
« إن الإسراف في الطعام والشراب قلل من عدد المعمرين ، ونذر أن نرى رجلا
في الثلاثين أو الأربعين لا يشكو مرضا ، سواء كان الحصى ، أو النقرس ،
أو السعال ، أو السل ، أو غيره ، » (٢١) .

• ولكن علينا ألا نأخذ هذه الشكاوى المعاصرة مأخذ الجد الشديد . فأغلب
الظن أن كثرة الشعب كانوا قوما مجدين ، صابرين ، يخفون الله بالمعنى الحرفي
للعبارة . إلا أن الفضيلة لا ينوه بها التاريخ كما لا تنوه بها الصحف — وهذا
دليل على أنها أمر عادي مألوف . فقد كانت زوجات أهل المدن يلزمن بيوتهن
في عزلة متواضعة مستغرقات في عشرات الواجبات التي لا تترك لهن فراغا
لارتكاب ذنوب أفدح من الثرثرة بالشائعات ، وكانت الكشيرات من نساء
الطبقة العليا — مثل أنا زوجة أغسطس الأول أمير سكسونيا الناجب —
مثلا يحتذى في الولاء الصادق للأسرة . ولم تخل ألمانيا الصاخبة تلك من
الجوانب السارة . محبة الأطفال والبيت ، وكرم الضيافة ، والرقص الطروب
والموسيقى الجميلة ، والألعاب والمهرجانات المرحية ، وأول شجرة ميلاد في
التاريخ المدون كانت جزءا من احتفال أقيم بألمانيا في ١٦٠٥ ، والألمان هم الذين
أحاطوا بعيد ميلاد المسيح ، بالمظاهر البهية التي تخلف من ماضيهم الوثني :
وكانت الرقصات والأغاني الشعبية تلد أشكالا من الموسيقى المعزوفة ؛
وكانت التراتيل بسبيلها إلى أن تصير كورالات ضخمة . وغدا الأرغن أثرا
فنيا يدخل في فن المعمار ، أما البيان القيثاري ، والعود وغيرهما من الآلات
الموسيقية ، فكانت وليدة في التغنى بالحلب . وحملت كتب الترانيم أحيانا ،
لا سيما في بوهيميا ، بزخارف رائعة . أما الترانيم البروتستنتية فكثيرا
ما كانت تعليمية أو جدلية ، وضحت في هذا السبيل برقة ترانيم العصر الوسيط
المقدسة ، ولكن الكورالات البروتستنتية كانت بشيرا بمقدم يوهان
سبستيان باخ . وفرض التعليم الموسيقى على المدارس من جميع المذاهب ،
وكان مقام الكانتور ، — أي معلم الموسيقى — لا يعلو عليه إلا مقام المدير

أو الناظر في سلم المراتب المدرسية واشتهر عازفو الأرغن يومئذ شهرة عاز في البيان الآن ، وذاع صيت يعقوب هاندل في براغ . أما الأخوة هاسلر — وهم هانز ، وكاسبار ، ويعقوب — فقد انتشت جماهير المصلين بموسيقاهم التي كانت من وضعهم في كثير من الأحيان ، في درسدن ، ونورمبرج ، وبراغ وقد نحا النسوخ الموسيقي إلى الظهور مرارا وتكرارا في الأسرة الواحدة ، لا بفضل أية ورادة خفية ، بل نتيجة لعدوى البيت ، وهكذا اتخذ حشد حقيقي من آل شولتز اسم « بريتوريوس » ، ولم يكتف ميخائيل بريتوريوس بوضع مجلدات في الموسيقى ، بل وضع في كتابه « أصول الموسيقى » (١٦١٥ — ١٦٢٠) موسوعة شاملة رفيعة لتاريخ الموسيقى وآلاتها وأشكالها .

أما أعظم الاسماء في هذا العصر وهذا الميدان فهو هنريخ شوتز ، الذي أجمع الكل على الإشادة به « أبا للموسيقى الألمانية الحديثة . وقد ولد لأسرة مسكسونية في ١٥٧٥ ، قبل قرن تماما من مولد باخ وهاندو ، وأرسى دعائم الأشكال والروح الموسيقية التي أوصلها هذان الفنانان إلى ذروة الكمال . وحين بلغ الرابعة والعشرين اتخذ سمته إلى البندقية ، حيث درس على جوفاني جابرييلي . فلما عاد إلى ألمانيا تردد بين الموسيقى والقانون ، ولكنه استقر آخر الأمر على العمل مديرا للموسيقى في بلاط يوحنا جورج ، أمير مسكونيا الناحب ، بمدينة درسدن . وراح منذ ١٦١٨ يتدفق ألحانا كورالية مهدت السبيل كل التمهيد للعدد الكبير من الموسيقيين من آل باخ بفضل ما فيها من تناول بارع للكوارس (مجموعات المشددين) وللأصوات المنفردة والآلات الموسيقية ، ومن مقابلة بين هذه كلها ، ولأول مرة أذيب وخفف مزج الألحان الكورالي الألماني الثقيل بأسلوب « التوزيع » الأكثر انساقا ، والذي جمع بين الأصوات والآلات . واحتفالا بنفاف ابنة الأمير الناحب (١٦٢٧) لحن شوتز أولى الأوبرات الألمانية ، واسمها دافني على أساس أوبرا ييري التي تحمل هذا الاسم ، والتي أديت بفلورنسة قبل ثلاثة وثلاثين عاما . وتأثر شوتز

برحلة ثانية إلى إيطاليا ، فأعطى مزيدا من الوضوح للأصوات المنفردة والآلات الموسيقية في « سيمفونية المائدة المقدسة » (١٦٢٩) إذ وضع موسيقى لنصوص لاتينية من الزامير ونشيد الانشاد . وفي ١٦٣١ غدت سكسونيا مسرحا نشيطا للحرب . فضرب شوتز في الأرض متنقلا من بلاط إلى بلاط ؛ حتى أنه رحل إلى الدنمرك ، بحثا عن فرق المرتلين والتماسا للرزق ، ولم يرد إلى وظيفته في درسدن إلا في ١٦٤٥ ، وفي ذلك العام ابتكر أسلوب موسيقى « آلام المسيح » الألمانية بوضعه موشحة دينية « أوراتوريو » سماها « كلمات المسيح السبع على الصليب » ، هنا بدأت فكرة إعطاء كلمات شخص منفرد لنفس الصوت المنفرد ، ثم يسبق الصوت أو يقفوه بنفس الأنغام في الآلات ، وقد اقتبس باح من بعده هذه الطريقة في موسيقى « آلام القديس هتي » . ثم شق شوتز طرقا جديدة مرة أخرى ، إذ نشر في ١٦٥٧ « الأنغام الألمانية » وهي « كانتات » (قصص موسيقية تنشدتها المجموعة على أنغام الموسيقى من غير تمثيل) تضعه مع كاريسيمس في مقام المثنى المشارك للأشيد الدينية الدرامية وقد هيأ لحنه « نشيد عيد الميلاد » (١٦٦٤) لباخ هدفا آخر يستهدف فيما بعد . ثم بلغ قصاره بعد عام في « آلام ربنا وخلصنا يسوع المسيح وموته » . وهو نشيد وضعه بصرامة للأصوات وحدها دون أن يخفف بالألحان . وما لبث عقب هذا أن فقد سمعه ، فاعتكف في بيته ، ومات في السابعة والثمانين بعد أن لحن فقرة من المزمور ١١٩ تقول : « ترنيمات صارت لي فرائضك في بيت غربتي » .

٤ — الآداب والفنون

كان أبرز إنتاج أدبي للامبراطورية في هذا العهد ترجمة للكتاب المقدس قام بها الإخوان البوهيميين (١٥٨٨) ، وملحمة Zrinyácz (١٦٤٤) التي نظمها ميكلوس زرينيبي . وخلفت ألمانيا الآن (حوالي ١٦٠٠) إيطاليا بوصفها أروج سوق لنشر الكتب ، لاسيما فرانكفورت وماين . . نفى ١٥٩٨

بدأت سوق فرانكفورت للكتاب تنشر كل نصف عام قائمة بالمطبوعات ،
« وشجعت الجمعيات الأدبية الشعر والدراما ، ولكن الأدب كانت تخضع
الرقابة المدنية والكنيسة . فقد أجمع القادة اللوثرين والكاثوليك
على أن المؤلفات التي تعبد ضارة بالحكومة . أو المذهب الرسمي ، أو الآداب
العامة . يجب حظرها ، ومن عجب أن مجموع الكتب التي حرمتها السلطات
البروتستنتية فاق تلك التي أدانتها كنيسة رومه (٢٢) . واضمحل العلم لأن
الحقيقة شوهرتها حدة الجدل . وآية ذلك أن مانياس فلاكيوس الليريكوس
ومساعديه صنفوا تاريخا للكنيسة المسيحية في ثلاثة عشر مجلدا من القطع
الكبير . ولكن « قرون مجد بورخ » ، وهو الاسم الذي انتهى الناس إلى
إطلاقه على كتاب « تاريخ الكنيسة المسيحية » (١٥٥٩ - ١٥٧٤) نسبة
إلى مكان تأليفه وإلى تقسيمه حسب القرون - هذا الكتاب كان متحيزا
للكتب التاريخ الكاثوليكية الصادرة في ذلك العهد ، يوم كان كل كتاب
سلاحا في القتال . مثال ذلك أن البابا جريجوري السابع صورته هؤلاء المقاتلون
أشد وحشية من كل ما ولد من وحوش . وزعموا أنه قتل عدة باباوات قبل
أن يرتقى كرسي البابا ، (٢٣) . أما أروع التواريخ الرسمية الألمانية - في
جيله فكتاب يوهان سلايدانوس الذي روى قصة الإصلاح الديني :
« الأحوال الدينية والمدنية في عهد الإمبراطور شارل الخامس » (٥٥٥) ،
وقد بلغ من الإنصاف مبلغا لم يترك مجالا - حتى لملانكوف - أن يختمفر
له أي تحامل فيه .

وبعد الكتب المحشوة بالمطاعن كانت الدراما أكثر أشكال الأدب شعبية
وقد استخدم البروتستنت والكاثوليك المسرح لبث الدعوة ؛ فسخرت
التمثيلات البروتستنتية بالبابا سخرية مريرة ، واختتمت عادة بزجه في الحجم
وأخرج معلمو الموسيقى بسويسرة تمثيلات عن آلام المسيح والقيامة .
والدينونة الأخيرة ابتداء من ١٥٤٩ ، وشارك في التمثيل أحيانا ٢٩٠ مجلا .

ومثلت مسرحية آلام داوبرامير جاو، أول مرة في ١٦٣٤ وفاء بنذر نذر خلال طاعون ١٦٣٣ . وكانت تعاد كل عشر سنوات ، ويستمر عرضها من الساعة الثامنة والنصف صباحا إلى السادسة مساء ، يتخلل ذلك إستراحة ساعتين في الظهيرة . وقد دخل الممثلون الإيطاليون ألمانيا عام ١٥٦٨ ، ثم تلاهم الهولنديون والفرنسيون والإنجليز . وسرعان ما أحلت هذه الفرق التمثيلية عروض المحترفين محل العروض الخاصة، وقد أثارت الكثير من الشكاوى بسبب فحشها الذي در عليها الربح الوفير .

وحظى بشعبية فاقت حتى شعبية الممثلين نافد ألزاسي هجاء ، فيه فحولة وله كفايات متعددة ، يدعى يوهان فيشارت فبعد أن تقمص في مرح روح عصره ، أصدر سلسلة من التقليدات الساخرة ضد الكاثوليكية ، بلغت في تدميرها الذكي مبلغا جعله بهذا قايل أروج كاتب في ألمانيا ، ففي كتابه « خلية النحل الرومانية المقدسة الهائلة » ، هاجم (١٥٧٩) تاريخ الكنيسة ، وعقيدتها ، واحتفالاتها ، وكهنيتها ، في كاريكاتور عنيف ، فكل الأديار الكاثوليكية عنده مراتع للفجور والاجهاض ، والكنيسة في زعمه قضت بأن « للسكينة » أن يستعملوا زوجات غيرهم في غير حرج ، وقد وجدت ستة آلاف من رؤوس الأطفال في بركة قرب دير الراهبات ، وهكذا دواليك (٣٤) . وفي هجاء آخر سماه « القبة اليسوعية الصغيرة » ، سخر من قبعة اليسوعيين ذات الزوايا الأربع وندد بكل أماليهم وأفكارهم . وفي عام ١٥٧٥ ، نشر فيشارت ، بعنوان « مرح في ثمانية سطور » ، ترجمة مزعومة ، هي في حقيقة الأمر تقليد وتوسيع لكتاب رابليه « جارجانتوا » ، وقد هزأ الكتاب بجميع نواحي الحياة الألمانية — كظلم الفقراء ، وسوء معاملة التلاميذ ، ونهم الألمان وسكرهم ، وزناهم وفسقهم ، كل ذلك في خليط من الأساليب ومن اللهجة الألزاسية ، متبل بالبذاءة والظرف . ومات فيشارت في الثالثة والأربعين بعد أن أفرغ ما في جعبته من ألفاظ .

ولا يقل عن فيشارت حيوية رجل آخر مات في نفس السنة ، ١٥٩٠ ،
بالغا نفس العمر ، هو نيقوديموس فريشلين ، الذي عاش أكثر من عشرة
أعمار في عمر واحد . ففي العشرين كان أستاذا للتاريخ والشعر في توينجن ،
ونظم الشعر اللاتيني في رقة تذكر بركة هوراس ، وكتب شروحا علمية
لفرجيل . وفي الخامسة والثلاثين طرد لهجائه النبلاء . وبعدما عاش عيشة
الاستهتار والمرح ، فأسرف في الشراب ، زاعما أن الخمر لا غنى عنها للعبقريّة ،
وأن أشعار الزاهدين في الخمر هزيلة هز الاحقيرا ، وقد اتهم بإفساد فتاة
وتسميم أخرى ، وإذ كان مهددا بالمحاكمة الجنائية لعدوانه على الفضيلة ، فقد
ظل يفر من بلد إلى بلد ، وأهدى محاضرة منشورة إلى أحد عشر رجلا من
الاعيان المختلفين ، الذين وزعهم توزيعا جغرافيا ، ليوفروا له ملجأ يلوذ به
في أى مكان ، ولكنه مات أثر كبرة قلبه أن ينتهى من إبداء رأيه في أعدائه .
وجريا على عادة ذلك الزمان نعتوه بأنه : « شاعر قدر حقير ، وسقط للشيطان
كذاب لثيم » (٣٥) . ولكنه كان ألمع شاعر استطاعت ألمانيا أن تنجبه في
ذلك الجيل الشقى .

أما الفن فقد أضر به عزوف البروتستانت عن الصور والنماثيل ،
واضمحلال الكنيسة بوصفها راعية للفن ، وإفساد التأثير الايطالى الغريب
على ألمانيا للطرز الوطنية ، وتدهور الذوق نتيجة لخشونة الأخلاق وعنف
الجدل ، ثم نار الحرب الآكلة بعد ذلك . وأعجب العجب أن تنتج الحرفية
الألمانية ، برغم هذه المشبطات ، في العقود الستة السابقة للحرب ، عدة قصور
نخمة ، ودور للبلدية بهية ، وتنجب مصورا قديرا ، وتبدع بعض التحف الثمينة
في الفنون الصغيرة . وكانت مجموعات الامبراطور رودلف الثانى والدوق
ألبرت الخامس أمير بافاريا نواة لمتحف ميونخ الشهير « قاعة الفن القديمة » ،
وكان ألبرت نفسه « مديتشيا ألمانيا » ، فأحال بلاطه جنة للفنانين ، وجمال

حاصته بالعمارة ، وجمع التماثيل في «الانتسكواريوم» ، - وهو أول متحف للتماثيل القديمة شمال الآلب .

وفي ١٦١١ - ١٦١٩ بنى معمارى هولندى للدوق مكسمليان الأول في ميونيخ «المقر» الذى ظل قرونا بيتا لأدواق بافاريا وناخبها وملوكها . وقد أسف جوستاف أدولف لأنه لم يستطع أن ينقل إلى استكهولم ذلك المشال المحبب من عمائر فترة الإصلاح البروتستنتى المتأخرة فى ألمانيا . أما اليسوعيون فقد شيدوا بطراز الباروك ، على طريقتهم التى تعنى بالزخرفة والتنميق ، كنائس بديعة فى كوبلنز . وديلنجن ، وكنيسة هوف (كنيسة القديس ميخائيل) بميونيخ وصمم مانتينو سولارى كاتدرائية سالزبورج ، على طراز أكثر بساطة ونظاما ، قبل اندلاع حرب الثلاثين بضع سنين .

وإذ كان الأمراء قد استولوا على معظم الثروة الكنسية فى ألمانيا البروتستنتية ، فإن العمارة فيها لم تعد كنيسة بل مدنية ، وأحيانا «عمارة قصور» . وبنيت القلاع الضخمة ، كقلعة هايلينجبرج فى بادن ، المشهورة بسقفها المصنوع من خشب الزيفون المنقوش ، فى قاعتها المعروفة بالريتزرال (أى صالة الفرسان) ، وقلعة أشافنبورج على الماين ، وقلعة هايد لبيرج ، التى ما زالت مشهدة من مشاهد ألمانيا الكبرى . وأقيمت دار بلدية «درايتهاوس» الفاخرة لتضم إدارة البلدية فى لوبك وقلاع بادريون ، وبريمن ، وروتنبورج وأجزبورج ونورمبرج وجراتز . وعهد تجار المنسوجات فى أجزبورج إلى الياس هول ، كبير معماري المدينة ، ببناء قاعتهم «تزويج هاوس» أى قاعة الأقدسة . كذلك بنت برمن قاعة للغلال «كورنهاوس» ، وفرانكفورت قاعة للملح «زالتسهاوس» ، لتجار الغلال والملح على التوالى ، ولكن من كان يتوقع أن يبنى الحل لنفسه بيتا رفيع الذوق يظله كقاعة الحل «ايسيجهاوس» ؟

* هذا المتحف وغيره من المنشآت الموسومة بعلامة نجمية فى هذا القسم دمرت أو لحق بها ضرر بليغ فى الحرب العالمية الثانية .

وارتفعت الآن ، وفي الأعوام المائة والخمسين التالية ، القصور في كل مكان بألمانيا لتأوى الأمراء الظافرين ، وقد بنيت بطراز الباروك اللوحي البهيج . من ذلك أن حاكم أنسباخ بايروي٢ ، أنفق ٢٣٧.٠٠٠ فلورين (٣٠.٠٠٠,٠٠٠ دولار) على قصر بلاسنبورج الذي يملكه ، في إمارة من أفقر إمارات الامبراطورية . وأرفع من هذا القصر ذوقا ، القصر الأميرى الذى أعد لرؤساء أساقفة ماينز . وتبدو عمارة بيوت هذه الفترة بهية إلى حد خلاب سواء فى تقاليدها أورشومها ، غير أن طيبا ساخطا وصف البيوت الألمانية فى ١٦١٠ بأنها تتألف من حجرات قدرة مظلمة خبيثة الرائحة قل أن يدخلها الهواة النقى^(٣٦) ، ومع ذلك فإن داخل البيت فى المدينة كان الموطن الحقيقى لفنون ألمانيا الصغيرة ، فقد حفل بالزخارف التى أبدعتها أيد ماهرة كالخشبات الخشبية والسقوف المنقوشة ، والأثاث المتين المنقوش والمطعم ، والدرازينات الحديدية المشغولة ، والأقفال والقضبان المنصوبة فى أشكال نفمة ، وتماثيل العاج الصغيرة ، وأقداح الشراب الفضية أو الذهبية . لقد كان مساكن المدينة الألمانى لا يشبع من الزخارف فى بيته .

وازدهر الحفر ، لا سيما على النحاس ، فى ألمانيا حتى خلال الحروب . واستهل لوكاس كيليان وأخوه فولفجانج ، حوالى ١٦٠٠ ، عهد أسرة موهومة من الحفارين اتصل نشاطها طوال القرن السابع عشر بفضل ولدى فولفجانج ، وهما فيليب وبرتلماوس ، وامتد حتى ١٧٨١ بفضل أبناء حفدة فيليب . على أن النحت الألمانى أضرت به المحاولات التى بذلها النحاتون لتقليد الأشكال الكلاسيكية الدخيلة على الطبيعة والمزاج الألمانين . وكان الحفارون الوطنيون ، إذا أرمولوا أنفسهم على سجيته ، يبدعون تحفا من أرفع طراز ، مثال ذلك مذبح الكنيسة الأوسط ، والمذبحان الجانبيان ، التى حفرها فى الخشب هانزديجلر لكنيسة أولتريش فى أوجزبورج ، أو التماثيل السبعون التى نقشها هينخايل هونيل لكاتدرائية جورك بالنمسا . ومن المعالم البارزة فى هذا العصر

نافورات الماء العجيبة التي استلهمت المثل الإيطالية . كنافورة « فيتلسباخر » ،
المقامة أمام الرزیدنز « بميونخ » و « نافورة الفضيلة » (توجندبرونن) ، أمام
كنيسة لورنز في نورمبرج .

حين نمتي إلى روبنز أن آدم الزهايمر قد مات لنوه (١٦١٠) وهو بعد في
الثانية والثلاثين قال : خليق بهذا الخطب أن يغرق مهتنا في حزن عميق . فلن
يكون من السهل تعويضه ، إذ محال في رأي أن يكون له نظير في (رسم) الصور الصغيرة
و المناظر الطبيعية ، وأشياء أخرى كثيرة ^(٢٧) . وقد ولد آدم هذا في فرانكفورت
ثم قصد إيطاليا وهو في العشرين ، وبعد أن أقام في البندقية ردحا من الزمن اتفق ما بقي
من عمره في روما . وقد تضرع روبنز إلى الله « أن يغفر لآدم خطيئة السكسل » ،
ولكننا لا ندرى أهو السكسل الذي جعل الزهايمر يقصر فنه على الرسوم
الصغيرة على الأطباق النحاسية ؛ إذ لا يمكن أن يكون السكسل هو الذي جعله
يصفى على مناظر الطبيعة ذلك الصقل الدقيق الذي نراه في « الهروب إلى
مصر » ^(٢٨) ، أو ذلك التجسيد للضوء والهوام الذي جعل منه على حدوده المتواضعة ،
« رميرانتا » قبل رميرات . ويلوح أنه كان يحزى جزاء طيباً على فنه ، ولكننه
جزاء لا يكفى لإشباع حاجاته وميوله . وقد أفلس ، وسجن بسبب دينه ،
ثم مات عقب الإفراج عنه .

كان الرسم على الزجاج فناً أثيراً في هذا العصر ، في زيوريخ وما زال أولاً ،
ثم في ميونيخ ، وأوجز بروج ، ونورمبرج ، وأصبحت النوافذ في الأدبار
و المنازل غنية بالألوان كأنها نوافذ كنيسة من العصر الوسيط وظهر نقش
الزجاج في بواكير القرن السابع عشر في نورمبرج وبراخ . واشتهرت أسرة
هيرشفوجل بنورمبرج بالزجاج والخزف الفيين ، وأدفات كولونيا
وزيجبورج قلوب الألمان بالأباريق والكيزان الأنيقة النقوش ، وكثيراً
ما كانت المواقد تحاط بفخار مزجج بالألوان . ولم يكن للألمان قريع في
أشغال الخشب والعاج والحديد والأحجار الكريمة والمعادن النفيسة . وكان

لنيجارى الأثاث مكان مرموق ، حتى أن واحدا منهم حكم عليه بالشنق عقاباً على السرقة صدر العفو عنه لأنه كان نجاراً فنياً ، ماهراً جداً . والدرازين الحديدي المحيط بمقبرة الأمبراطور مكسمليان الأول فى انزبروك رائع جداً . وقد صنع أنطون آيزيهوت فى ١٥٨٧ آنية للطقوس الكهنسية من فضة بلغت من دقة الرسم وغنى الحلية ما يضعها إلى اليوم فى قبة الآنية التى من نوعها . وكان الصاغة الألمان مطلوبين فى كل مكان ، ووجدت أشغالهم سوقاً أوروبية لها فى غير عثم . وصنعت كئوس الشراب ، والأقداح ، والأباريق الفضية فى عشرات الأشكال المضحكة ، وكان فى وسع الألمان أن يتنحوا بالخمر يشربونه من طواحين الهواء ، والفوانيس ، والتفاح ، والقردة ، والخيل ، والخنازير ، والربان ، والراهات . لقد كانوا يخوضون الحرب اللاهوتية حتى فى كئوسهم المتصارعة .

٥ — المذاهب المتصارعة

كان ديت أوجزبورج (١٥٥٥) قد وصل بالصراع الدينى إلى هدنة جغرافية: حول مبدأ الناس على دين ملوكهم ، لإقليمه دينه ، — أعنى أن دين الحاكم فى كل دور يفرض ديناً على رعاياه ، وعلى المخالفين أن يرحلوا . وكان الاتفاق يمثل قدراً ضئيلاً من التقدم ، لأنه أحل الهجرة محل الإعدام ؛ ولكنه اقتصر على اللوثرية والكاثوليكية ، وكان من آثار اقتلاع عائلات كثيرة من جذورها اقتلاعاً أليماً زادت الفوضى والمرارة فى ألمانيا . وكان ينتظر من السكان أن يغيروا مذهبهم إذ خلف حاكم يدين بأحد المذهبين حاكماً يدين بالمذهب الآخر . وبات الدين مطية وضحية للسياسة والحرب

أما وقد أنقسمت ألمانيا فى اللاهوتية على هذا النحو ، فإنها لا تقدم قبل حرب الثلاثين خريطة دينية بسيطة : ويمكن القول عموماً بأن الشمال كمان روتستنتياً ، والجنوب وأرض الراين ككاثوليكين ، ولكن بما أن مبدأ

أوجز بورج لم يمكن فرضه فرضاً دقيقاً ولا سريعاً ، فقد بقي الكثير من البروتستانت في مناطق كاثوليكية ، والكثير من الكاثوليك في بلاد بروتستنتية . وقد أتيح للكاثوليك ميزتان هما التقاليد والوحدة ، أما البروتستانت فقد تمتموا بقسط أوفر من حرية العقيدة ، وأنقسموا إلى لوثريين وكلفنيين وقائلين بتجديد العباد وموحدين ، وحتى في صفوف اللوثريين نشبت حرب عقائدية بين أتباع ملالكتون المتحرر وخصومه . وفي ١٥٧٧ صاغ اللوثريين عقيدتهم في «كتاب الوفاق» ، وبعد هذا التاريخ طرد الكلفنيون من الدويلات الألمانية اللوثرية . ولكن أمير البالاتينات الناخب ، فردريك الثالث ، رعى الكلفنية وجعل جامعة هايدلبرج معهداً لاهوتياً للشباب الكلفينيين . وهناك ، في ١٥٦٣ وضع اللاهوتيون الكلفنيون كتاب «التعليم المسيحي» ، في مفهوم هايدلبرج ، وقد صدم الكاثوليك واللوثريين جميعاً برفضه عقيدة الحلول الحقيقية للمسيح في خمر العشاء الرباني وخبره . وسمح للكاثوليك بالعيش في البالاتينات شريطة أن يقصروا عبادتهم على بيوتهم ، أما الموحدون فقد قمعوا بشدة . وفي ١٥٧٠ فازع رجلان في ربوبية المسيح ، أوضيقا حدودها ، فأعدما أثر أصرار الاساتذة الكلفنيين في جامعة هايدلبرج على أعدامهما . على أن الأمير الناخب لويس ابن فردريك ، أثر المذهب اللوثرى ورفضه ، ولكن أخاء يوحنا كسانيمير ، أثناء وصايته (١٥٨٣ - ١٥٩٢) ، فضل الكلفنية ورفضها ، ثم وطد الأمير الناخب فردريك الرابع (١٥٩٢ - ١٦١٠) تلك السياسة . وتزوج أبنة فردريك الخامس (١٦١٠ - ١٦٢٣) اليزابيث ستيوارت (ابنة جيمس الاول ملك إنجلترا) . وطالب بعرش بوهيميا ، وعجل بنشوب حرب الثلاثين .

وكان الصراع بين اللوثريين والكلفنيين لا يقل مرارة عنه بين البروتستانت والكاثوليك ، وقد أضر بتعاون البروتستانت خلال الحرب لأن تعاقب النصر والهزيمة على الفريقين كليهما ، تارة هذا وتارة ذلك ، ومن ثم اضطهاد المنتصر

للمنهم كان يخاف ميراثا من الكراهية ، مثال ذلك أنه في ١٥٨٥ طرد الكونت فولفجانج حاكم أيزنبورج رونيورج جميع الموظفين اللوثريين في إقليعه وأحل الكلفنيين محلهم ، ولكن أخاه وخطيفته الكونت هنرى أنذر الوعاظ الكلفنيين في ١٥٩٨ بأن عليهم أن يرحلوا خلال أسابيع برغم البرد القارس ، وفي ١٦٠١ ولى الحكم الكونت فولفجانج ارنس ، فطرد الوعاظ اللوثريين وأعاد المذهب الكلفنى . وحدث مثل هذا الإحلال للكلفنيين محل اللوثريين في أنهالت (١٥٩٥) ، وهاناو (١٩٥٦) ، وليبي (١٦٠٠) . وفي بروسيا الشرقية أعدم يوهان فونك المتهم بميوله الكلفنية في سوق كونيجزبج وسط تهليل الجماهير (١٥٦٦) (٣٩) . كذلك أعدم المستشار نيقولا كرل في درسدن (١٦٠١) لتوجيهه الطقوس اللوثرية وجهة كلفنية ، ولتأييده لليوحنوت للفرنسيين (٤٠) .

وفي ٦٠٤ اعتنق الشريف موريس حاكم هيس — كاسل المذهب الكلفنى ، ثم فرضه في ١٦٠٥ في هذا الأقليم وفي هيس العليا ، وهزم جنوده حشدا من اللوثريين المقاومين وحطموا الصور الدينية في الكنائس ، أما الوعاظ الذين أبوا التحول من المذهب اللوثرى إلى الكلفنى فقد نفوا (٤١) . وفي أمارة براندنبورج الناجبة قام نزاع عنيف بين اللوثريين والكلفنيين حول خبز القربان المقدس ، وهل يتحول حقيقة بعد تقديسه إلى جسد المسيح وأخيرا قضت الحكومة بأن الكلفنية هى المذهب الحق (١٦١٣ وما بعدها) (٤٢) .

ووسط تذبذبات الحقيقة هذه احتدم ذلك السعار اللاهوتى ، كما سبق أن سماه ملانكستون — احتدما لم يعرفه التاريخ من قبل ولا من بعد ، ألا فيما ندر . من ذلك أن راعيا لوثرى يدعى نيفاندر (١٥٨٣) عدد أربعين خصيصة من خصائص الذئاب ، وزعم أنها بالضبط السمات المميزة للكلفنيين ثم يوصف الميثاق الرهيبة التى لقيها أعداء اللوثريين ، وقال بأن

زونجلي حين خر صريعا في المعركة ، د قطع جسده مبيورا ، وامتعمل الجنود شحمه ليشحموا به أحذيتهم ، لأنه كان رجلا بدينا^(٢٢) ، وجاء في نشرة لوثرية في ١٥٩٠ د إن أراد أحد أن يقال له في بضع كلمات أية مادة من مواد الايمان نقابل عليها جنس الأفاعي الكلفنية الشيطاني ، كان الجواب ، كلها بلا استثناء... ذلك لأنهم ليسوا مسيحيين ، بل يهود ومسلمون معمدون^(٢٣) ، وفي معوق فرانكفورت كتب ستانيسلاوس رسكيوس (١٥٩٢) د لقد لاحظنا منذ سنين أن الكتب التي يؤلفها البروتستنت ضد البروتستنت ثلاثة أمثال تلك التي يؤلفها البروتستنت ضد الكاثوليك^(٢٤) . وقال كاتب بروتستنتي في ١٦١٠ في معرض الرثاء لهذه الحال ، أن هؤلاء اللاهوتين المسعورين قد جعلوا الحرب المدمرة الناشئة بين المسيحيين المنشقين على البابوية من الهول والانساس بحيث لا تبدو بارقة أمل في أن يكف كل هذا الصراح والقذف والنشتم واللعن والحرم قبل مجيء اليوم الآخر^(٢٥) .

ولكي نفهم هذا د السعار اللاهوتي ، علينا أن نتذكر أن جميع أطراف النزاع أجمعوا على أن الكتاب المقدس كلمة الله المعصومة ، وإن الحياة بعد الموت ينبغي أن تكون أهم شغل للناس في هذه الدنيا . كذلك لا بد أن تفسح الصورة مكانا للتقوى الصادقة التي أورثت الكثيرين من اللوثويين والكلفنيين والكاثوليك الانضاع والتسامي فوق حمى المذاهب وهذيانها . فقد هرب د أهل التقوى ، هؤلاء من المناظر اللاهوتية والنسوا في خلوتهم شيئا من الحصرة الإلهية المطمئنة . وما زال مؤلف يوهان آرنست د حديقة الفردوس الصغيرة ، يقرأ في ألمانيا البروتستنتية باعتباره كتيبيا للتأمل الورع . وانتهى يعقوب بومي بهذه النزعة إلى فكرة الوحدة الصوفية لروح الفرد مع إلهه تصويره يذبوعا كونيا ، وأساسا لكل الأشياء ، ينتظم كل شيء ، وكل خير ، وزعم بومي أنه رأى د كائن الكائنات كلها ، ورأى جهنم ، كما رأى مولد الثالوث الأقدس^(٢٦) . ولا يجحد العقل غير المتعاطف مع الصوفية في كساب بومي ، في شارة كل الأشياء ، ١٦٢١ د لإدوامة من السحافات ، ومن بواعث

العزاء أن نعرف أن صوفيا آخر ، هو يوحنا وميسلي ، وصفه بأنه « هراء رفيع »^(٤٨) ، وأفضل من التراتيل البسيطة الحسية التي ألحقها التقى اليسوعي فردريك فون سبي .

واليسوعيون هم الذين قادوا الحملة الصليبية الكاثوليكية لإمترداد الأرض المفقودة في ألمانيا كما فعلوا في كل مكان في أوروبا ، وقد بدأوا بمحاولة إصلاح الاكثيوس الكاثوليكي . كتب اليسوعي بطرس فابر من فورمز في ١٥٤٠ يقول : « اسمح اللهم بأن يكون في هذه المدينة ولو كاهن أو ثلاثة ليس لهم علاقات غرامية حرام ، أولا يعيشون في خطايا معروفة أخرى »^(٤٩) . على أن أهم خططهم كانت اصطصاد الشباب ومن ثم فتح اليسوعيون السكليات في كولونيا ، وتريير ، وكوبلنز ، وماينز ، وشبير ، وديلجن ، ومونستر ، وفورتسبورج ، واينجولستات ، وبادر بورن ، وفرايبورج ، وقد طاف بطرس كانيسوس ، الرأس المفكر والروح والحركة لهذه الحملة اليسوعية ، بكل أرجاء ألمانيا تقريبا على قدميه ، منشئا السكليات ، موجها المجادلات اليسوعية العنيفة ، شارحا للحكام الألمان مزايا المذهب القديم . وقد حث الدوق ألبرت الخامس على أن يسأصل بالقوة شأفة البروتستنتية بأسرها من بافاريا^(٥٠) . ويفضل اليسوعيين ، والكبوشيين ، وإصلاح الاكثيوس ، وغيره الأساقفة ، ودبلوماسية البابوات وسفرائهم ، استعدادا إلى حظيرة الكنيسة في النصف الثاني من القرن السادس عشر نصف الأرض التي كسبتها البروتستنتية الألمانية في النصف الأول منه . وقد استعملت بعض ألوان الاكراه هنا وهناك ، غير أن الحركة كانت في جملتها سيكولوجية سيامية ، ذلك أن جماهير الشعب ملئت طول الشك والجدل والجبرية ، ورأى حكمهم في الكاثوليكية التقليدية سندا للحكومة والنظام الاجتماعي أقوى من سند البروتستنتية غارقة في فوضى الانقسام ، مخوفة بالخطر التي تكشف كل مذهب جديد .

فلما أدرك البروتستنت آخر المطاف أن انقساماتهم الداخلية أشبه بعملية انتحارية . وجها منابرهم وأقلامهم ضد عدوهم الروماني . ومهدت حرب الكلام والمداد لحرب المدافع والدم ، وتفاقم التقاذف بالمطاعن حتى قارب نشوة القتل . ودخلت قاموس اللاهوت ألفاظ كالروث ، والنفاية ، والحمار ، والخنزير ، والبغى ، والقتال . ففي عام ١٥٦٥ اتهم الكتاب الكاثوليك يوهان ناس اللوثرين بممارسة القتل ، والسرقه ، والكذب ، والغش ، والشره ، والسكر ، ومضاجعة المحارم ، والجريمة . دون ما خشية ، لأن الايمان في زعمهم يبرر كل الأشياء ، ورجح أن تكون كل امرأة لوثرية مومساء (٥١) . وقد اعتبر الكاثوليك هلاك البروتستنت الأبدى إحدى بدييات اللاهوت ، ولكن الواعظ اللوثرى أندرياس لانج كتب (١٥٧٦) بثقة بمائلة : أن البابويين كغيرهم من الترك واليهود والوثنيين هم خارج نطاق العمة الالهية ، ومغفرة الخطايا ، والخلاص . فلقد كتب عليهم العويل والبكاء وصيرير الأسنان إلى الأبد في نار الجحيم المشتعلة وكبريتها (٥٢) . وراح الكتاب من الجانبين يتبادلون لافتراءات على نحو ما يفعل الآن في حرب العقائد السياسية . وراجت أسطورة البابية ، (امرأة) يوانا في الأدب البروتستنتي ، وكتب أحد رجال الدين البروتستنت في ١٥٨٩ يقول : «دما أشد نفاق هؤلاء اليسوعيين الأوغاد السفلة إذ يلجون في إنكار هذه الحقيقة ، وهي أن البغى الانجليزية آجينس كانت بابية ، في روما وأنها ولدت غلاما خلال أحد المواكب العامة (٥٣) » ، وجاء في إحدى المواعظ أن البابوات كانوا وما زالوا بلا استثناء واحد ، لوطيين ومستحضرى أرواح وسحرة ، وأن الكثيرين منهم يستطيعون أن يبصقوا النار من أفواههم . . . كثيرا ما ظهر الشيطان بصورته المريبة للبابوات . . . واشترك معهم في لعن صليب المسيح ووطئه بالآقدام ، ثم الرقص رقصات عارية فوقه ، وهي التي سموها خدمة مقدسة (٥٤) . وكانت جماهير العابدين ترتشف هذه المسكرات بشغف . قال تيسيس بروتستنتي في ١٥٨٤ ، «لقد تعلم الأطفال في الشوارع أن يلعنوا عدو المسيخ الروماني وأتباعه الملاعين (٥٥) » .

وكان اليسوعيون أهدافاً مخفية. فرموا في مئات الرسوم الهزلية، والنشرات، والكتب، والقصائد، باللواط، والزنى، والسيمية وفي أحد الكشفيات الخشبية الألمانية، وتاريخه ١٥٦٩ (ومازل محفوظاً في مجموعة جوته بفايمار) صور البابا على شكل خنزيرة تلهـرهبانا يسوعيين في هيئة خنازير صفار. وفي ١٥٩٣ نشر اللاهوتي اللوثرى بوليكارب الايزر تاريخاً للرهبنة اليسوعية باللاتينية. وصف اليسوعيين بأنهم يقارفون أقيح الرذائل مطمئنين إلى رضى البابا وعقوه الكاملين^(٥٦). وأخبرت صحيفة جديدة صادقة، ١٦١٤ وقراءها بأن الكردينال اليسوعى باللامرين أرتكب الفاحشة ٢٣٣٦ مرة مع ١٦٤٢ امرأة، ثم استطردت لتصف عذاب الكردينال على فراش موته، مع أنه لم يمـت إلا بعد سبع سنوات^(٥٧).

وقد رد اليسوعيون أول الأمر في ضبط للأعصاب. ونضح كاتيسوس باستعمال لغة برئية من العنف، وكذلك فعل الراعى البروتستنتى يوهان ماتيسوس، ولكن الجمهور كان يؤثر الطعن على الاعتدال. واتهم المجادلون البروتستنت المتطرفون خصومهم اليسوعيين بقبولهم عقيدة اليسوعى ماريانا التى تدافع عن قتل الطغاة من الحكام، ورد أحد اليسوعيين الألمان بأن هذه هى بالضبط العقيدة التى يجتب تطبيقها على الأمراء الذين فرضوا البروتستنتية على رعاباهم. واسكن يسوعيين آخرين أكدوا للحكام البروتستنت أنهم يعتبرون أمراء شرعيين، وأن شعرة واحدة من رءوسهم لن تمس. ونشر اليسوعى كوزادفيتز (١٥٩٤ - ٩٩) عشر كتبيات استعمل فيها أقبح ألفاظ الشتم، معتذرا بأنه إنما يحذو فى ذلك حذو اللاهوتيين اللوثرين، وكان الجمهور يتهافت على شراء هذه الكتبيات بمجرد طبعها. وأعلن يسوعيو كولونيا أن المراطمة العنيديين الذين يبنون الانشقاق فى كل مكان «فى الأقاليم الكاثوليكية»

د يجب أن يعاقبوا كما يعاقب اللصوص والسارقون والقتلة،

لا بل بأشد مما يعاقب به هؤلاء المجرمون ، هؤلاء لا يؤذون
سوى الجسد، أما أولئك فيزجون بالنفوس في الهلاك الأبدى..
ولو أن لوثر أعدم أو أحرق قبل أربعين عاما ، أو لو أن نفرا
من الناس تخفف العالم من وجودهم ، لما فكبنا بمثل هذه
الانشغافات اللعينة ، ولا بمثل هذه الملل والنحل التي تكدر
صفاء العالم كله^(٥٩) .

وبمثل هذه الروح ناشد الكلفن داود بارينز، استاذ اللاهوت بهاید لبرج
(١٦١٨) ، جميع الأمراء البروتستنت أن يشنوا حربا صليبية على البابوية ،
وفي حملة كهذه يجب ألا يتحرجوا من أى ضرب من ضروب القسوة
أو العقاب^(٦٠) . وبلغ هذا السيل الدافق من الكتيبات ذروته بطبع ١٨٠٠
نشرة في سنة واحدة (١٦١٨) ، وهى أول سنة الحرب .

فلما قوى بأس الكاثوليك واشتد غضبهم ، ألف عدد من الأمراء
البروتستنت د اتحادا من الأقاليم الانجيلية ، (١٦٠٨) أو اتحادا بروتستنتيا
ليتبادلوا الحماية . ووقف ناخب سكسونيا بمعزل عن الاتحاد ، ولكن هنرى
الرابع ملك فرنسا بدأ على استعداد لمديد المعونة لأية مغامرة ضد الإمبراطور
الهابسبورجى . وفى ١٦٠٩ ألف عدد من الحكام الكاثوليك يتزعمهم مكسيمليان
الأول دوف بافاريا ، اتحادا كاثوليكيا ، عرف بالحلف الكاثوليكي ، وما وافى
أغسطس من عام ١٦١٠ حتى كانت كل دويلات الامبراطورية تقريبا قد
انضمت إليه ، ثم عرضت أسبانيا أن تقدم له المعونة الحربية . ووافق الاتحاد
البروتستنتى (فبراير) على أن يساعد هنرى الرابع على الاستيلاء على دوقية
بوليس — كليفز ، ولكن مصرع الملك الفرنسى (١٤ ماير) حرم البروتستنت
من أقوى حليف لهم . وسرى الخوف فى ألمانيا البروتستنتية ، ولكن الحلف
لم يكن على استعداد العمل . وفى يناير ١٦١٥ أنذر موريس حاكم هيس — كاسل
الاتحاد البروتستنتى بأن د الحلف الكاثوليكي ، الذى يحميه البابا ، وملك

أمبانيشا ، وبلاط بروكسل ، والامبراطور . . . أرسل في طلب السلاح والذخيرة . . . رغبة . . . في استئصال شأفة - المذهب الانجيلي^(١١) . . . وزاد انطين بلة أن كاسبارسكيو بيوس حذر الكاثوليك واللوثرين من أن الكلمنيين يعتزمون تدمير الديانة والسلام العام والاطاحة بالامبراطورية الرومانية المقدسة بأسرها ، ومحو مبدأ أوجزبرج والمذهب الكاثوليكي من الامبراطورية^(١٢) صواه بسواء ، وربما كان هذا محاولة لاشاعة مزيد من الفرقة بين الشيع البروتستانتية . وأضعف النزاعات الاقليمية بين النمسا وبافاريا العصبة الكاثوليكية في ١٦١٦ . . . وراود الناس من جديد حلم السلام

واسكن في براغ ناشد الكونت هنريك فون ثورن زعماء البروتستانت منع الكاثوليك المتحمس الارشيدوق فرديناند من اعتلاء عرش بوهيميا . وكان الامبراطور ماتياس قد عين خمسة نواب ليتولوا حكم البلاد في أثناء غيابه . واستبد هؤلاء بالحكم بالبروتستانت في النزاع حول بناء كنيسة في كلوسترا جراب ، وأرسلوا المعترضين إلى السجن وفي ٢٣ مايو ١٦١٨ قاد ثورن حشدا بروتستانتيا غاضبا إلى قلعة أوسكين ، وصعدوا إلى الحجرات التي كان يجلس بها أثنان من هؤلاء الحكام ، وألقوا بهما من النافذة مع سكيرتير كان يتحمس لهم ، وسقط ثلاثتهم نحو خمسين قدما ، ولكنهم وقعوا على كومة من الاقار ، فتلوثوا أكثر بما أودوا . فكان هذا الالقاء من النافذة تحديا مثيرا للامبراطور وللارشيدوق وللعصبة المقدسة . وطرد ثورن رئيس الاساقفة والجزويت ، وشكل حكومة مديرين ثورية . وربما شق عليه أن يدرك أنه بذلك أطلق كلاب الحرب من عقابها أو أنه أشعل نارها .

٦ — حرب الثلاثين سنة

١ — طور بوهيميا : ١٦١٨ — ١٦٢٣ :

أرسل الامبراطور ماتياس إلى حكومة المديرين ساقفة الذكر عرضا

بإصدار عفو عام ، والدخول في منها وضاهي ، ولكن هذا العرض رفض (٦٣) .
وأخذ الإرسيدوق فرديناند ، متجاهلا الامبراطور ، جيشين لغزو بوهيميا .
وجرض فردريك الخامس ناخب البالاتينات شارل عمانويل دوق سافوي
المعادي لآل هابسبرج ، على إرسال قوة لنجدة بوهيميا ، بقيادة القائد القدير
يترارنست فون مانسفيلد وأستولى مانسفيلد على بلسن ، معقل السكالاويك
في بوهيميا ، وتمهقرت جيوش فرديناند . واقترح كريستان دون برنزيك
مستشار فردريك على المديرين أنهم إنما يقوون دفاعهم ويستبعدون فرديناند
عن العرش ، إذا عرضوا العرش على فردريك . وفي ٢٠ مارس ١٥١٩ مات
ماتياس ، تاركما فردريك الملك الشرعي على بوهيميا ، ووريثا افتراضيا للتاج
الامبراطوري . وفي ١٩ أغسطس أعلن مجلس الديت في بوهيميا خلع فرديناند
عن عرش بوهيميا ، وفي السابع والعشرين نادى بفردريك أمير البالاتينات
ملكاً على بوهيميا . وفي الثامن والعشرين أعلن ناخبو الامبراطور أرشيدوق
استيريا امبراطورا تحت اسم فرديناند الثاني .

تردد فردريك في قبول هذا المنصب الجديد ، ذلك أنه أدرك أنه بوصفه
من زعماء الكلفنية لا يمكنه أن يعتمد على تأييد اللوثرين ، علي حين أنه قد
يواجه معارضة الامبراطورية والبابوية وأسبانيا . وأهاب بواله زوجته
جيمس الأول ملك إنجلترا أن يمدّه بحيش ، ولكن بدلاً من ذلك ، زوده
الملك الحذر البعيد النظر بالنصيحة — أن يرفض عرش بوهيميا . ولم تغره
أو تحبه زوجته المرحلة الجريئة على قبول العرش ، بل وعدته أن تقاسمه عن
طيب خاطر كل ما قدر له أن يلحق ، نتيجة لما يقع عليه اختياره ، وكانت عند
وعدها . ونصح كريستان أمير برنزيك بقبول العرش . وفي ٣١ أكتوبر
١٦١١ ، دخل الملك الجديد والملكة براغ ، ورحب بهما الديت والاهالي
فرحيا حاراً .

وكان فردريك بعد شاباً في العشرين من العمر ، يتحلى بحسن الخلق والشهامة

والكنيسة ، ولكنه لم يكتمل فضجه إلى درجة يتولى معها شئون السياسة والحكم . وكان أول عمل له بعد تولية منصبه في براغ ، أنه أمر بإزالة المذابح والصور من كنيسة سانت فيتوس ، وهي الحرم الوطنى المقدس ، وسرعان ما عمد أتباعه بالمثل إلى تجريد سائر المزارات المقدسة في بوهيميا . واستنكرت الاقلية الكاثوليكية لهذا التصرف ، واستاء منه اللوثيون البوهيميون ونظرت ألمانيا اللوثرية بفتور إلى هذا الكلفنى المتحمس . وفى ٣٠ أبريل ١٦٢٠ أعلن فرد يناند أن فردريك معتصب للعرش ، وأصدر إليه الأمر بمغادرته الامبراطورية فى أول يونية ، وإلا اعتبر خارجا على القانون وصودرت أملاكه . وعرض الامبراطور أن يضمن عدم تغرض الولايات البروتستانتية الألمانية للهجوم ، إذا هى قطعت مثل هذا العهد للولايات الكاثوليكية . وفى معاهدة أولم (٣ يونية ١٦٢٠) قبل هذا العرض واحتج الأمراء البروتستانت بأن فردريك عرض حريتهم للاختار بتخديه فرد يناند . وانحاز الناخب جون جورج أمير سكسونيا بولانيته اللوثرية إلى الامبراطور الكاثوليكي .

وفى أغسطس عبر جيش امبراطورى قوامه ٢٥ ألف رجل ، النمسا إلى بوهيميا بقيادة قائد مكسيمليان البافارى وهو جوهان تسركليس ، كونت تلى الذى تعلم التقوى على يد الجزويت ، وتلقى فن الحرب من دوق بارهاو بالقرب من الجبل الأبيض ، إلى الغرب من براغ ، التقى هذا الجيش بالبوهيمين وهزمهم هزيمة منكرة (٨ نوفمبر) . وفر فردريك واليزابت وحاشيتهما إلى سيليزيا . وعجز الملك والملكة عن جمع جيش هناك ، فالتسا ماوى فى براند بيرج الكلفنية . وفى اليوم التالى للمعركة أحتل مكسيمليان أمير بافاريا براج . وسرعان ما أعبدت الكاثوليكة ، وأعيد وضع الصور فى الكنائس ، وأستدعى الجزويت ، ووضع التعليم تحت إشراف الكاثوليك ولم يبح إلا الديانة الكاثوليكية والديانة اليهودية ، وألغى العشاء الربانى بالخبز وبالنبيد على حد سواء ، وكان يرم القديس جون هس من قبل عيدا وطنيا فجعل يوم حداد تغلق فيه كل الكنائس ، وقبض على ثلاثين من زعماء المعصاة وأعدم

منهم سبعة وعشرون . ولمدة عشر سنين ظلت انتمى عشرة جمجمة تطل متجمعة غاصبة من برج جسر شارل على نهر ملدو (٦٤) وحرمت الحجرة على كل العصاه والمتمردين ، وصودرت أهلاكهم — لجانب الملك فرديناد الذى باعها بيع السلعة للكاثوليك ، وقامت طبقة نبلاء كاثوليك جديدة على اكتاف رقيق الأرض . وكادت الطبقات الوسطى والتجارية أن تختفى .

وعلى حين كان مكسيمليان أمير بافاريا يقهر الكلفنية فى بوهيميا على هذا النحو ، فان سبينولا أثناء الهدنة فى الأرض الوطيفة ، قاد قوة كبيرة من الفلاندرز للاستيلاء على البلاتينات ، وأعد بعض صغار الأمراء البروتستانت قوة لمقاومة وأنضم فردريك إليهم ، تاركاً زوجته فى لاهاي . فلما استدعى سبينولا إلى الأرض الوطيفة عند تجديد الحرب بين هولنده وأسبانيا ، حل محله تلى ، وهزم البروتستانت (١٦٢٢) وأستولى على هيد لبرج ، وأعمل فيها السلب والنهب وشحنت مكتبة الجامعة العظيمة فى خمسين عربة ونقلت إلى رومة هدية من مكسيمليان البافارى إلى البابا جريجورى الخامس عشر . ولما عاد مكسيمليان منتصراً بمنح البلاتينات ميزتها الانتخابية ، لقاء ما أدى للامبراطور من خدمات . وأصبح للولايات الكاثوليسكية الآن الأغلبية فى مجلس الديت الناخب .

أن مدى النصر الكاثوليكي وكاله وشموله أقلق بال الملوك الكاثوليك والبروتستانت على حد سواء . فان تزايد هيبة فرديناد الثانى وسلطانه كان يهدد حريات ، الأمراء الألمان ، كما أن مكسيمليان قلق حين وجد أنه قد سمح له بالاستيلاء على البلاتينات وبافاريا مع بقاء تبعيتهما للامبراطور . وتماطف البابا أريان الثامن مع وجهة النظر الفرنسية القائلة بأن آل هابسبرج أصبحوا من القوة بحيث باتوا خطراً على حرية البابوية وأغضى عما عمده إليه ريشليو من فرض ضرائب على الكاثوليك فى فرنسا لمساعدة الألمان البروتستانت وعن مساعدته بعد ذلك للملك سويدي ضد أمبراطور كاثوليكلى . وفى ١٦٢٤ حول الكاردينال المدهش المنظر السياسى فجأة ،

بمسلسلة متعاقبة من الضربات الدبلوماسية . ففي ١٠ يونيو وقع تحالفامع هولندة البروتستانتية ضد الفلاند رز وأسبانيا الكاثوليكييتين . وفي ١٥ يونيو ضم إنجلترا البروتستانتية إلى الحلف ، وفي ٩ يوليو ضم إليه السويد والدينمرك ، وفي ١١ يوليو أفتتح سافوى والبندقية بالاتضمام إليه في محاولة لقطع خط الامدادات والقوات الأسبانية النمسية عبر رات الفالتلين في جبال الألب الايطالية السويسرية . وفي ١٦٢٥ جاء كريستان الرابع ملك الدينمرك بعشرين ألف رجل للاتضمام إلى قوة مانسفياد المكونه من أربعة آلاف رجل في مكسونيا السفلى . وتولى الجزع مسكسيمليان ، فحث الامبراطور على إرسال نجدة إلى تلى الذى تناقص عدد جيشه من ١٨ ألفا إلى ١٠ آلاف بسبب الجوع والمرض واستجاب فرديناند بامتدعاء فالنشتين من بوهيميا .

٢ — فالنشتين : ١٦٢٣ - ١٦٣٠ :

كان أسمه الحقيقي ألبرخت فون فالنشتين ، وهكذا كان يوقع أسمه دائما (٦٥) . وكانت أسرته من أعرق الاسرات النبيلة في بوهيميا . وله في ١٥٨٣ ، وتلقى تعليمه أولا على يد الأخوة البوهيمين ، ثم على يد الجزويت ، وتزوج من أرملة غنية طواها الردى سريعا ، تاركه له ثروته . وضاعف منها بشراء ثمان وستين ضيعة بثمان مئتين ، بفضل خفض قيمة العملة البوهيمية ، من الاملاك التى صادرها فرديناند . وكان مالكا ذكيا تقديما ، فحسن طرق الزراعة والإنتاج ومول الصناعة ونظم المدارس والخدمات الطبية وأعانى الفقراء ، وأدخِر بعض الفائض ليقدم غذا لشعبه زمن القحط . ولم يؤثر في في معاصرة بعقرية العسكرية فحسب ، بل بحسمة الفارع النحيل ، ووجهه الشاحب الصارم ، وقلقه العصبى ، وزهوه وغطرسته وطبعه الحاد المسيطر . وجعلته دغفته التى لم يتحول عنها (٦٦) ، يبدو وكأنه فوق مستوى البشر . وكانت ثقته بالتنجيم أقوى من إيمانه بالمسيح .

وملك قلب فرديناند وظفر بحبه ، بالوقوف إلى جانبه ومساندته في كل

للراحل التي رقي فيها الأرشيديوق إلى صولجان السلطان . ومن ١٦١٩ وما بعدها أقرض الامبراطور مبالغ ضخمة تسد نفقات العرش — على سبيل المثال مائتي ألف جلدن في ١٦٢١ ، وخمسمائة ألف في ١٦٢٣ . ولم يحصل على أية ضمانات لهذه القروض ، ويكفيه أنه كان يملك ربع بوهيميا ، ويستطيع أن يحشد جيشا متى شاء ، ويتولى قيادته بمهارة فائقة . وفي ١٦٢٤ عندما تحكم الفرنسيون والبنادقة في ممرات فالتلين ، ولم يعد في مقدور الجنود والمؤن الأسبانية الوصول من إيطاليا إلى النمسا ، عرض فالنشتين تجنيد خمسين ألف رجل ووضعهم في خدمة الإمبراطور . فتزدد فريديناند لما يعلم من غرام فالنشتين بالقوة والسلطة ولكن تلى في ١٦٢٥ تعالت صيحاته يطلب المدد فكلف فريديناند فالنشتين بتجنيد عشرين ألف رجل . وفي سرعة مذهلة سار هذا الجيش إلى سكسونيا السفلى ، كامل العتاد ، حسن النظام والانضباط ، يحب قائده إلى حد العبادة ، ويعيش على ما يسلبه من الريف .

وصد فالنشتين مانسفيلد في دسو ، وهزم تلى كريستيان الرابع في لير (١٦٢٦) وقضى مانسفيلد نحيبه ، ووجد كريستيان جيشه الذي يتناقص عدده عاجزا متمردا . وأنقصمت عرى التحالف الكبير الذي كان ريشليو قد شكله نتيجة لحقد جوستاف أدولف على كريستيان الرابع ، وأعلان انحلتوا الحرب على فرنسا ، وحملة بكسنيجهام لمساعدة الهيجونوت في لاروشيل . فكان على ريشليو أن يسحب قواته من ممرات فالتلين ، التي عادت الآن مفتوحة أمام النمسا وأسبانيا . وتقدم فالنشتين الذي يزداد جيشه عددا يوما بعد يوم ، إلى براندنبرج وأرغم ناخبها جورج ولیم على إعلان الولاء للإمبراطور ، واندفع نحو دوقية كريستان نفسه . وهي هولستين ، وتيسر له القضاء على كل مقاومة في غير عناء . وفي نهاية ١٦٢٧ كسنت الأجزاء الداخلية من الدنمرك في قبضته .

ووسع هواء البلطيق الملح من خطط فالنشتين ، فالآن وقد دان كل الساحل الشمالي الألماني تقريبا ، ومعظم أرض الدنمرك ، للإمبراطور ، فلم لا يبتنى بحرية

امبراطورية ، و«يحيى» الهانسا ، وبالتحالف مع بولندية الكاثوليكية يمد سلطان الإمبراطور على بحر البلطيق وبحر الشمال ، ومن ثم لا يعود الهولنديون والانجليز قادرين على الاتيان بالخشب من ثغور البلطيق عبر مياه السوند ليشدوا أساطيلهم ؛ ويتحكموا في بحر الشمال وتجارته ويسدوا القنال في وجه الأسبان أن امتلاك الامبراطور للبلانيات ممكنة من السيطرة على نهر الراين ، ومن ثم يكون الطريق مسدودا أمام الهولنديين في النهر والبحر . فتنهار قوتهم وثورتهم العتيدة . واسوف يصبح جوستاف أدولف محصورا في شبه جزيرة امسكنديناوه وفي ١٦٢٧ كان فالنشتين بالفعل يعد نفسه ليكون أمير البحر في المحيط وفي البلطيق .

ولم ينظر الأمراء الألمان بعين الرضا إلى انتصارات فالنشتين . ذلك أنهم رأوا أنه بينما نقص جيش العصبة الكاثوليكية بقيادة مكسيميليان البافاري وكونت تللي إلى نحو ٢٠ ألف رجل ، فإن فالنشتين تولى مرة قوات بلغ عددها ١٤٠ ألفا . كما أنه لا يعترف بأية مسئولية إلا أمام الامبراطور وحده ومادام الامبراطور مطمئنا إلى وجود جيشه من خلفه ، ففي مقدوره أن يجد من « حريات ، الأمراء . والحق أن فالنشتين ربما كانت تراوده فكرة القضاء على الملكيات الاقطاعية وتوحيد ألمانيا بأسرها في دولة قوية واحدة . كما كان يفعل ريشليو في فرنسا ، وكما كان على بسمارك أن يفعل بعد ذلك بمائتين وأربعين عاما .

ولدى اجتماع الناخبين الامبراطوريين في مولها وزن . في شتاء ١٦٢٧ - ١٦٢٨ ، تبادلوا الرأي فيما يراودهم من آمال ومايساورهم من مخاوف . ومال الناخبون الكاثوليك إلى تأييد فالنشتين ، ثقة منهم بأنه سوف يقتلع البروتستانتية من جذورها ويقضى عليها في مهدها الأول . ولكن عندما أطاح فرديناوند بدوق مكلنبزج البروتستانتى ، ونقل الدوقية إلى فالنشتين (١١ مارس ١٦٢٨) فإن الأمراء الكاثوليك أنفسهم تولاهم الجزع من استئثار الامبراطور بسلطة

خلع الأدواق وتعينهم وفق مشيئته هو وحده . وما كان أمام الأمراء الاورقة واحدة يلعبون بها أمام فرديناند ، فإنه كان على وشك أن يطلب لإلهم ضمان اعتلاء ابنة العرش الامبراطورى . وفى ٢٨ مارس أبلغوه أنه مادامت جيوشه تحت امره فالنشتين . فإلأنهم لن يقدموا ضمانا مثل هذا . كما حذره مكسيمليان البافارى ، من أنه إذا لم ينتقص من جيش فالنشتين ومن سلطانه وقوته ، فلا بد يوما من أن يعلى هذا القائد سياسة الامبراطورية .

وكأنما لحظ فالنشتين هذا التحذير ، فإنه شرع ، وواضح أنه على مسئوليته الخاصة ، فى إجراء مفاوضات سرية مع كريستيان الرابع ، انتهت بصالح لوبك (٢٢ مايو ١٦٢٩) . ولدعشة أوربا كلها ، أعاد إلى ملك الدنمرك جتلمند وشلروبيج والقطاع الملكى من هولشتين . ولم يفرض تعويضا ، بل أنه طلب فقط تخلى كريستيان عن أسقفياته الألمانية وسلطته العسكرية ، ولكن ما الذى دفعه إلى هذا الكرم ، إنه من ناحية ، الخوف من ائتلاف الغرب ضد السيطرة الإمبراطورية على البلطيق والمضايق ، ومن ناحية أخرى الاعتقاد بأن جوستاف أدولف كان يخطط لغزو ألمانيا ، وأخيرا ، تنبأ فالنشتين بأن القضية ستكون بينه وبين جوستاف لا كريستيان .

وربما أقلق استجواذ فالنشتين على السلطة الدبلوماسية بال الإمبراطور ، ولكن كان لزاما عليه أن يبتنى شكوكه وحقده المتزايدين ، لأنه كان الآن يخطط أجرا حركة فى تاريخه ، وقد يكون فى حاجة ماسة إلى مساندة قوات فالنشتين فى كل مرحلة من مراحل هذه اللعبة الخطرة . أن مستشاريه الجزويت طالما ناشدوه الاستعانة بقوته الجديدة وبقرار الإمبراطورى ، لتسترد الكسندسة الكاثوليكية ، بقدر الإمكان ، أملا كما ومواردها التى اقتطعت منها منذ بداية الإصلاح الدينى ، أو على الأقل منذ ١٥٥٢ . ورأى فرديناند الكاثوليكى الشديد التمسك بعقيدته فى هذا المطلب شيئا من العدالة ، ولكنه لم يقدر كل التقدير صعوباته العملية ، فقد بيعت منذ ١٥٥٢ ممتلكات كثيرة من تلك التى كانت ملكا للكنيسة ، ودفع ملاكها الحاليون ثمنها . ولتنفيذ هذا ، أى استرداد

الكنيسة لأملأها ، لابد من تجريد آلاف من الملاك من ممتلكاتهم ، والمفروض أن يتم هذا عنوة ، وقد تؤدي الفوضى الناتجة عن هذا بالمانيا إلى ثورة . وكان مكسيميليان أمير بافاريا يوما يحبذ هذه الفكرة ، ولكنه الآن فزع لمداها ومضاعفاتها ، وحث الإمبراطور على إرجائها حتى يدرسها مجلس الديت دراسة مستفيضة . وخشى فرديناند أن يرفضها الديت . وفي ٦ مارس ١٦٢٩ نشر د قرار إعادة أملاك الكنيسة ، ، وجاء فيه د لم يبق أمامنا إلا أن تأخذ بيد الجماعة المظلومة ، ونبعث بموظفينا ليطالبوا إلى الملاك الحاليين غير المفوضين فانونا أن يعيدوا كل الأبرشيات والأسقفيات والأديار ، وسائر الممتلكات الكنيسية التي صودرت منذ معاهدة باسو ١٥٥٢ . وكان هذا الإصلاح المضاد ، المقترن بالانقاص وكان كذلك توكيدا للسلطة الإمبراطورية المطلقة . وهي سلطة مطلقة ربما تردد حتى شارل الخامس نفسه في انتحائها لشخصه .

وقوبل القرار باحتجاجات صارخة على نطاق واسع ، ولكنه نفذ . وحينما وجدت أية محاولة لمقاومته استدعى جنود فالنشتين وأحدها في كل مكان باستثناء مجد برج التي نجحت في مقاومة حصار فالنشتين لها . وعادت مدن بأكملها أوجزبرج ، روتنبرج ، دورتمند ، وثلاثون بلدة صغيرة إلى أيدي الكاثوليك ، وكذلك عاد إليهم خمس أسقفيات ومائة دير ، ونظمت من جديد مئات الأبرشيات الكاثوليكية ، ولما طبق المالكون قاعدة الناس على دين ملوكهم ، . متطلبين من الرعايا أن يتقبلوا مذهب الحاكم ، اضطرت آلاف البروتستانت أن يرتدوا أو هاجروا . ومن أوجزبرج وحدها نفي ثمانية آلاف ، بما فيهم الياس هل الذي كان قد فرغ لتوه من بناء دار البلدية المنخمة وهام القساوسة البروتستانت المنفيون على وجوههم في طول البلاد وعرضها يسألون الناس الخبز ، حتى أن القساوسة الكاثوليك الذين حلوا محلهم استمروا الحكومة أن تغيثهم (٦٧) . وما حال دون النجاح النهائي للقرار والإصلاح المضاد في ألمانيا ، إلا قدوم جوستاف أدولف .

وإذ استنفذ فرديناند غرضه في استخدام فالنشتين في تنفيذ القرار . ولم يجد أية قوات بروتستانتية في الميدان ، فإنه لم يعد حريصا على الاحتفاظ بقائده . فطلب إليه في مايو ١٦٣٠ أن يتخلى عن ٣٠ ألفا من جنوده للخدمة في إيطاليا ، فاعترض فالنشتين محتجا بأن ملك السويد يخطط لغزو ألمانيا ، فغلب أمره ، وأرسل الثلاثون ألف جندي إلى إيطاليا . وعاد الناجبون في يولييه واقترحوا عزل فالنشتين . ووافق الإمبراطور ، وفي ١٣ سبتمبر أبلغ ضباط الجيش بأن مكسيميليان أمير بافاريا قد حل في منصب القيادة العليا محل قائدهم وعاد فالنشتين في سلام إلى ضياعه في بوهيميا ، وهو يعلم أن جوستاف قد دخل الأراضي الألمانية ، وأن الإمبراطورية لابد أن يكون وشيكما في حاجة إلى قائد .

٣ — قصة جوستاف البطولية : ١٦٣٠ — ١٦٣٢ :

ينبغي ألا تصور العاهل العظيم في صورة دجالاهاذ ، أى في صورة رجل نبيل طاهر ، تقدم لإنقاذ الديانة الحققة من الوثنيين . . كانت مهمته أن يدعم ويحافظ على استقلال السويد السياسى ونموها الاقتصادى ومن أجل هذين المهدفين قاتل بولندية الكاثوليكية وروسيا الأرثوذكسية والدمرك البروتستانتية فإذا تجاسر الآن ، بموارده المتواضعة على الدخول في مباراة ضد الإمبراطورية والبابوية وأسبانيا ، مجتمعة ، فما ذلك بسبب الكشلكة ، بل لأنهم هددوا بتحويل بلاده إلى تابع ذليل للملك غرباء معادين . وأحس بأن خير دفاع ضد مثل هذا الخطر المحدق ، هو إقامة معاقل محصنة سويدية في الداخل . وترددت سكونيا البروتستانتية ، وانسأقت فرنسا الكاثوليكية إلى التحالف مع جوستاف ، لأنها أدركت أن القضية لم تعد نظرية في اللاهوت بل كفاحا من أجل الأمن عن طريق القوة . ومهما يكن من أمر ، فإن العقيدة ، على الرغم من أنها دافع ضئيل لدى القادة والزعماء ، حافز مثير قوى لدى الشعب ، ويجب أن تضاف طاقتها إلى الروح الوطنية ، لتدفع بالناس إلى ميدان القتال .

وهكذا نزل جوستاف بقواته البالغ عددها ١١ ألفاً في بوميرانيا، وتقدم إلى الولايات الألمانية الشمالية بوصفها منقذة البروتستانتية وخلصتها، وإلى فرنسا بوصفها سيفاً مصلحاً ضد أسرة هابسبرج المنتفخة. وانتظر المدد من السويد والدنمرك وبراندنبرج وبولندية حتى تجمع لديه نحو ٤٠ ألف جندي في أحسن نظام، مسلحين ببنادق حديثة الطراز، مدربين على سرعة الحركة بمدفعيتهم الخفيفة. ولم يزل القائد بعد شاباً في السادسة والثلاثين، ولكن على الرغم من حملاته فقد اشتهد عوده وقوى جسمه، ودوخ جياده كما دوخ أعداءه، وعلى الرغم من ذلك، كان غالباً ما يتقدم الصفوف، سائراً بلحيته الذهبية نحو النصر. وأحبه جنوده لأنه منصف. وعلى حين تبع الجيوش الألمانية أفواج من البغايا بلغ من كثرتهم تخصيص بعض الضباط لحفظ النظام بينهم، فإن جوستاف لم يسمح بمحظيات أو مومسات في معسكره، ولو أن الزوجات سمح لهن بالقيام بخدمة أزواجهن من الجنود^(٦٨). وكانت كل كتيبة تؤدي الصلوات في الصباح وفي المساء، وتستمع إلى عظة كل يوم أحد. وهنا كان نظام رجال كرومول الحديديين قبل وقوع حروب كرومول بعشر سنين وحرّم جوستاف، كما حرّم كرومول، الارتداد عن الدين قسراً، وحيثما دخل فاتحاً ترك الديانة حرة.

وقضى جوستاف بقية عام ١٦٣٠ في بسط سلطانه على بوميرانيا، وفي البحث عن حلفاء. فإذا تيسر له أن يجمع كل أعداء آل هابسبرج في حرب صليبية واحدة، لاجتمع له مائة ألف جندي صالحين للملاقاة جيش فاشتين. وفي ١٣ ديسمبر ١٦٣١ وقعت فرنسا والسويد ميثاقاً يحصل الملك بمنقضاءه على الرجال، ويدفع الكاردينال (ريشيليو) ٥٠٠ ألف تالر (٤ ملايين دولار؟) سنوياً لمدة خمس سنوات، ولا تعقد أي من الدولتين صلحاً دون موافقة الأخرى. والتزم جوستاف ألا يتدخل في أمر ممارسة العقيدة الكاثوليكية ودعا ريشيليو مكسيمليان للانضمام إلى هذا التحالف، ولكن الدوق الناخب، بدلاً من ذلك أرسل القائد تلي إيعوق تقدم الجيش السويدي، واستولى تلي

على نيوبراند نبرج (١٩ مارس ١٦٣١) وذبح حاميتها المسكونة من ٣٠٠٠ رجل . وفي ١٣ أبريل أخذ جوستاف فرانكفورت وذبح حاميتها المسكونة من ألفى رجل ، وبينما قضى الملك وقته فى بذل الجهد انضم جون جورج ناخب سكسونيا إلى الحلف ، حاصر تللى وكونت باينهايم مجدبرج التى كانت لانزال تقاوم د قرار إعادة أهلاك الكنيسة ، . وفى ٢٠ مايو وبعد صمود لمدة ستة أشهر ، سقطت المدينة ، وأعمل الجنود المنتصرون فيها السلب والنهب لمدة أربعة أيام . وقتل فى هذه الحرب عشرون ألف رجل ، لالحامية المسكونة من ثلاثة آلاف فقط ، ولكن قتل كذلك ١٧ ألفا من سكان المدينة البالغ عددهم ٣٦ ألفا ، وأحرقت المدينة عن آخرها فيما عدا الكاتدرائية . ووصف هذا المنظر فقال : —

لم يعد هناك شيء الا الضرب والحرق والسلب والنهب والتعذيب واقتل وحرص كل فرد من الأعداء، بصفة خاصة، على الحصول على أكبر قدر من الغنائم . وتحت التهديد بالضرب أو الرمي بالرصاص أو الذبح أو الشنق ، أهرب الأهالى المساكين وفزعوا ، فلو تبقى لديهم شيء لأحوجوه لوكان مخبأ فى ألف حرز مكين . وفى حاة الغضب المسعور ، اجتاحت أسننه النيران المدينة العظيمة الفخمة التى قمت وسط الأرض كمروس جميلة وعذب وأعدم آلاف الأبرياء من الرجال والنساء والأطفال ، وسط ضجة رهيبية من صيحات وصرخات تمزق الفؤاد ، بطريقة وحشية مخزية ، تقصر أية كلمات عن وصفها ، وأية دموع عن نديها والتوجع لها (٦٩) .

وبذل تللى ، وهو الآن شيخ هرم فى الواحدة والسبعين ، كل ما فى وسعه لوقف المذبحة . وتنبأ بحق بأن الولايات البروتستانتية دون ريب سوف تشتد كراهيتها د بسبب تخريب واحدة من أجمل مدنهم .

وفي ٢٢ يولييه ١٦٣١ وضع ناخب براند فبرج كل هوارد تحت تصرف جوستاف وفي ٣٠ أبريل ألف جون جورج بين سكسونيا والسويد . وفي ١٧ سبتمبر سحق الجيش السويدي والسكسونية المجتمعة قوات تاللي عند برينغليد بالقرب من ليبزج وكان هذا أول نصر برتستانتى هام في الحرب ، وقد أحيى روح السكان البروتستانت . وأصبح شخص ملك السويد الذى كان يقاتل دون درع في قلب المعركة يعلوه الغبار ، ويتصبب منه العرق ، يوجه ويقود رجاله غير هياب ولا وجل ، نقول أصبح رمزا يشد من عزم شعب كان منذ عهد قريب عزة عاجز يرهب جيش فالنشتين . واستردت مكلنبرج ، وأعيد الهوق المخلوع إلى عرشه ، ودخلت الولايات ، الواحدة تلو الأخرى ، الحلف السويدي وسرعان ما سيطر جوستاف على خط يمتد عبر ألمانيا من الأورو إلى الراين وأتخذ مقر قيادة في ماينز في قلب إلفيم كاثوليكي عادة . وفي نوفمبر سار جون جورج بحيشه السكسونى إلى براج دون أن يلقى أية مقاومة ، وكان حريصا على عدم مهاجمة صياح فالنشتين في طريقة .

والان وقد بقى فرد يناند بلا حليف اللهم الا أسبانيا الفقيرة المعذمة ، وبلا قائد سوى تاللي المحوز ، فانه في تواضع ذليل ولى وجهه شطر فالنشتين (ديسمبر ١٦٣١) وطلب اليه أن يجهز جيشا لا تقاذبوه ميميا وحماية النمسا . ووافق القائد المزهو المغرور ، ولكن بشروط غريبة شاذة أن تكون له القيادة العليا على كل القوات الامبراطورية ، وتكون له سيطرة التفاوض وتوقيع المهادنات إلا مع جوستاف ، ويكون له في البلاد التى يفتحها حق مصادرة الأملاك واصدار العفو وفي أبريل ١٦٣٢ قبلت هذه الشروط جميعها . وجمع فالنشتين جيشا ، كما جمع الأمور الالزامية له ، وعرض على جون جورج صلحا منفردا واستعاد براج دون طلقة واحدة . وانسحب الجيش السكسونى إلى سكسونيا .

وفي الوقت نفسه أستأنف جوستاف القتال ، وهزم تاللي عند درين ، (١٥ أبريل) . ومات تاللي بعد ذلك بأسبوعين متأثرا بجراحه . واحتل

جوستاف ميوفيتش ، ومطار فالتشين بجيشه من بوهيميا وأنضم إلى جيش
 مكسيميليان (وهنا تفرقت هذه القوات على جيش جوستاف عددا ، إلى حد
 بعيد ، وأرتاب حلفاؤه في أن لا أطماعا إمبراطوية ، فانتابهم الفلق وأصبحوا
 لا يعتمد عليهم ، كما أن قواته كانت على شفا الموت جوعا ، فأعملت السلب
 والنهب في البروتستانت والكاثوليك ونفرتهم منه ، على حد سواء . وأعرب
 جون جورج ، وقد لعبت الخنزير برأسه يوما عن تلمذه على التخلص من ملك
 السويد وكان جوستاف يأمل في الاستيلاء على فيينا ، ولكنه كان يخشى
 لإنحياز جون جورج إلى فالنشتين ، فتحول إلى الشمال . وفي نورمبرج ،
 وهو يدرك تمام الإدراك أن الريح غير هوائية له ، أرسل تعليماته الأخيرة
 إلى أوكسنميتين ليتولى شؤون الحكومة السويدية والحرب . وفي أرفورت
 ودع زوجته ، وفي ١٦ نوفمبر ١٦٣٢ ، في لوتزن بالقرب من ليبزج ، التقى
 القائدان العملاقان في ذلك العصر ، وجها لوجه ، وجيش جوستاف ٢٥ ألفا ،
 وجيش فالنشتين ٤٠ ألفا . واقتتل الجيشان طول اليوم ونزفا ، واضطربا
 ثم التاما ، واضطر فالنشتين إلى التراجع ، ولكن بابنهم قلب الهزيمة رأسا على
 عقب ، إلى أن أصابته طلقة ورثته فاختنق بالدم وقضى نحبة . أما جوستاف فإنه
 رأى قلب جيشه يتقهقر ، فقام بنفسه ، على رأس كتيبة من الفرسان ، وقاد
 هجعة ضاربة ، ولكن رصاصة أصابت يده اليسرى ، وأخرى أصابت جوداه
 فسقط عنه ثم نفذت رصاصة إلى ظهره . فتجمع الفرسان الدارعون
 الإمبراطوريون حول وسألوه من يكون ، فأجابهم : أنا ملك السويد الذي
 قد حتمت عقيدة الأمة الألمانية وحريتها بدمه ^(٧٠) . فأنهالوا عليه بسيوفهم مرة
 ومرة ، ثم أعلشوا بأعلى أصواتهم نبأ موته ، وتولى القيادة بعده بيرنهارد دوق
 ساكس ويمار . وأحرز السويديون الذين جن جنونهم بفقد مليكهم ، أنصارا
 باهرا واستخلصوا جثمان جوستاف الذي شوهته الطلقات والطلعات . وفي
 تلك الليلة ابتج المنهزمون فرحا ، واغتم المنتصرون حزنا ، لأن أسد الشمال
 قضى نحبه .

٤ - انحلال (١٦٣٣-١٩٤٨)

ومن ذلك الحين اختفت عظمة الحرب . وتولى ريشليو زعامة البروتستانت
الالمان ونفذ أو كسنستيرنا وصيه سيده المتوفى في دبلوماسيه حكيمة . وقاد
برنارد دوق ساكس و يمار الفرنسيين ، و بانير وتورستنون السويديين إلى
إنتصارات جديدة . ولكن الأبحاث ولم يبق إلا الذعر والفرع . وتنفس
الأمراء البروتستانت الصعداء إلى حذما ، بموت جوستاف ، وتذروا من الثمن
الباهظ الذي أجبروا على تقاضيه لقاء تخليصهم من فرديناند ، وفي هذه العملية
اتلفت الأطراف المنتزعة مزارعهم ودمرت مدنهم ، وقاد ملك أجنبي الالمان
ضد الالمان ، وبلغ عدد الضحايا مائة ألف .

ويبدو أن فالنشتين فقد أعصابه مذ ذاق طعم الهزيمة لأول مرة . وبعد
لوتزن عاد إلى بوهيميا وجهد في أناة وروية جيشا آخر ، ولكنه أيضا ، وقد
بلغ الآن الخمسين ، سئم الحرب وتمي بعض الفراغ ليعالج داء النقرس .
فتفاوض ، مستقلا ، مع زعماء البروتستانت ، حتى مع ريشليو^(٧١) ولا بد أن
فرديناند يكون قد علم أن المنفيين البوهيميين ، بموافقة أكسنستيرنا ، كانوا
يتآمرون لاجلاس فالنشتين على عرش بوهيميا^(٧٢) . وعندما قاد برنارد دوق
ساكس و يمار جيشا إلى بافاريا توصل مكسيمليان وفرديناند إلى فالنشتين أن
يسرع لنجدتهما . ولكنه أجاب بأنه ليس في مقدوره أن يعد الرجال لعمل
من هذا القبيل . لقد وزع جيشه العاقل على الضياع الامبراطورية في بوهيميا ،
وطلب إليه الامبراطور أن يخفف الأعباء المفروضة على هذه الأراضي
الامبراطورية فأبى .

وفي ٣١ ديسمبر ١٦٣٣ قرر فرديناند ومجلسه أنه لا بد من عزل قائدهم
الاعظم ، وتناثرت الشائعات في جيش فالنشتين تقول بأنه يتآمر لينصب نفسه
ملكاً على بوهيميا ولويس الثامن ملكاً على الرومان . وفي ١٨ فبراير وزعت

وأمر امبراطورية على الجيش تحله من قيادة فالنشتين، وبعد ذلك بأربعة أيام، ولى هاربا من بلزن، ومعه ألف رجل . وفي اليوم الخامس والعشرين انقض على غرفته في لايجر نفر من الجنود الطامعين في المكافأة، فوجدوه وحيدا أعزل . وأشبعوه طعنا بسيوفهم، ويقول أحد المعاصرين دوفى الحال جروة من قدميه، يصطدم رأسه بكل درجة من درجات السلم^(٧٣)، وأمرع القتلة إلى فيينا حيث قالوا ترقية ومالا وأرضا . أما الامبراطور الذى قضى ليالى وأياما، يستبد به الخوف، يتعبد ويتعبد، فقد حمد الله على معاونته سبحانه .

واستمرت الحرب تجرأذيالها أربعة عشر عاما أخرى . وحل ابن فرديناند وسميه البالغ من العمر سنا وعشرين سنة، محل فالنشتين فى منصب القائد الأعلى للجيش الامبراطورية . وكان شابا جديرا بأن يحب، متعلما، عطوفا كريما، يحب الفلسفة، ويكتب الموسيقى، ويحفر العاج، ومع ذلك لم يكن جاهلا بفنون الحرب . ودحر بمساعدة القواد القدامى، برنارد فى نوردينجن، وهى أعظم المعارك الامبراطورية حسا فى الحرب . وكادت القوات البروتستانتية أن تنهار تماما، لولا أن أوكسسترنا أفتد الموقف بعقد معاهدة كوميين (٢٨ أبريل ١٦٣٥) التى هيات لريشليو لإسهما كاملا فى الصراع . ولكن الأمراء البروتستانت فى ألمانيا لم يستسيغوا مشهد كردينال فرنسى يتحكم فى مصيرهم . وتبعوا، الواحد منهم يتلوا الآخر، جون جورج أمير سكسونيا فى عقد الصلح مع الامبراطور الذى رحب بهم، حيث ألقى نفسه تواجبه الجيوش والأموال الفرنسية معاً . وبمقتضى معاهدة براغ (٣٠ مايو ١٦٣٥) وافق الامبراطور على وقف العمل بقرار إعادة أملاك الكنيسة لمدة أربعين عاما . وفى مقابل ذلك وعد معظم الأمراء البروتستانت بمساعدته وحلفائه على استرداد الأراضى التى فقدوها منذ مجيء جوستاف أدولف . ولما كانت هذه الأراضى تشمل اللورين . فإن المعاهدة فى الواقع كانت موجهة ضد فرنسا . والسويد، وكانت تؤكد اجديدا للوحدة الألمانية ضد الغزاة . وتوارت المشكلة الدينية عن ميدان القتال . وفى نهاية عام ١٦٣٥ كان جيش سكسونيا

البروتستانتية يقاتل السويد البروتستانتية في ألمانيا الشمالية حيث كان بانير وتورستنسون يناضلان ، بعبقرية عسكرية حذيرة بجوستاف ، من أجل الاستيلاء على بعض مواقع قارية من أجل أمن السويد .

وفي الغرب وقف برنارد بشجاعة في وجه القوات الامبراطورية المتزايدة وفي ١٦٢٨ أمدته فرنسا بالأموال ، وأفضل منها بألقى جندي بقيادة تورن الذي صعد نجمه آنذاك كقائد . وشن برنارد ، بعد أن وصله الامدادات على هذا النحو ، حملة جديدة بأن تسجلها حوليات الحرب ، من أجل التشبث بالهدى ودقة الاستراتيجية ، وهزم الامبراطوريين في ويتنوير . وأجبر قلعة ريساخ العظيمة على الاستسلام ، وأنهكت قواه وهو في الرابعة والثلاثين فقضى نحيبه (١٦٣٩) وذهب جيشه وفتوحاته ، بما فيها اللورين . إلى فرنسا .

وفارق الامبراطور العجوز الحياة ، وخلا منه المسرح ١٦٣٧ . وورث فرديناند الثالث إمبراطورية تعاني فقرا وحرمانا لا مبرر للخروج منها ، يكاد أن يكون من المستحيل معهما الاتفاق على جيوش تقف في وجه ريشليو الذي ما زال قادرا على ابتزاز الفرنكات من فرنسا المدممة . وفي ١٦٤٢ وصل تورستنسون بجيش السويد إلى مسافة ٢٥ ميلا من فيينا ، وأحرز نصرا مينا في معركة برتينفيلد الثانية ، حيث فقد الإمبراطوريون نحو ١٠ آلاف رجل ، بما حدا بالآرشيديوق المنهزم ليوبولد ولیم ، أخى الإمبراطور الشاب إلى محاكمة ضباطه أمام مجلس عسكري ، بتهمة التجبن والخور . وقطع رؤوس ذوى الرتب الكبيرة ، وشنق من هم أقل منهم رتبة ، وأطلق الرصاص على عشر الباقين على قيد الحياة من سائر الرتب (٧٤) .

وبدا الآن أن كل عام يأتي بضربات جديدة تنصب على رأس الامبراطور الجديد . ففي ١٦٤٣ محطمت أسبانيا بانتصار دوق انجين في ركروا . وفي ١٦٤٤ غزا انجين وتورن أراضى الراين حتى شمال ماينز ، وفي ١٦٤٥ تقدم تورستنسون حتى صار على أبواب فيينا تقريبا ، وانتصر الفرنسيون في معركة دامية عند الليرهم ، واجتاح جيش سويدي بقيادة كونت هانس كريستوف

فان كونجز مارك سكسونيا وامستولى على ليبزج ، وأرغم جون جورج على الخروج من الحرب . وكان الجيش البافارى قد طرد من البالاتينات فى ١٦٣٤ أما الآن ، فى ١٦٤٦ فقد غزا تورن بافاريا نفسها وخربها ، وتوصل مكسيميليان الذى كان قد ركبته الغرور يوما ، إلى عقد الصلح ، والنمس من الامبراطور أن يفارض فرنسا من أجل الصلح . ولم يكن فرديناند الثالث صليبا لا ينثنى ، مثل أبيه ، وكانت تصل إلى مسامحه صرحات الإمبراطورية المنهوكة ، فأرسل أقدر مفاوضيه إلى وستفاليا ، سعيها وراء شيء من التوفيق بين العقائد وبين الأسرات .

كان الإمبراطور السلب أصغر من أن يدرك أن المذمحة والخراب ربما كانا أفضح ما اقترفته أيدي البشر فى جيل واحد فى أى بلد من قبل . فلم يكن هناك جيشان ، بل ستة جيوش - الألمانى والدنمركى والسويدي واليوهيمى والأسبانى والفرنسى معظمها من الجيوش المرتزقة أو الأجانب الذين لا تربطهم أية صلة بالشعب أو التراب أو التاريخ الألمانى ، يقودهم عسكريون مغامرون يقاتلون من أجل أية ملة نظير أجر ، وهى جيوش تعيش على استسلاب الجيوب والفاكهة والماشية من الحقول ، تقيم أو تأوى فى الشتاء إلى مساكن الشعب ، جزاؤها هو حقها فى السلب والنهب ، وابتهاجها بالقتل والغصب . وكان مبدأ مقبول مسلما به لدى كل الأطراف المتحاربة ، أن تذبح أية حامية كانت قد رفضت الاستسلام . بعد أن أصبح الاستسلام أمرا لا مناص منه ، وأحس الجنود أن المدنيين فرائس أو ضحايا مشروعة ، فاطلقوا الرصاص على أقدامهم فى الشوارع ، وجندوهم لخدمتهم . وحظفوا أطفالهم من أجل الحصول على الفدية وأشعلوا النار فى مخازن التبغ وأحرقوا الكنائس لمجرد التسلية واللهو . لقد قطعوا أيدي وأرجل قسيس بروستانتى لأنه قاوم تحطيم كنيسه ، وربطوا القساوسة تحت العربات ، وأجبروهم على الزحف على أيديهم وأرجلهم حتى خارت قواهم من الإعياء (٧٥) ، وكان حق الجندى فى اغتصاب الذمء أمرا مسلما به ، فإذا طالب والد أن يحاكم جندى اغتصب ابنته وقتلها ، أبلغه الضابط

المختص بأنه لولم تكن ابنته ضئيلة بعذريتها إلى هذا الحد لبقيت على قيد الحياة (٧٦) .

وعلى الرغم من الاختلاط المتزايد تناقص عدد سكان ألمانيا بسرعة أثناء الحرب ، وكان التناقص مبالغاً فيه وكان مؤقتاً ، ولكنه كان فاجعاً . وتقول التقديرات المعتدلة بأن عدد سكان ألمانيا والنمسا هبط من ٢١ إلى ١٥ مليوناً (٧٧) . وقدر الكونت فون لوزو أن عدد سكان بوهيميا هبط من ثلاثة ملايين إلى ٨٠٠ ألف (٧٨) . وبين ٣٥ ألف قرية في بوهيميا ١٦١٨ ، هناك نحو ٢٩ ألف قرية هجرها أهلها أثناء الصراع (٧٩) . وهناك في مختلف أنحاء الامبراطورية مئات من القرى لم يبق فيها ساكن واحد ، وقد يقطع المرء في بعض الأقاليم مستين ميلاً دون أن يرى قرية أو بيتاً (٨٠) ، وكان في ١٩ قرية في نورنجا في ١٦١٨ نحو ١٧١٧ بيتاً ، لم يبق منها في ١٦٤٩ سوى ٦٢٧ بيتاً ، لم يكن كثير منها أهلاً بالسكان (٨١) .

وتركت آلاف الأفدنة الخصبة دون فلاح أو زرع بسبب نقص الرجال أو الدواب أو البذور ، أو لأن الفلاحين لم يكونوا على ثقة من أنهم سوف يحصدون نتاج ما يزرعون . واستخدمت المحصولات لإطعام الجيوش ، وكان ما تبقى يحرق لئلا يستفيد منه الأعداء . واضطر الفلاحون في كثير من الأماكن إلى أكل الفضلات الخبأة ، أو الكلاب أو القطط أو الفيران ، أو جوز البلوط أو الحشائش ، وقد وجد بعض الموتى وفي أفواههم بعض الحشائش وتنافس الرجال والنساء مع الغربان والكلاب على لحم الخيول الميتة . وفي اللزاس انتزع المعتدون المشنوقين من المشنقة ، تلهفوا على التهام جثثهم . وفي أراضى الراين كانت القصور تنبش وتباع الجثث لتؤكل . واعترفت امرأة في زويبروكن بأنها أكلت طفلها (٨٢) . وتعطلت وسائل النقل إلى حد تعذر معه نقل الفائض في جهة إلى جهة أخرى بعيدة محرومة . وتهدمت الطرق بسبب المعارك ، وأوبات من الخطر لارتدادها بسبب قطاع الطرق ، أو ازدحمت بالمهاجرين واللاجئين .

وعانت المدن الصغيرة أقل مما عانت القرى . وهبط عدد سكان كثير منها إلى نصف ما كان عليه من قبل . وأصبحت المدن الكبرى أطلالا خربة — مجدبرج ، هيدلبرج نورمبرج ، نيو ستاد ، بايريت . وتدهورت الصناعة لعدم وجود المنتجين والمشتريين والحرفيين ، وكسدت التجارة . وصار التجار الذين كانوا يوما أثرياء يقرضون أو يسرقون ويسلبون من أجل لقمة العيش . وامتنعت الكوميونات عن دفع ديونها بعد أن أعلنت إفلاسها . وأحجم الممولون عن الإقراض خشية أن تتحول القروض إلى هبات أو منح . وأفقرت الضرائب كل الناس ، اللهم إلا القواد والجباة والقساوسة والماوك ، وبات الهواء ساما بسبب الفضلات والنفايات والجثث المتعفنة في الشوارع . وانتشرت أوبئة التيفوس والتيفورد والدوسنتاريا والاسقربوط بين السكان المذعورين ، ومن بلدة إلى أخرى . ومرت القوات الأسفانية بمدينة ميونيخ فتركت وراءها طاعونا أودى بحياة عشرة آلاف ضحية في أربعة شهور (٨٣) . وذوت وذبلت في أتون الحرب الفنون والآداب التي كانت تضيء على المدن شرفا ومجدا .

وانهارت الأخلاق والروح المعنوية على حد سواء ، فإن اليأس المقرون بالإيمان بالقضاء والقدر دعا إلى الوحشية المقترنة بالسخرية . واختفت كل المثل الدينية والوطنية بعد جيل سادس العنف ، وكان البسطاء من الناس يكافحون الآن من أجل الطعام أو الشراب ، أو يقاتلون بسبب الكراهية . على حين عبأ سادتهم عواطفهم في التنافس على اقتناء الأراضي التي يمكن أن يجمعوا منها الضرائب ، وعلى السلطة السياسية . وهنسا وهناك ظهرت بعض النواحي الإنسانية ، فكان الجزويت يجمعون الصدقات ليطعموا الأطفال الذين لا عائل لهم ، كما كان الوعاظ يطلبون إلى الحكومات وضع حد لسفك الدماء وللدمار . وكتب أحد الفلاحين في مذكراته اليومية : اللهم أنا نتوسل إليك أن تضع نهاية لما نلاق ، اللهم أما نتوسل إليك أن تعيد لنا السلام . يا إله السموات أنزل علينا السلام (٨٤) .

٧ - صلح وستفاليا

كان الحكام ورجالهم الدبلوماسيون منذ ١٦٣٥ يجسسون النبض ويتحسسون الرأى من أجل السلام . وفى تلك السنة اقترح البابا أربان الثامن عقد مؤتمر لبحث شروط المصالحة ، واجتمع المندوبون للتفاوض فى كولون . ولكنهم لم يصلوا إلى نتيجة . وفى همبرج فى ١٦٤١ صاغ ممثلو فرنسا والسويد والامبراطورية اتفاقية مبدئية لينعقد مؤتمر مزدوج فى وستفاليا فى ١٦٤٣ ، فى مونستر تلتقى فرنسا مع الامبراطورية لمعالجة مشاكهما فى ظل وساطة البابا والبندقية ، وفى أوسنابروك ، على بعد ثلاثين ميلا ، تلتقى فرنسا والامبراطورية مع السويد لإجراء المفاوضات فى ظل وساطة كريستيان الرابع ملك الدنمرك . وكان هذا الفصل « المطهر » ضروريا بسبب عدم رغبة المندوبين السويديين فى الاجتماع تحت رعاية ممثل البابا ، ورفض ممثل البابا أن يجلس فى سعيد واحد مع « الزنادقة » .

وجاء الأخير نتيجة إجراءات الأمن وقواعد البروتوكول . واستحدث انتصار تورستنسون فى برينسفيلد الامبراطور إلى الوعد بأن مندوبيه سيصلون فى ١١ يولية ١٦٤٣ ، وتسلأ المندوبون الفرنسيون بينما كانت فرنسا تدبر التحالف مع المقاضعات المتحدة (فى الأراضى الوطيفة) ضد أسبانيا . وافتتح مؤتمر وستفاليا شكلا فى ٤ ديسمبر ١٦٤٤ ، وضم ١٣٥ عضوا بما فيهم رجال اللاهوت والفلاسفة . وافتضت منذ ذلك اليوم ستة شهور فى تحديد نظام الأسبقية فى دخول المندوبين إلى القاعات وجلوسهم وما كان السفير الفرنسى ليدخل فى المفاوضات إلا إذا خوطب بلقب « صاحب الفخامة » . وعندما وصل السفير الأسبانى تجنب السفير الفرنسى ونأى بنفسه عنه ، لأن أيا منهما لا يعترف للآخر بالأسبقية ، وانصل كل منهما بالآخر عن طريق شخص ثالث . ورفضت فرنسا الاعتراف لفيليب الرابع بلقب ملك البرتغال وأمير قطالونيا . كما رفضت أسبانيا الاعتراف بلقب ملك نافار اللويس الرابع

عشر . وتنازع المندوبون السويديون فيما بينهم وأضاعوا الوقت حتى صدرت
لإيهم أوامر الملكة الشابة الجريئة كريستينا بأن يصلحوا فيما بينهم . ثم بعقدوا
مع العدو . وفي الوقت نفسه كان الرجال يذهبون إلى الحرب ليلقوا حتفهم .

وعلى قدر ما كانت جيوش كل فريق منتصرة أو مقهورة ، تلكما
المندوبون في المفاوضات أو عجلوا بها ، وشغل المحامون أيما شغل بخلق
الصعوبات أو لإبتداع الحلول الوسط ووسائل التوفيق ، يحلون العقد أو يزيدونها
تعقيدا . وكان قواد فرنسا يسرون بخطى واسعة ، ومن ثم فإنها أصرت على
تمثيل كل أمراء ألمانيا في المؤتمر ، على الرغم من أن معظمهم كان قد عقد
الصلح مع الامبراطور منذ أمد طويل . وطالب إلى الزمن أن يتوقف حتى
يرسل كل الناحبين والأمراء والمدن الامبراطورية تمثيلهم ، ورغبة في إضعاف
مركز فرنسا ، عمدت أسبانيا (٨ يناير ١٦٤٨) إلى توقيع صلح منفرد مع
المقاطعات المتحدة - التي كانت لتوها قد وعدت فرنسا بعدم توقيع صلح
منفرد ، ولكن الهولنديين لم يكتفوا ليضيعوا الفرصة التي لاحت لهم
ليكسبوا بجرة قلم ما قاتلوا من أجله طيلة ثمانين عاما . فكان جواب فرنسا
على هذا أنها رفضت عقد الصلح مع أسبانيا ، واستمرت الحرب بينهما حتى
صلح البرينز في ١٦٥٩ .

وكان يمكن أن ينفذ المؤتمر دون نتيجة ، لولا اجتياح تورن لبافاريا ،
وهجوم السويد على براغ (يولية ١٦٤٨) وهزيمة الأسبان في انز (٢ أغسطس)
فإن هذه الأحداث كلها أقنعت الامبراطور بالتوقيع ، على حين أن ثوري
الفروند في فرنسا (يولية) أكرهت مزران على تقديم بعض التنازلات التي
تطلق يده للحرب في الداخل . وعلى هذا ، وقعت آخر الأمر معاهدة وستفاليا
في مونستر وأوزنابروك معا في ٢٤ أكتوبر ١٦٤٨ - واستمر سفك الدماء
تسعة أيام آخر ، حتى وصلت الأنباء إلى جبهات القتال ، وتعالى صيحات
« الشكر لله ، خاشعة مبتهجة ، من ألف قرية ومدينة .

ولابد من التسليم بأن المفاوضات واجهت من مشكلات التوفيق ما هو أكثر تعقيدا من أية مشكلات واجهها مؤتمر صلح قبل القرن العشرين ، وأنها عملت على تسوية المطالب المتعارضة بحكمه ، قدر ما سمحت الكراهية والغرور والكبرياء والقوة والسلطة بين المجتمعين . ولابد من تلخيص بنود هذه المعاهدة التي أعادت تشكيل أوربا من جديد ، لأنها أوجزت وأخرجت قدرا كبيرا من التاريخ .

١ — حصلت سويسرا والمقاطعات المتحدة على اعتراف رسمي باستقلالهما .

٢ — حصلت إفايريا على البالاتينات العليا (الجنوبية) ، مع صوتها الانتخابي .

٣ — أعيدت البالاتينات الدنيا (الشمالية) ، بوصفها موطننا انتخابيا ثامنا ، إلى شارل لويس بن فردريك المتوفى .

٤ — حصلت براندنبرج على بوميرانيا الشرقية وأسقفيات مenden وهالبرستاد وكامين ، ووراثة أسقفية مجدبرج . وعاونت فرنسا أسرة هوهنزارن الناشئة في الحصول على هذه الثمار الياقة ، بفكرة إقامة قوة أخرى ضد آل هابسبرج ، وما كان منتظرا من فرنسا أن تنبأ بأن براندنبرج ستصبح بروسيا التي سوف تتحداه على عهد فردريك الأكبر ، ثم توقعها الهزيمة على يد بسمارك .

٥ — ونالت السويد ، بفضل انتصارات جيوشها أساسا ، وبفضل مساندة فرنسا لها في المؤتمر ، بشكل جزئي ، أسقفيتي بريمن وفردن ، ومدينتي ويزمار واستتن ، ومنطقة مصب نهر الأودر ، ولما كانت هذه كلها اقطاعات امبراطورية ، فقد حصلت السويد على مقعد في الديت الامبراطوري ، ولما استوات بالفعل على ليفونيا وأستونيا وأنجريا وكاريليا وفنلندة فقد أصبحت الآن في عداد الدول العظمى ، وسيدة البلطيق حتى جاء بطرس الأكبر .

٦ - واحتفظت الإمارات الألمانية بما كان لها قبل الحرب من «حريات» في مواجهة الأباطرة .

٧ - وكان على الامبراطور أن يقنع بالاعتراف بحقوقه الملكية في بوهيميا والمجر . ومن ثم اتخذت امبراطورية النمسا والمجر شكها على أنها حقيقة واقعة في هيكل الامبراطورية الرومانية المقدسة . لقد أنارت اقتصاديات الامبراطورية المعمرة ، من جهة بسبب نقص السكان وتدهور الصناعة والتجارة أثناء الحرب ، ومن جهة أخرى بسبب مرور المنافذ النهرية الكبيرة إلى دول أجنبية من منافذ الأودر والألب إلى السويد ، والراين إلى المقاطعات المتحدة .

٨ - وكان أكبر الغنم لفرنسا التي مولت ثرواتها السويديين المتقصرين ، وفرض قوادها الصلح فرضا . فسلبت إليها الأراض فاعلا ، مع أسقفيات متزوفردون وتول وحصن بريزاك على الجانب الألماني من الراين . وسمح الآن للويس الرابع عشر بالاستيلاء على فرانكن كوثنية واللورين ، وفق هواه وتحقيق هدف ريشليو - الذي كان الآن قد فارق الحياة - كسر شوكة آل هابسبرج ومد حدود فرنسا ، وتمكين وحدة فرنسا ودفاعها ، والإبقاء على فوضى الإمارات في الامبراطورية ، وعلى الصراع بين الأمراء والامبراطور ، وعلى النزاع بين الشمال البروتستانتي والجنوب الكاثوليكي ، مما يحمي فرنسا من خطر ألمانيا موحدة . وحلت فرنسا محل أسبانيا - أو احتلت أسرة البوربون مكان آل هابسبرج بوصفها قوة عظمى مهيمنة على أوروبا ، وسرعان ما علا لويس الرابع عشر إلى منزلة الشمس .

أما الضحية الخفية للحرب فهي المسيحية ، لقد كان على الكنيسة الكاثوليكية أن تتخلى عن قرار إعادة أملاك الكنيسة ، وأن تعود سيرتها الأولى إلى الوضع الذي كانت عليه ممتلكاتها في ١٦٢٤ ، وترى الأمراء مرة أخرى يقررون عقيدة رعاياهم . ومهما يكن من أمر ، فإن هذا مكن الكنيسة من إخراج

البروتستانتية من بوهيميا موطن إصلاح هس . لقد قضى على الإصلاح المضاد ، ومثال ذلك أنه لم يكن محل نزاع أن تقيم بولندية المذهب الكاثوليكي في السويد البروتستانتية ، بضعف ما كان عليه من قوة من قبل . ورفض يمثل البابا في مونستر أن يوقع المعاهدة . وفي ٢٠ نوفمبر ١٩٤٨ أعلن البابا انوسنت العاشر « أنها غير ذات قوة شرعية ملزمة ، ملعونة بغيبضه ، ليس لها أى أثر أو نتيجة على الماضى أو الحاضر أو المستقبل » (٨٥) . وتجاهلت أوروبا هذا الاحتجاج . ومنذ تلك اللحظة لم تعد البابوية قوة سياسية عظيمة ، وأنحط شأن الدين في أوروبا .

وكذلك احتج بعض البروتستانت ، وخاصة أولئك الذين فقدوا مسألتهم في بوهيميا والنمسا . ولكن المعاهدة في جملتها - وهى ثمرة جهود كاردينال توفى وآخر حى - كانت نصرا للبروتستانتية التى أنقذت في ألمانيا . لقد ضعفت في الجنوب وفي الراين ، ولكنها في الشمال قويت عن ذى قبل ، واعترفت المعاهدة رسميا بكنيسة الإصلاح أو الكنيسة الكلفنية . وبقيت خطوط التقسيم الدينى التى أقرت في ١٦٤٨ ، دون تغيير جوهري حتى القرن العشرين ، حين بدأ التغيرات في معدلات المواليد أو نسب تزايد السكان ، يوسع من رقعة الكاثوليكية بطريقة تدريجية سليمة .

ولكن على الرغم من إن الإصلاح الدينى قد أنقذ ، فإنه عانى ، مع الكاثوليكية ، من التشكك الذى شجعت به بذاعة الجدل الدينى ، ووحشية الحرب ، وقساوة العقيدة . وأعدم أثناء المعركة آلاف من الساحرات . وبدأ الناس يرتابون في المذاهب التى تبشر بالمسيح وتقر قتل الأخوة بالجملة . وكشفوا عن الدوافع السياسية والاقتصادية التى تسرت تحت الصيغ الدينية ، وارتابوا في أن حكامهم يتمسكون بعقيدة حقبة ، بل أنها شهوة السلطة هى التى تحكمهم فيها . ولو أن فرد يتاند الثانى غامر بسلطانه المرة بعد المرة ، من أجل عقيدته . وحتى في أعظم العصور الحديثة هذه ، ولّى كثير من الناس وجوههم

شطر العلم والفلسفة للظفر باجابات أقل اصطبأغا بلون الدم من تلك التي سمعت
العقائد أن تفرضها في عذف بالغ . وكان جاليليو يفرغ في قالب مسرحي ثورة
كوبرنيكس . وكان ديكارت يثير الجدل حول كل التقاليد وكل الساطة .
وكان برونو يشكو إلى أوروبا آلامه المبرحة وهو يساق إلى الموت حرقا . لقد
أنهى صلح وستفاليا سيطرة اللاهوت على العقل في أوروبا ، وترك الطريق إلى
محاولات العقل واجتهاداته ، غير معبد ، ولكن يمكن المرور فيه .

الكتاب الثالث

اجتهادات العقل

١٥٥٨ - ١٦٤٨

الفصل الثاني والعشرون

العلم في عصر جاليليو

١٥٥٨ - ١٦٤٨

١ - الخرافة *

قد تولد الديانات ، وقد تفتى ، ولكن الخرافة باقية أبد الدهر . وسعداء
الحظ هم الذين يحملون العيش بدون أساطير ، والكثير منا يعاني في جسمه
وفي أتماق نفسه . وأفضل عقار مسكن في « الطبيعة » جرعة مما هو فوق
الطبيعة . وحتى كبلر ونيوتن مزجا علمها بالأساطير . وآمن كبلر بالسحر .
وكتب نيوتن في العلم أقل مما كتب عن « سفر الرؤيا » .

وكانت الخرافات الشعبية أكثر مما يحصىه العد . فأذاقنا تلهب عندما
يتحدث عنا الآخرون . ولا تسكون الزيجات التي تتم في شهر مايو سعيدة .
وتشفى الجراح إذا مسح السلاح الذي أحدثها بالزيت المقدس . وتستأنف
الجثة نزف الدم في حضور القاتل . ولأن الجنيات والجن الصغير المؤذى
والغيلان والأرواح الشريرة والشياطين لتجوز في كل مكان . وثمة طلاس
معينة (مثل تلك التي وجدت عند كاترين دي مديتشى بعد وفاتها) تضمن الحظ
السعيد ، وتماثم وتعاويزتقى من التجاعيد ومن العنة ومن شر الحاسد ومن
الطاعون . ويمكن أن تبرىء لمسة من الملك المصاب بسل الغدد للمغاوية في
العنق . وللأرقام والمعادن والنباتات والحيوانات خصائص وقوى سحرية .

(*) يمكن الرجوع إلى الفصل السابع (الجزء ٢٨) الذي يعالج الخرافة والعلم والفلسفة
في إنجلترا في تلك الحقبة .

وكل حادث علامة على رضا الله أو غضبه ، أو من عمل الشيطان . ويمكن التنبؤ بالأحداث من شكل الرأس أو خطوط الكف . وتختلف الصحة والقوة والقدرة الجنسية باختلاف منازل القمر ، أهو بدر أم في المحاق . وقد يسبب ضوء القمر الجنون أو يشفي الثؤلول . وتندر المذنبات بالكوارث . إن العالم (في الكثير الغالب) يسير إلى نهايته ^(١) .

وكان التنجيم لا يزال سائدا . على الرغم من تزايد استنكاره ونبذه لدى من يعرفون القراءة والكتابة . وفي ١٥٧٢ انقطع تدريسه في جامعة بولونا . وفي ١٥٨٢ استنكرته وشجبتة محاكم التفتيش الأسبانية . وفي ١٥٨٦ حذر البابا مكيستس الخامس الكاثوليك منه . ولكنه ظل بين الأبقاء والإلغاء في جامعة سالامانكا حتى ١٧٧٠ . وكانت الغالبية العظمى من الناس ، وكثير من أفراد الطبقات العليا ، يستنبئون البروج عن المستقيل من مواقع النجوم ، وكانوا يكشفون عن « طالع » أى ظهل مهما كان شأنه بمجرد ولادته ، وقد اختبأ أحد المنجمين بالقرب من مخدع آن الفسوية عند ولادة لويس الرابع عشر ^(٢) . وعند ما ولد جوساف أدرف طلب أبوه شارل التاسع إلى تيكوبراهي أن يكشف عن طالعه ، فتنبأ المنجم في حرص وحذر بأنه سوف يصبح ملكا . وكان كبار ينظر إلى التنجيم بعين الريبة والشك ، ولكنه كان يداهن فيقول : « كما أن الطبيعة هيأت لكل حيوان من الوسائل ما يحصل به على العيش ، فقد هيأت التنجيم للمنجم لتمكينه من العيش » . وفي ١٦٠٩ أجزل فالنشتين العطاء لمن أنه بطالع سعيد ، وكان دائما يصطحب معه في رحلاته وجولانه منجما ^(٣) ، وربما قصد بذلك تشجيع قواه . وكمن مرة استشارت كاترين دي مديشي وحاشيتها المنجمين ^(٤) . وحظي جون دي بشمرة فائقة في التنجيم ، حتى اكتشف أن النجوم تأمره أن يتبادل الزوجات مع أحد تلاميذه ^(٥) .

وكان التصديق بأفانين السحر آخذا في التقلص ، باستثناء واحد نحن حقير

ذلك أن تلك الفترة كانت ذروة التخلص من السحرة بالقتل المشروع بحكم القضاء . إن الممذبين ومن ينزلون بهم العذاب ، على حد سواء ، صدقوا بإمكان الحصول على معونة القوى الخارقة للطبيعة بالرقى والتعاويد أو بوسائل مشابهة ، وإذا كان من المستطاع الحصول على شفاعاة قديس بالصلوات ، فلم لا نلتمس معونة الشيطان بملاطفته والتودد إليه . وثمة كتاب صدر في هيدلبرج ١٥٨٥ تحت عنوان : بعض الأفكار المسيحية حول السحر ، ، جاء فيه كحقيقة ثابتة مقررة : د أن كل مكان في العالم بأسره ، في الداخل والخارج ، في البر والبحر ، يعج بالعفاريت والأرواح الشريرة غير المرئية^(٧) ، وساد الاعتقاد بأن كل الكائنات البشرية يمكن أن د تلبسها ، الشياطين وتحل فيها . وفي ١٥٩٣ د ساد الذعر الرهيب فريدبرج المدينة الصغيرة حيث قيل أن الشيطان قد حل بأجسام أكثر من ميتين شخصا ، وعذبهم عذابا ألما . . . بل أن القسيس نفسه استحوذ عليه الشيطان وهو يلقى عذته^(٨) . . وتصور قصة : قطيع الخنازير (انجيل متى ٨ : ٢٧ - ٣٤) ، كيف أن المسيح أخرج الشياطين من أجسام الذين حلوا بهم ، ألم يمنح أتباعه القدرة على أخراجهم بأسمه (انجيل مرقس ١٦ : ١٧) . وكان الناس يلجأون إلى القساوسة لعمل تعاويد مختلفة - لإزالة النباتات والحشرات الضارة من حقولهم ، أو لتهديئة الأعاصير في البحر ، أو تطهير المباني من الأرواح الشريرة ، أو تطهير كنيسة أصابها بعض الدنس وفي ١٦٠٤ أصدر البابا بول الخامس منشورا بمثل هذه الخدمات الكهنوتية . واستنكر الكتاب البروتستانت مثل هذه الرقى والتعاويد المقدسة على أنها ضروب من السحر . ولكن كنيسة إنجلترا اعترفت بقيمة التعاويد على أنها طقوس شافية معافية^(٩) . وهنا ، كما هو الحال في كثير من الطقوس ، كان الأثر النفسى عليها طيبا .

وكما أخذ الناس بزمام المبادرة في طلب التعاويد ، فإنهم كانوا كذلك أول من طالب بمحاكمة السحرة ، فقد ساد الذعر من قوتهم ومقدرتهم . وجاء في

أحدى النشرات ١٥٦٣ د أن الدخول في علاقات مع الشيطان ، فيسكون في متناول يدك في الخواتم أو البللورات ، فتستحضره أو تحالفه ، وتقوم معه بمئات من أفانين السحر ، أكثر الآن شيوعا عن ذي قبل ، بين الطبقات العليا والدنيا . وبين المتعلمين وغير المتعلمين . وانتشرت د كتب الشياطين ، التي توضح كيفية الاتصال بالنافع منهم ومن معرضين اثنين في ١٥٦٨ اشترى أحد الأفراد ١٢٢٠ كتابا من هذه الكتب^(١٠) . وفي بعض الحالات نصح ضباط محاكم التفتيش قساوسة الأبرشيات د أن يظهروا الناس على أضاليل السحرة وخرافاتهم ، وأشاروا بعدم التصديق د بسبب السحرة ، وأوصوا بعزل قسيس كان يصغى في سذاجة إلى اتهامات السحرة^(١١) . وطالب البابا جريجورى الخامس عشر في ١٦٢٣ بعقوبة الإعدام لنفر من الناس تسببت شعورهم في الموت ، ولكن البابا أريان الثامن في ١٦٣٧ أدان المحققين الكاثوليك د لأنهم حاكموا المشعوذين محاكمة ظالمة تعسفية ... وانتعوا من المتهمين لإعترافات لا قيمة لها ... وعاقبهم دون بيئة كافية^(١٢) د وأصدر الإمبراطور مكسيمليان الثانى (١٥٦٨) قرارا بإختبار صحة اعترافاتهم بتجديدهم بأن يأتوا بأعمالهم السحرية علنا ، وأن يكون النفى أقصى عقوبة يحكم بها عليهم بعد إدانتهم ثلاث مرات . ولكن الأهالى المذهورين طالبوا بالصرامة في الإختبارات وبالتعجيل بتنفيذ الأحكام .

أن السلطات المدنية والدينية التي كانت تشارك الناس خوفهم من السحر ، أو ترغب في التخفيف من حدته ، عمدت إلى أقسى الإجراءات في محاكمة المتهمين وعذبهم بتنزع منهم الإعتراقات . وكان لمجلس مدينة نوردينجن مجموعة خاصة من آلات التعذيب ، كان يعيرها للبلاد المجاورة مع التوكيد بأنه د بفضل هذه الآلات ، وبوجه أخص آلة الضغط على الإبهام ، يمن علينا الله بكرمه بإظهار الحق ، أن لم يكن لأول وهلة ، ففى آخر الأمر على أية حال^(١٣) أما التعذيب بإبقاء المتهم يقظا لا يذوق طعم النوم ، فكان وسيلة معتدلة

خفيفة . وكان التعذيب عادة هو طريق الوصول إلى الإقرار المرغوب فيه . وكانت الاعتزافات غسيرة الموثوقة التي لا يعتد بها . هي التي تحير القضاة أحيانا .

وكان الإضطهاد في أسبانيا أقل قساوة . ففي مقاطعة لجرونو وجهت محكمة التفتيش الاتهام إلى ٥٣ شخصا من المشتغلين بالسحر ، وأُعدمت منهم ١١ شخصا (١٦١٠) ورفضت الاتهامات الأخرى عادة لأنها وهمية أو انتقامية . وكان الحكم بإعدام السحرة نادرا . وفي ١٦١٤ أصدرت رئاسة محكمة التفتيش إلى ضباطها تعليمات بأن ينظروا إلى إعترافات السحرة على أنها تضليلات جنونية أو عصبية ، وأن يستعملوا الرأفة في العقوبة (١٤) .

واجتاحت جنوب شرقى فرنسا في ١٦٠٩ موجة عاتية من الذعر من السحرة ، وأعتقد مئات من الناس أن الشياطين حلت فيهم . وظن بعضهم أنهم تحولوا إلى كلاب وأخذوا في النباح وعينت لجنة من برلمان بوردو لمحاكمة المشتبه فيهم وأبدعت طريقة لإكتشاف المواضع التي دخل منها الشياطين إلى جسم المتهم ، ذلك بعصب عينيهِ وغرز الأبر في لحمه ، وأى مكان لا يحس فيه بوخز الأبر ، كان هو المسكن الذي دخل منه الشيطان . وطامعا في العفو عنهم اتهم المشتبه فيهم بعضهم بعضا . فحكم منهم ثمانية وهرب خمسة ، وأُحرق ثلاثة . وأقسم جمهور النظارة فيما بعد أنهم شاهدوا العقارب تتسلق على هيئة ضفادع تخرج من رؤوس الضحايا (١٥) . وفي اللورين أُحرق ٨٠٠ شخص بتهمة السحر على مدى ١٦ عاما . وأُحرق في سترامبورج ١٣٤ شخصا في أربعة أيام (أكتوبر ١٥٨٢) (١٦) . وفي لوسرن الكاثوليكية ، أُعدم ٦٢ شخصا فيما بين ١٥٦٢ — ١٥٧٢ . وفي برن البروتستانتية أُعدم ٣٠٠ في السنوات العشر الأخيرة من القرن السادس عشر ، و ٢٤٠ في العقد الأول من القرن السابع عشر (١٧) .

وفي ألمانيا تسابق الكاثوليك والبروتستانت في إعدام السحرة حرقاً . وثمة رواية يمكن الاعتماد عليها ، ولو أنها لا تكاد تصدق ، بأن رئيس أساقفة تريير أمر بإحراق ١٢٠ شخصاً في فالزفي ١٥٩٦ بتهمة أنهم أطالوا فترة الجوع البارد أكثر من المألوف بطريقة شيطانية^(١٨) . ونسب طاعون الماشية في إقليم سكونو في ١٥٩٨ إلى السحرة . وحث مجلس بافاريا المخصوص في ميونيخ المحققين « على إظهار مزيد من الجدية والصرامة في الإجراءات » ، فسكانت النتيجة إحراق ٦٣ ساحراً ، كما طلب من أقارب الضحايا دفع نفقات المحاكمة^(١٩) . وفي هاينبرج بالنمسا أعدم ثمانون بتهمة الشعوذة في عامي ١٧ - ١٦١٨ وقيل أنه في ١٦٢٧ - ١٦٢٩ أعدم أسقف وورنبرج ٩٠٠ من السحرة^(٢٠) . وفي ١٥٨٢ أصدر الثناشرون البروتستانت من جديد ، وبموافقة منهم « مطرقة السحرة » التي كان المحقق الذي يمكن جاكوب سبرنجر قد نشرها في ١٤٨٧ ، وهي عبارة عن توجيهات وإرشادات تفيد في الكشف عن السحرة وفي محاكمتهم . وأصدر أوغسطس ناخب ساكسونيا في ١٥٧٢ قراراً بإحراق السحرة حتى الموت حتى ولو لم يؤذوا أحداً . وفي اللنجن أحرق ١٥٠٠ من السحرة في ١٥٩٠ ، وفي اللوانجن ١٦٧ في ١٦١٢ ، وفي وستمرستين ٣٠٠ في عامين^(٢١) . وكادت ثمة موجات مماثلة في أوسنابروك ١٥٨٨ ، ونوردلنجن ١٥٩٠ ، وفي ورتمبرج ١٦١٦ . على أن هذه الإحصاءات الأخيرة مأخوذة عن نشرات صحفية معاصرة معروفة بعدم الدقة . ويقدر الباحثين الألمان جملة من أعدموا بتهمة السحر بمائة ألف في ألمانيا في القرن السابع عشر^(٢٢) .

وأرفعت أصوات قليلة تدعو الناس إلى العقل . وقد رأينا في مكان آخر احتجاجات يوهان ويروريمتاله سكوت ، كما رأينا كيف تحول مونيتيني مرجه المتشكك إلى هذه الحمى (حمى قتل السحرة) في مقاله « الأعرج أو السكسبيج » : « كم هو طبعي ومقبول أن أجد رجلين يسكنان ، أكثر من أن رجلاً يمكن في اثنتي عشرة ساعة أن تحمله الريح من الشرق إلى الغرب ٠٠٠ أو أن يحمل

أحدنا على مكنسة خلال مدخنة (٢٣) « أن من يؤمنون بهذا أحوج ما يكونون إلى الدواء والعلاج ، لا الموت ، « حتى إذا ما انتهى كل شيء ، فما هي إلا مغالاة في قدرة المرء على الحكم عن طريق الحدس والتخمين مما يؤدي إلى أحراق المرء حيا ، (٢٤) . وهاجم كورنيليوس لوس ، الأستاذ الكاثوليكي في ماينز ، مطاردة السحرة في كتابه « بين السحر الحقيقي والزائف » (١٥٩٢) ، ولكنه قبل أن يتمكن من نشره ، أودع السجن واضطر أن يعترف علنا بأخطائه (٢٥) . وثمة جزويتى آخر ، هو الشاعر الورع فردريك فون سي ، فإنه بعد أن عمل كاهن اعترف لماتتى شخص متهمين بالسحر . استنكر الاضطهاد في كتاب جرىء « Cantio Criminalis » . (١٦٣١) ، سلم فيه بوجود السحرة ، ولكنه رثى للقبض عليهم لمجرد شبهات لا أساس لها ، ولبعد المحاكمات عن سرعة الانصاف ، وللتعذيب الغاشم الذى كان يمكن أن يحجر ، حتى فقهاء السكندرية وأساقفتها على الاعتراف بأى شيء (٢٦) .

ولكل خصم من هذا القبيل أثني عشر محاميا ينبرون للدفاع عن الظلم ، فإن رجال اللاهوت البروتستانت مثل توماس أراستوس في ١٥٧٢ ، ورجال اللاهوت الكاثوليك مثل الأسقف بنزفد (١٥٨٩) انفقوا على أن السحر حقيقى وأن السحرة يجب أحراقهم . وأقر الأسقف التعذيب ، واسكنه أوصى بشنق السحرة التائبين قبل أحراقهم (٢٧) . وأيد المحامى والفيلسوف الكاثوليكي جين بودين الاضطهاد والتعذيب في كتابه « حى العفاريات » ، ١٥٨٠ ، وبعد عام واحد ترجم الشاعر البروتستانتى يوهان فسكارت هذا الكتاب ووسع فيه مع تقدير بالغ له ، وانضم إلى بودين في الحث على أخذ السحرة بشدة لا ترحم ولا تلين (٢٨) .

ومهما يكن من أمر فإن هذه الحمى خفت حدتها ، فعندما أصبحت حرب الثلاثين حربا سياسية بشكل صريح سافر ، لم يعد الدين يحتل مكانا هاما في كراهيات الناس وحزاناتهم . وانتشرت الطباعة وكثرت الكتب ، ونهضت

المدارس ، وفتحت الجامعات ، وأسهم المسكاحون الصابرون سنة بعد أخرى ، بوضع لبنة في البناء الناشئ ، ببناء العلم والمعرفة . وفي مائة من المدن حكف المحبون للاطلاع على اختبار الفروض بالتجارب . وتقلص نطاق ماهو خارق للطبيعة ببطء ، ونما نطاق ماهو طبيعي وديوى . أنه تاريخ موضوعى مجرد قائم ، مؤلف من شظايا ، وهو أعظم مسرحية في الأزمنة الحديثة .

٢ - انتقال المعرفة

إن الأبطال الأولين هنا هم الطابعون الناشرون الذين غدوا بحرى المداد الذى تدفقت منه المعرفة من عقل إلى عقل ، ومن جيل إلى جيل . واستأنفت داراستين الكبيرة للنشر ، نشاطها في جنيف على يد هنرى استين الثانى ، وفي باريس بفضل روبرت استين الثالث . ونشأت أسرة مثل هذه (نحو ١٥٨٠) في ليدن كان على رأسها لويس الزفير ، ونمض أبنائوه الخمسة وحفداؤه وابن لأحد حفدته ، بالعمل ، وحملت اسمهم طريقة معينة للطباعة . وفي زيوريخ اكتسب كريستوفر فروشير شهرة في تاريخ الطباعة والثقافة بطبعاته الدقيقة للكتاب المقدس .

وهيات دور الكتب مأوى جديدا للذخائر القديمة . ولقد عرفنا مكتبة بودليان في أكسفورد ومكتبة الاسكوريال ، ومكتبة امبروزيانا في ميلان (١٦٠٦) . وضمت كاترين دى مديتشى كثيرا من المجلدات والمخطوطات إلى ما يعرف الآن بالمكتبة الوطنية . وبدا لافلين أن مكتبة الفاتيكان الجديدة التى أسسها البابا سكستس الخامس (١٥٨٨) « هى أنعم وأجل وأحسن مكتبة أُنشأت في العالم » (٢٦) .

وبدأ ظهور الصحف : ففي ١٥٠٥ كانت صحيفة « الأخبار » تطبع في ألمانيا ، في ورقة واحدة ، بشكل متقطع . وما جاء عام ١٥٩٩ حتى كانت

هناك ٨٧٧ نشرة من هذا النوع ، وكلها غير منتظمة . وأقدم صحيفة منتظمة معروفة في التاريخ هي صحيفة Avis Relation oder Zeitung الأسبوعية التي أسست في أوجزبرج ١٦٠٩ ، وكانت تصم تقارير لوكلاء منتشرين في مختلف أنحاء أوروبا ، ينقلها التجار والصيارفة ، واستمرت في الظهور حتى ١٨٦٦ ، صحيفة « بريد فرانكفورت » التي أسست في ١٦١٦ . وبدأت صحف أسبوعية مماثلة في الظهور في فيينا ١٦١٠ ، وفي بازل ١٦١١ . وسرعان ما بدأ فيشارت يسخر من الجمهور « الذي يصدق الصحف » ومن تلفه الساذج على الأخبار . أن النقل المفروض غير الملائم للأنباء فوت على الجمهور أى أسهام رشيد مخطط في السياسة ، ومن ثم جعل الديمقراطية أمرا بعيد المنال .

وكانت الرقابة على المطبوعات عامة شاملة بطريقة عملية ، في العالم المسيحي بأسره : الكاثوليك والبروتستانت ، ورجال الدين والعلمانيون على حد سواء وفي ١٥٧١ شكلت الكنيسة « لجنة من السكر ادلة لتحديد الكتب المحظورة » ، لحماية المؤمنين من الكتب التي تعتبر مسيئة للكنيسة . ولم تكن الرقابة البروتستانتية بمثل قوة الرقابة الكاثوليكية وصرامتها ، ولكنها جادة مثابة مثلها . وقد نشطت في إنجلترا واسكتلندا واسكندنافيا وهولندا وألمانيا وسويسرا (٢٠) . وهيا تبين التعاليم في مختلف الدول للهرطقة أن يتغلبوا ، بشكل أو بآخر ، على الرقابة بنشر كتبهم في الخارج ، وإدخال بعض النسخ منها سرا . والأدب الحديث مدين للرقابة ببعض ما يتسم به من سخرية وظرف وبراعة .

وفي مختلف الترجمات ، ظل الكتاب المقدس يفسر بأنه « كلمة الله » ، وواصل رسالته بوصفه أعظم الكتب شعبية وانتشارا ، وأعظمها أثرا في العقيدة واللغة ، بلى حتى في السلوك ، فإن أسوأ الأعمال الوحشية - الحروب والاضطهادات - عمدت إلى اقتباس النصوص المقدسة لتبرير ارتكابها . ومن انحسرت الروح الإنسانية التي تميز بها عصر النهضة ، قبل قيام الإصلاح

الديني ، فإن التعبد بالكتاب المقدس حل محل الإهجاب الأعمى بالأدب الوثنية القديمة . وثارت فتنة واضطراب حين اكتشف العلماء أن الإنجيل (العهد الجديد) لا يكتب باللغة اليونانية الكلاسيكية بل بلغة الناس ، ولكن علماء اللاهوت أوضحوا أن « الروح القدس » استخدم الأسلوب العام المشترك حتى يتيسر للناس فهمه وأصاب الناس غم جديد عندما خلص لويس كابل - الأستاذ البروتستانتي للعبرية واللاهوت في « سومور » ، إلى أن الحروف اللينة وعلامات النطق في النص العبري الذي اعتمدته الكنيسة للعهد القديم (التوراه) ، إن هي إلا إضافات أضافها إلى النصوص الأقدم عهدا ، يهود طبرية المازوريون في القرن الخامس ق . م . أو بعده . وأن الحروف المربعة في النص المعتمد كانت آرامية بديلة عن الحروف العبرية . وتوسل يوهانس بوكستورف الأكبر ، أعظم علماء عصره . إلى كابل أن يطوى هذه الآراء عن الجمهور ويحفظ بها لنفسه ، حتى لا تسيء إلى إيمان الناس بالإيمان اللفظي للكتاب المقدس . ومع ذلك نشر كابل آراءه في ١٦٢٤ ، وحاول يوهانس بوكستورف الأصغر أن يدحضها ويفندها ، محتجا بأن النقط وعلامات النطق موحى بها من عند الله كذلك . واستمر الخلاف طوال القرن وتخلت الأرثوذكسية آخر الأمر عن النقط ، ومن ثم اتخذت خطوة متواضعة نحو اعتبار الكتاب المقدس أعظم أسلوب أو تعبير مهابة وجلال لدى الشعب .

ويذكر إلى هذه الحقبة نفر من أشهر العلماء أو الباحثين في التاريخ . منهم جوستوس ليسيوس ، الذي تردد على جامعتي لوفان ولبدن ، وتأرجح بين الكاثوليكية والبروتستانتية وذاع صيته في أوروبا بفضل طبعاته المصوبة لكتب تاسيتس وبلوتس وسنكا ، وتفوق على كل الأجروميات السابقة في كتاب « فن الأجرومية » (١٦٣٥) . ورثي إلغاء المدنية الأوربية الوشيك ، ولكنه هدا من روعه واستبشر خيرا « بسطوع شمس امبراطورية جديدة في الغرب » - يعني « الأمريكتين » (٣١) .

وورث جوزيف جوستوس سكاليجر « وربما كان أعظم أستاذ فذ في

سعة المعرفة والاطلاع ظهر في العالم (٣٢) ، نقول ورث عن أبيه الشهير يوليوس قيصر سكاليجر ، عرش البحث العلمي في أوربا . ففي آجن في جنوب غربى فرنسا ، اشتغل بكتابة ما يمليه عليه هذا الوالد . ونهل العلم والمعرفة طوال حياته . فقرأ هو ميروس في ثلاثة أسابيع ، ووفق في قراءة كبار الشعراء والمؤرخين والخطباء الإغريق . وتعلم العبرية وثمان لغات أخرى . وتجراً على دراسة الرياضيات والفلك و « الفلسفة » (التى كانت آنذاك تشمل الفيزياء والكيمياء والجيولوجيا والبيولوجيا) ودرس القانون لمدة ثلاثة أعوام . وربما ساعدت دراسته للقانون على شحذ ملكة النقد عنده ، لأنه في الطبقات التى أصدرها للمؤلفين القدامى مثل كاتوللوس وتيبوللوس وبروبرتيوس وغيرهم أثار نقداً متعلقاً بالنصوص لأحداس عشوائية لقوانين الإجراءات والتأويل أو التفسير . وكان ينظر بعين الاحترام الرشيد للتاريخ أو تحديد الأزمنة في دراسة التاريخ . وفي أعظم مؤلفاته « في تصحيح التواريخ » (١٥٨٣) ، وازن لأول مرة بين التواريخ التى أوردها المؤرخون اليونان واللاتين ، وتلك التى وردت أو حددت في التاريخ أو التقاويم أو الأدب في مصر وبابل وفلسطين وفارس والمكسيك . وجمع ورتب في كتابه « تسلسل التواريخ » . (١٦٠٦) كل مادة تاريخية في الأدب القديم ، وعلى هذا الأساس ألف أول تسلسل زمنى على أساس علمى للتاريخ القديم . وهو الذى قال بأن السيد المسيح ولد في العام الرابع ق . م . وعندما ترك جوستوس لبيسوس ليدن في ١٥٩٠ عرضت الجامعة على سكاليجر كرسي « الأبحاث القديمة » فقبله بعد أن ظل ثلاث سنوات متردداً في قبوله . ومنذ تلك اللحظة حتى وفاته ١٦٠٩ ، كانت ليدن مقر العلماء .

وكان سكاليجر ، مثل أبيه مزهواً بما يزعم من تحدر أسرته من أمراء دالاسكالافى فيرونا . وكان ناقداً لادعاء زملائه العلماء والباحثين ، ولكن في ساعة تغاض وصفح قال إن إيزاك كازوبون وأعظم الأحياء علماء (٣٣) . وإن حياة كازوبون لتكشف عن مزايا المحن . لقد رأى النور في جنيف لأن أبويه

كانا من الهيجونوت الذين هربوا من فرنسا ، وعادا إليها وهو في سن الثالثة وعاش لمدة ستة عشر عاما في ظل المخاطر والإرهاب أيام الاضطهادات . وكان أبوه يتغيب لفترات طويلة للخدمة في جيوش الهيجونوت . وغالبا ما اختفت أسرته في الجبال لتسكون بمنأى عن بطش الكاثوليك المسلحين . وتلقى إيزاك أول دروس في اليونانية في أحد الكهوف في جبال دوفيني وفي سن التاسعة عشرة التحق بأكاديمية جنيف . وفي سن الثانية والعشرين صار أستاذا في اليونانية ، وتولى هذا المنصب لمدة خمسة عشر عاما وسط العوز والفقر والحصار . وعاش بشق النفس على راتبه . ولكنه كان يقتري طعامه ليشتري الكتب . وكان يخفف من وحشية العزلة والكهوف هلى العلم ، بما يتلقى من رسائل سكاليجرا العظيم . ونشر طبعاات لمؤلفات أرسطو وبلايني الأصغر ، وتيوفراستوس ، سحرت الألباب في دنيا العلم والمعرفة ، لا بمجرد تصويب النصوص ، بل كذلك بالتعقيبات البارة على الأفكار والطرق القديمة . وفي ١٥٩٦ عندما أحمد هنرى الرابع الصراع الدينى ، عين كازوبون أستاذا في مونبلييه . ودعى بعد ذلك بثلاثة أعوام إلى باريس . ولكن الجامعة أوصدت أبوابها في وجوه غير الكاثوليك ، فأحاطه هنرى برعايته ، كأمين للمكتبة الوطنية ، براتب محترم قدره ١٢٠٠ جنيه في العام . وقال رجل الاقتصاد صلى للعالم كازوبون إنك تسكف الملك كثيرا ياسيدى . إن راتبك يفوق راتب قائدين ، ولا تفزع يرجى منك لبلدك^(٣١) . فلما مات هنرى العظيم ، رأى كازوبون أنه قد حان الوقت لقبول دعوة من إنجلترا . ورحب به جيمس الأول بوصفه رفيق علم وبحث ٠٠٠ ومنحه راتبا سنويا قدره ٣٠٠ جنيه إنجليزى . ولكن الملكة الفرنسية الوصية على العرش رفضت أن تذهب مؤلفاته في أثره وأزعجه الملك بالآبحاث ، ولم يغفر له المفكرون الإنجليز في لندن عدم تحذئه بالإنجليزية وبعد أربعة أعوام قضاها هناك ترك المعترك (١٦١٤) في سن الخامسة والخمسين . ودفن في وستمنستر .

وكان لقب د العالم ، في ذلك الزمان أكثر احتراما وتشريفا من الشاعر

أو المؤرخ . فإن العالم كان ينظر إليه بعين الإجلال والإكبار لأن دراسته الدؤوبة حافظت على مواطن الحكمة والجمال الكامنة في الآداب والفلسفة القديمة وعملت على تنقيتها وتوضيحها . ودخل سكاليجر جامعة ليدن دخول الأمير الفاتح ، ولقى هناك ترحيبا كبيرا . وكانت ثمة أمم كثيرة ترغب في أن تحوز كلود دى سوميرز الذى عرفته الدنيا د عالما ، من أمثال سالامبوس وبعد موت كازوبون أجمع العالم بأسره على أنه د أعلم الأحياء في ذلك الزمان ، وأنه بصفة عامة معجزة الدنيا (٣٥) . فماذا فعل هذا العالم ؟ إنه ولد في برجندي ، وتلقى تعليمه - وتحول إلى الكلفنية - في هيدلبرج . وفي سن العشرين تألق نجمه في نشر طبعة دقيقة محققة لمؤلفات اثنين من كتاب القرن الرابع عشر عن سلطة البابوات العليا المتنازع عليها ، وبعد ذلك بعام واحد ، نشر د خلاصة عن النبات ، . وتوالت الكتب بعد ذلك ، حتى بلغت في جملتها ثلاثين كتابا تميزت كلها بسعة الاطلاع وتناول كل ألوان المعرفة . وبلغ الذروة في كتاب ضخيم مكون من ٩٠٠ صفحة على نهريين بعنوان د أمثلة في تعدد جوانب الثقافة والمعرفة ، (١٦٢٩) . وكان سولينيوس ، وهو أحد النحاة في القرن الثالث - قد جمع في موسوعة تاريخ البلاد الأوروبية الكبرى جغرافيتها وأعرافها البشرية واقتصادها ونباتها وحيوانها ، وجاء بعد ذلك ناشر متأخر فأطلق عليه د ثقافة متعددة الجوانب ، ثم جاء سالامبوس فدون على هذا النص تعليقات واسعة تشمل كل رومه الإمبراطورية . وكان امامه أن يختار بين اثنتى عشرة دعوة وجهت إليه ، فاختار الأستاذية في ليدن ، ثم عين في الحال رئيسا لأكاديمية وسارت الأمور سيرا حسنا ، حتى كلفه شارل الثاني ملك انجلترا الذى كان متغيبا آنذاك في هولنده ، بأن يكتب عن إدانة كرومويل بقتل شارل الأول وظهر الدفاع عن الملك شارل الأول في نوفمبر ١٦٤٩ بعد إعدام الملك بنحو عشرة أشهر . ولم يرق الكتاب في عيني كرومويل ، واستأجر أعظم شعراء انجلترا للرد عليه . وسنعود للكلام عليه مرة أخرى . وكتب سالامبوس ردا على ملتون ، واسكنه مات (١٦٥٣) قبل أن يتمه . ونسب إلى ملتون نال القضاء عليه .

وحظيت قلة ضئيلة بمثل هذا القدر الكبير من العلم والمعرفة ، بينما ظل ٨٠٪ من سكان أوروبا الغربية أميين . وقضى جون كومنيوس أربعين عاما يكافح في سبيل النهوض بخطط التعليم في أوروبا . ولد كومنيوس في مورافيا (١٥٩٢) وارتقى إلى مرتبة أسقف الأخوة المورافيين ولم يتزعزع قط إيمانه بأن الدين هو أساس التعليم وغايته ، فإن رأس الحكمة مخافة الله . وعلى الرغم من أن الأحقاد الدينية في زمانه جعلت من حياته سلسلة متصلة من المحن والبلايا ، فإنه بقي على إخلاصه لفلسفة التسامح في الوحدة الأخوية .

نحن أبناء عالم واحد ، يجرى في عروقنا دم واحد . وأنه لمن أشد الحماقة أن نضمر البغض والكراهية لإنسان لأنه ولد في قطر آخر ، أو لأنه يتحدث بلغة مختلفة عن لغتنا . أو لأن له رأيا مخالفا لنا في هذا الموضوع أو ذاك . إنى لا توسل إليكم أن تكفوا عن هذا ، فإننا بشر متساوون في الإنسانية فليكن لنا جميعا هدف واحد وغاية واحدة ، هي خير الإنسانية جمعاء ، ولنطرح جانبا كل الانانيات والآثرة القائمة على أسس من اللغة أو القومية أو الدين (٣٦) .

وبعد تدوين كثير من النصوص التربوية ؛ لخص كومنيوس مبادئه في التربية المثلى (١٦٣٢) وهو من أهم الكتب في تاريخ التربية . أولا : يجب أن يكون التعليم عاما ، بصرف النظر عن الجنس أو مستوى المعيشة . فيجب أن يكون في كل قرية مدرسة ، وفي كل مدينة كلية ، وفي كل مقاطعة جامعة ، ويجدر أن يكون التعليم العالي متاحا لكل من يثبت القدرة على متابعتها ، وينبغي أن تتولى الدولة الإنفاق على الكشف عن مواهب وقدرات المواطنين فيها ، وتدريبها والإفادة منها . ثانيا : يجب أن يكون التعليم واقعيا ، بحيث تربط الأفسار في كل خطوة بالأشياء الملموسة ، كما يجب تعليم الألفاظ باللغة الوطنية أو بأية لغة أجنبية ، عن طريق مشاهدة الأشياء التي تمثلها أو لمسها أو استخدامها

ويجب أن يتأخر تعليم النحو (الأجرومية) . ثالثا : يجب أن تكون التربية بدنية وعقلية وأخلاقية . وأن يتلقى التلاميذ تدريبات على الصحة والقوة والنشاط عن طريق ممارسة الحياة والألعاب في الهواء الطلق . ورابعا : ينبغي أن يكون التعليم عمليا ، وألا يكون حبيسا في سجن التفسير النظري ، بل مقرونا بالعمل والممارسة ، وأن يمهّد ويعد للنهوض بمهمة الحياة . خامسا : يجب تدريس العلوم تدريجيا ، بتقديم الطالب في العمر ، ويجب افتتاح مدارس البحث العلمي في كل مدينة أو مقاطعة . سادسا : ينبغي توجيه كل التربية وكل المعرفة إلى تحسين الخلق وحث التقوى في الفرد ، وإلى إشاعة النظام والسعادة في الدولة .

وكان ثمة شيء من التقدم . فإن الأمراء الألمان جدوا في تأسيس مدرسة ابتدائية في كل قرية . ونادى دوق ساكس — ويمار في ١٦١٩ بمبدأ التعليم العام الإلزامي لكل البنين والبنات من سن السادسة إلى الثانية عشرة (٣٧) ، مع عطلة مدتها شهر في موسم الحصاد . وما وافى عام ١٧١٩ حتى عم هذا النظام ألمانيا بأسرها . وكانت المدارس الثانوية لا تزال موصدة أمام الإناث ، ولكنها تضاعفت وحسن مستواها . وفتحت في هذا العصر اثنتان وعشرون جامعة جديدة * . وكانت جامعة أكسفورد سائرة على طريقة التقدم والنجاح كما وصفها كازوبون في ١٦١٣ ، وقد تأثر بما رآه من رواتب الأساتذة ومكانتهم الاجتماعية ، بالمقارنه بنظرائهم في القارة . ففي ١٦٠٠ كانت رواتب الأساتذة في ألمانيا ضئيلة إلى حد أنهم لجأوا إلى بيع الجعة والخبز احتيالا على العيش ، وكان الطلبة في جامعاته يميناً يشربون ويلهون في حانات يديرها الأساتذة (٣٨) . وتدهورت الجامعات الألمانية بعد فيليب الثاني ، وساءت

(*) في لينّا ١٥٥٨ ، جنيف ١٥٥٩ ، ليل ١٥٦٢ . ستراسبورج ١٥٦٧ ، ليدن ١٥٧٥ هلمستد ١٥٧٥ ، ولنو ١٥٧٨ ورزبرج ١٥٨٢ أدنبره ١٥٨٣ فرانكر ١٥٨٥ جراز ١٥٨٦ ، دبلن ١٥٩٦ ، لوبيين ١٥٩٦ ، هردريك ١٦٠٠ ، جيبسن ١٦٠٧ ، جروننجن ١٦١٤ ، أمستردام ١٦٣٢ . دوريات ١٦٣٢ ، بودابست ١٦٣٥ أوترخت ١٦٣٦ تووكو ١٦٤٠ بمبرج ١٦٤٨ .

أحوالها تحت وطأة محاكم التفتيش ، في الوقت الذي أسست فيه عدة جامعات أسبانية في مستعمرات أسبانيا في أمريكا - في ١٥٥١ ، في مدينة المكسيك ١٥٥٣ ، أي قبل افتتاح كلية هارفارد (١٦٣٦) بزمان طويل . وافتتح الهولنديون الموسرون ست جامعات في تلك الحقبة . وعندما نجحت ليدن في مقاومة الحصار الأسباني (١٥٧٤) ، وجهت الجمعية العمومية للمقاطعات المتحدة الدعوة لأهل البلدة ، ليدن ، ليروا رأيهم فيما يمكن أن يكتأفوا به ، فطالبوا بإنشاء جامعة ، وكان لهم ما أرادوا . وكانت السلطات الدينية تسيطر على أمور التعليم في الأقطار الكاثوليكية والكلفنية . وفي إنجلترا والبلاد اللوثرية كان رجال الدين يديرون معظم التعليم تحت إشراف الدولة . وفي كل الجامعات تقريباً ، باستثناء بادوا ، كان مطلوباً من المعلمين والطلبة أن يعتنقوا المذهب الرسمي ، وكانت الدولة والكهنة كملتاها تحدد من الحرية الجامعية بدرجة كبيرة . وقضت الخلافات الدينية على الصبغة العلمية للجامعات ، فانحصر الطلبة الأسبان في أسبانيا ، ولم يعد الطلبة الانجليز يلتحقون بجامعة باريس . وظلت أكسفورد حتى ١٨٧١ تفرض على طالب الدرجة الجامعية ، الموافقة على مواد الكهنة الرسمية التسع والثلاثين . ومال الفكر الأصيل الخلاق إلى الاختفاء من الجامعات ، والنس ملجأ في الأكاديميات الخاصة والدراسات غير النظامية أو غير النمطية .

وهكذا قامت في هذا العصر أكاديميات خاصة ، لأرقب عليها ، للدراسة والبحث ، وخاصة في مجال العلوم . وفي رومه ، في ١٦٠٣ أسس فدريجوسيني ، مركز من قبله د أكاديمية ذوى البصر الحاد ، التي التحق بها جاليليو ١٦١١ ، وحدد دستورها هدفها :

إن جامعة ذوى البصر الحاد تتطلب من أعضائها الفلاسفة أن يكونوا تواقين إلى المعرفة الحقة ، وأن ينصرفوا بكليتهم إلى دراسة الطبيعة ، وبخاصة الرياضيات ، وأن تهمل في الوقت

نفسه أو تزيف مناهجها بالآداب والدراسات اللغوية الجميلة التي يزدان بها ، بوصفها حلياً وجواهر كريمة ، نطاق العلم بأكمله ، وليس في خطة هذه الأكاديمية أن تفسح المجال للخطب والمجادلات ويجدر بها أن تغضى في هدوء وصمت عن كل الخلافات السياسية . وعن أي لون من المهارات الكلامية^(٣٩) .

وحدثت هذه الجامعة ١٦٣٠ ، ولكن في ١٦٥٧ واصلت السير على نهجها أكاديمية دل شيمنتو (التجربة والبرهان) . وسرعان ما تأسست جمعيات مماثلة في إنجلترا وفرنسا وألمانيا . حتى يتسنى للروح العلمية الملهممة في العلوم أن تضع الأسس الفكرية والتكنولوجية للعالم الحديث .

٣ — أدوات العلم ومناهجه

كان لزاماً ، منذ البداية ، أن تكون هناك آلات علمية . فاستطيع العين المجردة أن تبصر بوضوح كاف ، على مسافة بعيدة ، أو بأشياء بالغة الدقة . إلى الحد المطلوب ، وما يستطيع الجسم أن يمس بدقة تامة ضغط الأشياء أو حرارتها أو وزنها . وما يستطيع العقل أن يقيس المسافة والزمن والسكينة والنوعية والكشافة دون أن يخلط بين توازنه الشخصي وبين الحقائق ، ومن ثم كانت الحاجة ماسة إلى المجهر (الميكروسكوب) ، والمقرب (التلسكوب) ، وبميزان الحرارة (الترمومتر) ومقياس الضغط (البارومتر) . ومقياس الثقل النوعي للسوائل (الهيدرومتر) وإلى ساعات أدق وإلى موازين أكثر حساسية .

كتب جامباتستا دللابورتا في « مسحر الطبيعة » (١٥٨٩) بالعدسة المقعرة تبدو الأشياء أصغر ولكن أوضح ، وبالعدسة المحدبة تراها أكبر ولكن أقل وضوحاً في معالمها ، فإذا عرفت على أية حال ، كيف تجمع بين النوعين على نحو سليم ، لأمكنك أن ترى الأشياء على البعد والقرب كبيرة وواضحة معا^(٤٠) .

تلك كانت القاعدة التي بنى عليها المجهر ومنظار الميدان ومنظار الأوبرا ، والمقرب ، أى أنها مجموعة من المخترعات ، وكلها متنوعة الأنسجة . وكان المجهز البسيط . أى العدسة المحدبة الواحدة ، معروفة لأمديتويل . أما الاختراع الذى حول البيولوجيا فهو الميكروسكوب المركب الذى يجمع بين عدة عدسات لامة . ونمت صناعة شحذ العدسات وصقلها بصفة خاصة فى الأراضى الوطيفة وعاش سبينوزا عليها ومات بها . وحوالى ١٥٩٠ جمع صانع النظارات المدعو زخارياس جانس ، فى مدلبرج ، بين عدسة مزدوجة مقعرة وأخرى مزدوجة محدبة ، ليضع أقدم مجهر مركب معروف : وبفضل هذا الاختراع ظهرت البيولوجيا الحديثة والطب الحديث .

وجاء بعد ذلك تطبيق آخر لهذه القواعد حول علم الفلك . ذلك أنه فى ٢ أكتوبر ١٦٠٨ قدم صانع نظارات آخر فى مدلبرج ، هو هانز ليرشى . إلى الجمعية العمومية للمقاطعات المتحدة (التي مازالت فى حرب مغ أسبانيا) وصفا لآلة يمكن بها رؤية الأشياء من مسافة بعيدة . إن ليرشى وضع عدسة مزدوجة محدبة والعدسة الشيئية ، على الطرف البعيد من أنبوبة ، وعدسة مزدوجة مقعرة والعينية ، على الطرف القريب . وأدرك المشرعون القيمة العسكرية لهذا الاختراع فكافأوا ليرشى بتسعمائة فلورين . وفى ١٧ أكتوبر أثبت رجل هولندى آخر — جاكوس متيوس ، أنه كان قد صنع من تلقاء نفسه ومن وحى تفكيره هو ، آلة مماثلة . وما أن سمع جاليليو بهذه التطورات حتى صنع آلة التلسكوب (المقرب) الخاصة فى بادوا (١٦٠٩) ، التي كبرت الأشياء إلى ثلاثة أمثالها ، وتلك هى آلات التي كبر بها العالم . وفى ١٦١١ اقترح كبلر أنه يمكن الحصول على نتائج أفضل ، إذا عكست أوضاع العدسات فى اختراع جاليليو ، باستخدام العدسة المحدبة فى العينية ، والمقعرة فى الشيئية . وفى ١٦١٣ — ١٦١٧ صنع الجزويكى كرسstof شينر ، على هذا الأساس ، مقربا د تلسكوب ، أفضل ، بيد أنه أدخل شيئا من التحسين على ما كان معروفا من قبله^(١) .

وفي الوقت عينه ، وعلى نفس الأسس التي كانت معروفة لدى « هيرو ،
السكندري في القرن الثالث الميلادي أو قبله ، كان جاليليو قد اخترع
(حوالى ١٦٠٣) مقياسا للحرارة (ترمومتر) . بأن وضع الطرف المفتوح
للأنبوبة زجاجية في وعاء من الماء ، وكان طرفها الثانى عبارة عن بصيلة زجاجية
(منتفخ الترمومتر) فارغة ، عمد إلى تسخينها بملامستها ليديه . فلما سحب يده
بردت البصيلة ، وارتفع الماء فى الأنبوبة . وفى ١٦١٣ قسم جيوفانى ساجريدو ،
صديق جاليليو ، الأنبوبة إلى مائة درجة .

وجاء أفانجيلستا تور شلى ، أحد تلاميذ جاليليو ، فأحكم سداد أحد
طرفى أنبوبة طويلة ، وملأها بالزئبق ، وأوقفها بطرفها المفتوح مغمورة في
وعاء به الزئبق ، فلم يفيض زئبق الأنبوبة إلى الوعاء . وأرجع علماء الفيزياء
هذه الظاهرة إلى « اشتئاز الطبيعة من الفراغ » . وأرجعها تور شلى إلى ضغط
الهواء المحيط على الزئبق فى الوعاء . وعلمها بأن الضغط الخارجى لابد أن يرفع
الزئبق فى الوعاء إلى الأنبوبة الحالية المفرغة من الهواء . وأثبتت التجربة صحة
ما ذهب إليه . وأوضح أن التغيرات فى ارتفاع الزئبق فى الأنبوبة يمكن
استخدامها مقياسا للتغيرات فى الضغط الجوى ، ومن ثم صنع فى ١٦٤٣ أول
مقياس للضغط الجوى (البارومتر) الذى لا يزال الآلة الأساسية فى الأرصاد
الجوية .

ومن تزودت العلوم بهذه الأدوات الجديدة ، فإنها اتجهت إلى الرياضيين
تسألهم طرقا أفضل للحساب والقياس والتدوين بالعلامات والرموز واستجاب
نايير وييرجى — كما عرفنا — لهذا النداء باللوغاريتمات ، وأوترد بالمسطرة
الحاسبة ، ولكن كمات ثمة نعمة أكبر باختراع الطريقة العشرية وكانت بعض
آراء أو مقترحات اجتهادية قدمهت الطريق ، كاهى العادة . فإن الكاشى السمرقندى
(المتوفى ١٤٣٦) كان قد أوضح أن النسبة التقريبية بين محيط الدائرة وقطرها
هى : ٣,١٤٩٢٦٥٣٥٨٩٨٧٣٢ ، وهذا كسر عشرى — مستخدما مسافة

بياضا بدلا من النقطة ، أى العلامة العشرية بين الكسر والرقم الصحيح . ثم جاء فرانسيسكو بلوس من مدينة نيس ١٤٩٢ فاستخدم النقطة العشرية وشرح سيمون ستيفينوس الطريقة الجديدة فى رسالة تعتبر فاتحة عصر جديد ، هى « الطريقة العشرية » (١٥٨٥) عرض فيها كيف « تعلم بسهولة لم يسمع بها من قبل أن تؤدى كل المسائل الحسابية بالأعداد الصحيحة دون كسور ، ونفذ « النظام المترى » فى قارة أوروبا أفكاره فى قياس الأطوال والأحجام والعملة . ولكن الدائرة والساعة أقرتا بفضل الرياضيات البالية ، فاحتفظنا بالقسمة الستينية .

وفى ١٦٣٩ نشر جيرارد دسارج رسالة ممتازة عن القطع المخروطى . وأحيا فرانسوا فيير الباريسى دراسة علم الجبر التى كانت قد ضعفت ، باستخدام الحروف للدلالة على مقادير معروفة أو مجهولة على حد سواء واستبق ديكارت فى تطبيق الجبر على الهندسة ، وأنشأ ديكارت الهندسة التحليلية فى ومضة من ومضات الالهام ، حين اقترح التعبير على الأعداد والمعادلات بأشكال هندسية والعكس بالعكس (ومن ثم يمكن إيضاح التناقض المستمر فى قيمة العملة فى فترة معينة فى رسم بياني احصائي) ؛ وأنه من معادلة جبرية تمثل شكلا هندسيا ، يمكن جبريا استخلاص نتائج تثبت صحتها هندسيا ، ولذلك يمكن استخدام الجبر لحل المسائل الهندسية العويصة . وافتتن ديكارت باكتشافاته إلى حد أنه ذهب إلى أن هندسته أسمى من هندسة أسلافه قد رسموا فصاحة شيشرون على حروف الهجاء عند الأطفال (٤٢) . أن هندسته التحليلية ونظرية كافا ليبرى عن « غير القابل للانقسام أو التجزئة » (١٦٢٩) وتربيع لبلر التقريبي للدائرة . وقياس روبرفال للخط المنحنى ، وتورشللى وديكارت ، إن كل أولئك عبدوا الطريق أمام لايبنتز ونيوتن لاكتشاف التفاضل والتكامل .

وباتت الهندسة الآن هدف كل العلوم بقدر ما هي أدواتها . ولحظ كبلران العقل إذا هجر « ملكة الكمية » فإنه يهيم في متاهات الظلام والشك^(٤٣) . وقال جاليليو عن الفلسفة وهو يقصد « الفلسفة الطبيعية » أو العلوم :

ان الفلسفة مدونة في هذا السفر الضخم ، ألا وهو الكون الذي يقف دوما مكشوفاً أمام أعيننا نحملق فيه كيف نشاء . ولكن لن يتسنى لنا فهم هذا الكتاب إلا إذا تعلمنا ، أول الأمر ، كيف نعى اللغة ونقرأ الحروف التي تتألف منها . أن هذا السفر مكتوب بلغة الرياضيات^(٤٤) ،

وتتطلع ديكارت وسبينوزا إلى تحويل المبتدئين بقا (علم ما وراء الطبيعة) نفسها إلى صيغة رياضية .

وبدأ العلم الآن يحرر نفسه من أغلال أمه وهي الفلسفة . لقد هن كتفيه لأرسطو غير مبال به . وأدار ظهره للمبتدئين بقا متجها نحو الطبيعة ، وطور وسائل التمييز لديه ، وسعى لتحسين حياة الانسان على الأرض . أن هذه الحركة تنسب إلى قلب عصر العقل ، ولكنها لم تؤمن كل الايمان ولم تثق كل الثقة « بالعقل الخالص » — أى العقل المستقل عن التجريب والاختبار . ولم من مرة ضل مثل هذا التفكير ، ونسج خيوطا واهية مضللة . أن العقل والتقاليد والسلطة يجب الآن ضبطها وكبح جماحها بدراسة الحقائق المتواضعة وتسجيلها . ومهما قال المنطق ، فيجدن العلم ألا يتقبل الا ما يمكن قياسه كمياً ، والتعبير عنه رياضياً ، وإثباته بالتجربة

٤ — العلم والمادة

اندفعت العلوم خطوات إلى الأمام في تسلسل منطقي ، خلال التاريخ الحديث :

الرياضة والفيزياء في القرن السابع عشر، والكيمياء في الثامن عشر، والبيولوجيا في التاسع عشر، وعلم النفس في القرن العشرين .

والشخصية البارزة في تلك الحقبة هي جاليليو . ولكن تمة أبطال كثيرون أقل شأنا جديرون بالذكر فقد أسهم ستيفينوس في تحديد قوانين البكرة والرافعة ، وأجرى دراسات قيمة في ضغط الماء ، ومركز الجاذبية ، ومتوازي أضلاع القوى ، والمستوى المائل . وحوالى ١٦٩٠ في دلفت ، استبق جاليليو في تجربته المزعومة في بيزا ، حيث أوضح — على خلاف الاعتقاد القديم — أنه إذا ترك جسمان من نوع واحد مهما اختلفا في الوزن ، بسقطا معا من عل فإيهما يصلان إلى الأرض في وقت واحد^(٥٥) . ووضع ديكارت قانون القصور الذاتي ، في صيغة بالغة الوضوح — وهو أن أى جسم يظل في حالة الجود أو في حركة مستقيمة إلا إذا تأثر بقوة خارجية . وسبق هو وجاسندى ، إلى نظرية الجزيئات في الحرارة . وأمس رسالته في « الأرضاد » (١٦٣٧) على الكوزمولوجيا (علم الكوينات يبحث في أصل الكون وبنية العامة وعناصره ونواميسه) التي لم تعد مقبولة ، ولكن هذه الرسالة أسهمت كثيرا في وضع أمس الأرضاد الجوية كعلم من العلوم . وتوسع تورشلى ١٦٤٢ في دراساته عن الضغط الجوى لتشمل ميكانيكا الرياح ، حيث ذهب إلى أن هذه هي التيارات الموارنة التي تنجم عن الاختلافات المحلية في كثافة الهواء . أما جاسندى ، ذلك الرجل المشهور بالمهامه بكل العلوم ، فانه تابع التجارب في قياس سرعة الصوت ، وتوصل إلى أنها ١٤٣٧ ردا قدما في الثانية . وأعاد صديقه الكاهن ، مارتن مرسن ، التجربة ، وقرر أنها ١٣٨٠ ردا قدما ، وهذا أقرب إلى الرقم السائد ، وهو ١٠٨٧ ردا ووضع مرسن في ١٦٣٦ السلسلة الكاملة للنغمات التوافقية التي يحدثها سلك رنان .

وتركزت أبحاث البصريات حول مسائل الانعكاس والانكسار العريضة ، وبخاصة عند مشاهدتها في قوس قزح . وحوالى ١٥٩١ وضع هاركو أنطونيو

دى دومتيس رسالة فى « الضوء » أوضح فيها تكوين قوس قزح الرئيسى ، (وهو الوحيد الذى يمكن رؤيته بصفة عامة) على أنه راجع إلى إنكسارين وانعكاس واحد لضوء على قطرات بخار الماء فى السماء أو الرذاذ . وتكوين قوس قزح الثانوى (وهو قوس من الألوان فى ترتيب عكسى ، يرى أحيانا بشكل باهت ، خارج القوس الرئيسى) . على أنه راجع إلى إنكسارين وانعكسين . وفى ١٦١١ عالج كبلر فى رسالة « الانكساريات » موضوع انكسار الضوء فى العدسات . وبعد ذلك بعشر سنين جاء ولبرورد سنل من ليدن ، وصاغ قوانين الانكسار فى دقة جعلت من الميسور اجراء حساب أدق لعمل العدسات فى الضوء ، وصنع ميكروسكوبات وتلسكوبات أفضل . فطبق ديكارت هذه القوانين على الحساب الميكانيكى لزوايا الاشعاع فى قوس قزح . أما تفسير ترتيب اللون فكان لزاما أن ينتظر مجيء نيوتن .

وأدى بحث جلبرت — الذى يعتبر بداية عصر جديد — فى الجاذبية الأرضية إلى سلسلة طويلة من النظريات والتجارب . واقترح فيانوس سترادا عضو جمعية يسوع ، الارسال البرقى (١٦١٧) ، وذلك بأن يتصل رجلان الواحد منهما بالآخر ، من بعيد ، عن طريق استخدام الفعل المتجانس لاهرتين مغناطيسيتين وضعتا بحيث تشيران فى وقت واحد إلى حرف هجاء واحد بعينه ، وفى ١٦٢٩ أدلى جزويتى آخر ، نيقولو كايو ، بأول وصف عرفه العالم للتنافر الكهربى . وجاء عالم آخر هو أثناسيوس كيرشر ، فوصف فى كتابه « المغناطيس » (١٦٤١) قياس المغناطيسية بتعليق مغناطيس فى إحدى كفتى ميزان ، ومقاومة تأثيره بوضع موازين فى الكفة الأخرى . وعزا ديكارت المغناطيسية إلى تأثير الجزئات التى تنفثها الدوامة الكبرى التى اعتقد هو أن الأرض نشأت عنها .

وكانت الكيمياء القديمة (الخيمياء) لا تزال شائعة ، وخاصة كبديل ملكى لخفض قيمة العملة . فكان الامبراطور رودلف الثانى ، وناخبو سكسونيا

وبراندانبرج والبالانيات ، ودوق برنزويك وكونت هس ، يستخدمون جميعا أرباب الكيمياء القديمة لصنع الفضة أو الذهب^(٤٦) . ومن هذه التجارب ومن الحاجة إلى علم المعادن وصناعة الصباغة ، ومن الخاح الطيب الألماني باراسلوس على الدواء الكيمياوى ، من هذا كله بدأ علم الكيمياء يتشكل . وكان أندريا ليبارفيوس يمثل هذا الانتقال من الخيمياء ، إلى الكيمياء . وكان مؤلفه « الدفاع عن خيمياء تحويل المعادن الخسيسة إلى معادن ثمينة » (١٦٠٤) استمرارا للسعى وراء المطلب القديم ، ولكن كتابه « الكيمياء » (١٥٩٧) كان أول رسالة منهجية في الكيمياء العلمية الحديثة . واكتشف باراسلوس كلوريد القصدير ، وكان أول من صنع سلفات الأومنيوم ، وكان من أوائل من اقترح نقل الدم كعلاج . وكان معمله في كوبرج إحدى عجائب المدينة . ووضع جان بابتيستافان هلمونت — وهو نبيل ثرى أكب على العالم وصرف همه في تقديم الخدمات الطبية للفقراء — وضع اسمه بين مؤسسى الكيمياء بتمييز الغازات عن الهواء وتحليل أنواعها وتركيبها . ونحمت لفظة « غاز » من اللفظة الأغريقية Chaos وحقق إكتشافات كثيرة في مجاله المختار ، ابتداء من الغازات المتفجرة في البارود ، إلى امكانيات الاشتعال في « ربيع الإنسان »^(٤٧) واقترح القلوبات في علاج الحوضنة المفرطة في الجهاز الهضمى . وأوصى يوهان جلوير ببلورات سلفات الصوديوم للاستعمال كعلاج ممتاز من الظاهر أو من الباطن . ولا يزال دملح جلوير ، يستخدم كملين . أن جوهر وهلمونت كليهما اشتغل بالخيمياء (أو الكيمياء القديمة) كهواية .

وأسهمت كل هذه « العلوم الطبيعية » في تحسين الانتاج الصناعى ، وأدوات القتل في المحروب . وطبق الفنيون المعرفة الجديدة بالحركات والضغط في السوائل والغازات ، وتكوين القلوى ، وقوانين التذبذب ، ومسارات الاسقاط والقذف ، وتنقية المعادن . واستخدم البارود في تفجير المناجم (١٦١٣) وفى ١٦١٢ اخترع سيمون ستورثفانت طريقة لانتاج فحم الكوك ، لتخليصه

من العناصر المتطايرة . فهذا « الكوك » له قيمته وأهميته في صناعة المعادن ، لأن شوائب الفحم العادى تصر بالحديد ، وقد حل محل الفحم النباتى وأقنذ الغابات . وقلت تكلفة صناعة الزجاج ، حيث عم استعمال زجاج النوافذ في ذلك العصر . وينمو الصناعة تضاعفت المخترعات الميكانيكية . لأنها كانت تعود إلى أبحاث العلماء أقل منها إلى مهارات الصناع الذين يتوقون إلى توفير الوقت . ومن هنا فأننا نسمع لأول مرة عن المخراط اللولى في ١٥٧٨ ، واطار الحبك و الربط في ١٥٨٩ . والمسرح الدائر في ١٥٩٧ ، وآلة درس القمح وقلم الحبر في ١٦٣٦ .

وقام المهندسون آنذاك بأعمال فذة تستحق الاعجاب حتى في أيامنا هذه ، فقد رأينا كيف أن دومنيكو فونتانا هن رومه بأقامة مسلة في ميدان القديس بطرس . وابتدع ستيفينوس مهندس مورييس فاسو ، نظام البوابات للتحكم في السدود — وهى حارسة جمهورية هولندا . واستخدم منفاخ ضخمة في تهوية المناجم ، والمضخات المعقدة في رفع المياه إلى أبراج لتضغ المياه إلى البيوت والتافورات في المدن مثل أوجز برج وباريس ولندن وأنشئت قناطر ترووس على أساس القاعدة الهندسية البسيطة وهى أن المثلث لا يمكن أن يعدل شكله ألا بتغير طول أحد الجوانب . وفي ١٦٢٤ سارت غواصة تحت الماء لمسافة ميلين في نهر التاميز^(٤٨) . وتقدم جيروم كاردان وجامباتستا دلايورتا وسالمون دى كوز بنظرية الآلة البخارية خطوة إلى الأمام ، وفي ١٦١٥ وضع كوز وصفا لآلة لرفع الماء بفعل قوة تمدد البخار^(٤٩) .

ولم تكن الجيولوجيا قد ولدت بعد ، حتى اللفظ نفسه لم يكن موجودا ؛ وكانت دراسة الأرض تسمى « علم المعادن » وجمال النظر بعين الإجلال إلى قصة « الخلق » في التوايرة دون المقامرة بالبحث في نشأة الكون . ورمى برنارد هاليى والزبدقة لإحيائه الفكرة القديمة التى تقول بأن الأحافير والمستحاثات ليست إلا بقايا متحجرة لكائنات ميتة . وغامر أفكاره بالقول

بأن الكواكب السيارة بما فيها الأرض كانت يوماً كتلا متوهجة مثل الشمس، وعندما برد الكوكب، كون قشرة من السوائل والمواد الصلبة فوق نادر مركزية داخلية، أنتج دخانها الينابيع الحارة والبراكين والزلازل (٥٠).

وتقدمت الجغرافيا بفضل البعثات التبشيرية والرواد والتجار الذين أرادوا نشر دياناتهم أو التوسع في العلم والمعرفة أو التجارة . وفي ١٥٦٧ وما بعدها ارتاد الملاحون الأسبان البحار الجنوبية، وكشفوا جزيرة جوادالكانال وغيرها من جزر سليمان - وسميت كذلك على أمل العثور هناك على كنوز سليمان . وزار المبشر البرتغالي بيكوياس (الذى أخذ أسيراً في الحبشة (١٥٨٨) ، النيل الأزرق ، وحل لغزا قديماً بأن فيضان النيل المنتظم ليس له من سبب إلا فعل الأمطار في مرتفعات الحبشة. وواضح أن وللم جانسزون كان أول من وطئت قدماه أرض استراليا (١٦٠٦) . وكشف آبل تسمان تسمانيا ونيوزيلند (١٦٤٢) وجزر فيجي (١٦٤٣) ودخل التجار الهولنديون سيام وبورما والهند الصينية . ولكن المعلومات عن هذه البلاد وعن الصين ، وردت إلينا أساساً عن طريق المبشرين الجوزويت . وبأمر من هنري الرابع ملك فرنسا ارتاد صمويل تسمان ساحل نوفا سكوشيا وصعد في نهر سمانت لورنس إلى قرب مونتريال، وأسس أتباعه مدينة كويك ، وبنوا على الخريطة البحيرة التي تحمل اسمه .

وكافح صانعو الخرائط حتى لا يتخلفوا كثيراً عن الرواد والمستكشفين، ومنهم جيراردوس مركيتور (جيرارد كيرمر) الذي درس في لوفان، وأسس محلاً لصنع الخرائط والأدوات العلمية والسكرات الأرضية . وفي ١٥٤٤ قبض عليه وحوكم بتهمة الهرطقة ، ولكنه تفادى العواقب الوخيمة ، فوجد على أية حال أنه من الحكمة أن يقبل دعيوة وجهت إليه من جامعة دوزبرج ، حيث أصبح رساماً للخرائط لدى دوق جوايس كلينز (١٥٥٩) . وطوال حياته التي امتدت اثنين وثمانين عاماً ، جهد مركيتور دون كلل أو ملل في رسم خرائط

للفلاندرز واللورين وأوربا والأرض . وفي مؤلفه المشهور « الوصف الجديد الدقيق للأرض وطرق الملاحة » (١٥٦٨) أدخل نظام « الأسقاط المركاتوري » في الخرائط الذي أدى إلى تيسير الملاحة . بإظهار دوائر خطوط الطول موازية بعضها لبعض ، ودوائر العرض خطوطاً مستقيمة ، وكلتا المجموعتين من الخطوط تشكل زوايا قائمة ، الواحد منها مع الآخر . وفي ١٥٨٥ شرع في إصدار « أطلسه » الكبير (ونحن مدينون له بالفضل في استخدام هذا اللفظ) ، يحتوي على إحدى وخمسين خريطة ، في اتفاق ودقة لم يسبق لهما مثيل ، وصف فيها الأرض المعروفة آنذاك . ودخل صديقه أبراهام أورتل في مبارات معه بكتابته الجامع « مدار الأرض » (أنتورب ١٥٧٠) . أن هذين الرجلين كليهما حررا الجغرافيا من ارتباطها بالآل في السعيد بيطليميوس (الفلكي الإسكندري في القرن الثاني الميلادي) ، ووضعاهما في شكلها الحديث . في بفضلها احتفظ الهولنديون بما يكاد يكون احتكاراً تاماً لصناعة الخرائط طيلة قرن من الزمان .

هـ — العلم والحياة

وكان على علم الإحياء (البيولوجيا) أن ينتظر قرنين من الزمان حتى يتسنى الذروة ، ونشأ علم النبات على مهل من خلال الدراسات الطبية للأعشاب العلاجية واستيراد النباتات الغريبة إلى أوربا وجلب المبشرون الجزويت لحاء الشجر من بيرو (الكيتين) والونيلية (نبات أمريكي استوائي ، الفانيليا) والراوند . وأدخل البطاطس حوالي ١٥٦٠ من بيرو إلى أسبانيا ، ومنها انتشر في أنحاء القارة . ووصف برسييرو ألبيني أستاذ علم النبات في بادوا خمسين نباتاً أجنبياً زرعت مجدداً في أوربا . ومن دراساته لتخليق البلع استدل على التكاثر الجنسي في النبات الذي أوضحه تيوفراستوس في القرن الثالث ق . م . يقول ألبيني : « إن إناث نخيل البلح لا تحمل ثمر إلا إذا اختلطت أغصان الأشجار الذكور والأشجار الإناث بعضها ببعض ، أو كما يحصل عادة ، إلا إذا تناثرت

الغيار الموجود في غلاف الأشجار الذكور أو أزهار الأشجار الاناث (١٥١) .
وقد يقسم لناؤوس فيما بعد النباتات وفقا لطرق تكاثرها ، ولكن الآن في
١٥٧٣ قدم أندريا سيسالينو الفلورنسى أول تقسيم منهجي للنباتات ، ١٥٠٠
نوع منها - على أساس بذورها وثمارها المختلفة . وأورد جاسبار بوهين
(من مدينة بازل) في مؤلفه الضخم « جدول عالم النبات » (١٦٢٣) تصنيفا
لنحو ٦٠٠٠ نبات ، وبذلك استبق ما أنجزه بعد ذلك لناؤوس من تصنيف
وتسمية ثنائية تبعا للجنس والصنف ، وقضى بوهين أربعين عاما في إعداد
« جدول النبات » ، ومات بعد سنة من صدوره ، وبقي مرجعا أساسيا لمدة
ثلاثة قرون .

وبدأت معشبات الأطباء الخاصة تتطور الآن إلى حدائق نباتية تديرها
الجامعات أو الحكومات للجمهور . وكان لأقدمها التي أسست في بيزا ١٥٤٣ ،
شهرة كبيرة أيام سيسالينو . وأسس في زيوريخ حديقة نباتية في ١٥٦٠ ،
ثم في بولونا وكاسل ولیدن وليبزج وبرسلا وبازل وهيدلبرج وأكسفورد .
وفي ١٦٢٥ نظم جى دى لابروس - طبيب لويس الثالث عشر - حديقة النباتات
الطبية ، المشهورة في باريس ، أما حدائق الحيوان ، بوصفها معارض للوحوش
لتسلية الجماهير ، فقد وجدت في الصين (١١٠٠ ق م) وفي رومه القديمة ،
وفي المكسيك أيام الأزتيك (حوالى ١٤٥٠) ، أما الطراز الحديث فقد افتتح
في درسدن في ١٥١٤ ، وفي فرساي في عهد لويس الثالث عشر .

ولقى علم الحيوان عناية أقل مما لقي علم النبات ، لأنه قدم علاجات أقل ،
للهم إلا في الطب الأسطوري أو الخرافي ، وفي ١٥٩٩ شرع بوليس ألدروفاندى
في نشر ١٣ مجلدا ضخما في التاريخ الطبيعى ، ، وعاش حتى رأى ستة منها في
المطبعة ، ونشر سناتو بولونا السبعة الباقية من مخطوطات المؤلف على نفقة
الدولة . ولم يحتل مكان هذه المجلدات أو ينسخها إلا كتاب بوفون « التاريخ
الطبيعى » (١٧٤٩ - ١٨٠٤) . وابتدأ الجزويتى المتعدد الثقافات أنثاسيوس

كيرشر علم الأنسجة العضوية بكتابته الذى وصف فيه (١٦٤٦) الديدان المتناهية الصغر التى وجدها مجهره (الميكروسكوب) فى المواد المتعفنة . أن الاعتقاد بتوالد الكائنات الدقيقة توالدا تلقائيا من اللحم المتعفن أو الفاسد ، أو حتى من الطين ، كاد يكون سائدا تماما ، ولو أن هارفى كان على وشك أن يدحضه فى كتابه « توالد الحيوان » ، (١٦٥١) . وكان علم الحيوان متخلفا ، لأن نفرا قليلا من المفكرين رأوا الأجداد العليا للحيوان كما رأوهم فى الإنسان ولكن فى ١٦٣٣ كتب جاليليو إلى دوق تسكانيا الأكبر : « ولو أن التباين بين الإنسان وسائر الحيوان هائل جدا ، فإنه يمكن القول بحق بأنه أكثر قليلا من التباين بين بنى البشر أنفسهم » (٥٢) . أن العقل الحديث كان يرتد يبطء إلى ما عرفه الاغريق قبل ذلك بالبنى عام .

وأوى علم التشريح إلى شىء من الركود بعد جهود فيساليوس . وكان تشريح الجثث لا يزال محل معارضة - كما فعل هوجو جروتيوس (٥٣) . ولكن « دروس التشريح » للكثيرة فى الفن الهولندى تعكس الارتياح العام إلى هذا العمل . والاسم اللامع هنا ، مثلما هو فى الجراحة هو جيولامو فابريزيو أكوابندانت . تلميذ فلوبيو وأستاذ هارفى . وفى أثناء رياسته لجامعة بادوا شيدت هناك قاعة التشريح الكبرى - وهى المبنى الوحيد المحفوظ به كاملا من تلك الحقبة ، إن اكتشافه للصمامات فى الأوردة ، ودراساته فى تأثيرات الأربطة قادت هارفى إلى شرح الدورة الدموية وتقدمت المعرفة بدورة السوائل فى الجسم خطوة إلى الأمام بكشف جاسبارو أسللى للأوعية اللمفاوية التى تنقل السكيلوس الشبيهة باللين (مستحلب الطعام المهضوم قبل امتصاصه) من الأمعاء الدقيقة . والحق أن أسللى ، على الرغم من اسمه « الجعش الصغير » وصف الدورة الدموية قبل أن ينشر هارفى نظريته بست سنين . وكان اندريا ميسالبيينو قد شرح النظرية الأساسية (١٥٧١) قبل هارفى بنصف قرن . وظل يتعلق بالفكرة القديمة ، وهى أن بعض الدم يمر من الحجاب الحاجز للقلب ، ولكن

اقترب ، أكثر من هارفى ، من شرح كيفية انتقال الدم من الشرايين إلى الأوردة
إن أنبل الجيوش كانت تتقدم على مائة جبهة لتخوض أعظم الحروب والمعارك
لأنها معارك العلم .

٦ - العلم والصحة

وفى هذا النضال من أجل العلم والمعرفة ، كانت المعركة الأساسية هي
معركة الحياة ضد الموت ، وهي معركة خاسرة على الصعيد الفردى ، ظافرة
بانتظام على المستوى الجماعى . وكلم للأطباء والمستشفيات ، فى نصائحهم لعلاج
الأمراض والآلام ، من أعداء بشريين فى القذارة الشخصية ، والقذارة العامة ،
والسجون السكرية الرائحة والمشييرة للاشمئزاز ، والدجالين وجرعاتهم السحرية ،
والمتصوفين « العليين » ، ومعالجى الفتق ، ندبى الحجارة ، ومعالجى اعتنام
عدسة العين ، وخالعى الأسنان ، هواة تحليل البول . وسارت الأمراض
الجديدة فى سباق مع العلاجات والأدوية الجديدة .

وكان مرض الجدام قد اختفى ، وقللت الوسائل الوقائية من الإصابة بمرض
الزهري ، وكان فاللويو قد اخترع (١٥٦٤) غلافات من الكتان لإتقاء عدوى
هذا المرض . (وسرعان ما استخدم هذا لمنع الحمل ، وكان يباع لدى الحلاقين
والمومسات أو أصحاب المواخير^(٥٤)) . ولكن أوبئة التيفوس والتيفود والحمى
والمالاريا والدفترى ، والاستقربوط والانفلونزا والجدري والدوسنتاريا ،
ظهرت فى تلك الحقبة فى عدة أقطار فى أوروبا ، وبخاصة ألمانيا . وثمة احصاءات
قد يكون مبالغاً فيها ، بأن الوفيات بلغت ٤٠٠٠ من الطاعون الدملى فى بازل
١٥٦٣ - ١٥٦٤ ، وأن ٢٥٪ من سكان فريبورج - أم - بريزوماتوا بالطاعون
١٥٦٤ ، و ٩٠٠٠ فى ردمستوك ، و ٥٠٠٠ فى فرانكفورت ١٥٦٥ ، ٤٠٠٠ فى
هانوفر ، و ٦٠٠٠ فى برونزويك^(٥٥) ١٥٦٦ وعزا السكان المذعورون مثل هذا
للطاعون الذى دسب السيموم عمدا . وفى فرانكشتين فى سيليزيا أحرق ١٧ شخصا

أحياء حتى الموت للاشتباه في أنهم دسوا السم^(٥٦) . وكانت وطأة الطاعون الدملي شديدة جدا في فرانكفورت في ١٦٠٤ حتى لم يعد هناك من الرجال من يكفى للقيام بدفن الموتى^(٥٧) . وتلك مبالغاة واضحة ، ولكن يروى عن مصادر موثوقة أنه بسبب الطاعون الدملي في إيطاليا ١٦٢٩ - ١٦٣١ مات في ميلان ٨٦ ألفا ، وفي جمهورية البندقية ما لا يقل عن ٥٠٠ ألف ، وفيما بين ١٦٣٠ - ١٦٣١ كان عدد ضحايا الطاعون مليون شخص في جنوب إيطاليا وحده^(٥٨) ، وقبلما سار معدل الانجاب عند النساء مع شدة الدهاء وسعة الحيلة في إزهاق الأرواح . وضوعفت آلام الوضع بتزايد عدم جدواه . وكانت نسبة الوفيات في الأطفال تبلغ خمس المواليد قبل إتمام السنة الثانية من العمر^(٥٩) وكانت الأسرات كبيرة والسكان قليلين .

وكانت الصحة العامة آخذة في التحسن ، والمستشفيات يتضاعف عددها وتعليم الطب يصطبغ بالتشدد والصرامة - ولو أنه كان من الميسور الاشتغال بالطب دون الحصول على درجة علمية . وكان في بولونا وبادوا وبازل وليدن ومونيخ وباريس مدارس طب ذائعة الصيت تجذب إليها الطلاب من كل أنحاء أوروبا الغربية . وأمامنا مثال فذ من البحث الطبي الدؤوب طيلة ثلاثين عاما من التجارب حاول بها سانسكتوريوس تحويل العمليات الفسيولوجية إلى نظم كمية . وأنجز قدرا كبيرا من عمله بينما كان جالسا إلى مائدة على ميزان كبير ، وسجل ما يطرأ على وزنه من تغيرات عند دخول أو خروج المواد الصلبة والسوائل ، بل إنه وزن العرق نفسه . ووجد أن جسم الإنسان يخرج بضعة أرتال يوميا عن طريق التنفس العادي . وانتهى إلى أن هذا شكل جوهري من أشكال الطرد أو التخلص من الزوائد . واخترع مقياسا طبييا للحرارة (١٦١٢) وآخر للنبض ، ليعاون هذا وذلك في تشخيص الأمراض .

وكان العلاج يتدرج من الضفدعة إلى العلة . ووصف بعض مشاهير الأطباء ، كعلاج ، الضفادع المجففة تخاط في كبس يعلق على الصدر ، كمصيدة

يتصيد ويمتص الهواء الفاسد المسموم المحيط بالجسم في المناطق المصابة بالطاعون^(٦٠) . وجمعوا بين امتصاص الدم بالعلقات أو بالحجم ، وبين تناول مقادير كبيرة من الماء ، على أساس أن بعض السائل الداخلى إلى الجسم سوف يتحول إلى دم جديد غير ملوث . وكانت ثمة مدرستان للعلاج بتباريان على الفريسة ، وهو المريض : مدرسة العلاج الميكانيكى التى نشأت عن آراء ديكارت التى تقول بأن كل عمليات الجسم ميكانيكية ، ومدرسة العلاج الكيميائى التى بدأها باراسلسوس ، وطورها هلمونت . والتى تفسر كل وظائف الأعضاء بأنها كيميائية . وكانت المعالجة المائية العلمية شائعة . وكانت المياه العلاجية موجودة فى باث انجلترا ، وفى سبا فى الأراضى الوطية ، وفى بلومبير فى فرنسا ، وفى أماكن أخرى كثيرة على الراين وفى إيطاليا ، وقد رأينا مونتيني يجرب العلاج بالمياه فى هذه الأماكن ، ونثر حصى الكلى طوال الطريق . وأدخل إلى أوربا عقاقير جديدة ، مثل الناردين (حوالى ١٥٨٠) ، والانتيمون (الأتمد) حوالى ١٦٠٣ ، وعرق الذهب (١٦٢٥) ، والكيكين (١٦٣٢) . ودون دستور الصيدلة والأدوية فى انجلترا (١٦١٨) نحو ١٩٦٠ عقارا . ويذكر مونتيني علاجات خاصة ادخرها نفر من الأطباء لمرضاهم الصبورين

القدم اليسرى لسلحفاة ، بول السحلية ، روث الفيل ، كبد حيوان الخلد ، الدم المستخرج من الجناح الأيمن للحمامة بيضاء . وبالنسبة للمصابين بحصى الكلى مثلى روث الفأر المسحوق . . . وغير ذلك من السخافات التى توحى بالسحر والتعاويد أكثر منها بالعلم الجاد^(٦١) .

وكما نرى مثل هذه العلاجات التافهة الغريبة باهظة التكاليف إلى حد مثير وكان الناس فى القرن السابع عشر يثنون من أثمان الدواء أكثر مما يرضجون من أجور الأطباء^(٦٢) .

وترك طب الأسنان للحلاقين ، وكان يقوم في معظمه على الخلع . وكان بين « الحلاقين الجراحين » آنذاك جماعة من المحترفين المهرة ، من أمثال امبرواز بارى ، فرانسوا روست ، اللذين أحيا الخلع القيصرى ، وجسبارو طليا كوتسى المتخصص في إعادة تشكيل الأذن والأنف والشفة ، من لدائن البلاستيك ، وقد اتهمه الأخلاقيون بالتدخل في صنع الله ، ونبشت رفاة من الأرض المطهرة ، ودفنت في أرض غير مقدسة (٦٣) . وكان ولهم فبرى « أبو الجراحة في ألمانيا » أول من أوصى ببتز العضو أو الطرف فوق الجزء المصاب . وأورد جيوفنى كول أقدم وصف معروف لعملية نقل الدم (١٦٣٨) .

وامتعض المرضى من أجر الطبيب ، كما هو الحال في كل العصور . وسخر الممثلون الهزليون من رذائهم الطويل وحذائهم الأحمر ، ومن رزائهم ووقارهم وهو إلى جانب فراش المريض ، وإذا كان لنا أن نصدق هجو الممثلين الهزليين الفكاهيين ، فإن مكانته الاجتماعية لم تكن تغلو كثيرا من مرتبة المعلم ، ولدينا لو رجعنا إلى تاريخ « درس التشريح » لرمبرانت ، لشهدنا طبقة من الرجال تتمتع بمنزلة رفيعة في المجتمع ، قادرة حتى على الاسهام في لوحة عظيمة . أن أعظم فلاسفة ذاك العصر ، الذى كان يحلم ، كما يحلم كل منا ، بمستقبل أفضل للبشرية ، فسكر في تحقيق حلمه على أساس تحسين الخلق الانسانى والنهوض بالعلوم الطبية ، بوصفهما أكثر العوامل ملاءمة لمثل هذه الثورة ، وفي هذا يقول ديكارت : « إن العقل نفسه يعتمد كثيرا على سلامة أعضاء الجسم وتنظيم أدواتها لوظائفها ، إلى حد أنه إذا كان من الميسور أن نفقش عن وسيلة تزيد بها من عقل الانسان وقدرته ، فاعتقادى أنه ينبغي أن نلتمسها في الطب والدواء » (٦٤) .

٧ -- من كوبرنيكس إلى كبلر

لقد تركنا علم الفلك لنعرض له في خاتمة المطاف ، لأن أبطاله ، وهم يقتربون من نهاية هذه الفترة ، يشكلون العناصر الرئيسية فيها .

أن نفس الكنيسة التي كان عليها أن تخرس جاليليو ، قادت الطريق إلى أحد المنجزات العظمى في علم الفلك الحديث — ألا وهو إصلاح التقويم . أن مراجعة التقويم التي كان قد قام بها موسينز ايوليوس قيصر حوالي ٤٦ ق.م . أدت إلى زيادة السنة بأحدى عشرة دقيقة و ١٤ ثانية . ومن ثم فإنه في ١٥٧٧ تخلف التقويم اليولياني عن تعاقب الفصول بنحو ١٢ يوما ، وبذلك لم تقع أعياد الكنيسة في المواعيد التي قصد لها أن تقع فيها . ولم من محاولات بذلت لإصلاح التقويم : في عهد كليمنت السادس ، سكستس الرابع ، ليو العاش — ولكن نشأت عوائق جمة ، منها عدم اتفاق الجميع على حل معين . وعدم توفر المعرفة الدقيقة بالفلك . وفي ١٥٧٦ قدم إلى البابا جريجوري الثالث عشر تقويم قام بتصويبه لوبجي ججليو . وأحاله البابا إلى لجنة من اللاهوت والمحامين ورجال العلم ، ومن بينهم الجزويقي البافاري كرسوفر كلافيوس الذي اشتهر بتضليله في الرياضيات والفلك ، وواضح أن المخطط النهائي كان من صنعه . واستمرت المفاوضات طويلة مع الأمراء والأساقفة لتحقيق تعاونهم في هذا المجال وأثيرت اعتراضات كثيرة وأخفقت المساعي التي بذلت للحصول على موافقة الكنائس الشرقية . وفي ٦٤ فبراير ١٥٨٢ وقع البابا جريجوري الثالث عشر المرسوم الذي أقر « التقويم الجريجوري » ، في العالم الكاثوليكي . ومن أجل التعادل بين التقويم القديم والحقايق الفلكية ، حذفت عشرة أيام من شهر أكتوبر ١٥٨٢ ، أي أن اليوم الخامس اعتبر اليوم الخامس عشر ، وعمدوا من أجل ذلك إلى ضروب معقدة من الحسم والخصم في حساب الفوائد وغيرها من المعاملات التجارية . وللتعويض عن الخطأ في التقويم اليولياني ، فانهم زادوا في سنوات القرون التي تقبل القسمة على ٤٠٠ ، يوما في شهر فبراير ليصبح ٢٩ يوما .

وعارضت البلاد البروتستانتية هذا التغيير. وتمرد الأهالي في فرانكفورت (على نهر السين) وفي بريستول، اعتقاداً منهم بأن البابا أراد أن يسلبهم عشرة أيام بل أن موثني نفسه زبحر وشكا، وهو الشديد الطمع في الزمن، فقال «إن ما عمد إليه البابا أخيراً من اختصار عشرة أيام من السنة قد أزعجني إلى حد أني لا أكاد استرد عافيتي»^(٦٥)، ولكن التقويم الجديد — الذي لن يحتاج إلى تصويب آخر لمدة ٣٣٣٣ سنة — أخذ بالتدريج يلتقي قبولاً في الولايات الألمانية في ١٧٠٠، وفي إنجلترا في ١٧٥٢، وفي السويد في ١٧٥٣، وفي روسيا ١٩١٨*).

وثمة تلمكؤ شبيه بهذا حدث في ارتضاء وتقبل فلك كوبرنيكس. وكان من الممكن دراسته وتعليمه في إيطاليا، لو أنه عرض على أنه فرضية قابلة للجدل، لأعلى أنه حقيقة واضحة^(٦٦). ودافع عنه جيوردانو برونو، وتساءل بالفعل كمبائلاً إذا كان سكان الكواكب الأخرى ظنوا أنفسهم، كما يظن أهل الأرض، أنهم مركز الأشياء، وهدفها^(٦٧). وتسابق اللاهوتيين البروتستانت مع الكاثوليك عامة في لاستنكار الطريقة الجديدة، ودحضها ببيكون وبودين على السواء^(٦٨). والأغرب من هذا كله أن أعظم الفلكيين في نصف القرن التالي لوفاة كوبرنيكس (١٥٥٣)، رفضها كذلك.

ولد تيكوبراهي في ١٥٤٦، في مقاطعة سكانيا التي كانت آنذاك ديمركية

(*) من الباحية المثالية كان يمكن تقسيم السنة إلى ١٣ شهراً في كل منها ٢٣ يوماً، مع يوم أجازة لا تاريخ له (أو يومين في السنة السكبيسة) في نهاية العام. ومن ثم سيكون التقويم في الصحيفة الواحدة، مع بعض إشارات دوارة للدلالة على الشهر والسنة، نافعا لكل الشهور إلى ما لا نهاية، حيث يقع كل يوم من أيام الأسبوع في نفس المواضع على مر الشهور والأعوام. ويمكن أن تنقسم سنة العمل إلى شهور متساوية وأرباع متساوية. ولكن هذا، مع اشد الأسف قد يزجج القديسين ويوقعهم في حيرة.

وهى الآن فى الطرف الجنوبى للسويد ، وكان أبوه عضواً فى مجلس الدولة الدنمركى ، وأمه مديرة ملابس الملكة . أما عمه الثرى جورجى الذى انفطر قلبه غما لأنه لم ينجب أولاداً ، فقد اختطفه ، وتملق أبويه واسترضاها بكل الوسائل ، ابتغاء موافقتها ، وهياً للطفل كل فرص التعليم ووسائله . وفى سن الثالثة عشرة التحق تيكو بجامعة كوبنهاجن . وطبقاً لما ذكره جاسندى ، انجذب تيكو إلى الملك عندما سمع أحد المعلمين يناقش موضوع كسوف شمس قادم . ولحظ حدوث الكسوف كما تنبأوا به ، وعجب لهذا العلم الذى بلغ مثل هذه القدرة على التنبؤ ، واشترى نسخة من كتاب بطليموس المحسطنى ، . وأكب عاينها إلى حد أهمال سائر الدراسات . ولم يتخلى قط عن النظرة الهندسية التى تجلست فى القرن الثانى من عصرنا .

وفى سن السادسة عشرة نقل إلى جامعة ليزج ، حيث درس القانون بالنهار ، ودرس النجوم بالليل . وحذروه من أن مثل هذا العمل قد يؤدى إلى انحطاط فى الجسم وإنهيار فى الأعصاب . ولكن تيكو أصر وثابر ، وأنفق كل ما يحصل عليه فى شراء الآلات الفلكية . وفى ١٥٦٥ مات عمه ، تاركا له ثروة كبيرة . وأسرع تيكو ، بعد تسوية أموره ، إلى وتبرج ، لمزيد من الرياضيات والفلك ، ثم غادرها فراراً من الطاعون ، إلى روستوك ، وهناك اشترك فى مبارزة أطاحت بحجزه من أنفه ، فاختذ أنفاً برافاً جداً من الفضة والذهب ظل به بقية حياته . وانهمك فى التنجيم ونبأ بموت سليمان القانونى ، ليجد أن السلطان قد فارق الحياة بالفعل (٦٩) . وبعد كثير من التجوال فى ألمانيا عاد إلى الدنمرك ، وشغل نفسه بالكيمياء . وأعادته إلى الملك كشف نجم جديد فى مجموعة ذات الكرسي (١٥٧٢) . أن ملاحظاته السعيدة لهذا النجم المتنقل ، وما كتبه عنه فى أول مؤلف نشر له « النجم الجديد » أكسبها شهرة فى كل أنحاء أوروبا . ولكن أزعجا بعض وجهاء الدنمرك الذين اعتقدوا أن التأليف ضرب من حب الظهور الذى لا يليق بالدم الأزرق . وأذهلهم

تيكو بزواجه من بنت فلاحه . ويبدو أنه أحس بأن زوجة وربة بيت بسيطة، خير رفيق لفلكى منصرف بكليته إلى الفلك ، وأحسن صنوه مفتوح سمح لرجل ذى أنف ذهبي .

ولما لم يقنع تيكو بالتسهيلات الفلسفية فى كوينهاجن ، فإنه اتخذ طريقه إلى كاسل ، حيث كان الدوق وليم الرابع قد بنى ١٥٦١ أول مرصد ذى سقف دوار ، وطور يوست بورجى ساعة حائط ذات رصاص (بندول) جعلت من الميسور تحديد أوقات رصد النجوم وحركاتها فى دقة لم يسبق لها مثيل . وامتلأ تيكو حماسا جديداً فعاد إلى كوينهاجن ، وأثار اهتمام فردريك بمشروع لإقامة مرصد . فوضع الملك تحت تصرفه جزيرة هفين (فينوس) فى مياه السوند . وأجرى عليه راتبا كبيرا ، واستطاع تيكو بهذا المال بالإضافة إلى موارده الخاصة ، أن يشيد هناك قصراً وحدائق أطلق عليهما أورانيبرج (مدينة السماء) ، وكانت تضم مساكن ومكتبة ومعملا وعدة مراصد ومصنعا لما تحتاج إليه من آلات . ولم يكن لديه مقراب (تلسكوب) ، حيث كان لابد من انتظار ثمانية وعشرين عاما حتى يتم اختراعه — على أن أرصاد تيكو هى التى قادت كبلر إلى اكتشافات قيمة كانت فاتحة لعصر جديد .

وطيلة إحدى وعشرين سنة فى جزيرة هفين جمع تيكو وتلاميذه من المادة ما يفوق فى حجمه ودقته أية مادة معروفة من قبل . وسجل كل يوم ، وأعدة سنوات ، حركة الشمس الظاهرية ، وكان من أوائل الفلكيين الذين أدخلوا فى حسابهم انحراف الضوء وأخطاء الراصدين والآلات ، ولذلك عاود أرصاده وملاحظاته مرات ومرات . وكشف عن التغيرات فى حركة القمر ووضعها فى صيغة قانون . وأدى به تدقيقه الشديد فى تفقد أحد المذنبات فى ١٥٧٧ إلى الاعتقاد السائد فى العالم الآن ، بأن المذنبات أجرام سماوية حقيقية تتحرك فى مدارات محددة منتظمة ، بدلا من كونها تنشأ فى الغلاف الجوى للأرض . وعندما نشر تيكو الثبت الذى جمعه عن ٧٧٧ نجما ، وحددها بعناية فائقة على القبة السماوية الضخمة فى مكتبته ، فإنه بذلك برر حياته .

وتوفى فردريك الثاني في ١٥٨٨ . وكان الملك الجديد طفلاً في الحادية عشرة ، ولم يطق الأوصياء الذين تولوا الحكم صبرا على غرور تيكو براهي وحدته وإسرافه . كما فعل فردريك من قبل . وسرعان ما انخفضت المنح الحكومية ثم انقطعت في ١٥٩٧ . فعاد تيكو الدنمرك ، وأستقر به المقام في قلعة بناتك ، بالقرب من براغ ، ضيفاً على الإمبراطور رودلف الثاني الذي أمل في الحصول منه على نبوءات تنجيمية . وأحضر تيكو آلاته وسجلاته من هيمن ، وأعطى عن مساعد . لجأه كبلر (١٦٠٠) ، وعمل مع سيده الذي يصعب التعامل معه وإرصاده ، عملاً متقطعاً ، واسكنه كان مخلصاً فيه . وفي الوقت الذي كان فيه تيكو يتوق إلى الخروج من المادة الغزيرة التي جمعها بنظرية معقولة عن السموات ، دهمه وهو جالس إلى المنضدة أنفجار في المثانة ، وبقي يتلوى من الآلام لمدة أحد عشر يوماً ثم فارق الحياة (١٦٠١) . وهو حزين على عدم إتمام عمله . وقال خطيب الجنازة أنه دلم يطمع في شيء سوى الوقت (٧٠) .

٨ - كبلر : ١٥٧١ - ١٦٣١

كان أنتقال تيكو إلى براغ من حسن حظ العلم ، لأن كبلر ورث أرصاده وملاحظاته ، واستنتج منها قوانين الكواكب التي مهدت لنظرية نيوتن في الجاذبية . وجمعت ، من براهي إلى كبلر إلى نيوتن ، ومن كوبرنيكس إلى جاليليو إلى نيوتن ، خطوط أساسية لتكوين علم الفلك الحديث .

ولد كبلر في فيل Weil بالقرب من شتتجارت ، وكان أبوه ضابطاً في الجيش ، طالما خرج للحرب مؤثراً ميدانها على حياة المنزل ، وأخيراً عاد وافتتح حانه اشتغل يوهان زولا فيها . وكان الصبي سقيماً معتل الصحة ، شل الجدرى يديه وأضعف بآستمرار بصره . وآأس منه دوق روتنبرج أنه يمكن أن يصبح واعظاً فاضلاً . فتولى الاتفاق على تعليمه . وفي توبنجن ، حول ميكائيل ما ستلن الذي كان يقوم بتدريس فلك بطليموس - حول كبلر سرّاً إلى

نظرية كوبر نيكس . وتحمس الشاب للنجوم إلى حد أنه تخلى عن التفكير في أى عمل كنسى .

وبعد الحصول على الدرجة الجامعية أصبح كبلر مدرسا في ستيريا ، يعلم اللاتينية والبلاغة والرياضيات مقابل ١٥٠ جلدن في العام ، مع مسكن بالمجان ، يضاف إلى هذا ٢٠ جلدن لقاء تحرير تقويم تنجيمى سنوى . وفى سن الخامسة والعشرين تزوج كبلر من سيدة فى الثالثة والعشرين ، كانت قد شيعت زوجها لها إلى مثواه الأخير ، وانفصلت عن زوج ثان ، وقدمت له هذه السيدة مهرأ وأتت إليه بابنة ، وأضاف هو ستة أطفال بمرور الزمن . وبعد سنة من الزواج أرغم كبلر على مغادرة جراز لأنه كان بروتستانتيا (١٥٩٧) ، وكان فرديناند دوق ستيريا الجديد كاثوليكيًا صميما فأصدر أمره إلى كل رجال الدين والمعلمين البروتستانت بمغادرة بلاده . وكان كبلر قد اقترف إثما آخر بنشره « الكون الخفى » (١٥٩٦) الذى دافع فيه بحماسة عن نظرية كوبر نيكس ، وأرسل نسخا منه إلى تيكو وجاليليو ملافى عونهما . وبعد سنة عانى فيها الفقر المدقع ، انقضته دعوة تيكو لإياه إلى براج . ولكن كان من الصعب التعامل مع تيكو وأرضائه . ولقى كبلر عنتا فى العقيدة وفى كسب العيش . وأنتاب الزوجة مرض عصبي . بعد ذلك توفى تيكو ، وعين كبلر خلفا له براتب سنوى قدره ٥٠٠ فلورين .

وكان تيكو براهى قد أوصى لكبلر بسجلاته ، وأم يورثه آلاته . ولما لم يستطع شراء أحسن الآلات ، فإنه وجد نفسه مسوقا إلى دراسة أرصاد تيكو وملاحظاته دون أن يضيف إليها شيئا . وما كان له أن يقول مع نيوتن « لى اخترع فروضا ، بل على العكس . امتلا رأسه بالفروض وبات يهتم بها ، « عندى ذخيرة من المخترعات أو من ثمرات الخيال »^(٧١) . وكانت مهارته الفذة تكمن فى اختبار الفروض . كما تمثلت حكمته وعقله فى طرحها جانبا ، إذا ثبت أن النتائج التى توصل إليها رياضيا ، لا تتماشى مع الظواهر التى رصدها أولا عظما^(٧٢) . وفى محاولته لتعيين مدار المريخ جرب ٧٠ فرضا على مدى أربع سنوات .

وفي آخر الأمر في ١٦٠٤ توصل إلى كشفه الأساسي الممتاز الذي فتح عصرأ جديدا — وهو أن مدار المريخ حول الشمس عبارة عن قطع ناقص ، وليس دائرة ، كما ظن الفلكيون ابتداء من أفلاطون ومن جاء بعده بما فيهم كوبرنيكس . فالمدار المتخذ شكل القطع الناقص هو الوحيد الذي ينسجم مع الأرصاد المتكررة التي قام بها تيكو وغيره . وقفز ذهن كبلر المتوقد الذكاء إلى التساؤل : ماذا لو كانت مدارات كل الكواكب على شكل قطع ناقص ؟ وبأدر إلى تفحص الفكرة على أساس الملاحظات والأرصاد المدونة ، فاتفقت معها اتفاقا يكاد يكون تاما . وفي رسالة باللاتينية عن حركات المريخ « الفلك الجديد وحركة المريخ » . (١٦٠٩) نشر أول قانونين من « قوانين كبلر » أولهما : أن كل كوكب يدور في مدار على شكل قطع ناقص ، الشمس إحدى بؤرتيه ، والثاني أن سرعة دوران الكوكب تزيد كلما قرب من الشمس ، لا كلما ابتعد عنها ، وأن نصف القطر الذي يمتد من الشمس إلى الكوكب يقطع ، في دورانه مسافات متساوية في أزمنة متساوية ، وعزا كبلر الاختلافات في سرعة الكواكب إلى زيادة انبثاق الطاقة الشمسية التي يحبسها الكوكب كلما اقترب من الشمس ، ومن هذه الناحية طور كبلر عن جلبرت فكرة الجذب المغناطيسي وهي قريبة جدا من نظرية فيوتن في الجاذبية .

وعند موت الامبراطور رودلف (١٦١٢) انتقل كبلر إلى لنز ، وعاد ثانية إلى العيش على التعليم في المدارس ، وماتت زوجته فتزوج من بنت فقيرة يتيمة . وفيما كان يزود بيته الجديد بالخمر ، افتتن بالصعوبة التي لقيها في تقدير محتويات قنينة ذات جوانب منحنية . وساعد البحث الذي نشره عن هذه المسألة على التمهيد لاكتشاف حساب التفاضل (الكميات المتناهية الصغر) .

وبعد أن فسر كبلر لمدة عشر سنوات تفكيراً عميقاً في إيجاد العلاقة بين سرعة الكوكب وحجمه ، نشر في كتابه « تناسق الكون » ، (١٦١٩) قانونه الثالث ، مربع زمن دورة الكوكب حول الشمس يتناسب مع الجذر التكعيبي

لمتوسط بعده عن الشمس (مثال ذلك . أن زمن دورة المريخ يمكن إثبات أنه ١٨٨ من زمن دورة الأرض ، ومربع هذا هو ٣٥٣ والجذر التكملي لهذا هو ١٨٥٢ ، أى أن متوسط المسافة بين المريخ والشمس يصبح ١٨٥٢ من المسافة بين الأرض والشمس . وكان لكبلر أن يتهجأ أيما ابتهاج لوضعه دوران الكواكب بمثل هذا الترتيب والانتظام إلى درجة أنه شبه كل سرعة في المدار بنغمة على السلم الموسيقي ، وانتهى إلى أن الحركات مجتمعة شكلت « تناغم النجوم » ، الذى لا تسمعه ، على أية حال ، إلا « روح » الشمس . ومن ج كبلر عليه بالتصوف موضحا مرة أخرى مقالة جوته الكريمة . إن عيوب الإنسان هي أخطاء زمانه ، على حين أن فضائله هي من عنده . ويمكن أن نفتخر غروره حين كتب في مقدمة « تناسق الكون » ،

أن ما وعدت به أصدقائي في عنوان هذا الكتاب . . . وما أثرته منذ ١٦ عاما كموضوع يستحق البحث . وهو الذى من أجله انضمت قلى تيكوبراهي . . . وهو الذى خصصت له أحسن سنى حياتي قد أخرجته اليوم إلى النور . . . لم تمض بعد ثمانية عشر شهرا حين سقطت الشمس المشرقة على . . . ان يعوفنى شيء ، سوف أطلق العنان لثورقي المقدسة . . . إذا غفرتم لى فلسوف أبتهج . . . وأن غضبتهم فلسوف أحتمل غضبتكم . . . سبق السيف العدل . لقد وضع الكتاب ، وليس يهمنى كثيرا أن يقرأ الآن ، أو أن تقرأه الذراري والأعقاب ، ولم لا ينتظر قرنا ليجد فارثا ، كما انتظر « الله ، الاله ستة آلاف عام حتى وحد مستكشفنا (٧٢) » .

وفي « خلاصة فلك كوبر نيكس » (١٦١٨ - ١٦٢١) أوضح كبلر كيف أن قوانينه أيدت وشرحت وأصلحت من نظرية كوبر نيكس ، فقال « لقد شهدت من أعماق نفسي بأنها صحيحة ، وإني لأنأمل جمالها في ابتهاج غامر لا يكاد يصدق (٧٣) » ، ووضعت الرسالة في عداد الكتب المحظورة لأنها نمت

عن أن نظرية كورنيكس كانت قد أثبتت . ولم يزرع كبلر ، وهو البروتستانتى الورع . وعاش لفترة قصيرة فى بحوحة من العيش وسط الهليل والتصفيق . وكان بصفة عامة يتقاضى راتبه بوصفه فلكى الامبراطور ، ومن بريطانيا النائية دعاه جيمس الاول (١٦٢٠) ليذهب إلى هناك ليزدان به البلاط الملكى ولكنه رفض الدعوة خشية أن يعانى من أن يصبح حبسا فى جزيرة (٧٥) .

وشارك كبلر أهل زمانه فى الإيمان بالسحر ، واتهمت أمه بممارسته . وادعى بعض الشهود أن ماشيتهم ، بل أنهم هم أنفسهم ، قد اتنابتهم العلل لمجرد أن دفرو كبلر ، قد مستهم ، وأقسمت إحدى المشاهدات على أن ابنتها البالغة من العمر ٨ سنوات قد أصابها سحر أم كلر بالمرض ، وهددت بقتل الساحرة إذا لم تبادر بإبراء البتة . وأنكرت المرأة المتهمة كل ما نسب إليها ، ولكن قبض عليها وأودعت السجن مكبلة فى الأغلال ، ودافع عنها كبلر فى كل مراحل نظر الدعوى . واقترح المدعى العام فى الولاية أن ينتزع عنها الاعتراف بالتعذيب ، واقتيدت إلى غرفة التعذيب لترى الآلات المستخدمة فيه ، ولكنها ظلت تؤكد برامتها . وأفرج عنها بعد أن قضت فى السجن ثلاثة عشر شهرا . ولكنها ما لبثت أن ماتت (١٦٢٢) .

أن هذه المأساة بالاضافة إلى آثار نشوب الحرب هنا وهناك ، ملأت سنى كبلر الأخيرة بالغم والقتام . وفى ١٦٢٢ احتلت القوات الامبراطورية مدينة لنز وقارب سكانها أن يهلكوا جوعا . وفى وسط هذه الفوضى وأصل كبلر صياغة أرصاده وملاحظاته ، وأرصاد تيكو وغيره من الفلكيين وملاحظاتهم ، وتدوينها فى « الجداول الرودفية » التى ضمت وصنفت ١٠٠٥ نجما ، وبقيت ذات قيمة معترف بها لمدة قرن من الزمان . وفى ١٦٢٦ انتقل إلى أولم . وأبطأ به راتبه الامبراطورى ولاقى عنتا شديدا فى الاتفاق على أسرته . وأهاب بدوق والنشتين أن يعينه منجما ، فكان له ما أراد ، وظل لعدة سنوات يتبع القائد بحسب له الطالع وينشر التقاويم التنجيمية . وقصد فى ١٦٣٢ إلى رجنز برج يلتهمس من الديت أن يدفع له رواتبه المتأخرة .

واستنزفت الجهود ما بقى له من قوى جسمية ، فإنتابته الحمى ، وأودت بحياته في أيام قلائل (١٥ نوفمبر ١٦٣٠) وهو في التاسعة والخمسين من العمر وقد طمسته الحرب كل معالم قبره .

وكانت رسالته في تاريخ الفلك أن يتوسط بين كوبرنيكس ونيوتن . وتقدم على كوبرنيكس بإحلاله المدارات ذات القطع الناقص محل المدارات الدائرية ، وبالتخلي عن الانحرافات وأفلاك التدوير ، وفي وضعه الشمس في إحدى بؤرتي القطع الناقص ، لا في مركز دائرة . وبهذه التغييرات خلص نظرية كوبرنيكس من الصعاب التي كادت تبرر رفض تيكوبراهي لها . وعن طريقه بدأت الآن فكرة القياس من مركز الشمس تلقى قبولا وتنتشر إنتشاراً واسعاً . وحول ما كان مجرد حدس براق ، إلى فرضية مصوغة في تفصيل رياضي . وأمد نيوتن بقوانين الكواكب التي قادت إلى نظرية الجاذبية . وعلى حين احتفظ كبار بعقيدة الدينية راسخة لا تتزعزع ، أظهر أن الكون كيان له قانون ، ونظام كامل متناغم متناسق ، فيه قوانين تحكم الأرض كما تحكم هي نفسها النجوم . وهو يقول : أن كل ما أصبوا إليه أن أدرك كنه الذات الإلهية ، فأنى أجد الله في الكون الخارجي مثلما أجد في داخلي أنا ، (٧٦) .

٩ - جاليليو : ١٥٦٤ - ١٦٤٢ :

١ - الفيزيائي :

ولد جاليليو جاليلي في بيزا يوم وفاة ميكلانجيلو (١٨ فبراير ١٥٦٤) ، في نفس العام الذي ولد فيه شكسبير . وكان أبوه فلورنسيا مثقفاً أسهم في تعليمه اليونانية واللاتينية والرياضيات والموسيقى . ولم يكن من قبيل العبث أن يكون جاليليو ، على وجه الدقة تقريباً ، معاصراً لمنتفردى (١٥٦٧ - ١٦٤٣) لأن الموسيقى كانت من ضروب عزائه وسلواه الدائمة ، وبخاصة في سني شيخوخته التي فقد فيها بصره ، فعزف على الأرغن عزفاً جديراً بالأكابر والتقدير ،

وعزف على العود عزفا جيداً . وأحب الرسم والتصوير ، وأبدى في بعض الأحيان أسفه أنه لم يصبح فناناً . وفي إيطاليا العجيبة التي قضى فيها شبابه ، ظل تيار النهضة يلفح الوجوه موحياً إلى الناس بالسكال . وحزن جاليليو لأنه لم يتيسر له أن يصمم معبداً أو ينحت تمثالا أو يصور لوحة أو ينظم شعراً أو يؤلف موسيقى أو يقود سفينة^(٧٧) ، لقد هفت نفسه إلى أن يقوم بهذا كله ، وإنا لنحس حين ندقق النظر فيه أنه لم يكن يعوزه إلا الوقت . وكان يمكن تحت أى الظروف على اختلافها ، أن يكون مثل هذا الانسان رجلاً عظيماً في أية ناحية من النواحي . ونزع جاليليو في صباه ، بطبيعته أو بحكم الظروف إلى صنع الآلات واللعب بها .

وأرسل وهو في السابعة عشرة إلى جامعة بيزا ليدرس الطب والفلسفة . وبعد سنة واحدة أنجز كسفة العلمية الأولى — وهو إن تأرجحات البندول ، بصرف النظر عن إتساعها ، تستغرق نفس الوقت . وبإطالة ذراع البندول أو تقصيره أمكنه أن ينقص أو يزيد من معدل ذبذبته حتى تزامنت مع نبضه ، وبهذه « البلسيلوجيا » (علم النبض) استطاع أن يقيس ضربات القلب بدقة .

وحوالى هذا الوقت اكتشف أقليدس ، حيث استمع مصادفة إلى معلم يدرس الهندسة لغلان دوق تسكانيا الأكبر ، فبدأ له أن منطق الرياضيات أسمى ، بما لا يقاس . من الفلسفة الاسكولاستية (الفلسفة النصرانية في القرون الوسطى وأوائل عصر النهضة) وفلسفة أرسطو ، اللتين تلقاهما في فاعة الدرس فانصرف خفية ، وفي يمانه « مبادئ » ، إقليدس ، إلى متابعة دروس معلم الغلمان واهتم به المعلم ، ولقنه الدروس سرا . وفي ١٥٨٥ ترك جاليليو جامعة بيزا دون أن يحصل على درجة وانتقل إلى فلورنسة ، وبتوجيه من المعلم انصرف في ولع شديد إلى الرياضيات والميكانيكا . وبعد ذلك بعام واحد اخترع ميزاناً هيدروستاتياً ليقدر الأوزان النسبية للمعادن في سبيكة وأثنى عليه وامتدحه كلافيوس الجزويتى لبحث في مركز الجاذبية في الأجسام الصلبة . وفي تلك الأثناء انحطت موارد أبيه ، وكان عليه أن يواجه الالتزام بكسب قوته بنفسه

فتقدم بطلبات للتدريس في بيزا وفلورنسة وبادوا ، فرفضوا تعيينه لصغر سنه
وفي ١٥٨٩ ، بينما كان هو وأحد أصدقائه يسعيان للحصول على عمل
في القسطنطينية وفي الشرق ، نعى إلى علمه خلو كرسى الرياضيات في بيزا .
فتقدم لشغله ، وهو قليل الرجاء في الحصول عليه . وكان بعد في الخامسة
والعشرين . وعين في هذا المنصب لمدة ثلاث سنوات براتب قدره ٦٠ سكودى
في العام . وكاد بهذا الراتب أن يتضور جوعا . ولكنه استطاع أن يكشف
عن نشاطه وجلده .

لقد اشتد عوده إلى حد كبير ، فبدأ لفوره ، من منصة التدريس ، في شن
الحرب على فيزياء أرسطو . لقد قال الإغريق د بأن الحركة إلى أسفل لاية
كتلة من الذهب أو الرصاص أو أى جسم آخر يهبط نتيجة تنقله ، أسرع
بالنسبة لحجمه^(٧٨) . وذهب لكريشيس^(٧٩) وليونارد ودافنثي^(٨٠) إلى هذا
الرأى . وفي الأزمنة القديمة ناقش هبارخس (حوالى ١٣٠ ق . م) رأى
أرسطو عن هبوط الأجسام بفعل الثقل ، . وذهب يوانس فيليبونس (٥٣٣)
وهو يعلق على أرسطو د إلى أن الفرق الزمنى بين سقوط جسمين وزن أحدهما
ضعف وزن الآخر ، ، هو لا شئ البتة ، أو أنه فرق ضئيل جدا لا يمكن^(٨١)
ادراكه وهنا نأتى إلى قصة مشهورة ، ولو أنها محل نزاع ، وردت أولا في سيرة
حياة جاليليو ، التى كتبها صديقة فلشنزو فيفيانى في ١٦٥٤ (بعد ١٢ عاما من وفاة
جاليليو) ، مدعيا أنها مستقاة من كلام جاليليو نفسه .

ما كان أشد فزع الفلاسفة كلهم ، حين أثبت جاليليو أن كثيرا
جدا من النتائج التى استخلصها أرسطو ، زائفة ، عن طريق التجارب
والبراهين الدامغة . . . من ذلك أن سرعة الأجسام المتحركة من مادة
واحدة ، ولكن مختلفة الوزن ، ومتحركة في نفس الوسط لا تحتفظ
بالتبادل بتناسب وزنها . كما قال أرسطو . ولكنها كلها تتحرك بنفس
السرعة . مد للاعلى ذلك بتكرار التجارب من فوق برج بيزا ، بحضور

سائر المعلمين وكل الفلاسفة والطلبة . . . أنه عزز مكانة كرسى التدريس وحظى بشهرة أهاجت حقد الفلاسفة منافسيه عليه حتى ثاروا ضده (٨٢).

أن جاليليو نفسه لم يذكر شيئا عن تجربة بيزا في كتاباته الباقية . كما أنه لم يرد ذكرها فيما دونه لإنان من معاصرة في ١٦١٢ و ١٦٤١ عن تجاربهما الخاصة بهما في إسقاط أجسام مختلفة الوزن من فوق البرج المائل (٨٣) ورفضت قصة فيفياني على أنها أسطورة من نسج بعض الباحثين في ألمانيا وأمريكا * . وليس من المؤكد كذلك أن زملاءه الأساتذة في بيزا استاءوا . وترك هذه الجامعة في صيف ١٥٩٢ ، وربما كان السبب في ذلك أنه عرض عليه مركز أعلى ومرتب أكبر ، فتراه في سبتمبر أستاذا في بادوا يدرس الهندسة والميكانيكا والفلك ، وقد حول داره إلى معمل دعا إليه طلبته وأصدقائه . وتجنب الزواج ولكنه اتخذ عشيقته أنجبت له ثلاثة أطفال .

ووضع جاليليو ما جمعه من أبحاث وتجارب ، في كتابه « محاورات حول علمين جديدين » ، وذلك في أيامه الأخيرة ، قبيل وفاته ، ويقصد بهذين العلمين الاستاتيكا والديناميكا . وأثبت عدم قابلية المادة للفناء . وصاغ قواعد الرافعة والبكرة . وأوضح أن سرعة سقوط الأجسام سقوطا مطلقا تزيد بنسبة

(*) إن كتابات أرسطو هي في الغالب ملاحظات موجزة ، ربما توسع فيها أو عدلها في محاضراته . وربما قصد بقطعة « De Coelo » أنه في وسط مقاوم ، بما في ذلك الهواء الطلق ، تسقط الأشياء ذات الكتلة المكثفة مثل قطعة النقود ، أسرع ما تسقط الأشياء ذات الحجم الكبير والوزن الصغير مثل قطعة الورق . وهذا بطبيعة الحال صحيح . ولكن في فراغ ، تسقط قطعة النقود والورقة أو كرة من الرصاص وريشة ، بنفس السرعة . بل أنه حق في الهواء الطلق ، فإن قطعة الورق إذا تفصلت في كتلة متضامة تسقط بنفس السرعة التي تسقط بها العملة تقريبا . وإذا حلطنا التعديل في بيان فيفياني أن الأشياء يجب أن تكون من نفس المادة . . . وأن تسقط في نفس الوسط ، فإن الهوة بين فيلسوف اليونان وعالم بيزا تضيق كثيرا .

منظمة . وقام بتجارب كثيرة على مستويات مائلة ، وحاول أن يبرهن على أن أى جسم يتدحرج إلى أسفل على مستوى ما يمكن أن يصعد على مستوى مماثل إلى ارتفاع مماثل لسقوطه . لولا الاحتكاك أو أية مقاومة أخرى . وانتهى إلى قانون القصور الذاتى (وهو أول قوانين نيوتن للحركة) — وهو أن أى جسم متحرك ، يستمر بشكل غير محدود فى نفس الخط وبنفس معدل الحركة ، ما لم تتدخل معه قوة خارجية^(٨٤) وأثبت أن أية قذيفة تدفع فى اتجاه أفقى تسقط إلى الأرض فى منححن قطعى مكافئ يقابل قوة الدفع وقوة الجاذبية . وحول العلامات المرسقية إلى مسافات موجبة فى الهواء ، وأوضح أن درجة النخم تعتمد على عدد الذبذبات التى يحدثها الوتر المعزوف فى وقت محدد . وقال بأن النغمات تبدو متوافقة متألقة إذا طرقت الذبذبات الأذان فى انتظام إيقاعى^(٨٥) . إن خواص المادة لا تكون إلا للمادة التى يمكن معالجتها رياضيا — التدد ، الوظيفة ، الحركة الكثافة . أما الخواص الأخرى — الأصوات والطعم والرائحة والألوان وما إليها ، فإنها تستقر فى الشعور فقط ، فإذا فنيتم المخلوقات الحية انمحت هذه الصفات وأبطلت^(٨٦) ، وراوده الأمل فى أن هذه الصفات الشافوية ، يمكن بمرور الزمن تحليلها إلى خواص طبيعية أولية للمادة والحركة ، ويمكن قياسها رياضيا^(٨٧) .

وتلك إضافات أساسية مثمرة للعلم ، عوقها عدم كفاية الآلات والأجهزة العلمية . ومن ذلك أن جاليليو استخف بعامل مقاومة الهواء فى سقوط الأجسام والقذائف . ولكن ما من رجل ، منذ أرشميدس ، أدى للفيزياء مثلاً أدى جاليليو .

٢ — الفلكى :

كان جاليليو ، فى أخريات أيام إقامته فى بادوا ، يخصص جزءاً أكبر فأكبر من وقته للفلك . وفى ١٥٩٦ كتب إلى كبلر (الذى يصغره بسبع سنين) رسالة يشكره فيها على كتابه « الكون الخفى » جاء فيها : —

إني لأعتبر نفسي سعيدا لأجد في شخصك زميلا عاليا مثلك ، في بحثي عن الحقيقة . . . وسأعكف على قراءة كتابك تحدوني كل الرغبة في استيعاب ما فيه ، لأنني كنت لعدة سنوات من أنصار نظرية كوبرنيكس ، ولأنه (أى الكتاب) يكشف لى عن أسباب كثير من الظواهر الطبيعية البالغة الإبهام والتي لا يمكن فهم كنهها في ضوء الفرضية المقبولة عامة . ودخضا لهذه الفرضية جمعت براهين كثيرة . ولكنى لا أنشرها ، حيث يثني عن نشرها حظ أستاذنا كوبرنيكس الذى حظى لدى نفر قليل من الناس بشهرة خالدة ، ولكن لقي تجريبا واستنكارا من كثرة لا يحصى عديدها (لأن عدد الأغبياء كبير جدا) . وقد أنجاس على نشر تأملاتي إذا كثرت أمثالك^(٨٨) .

وأعلن جاليليو إيمانه بنظرية كوبرنيكس في محاضرة ألقاها في بيزا ١٦٠٤ وصنع في ١٦٠٩ أول مقراب (تلسكوب) له ، وفي ٢١ أغسطس عرضه على السلطات الرسمية في البندقية وإليك روايته في هذه المناسبة : -

أن كثيرا من النبلاء وأعضاء السناتو ، برغم كبر سنهم ، صعدوا أكثر من مرة إلى قمة أعلى كنيسة في البندقية (سان مارك) لكي يروا الأشرطة والمراكب . . . وهى بعيدة جدا بحيث لا بد من انقضاء ساعتين قبل رؤيتها بغير منظارى المقرب . . . لأن تأثير آلتى يصل إلى حد أن أى جسم على مسافة خمسين ميلا . يظهر كبيرا كما لو كان على مسافة خمسة أميال فقط . . . إن السناتو الذى عرف كيف نهضت بخدمته لمدة سبعة عشر عاما في بادوا . . أصدر أمرا باختيارى للأستاذية مدى الحياة^(٨٩) .

وأدخل جاليليو على تلسكوبه من التحسينات ما جعله يكبر الأشياء ألف مرة . وذهل لما رأى من عالم جديد من النجوم التى تبلغ عشرة أمثال ما دون عنها من قبل . وشوهد أن المجموعات الآن تحتوى على عدد كبير من النجوم لا يمكن رؤيتها بالعين المجردة ، ورئى أن نباتات أطلس ، ستة وثلاثون

بدلاً من سبع ، وأن « كوكبة الجبار ، ثمانون بدلاً من سبع وثلاثين ، وظهرت « المجرة » ، لا كتلة سديمية ، بل غابة من النجوم الكبيرة أو الصغيرة . ولم يعد القمر سطحاً أملس ، بل تغضن من الجبال والوديان ، ويمكن أن يفسر ضوءه في نصفه غير المواجه للشمس بأنه ، بصفة جزئية ، راجع إلى ضوء الشمس المنعكس من الأرض . وفي يناير ١٦١٠ اكتشف جاليليو أربعة من « الأقار ، التسعة » ، أو توابع المشتري . وكتب يقول : « هذه الأجسام الجديدة تدور حول نجم آخر كبير جداً ، مثلما يدور حول الشمس ، عطارد والزهرة ، وربما غيرهما من الكواكب الأخرى المعروفة ^(٩٠) » ، وفي رواية اكتشف دائرة زحل الذي ظنّه خطأ ثلاثة نجوم . وكان نقاد كوبرنيكس قد قالوا بأنه إذا كانت الزهرة تدور حول الشمس ، فلا بد أن يكون لها ، مثل القمر . أوجه — أى تغيرات في النور وأشكال ظاهرية ، وغالوا بأنه لا توجد أية علامة على هذه التغيرات . ولكن في ديسمبر كشف تلسكوب جاليليو عن مثل هذه الأوجه ، واعتقد بأنه لا يمكن تفسيرها إلا بدوران الكوكب حول الشمس .

إننا لا نكاد نصدق ، ولكن جاليليو أكد في رسالة إلى كبلر ، أن أساندة بادوا أبوا أن يؤمنوا بصحة كشف جاليليو ، بل أبوا أن يشاهدوا السموات من خلال مناظيره ^(٩١) . لقد سئم الحياة في بادوا وتطلع إلى مناخ علمي أفضل في فلورنسه (التي كانت الآن تتحول من الفن إلى العلم) فأطلق على توابيع المشتري اسم « سيديرا مديشيا » ، وهو اسم كوزيمو الثاني دوق تسكانيا الأكبر وفي مارس ١٦١٠ أهدى إلى كوزيمو رسالة باللاتينية (*Sidereus nuncius*) لخص فيها كشوفه الفلكية . وفي شهر مايو كتب إلى سكرتير الدوق رسالة تلتهب بمثل الحماسة والزهو اللذين فاضت بهما رسالة ليونارد وإلى دوق ميلان في ١٤٨٢ . وعدد فيها الموضوعات التي كان يدرسها ، والكتب التي يأمل أن يدون فيها ما انتهى إليه من نتائج ، وتسامل هل في مقدوره أن يحصل له من سيده على وظيفة تتطلب أقل الوقت للتدريس وأكثر الوقت للبحث . وفي

يونانية عينه كوزيمو د كبير الرياضيين في جامعة بيزا ، وكبير الرياضيين في
والفلاسفة لدى الدوق الأكبر ، براتب سنوى قدره ألف فلورين ، دون
التزام بالقيام بالتدريس . وفي سبتمبر انتقل جاليليو إلى فلورنسه ، دون أن
يصطحب معه خليلته .

وكان قد أصر على لقب الفيلسوف ولقب الرياضى على السواء ، لأنه أراد
أن يؤثر في الفلسفة والرياضيات كتيهما . وأحس ، كما أحس راموس وبرونو
وتلزيو وغيرهم من قبل ، وكما كان يدال بيبكون في نفس هذا العقد من السنين .
على أن الفلسفة (التى فهمها على أنها دراسة وتفسير للطبيعة في جميع مظاهرها)
قد ارتمت في أحضان أرسطو ، وأنه قد حان الوقت للتحرر من الأربعين سجلا
اليونانية ، وللنظر إلى العالم بمقولات أكثر انطلاقا وعبون وعقول مفتوحة .
أنه يمكن القول بأنه وثق بالعقل ثقة كبيرة . د إني الحكى أثبت لخصوى صحة
النتائج التى انتهت إليها ، اضطرت إلى أن أثبتها بتجارب كثيرة مختلفة . ولو أنى
أنا وحدى لم أحس قط . بأنه من الضرورى أن أفوم بتجارب كثيرة (٩١) .

وكان فيه من الغرور وروح المشاكسة ما يتسم به المبتكرون المجددون ،
ولو أنه تحدث أحيانا في تواضع حكيم ، د ما قابلت قط يوما رجلا جاهلا
إلا تعاملت منه شديدا (٩٢) . وكان مجادلا عنيدا بأرعا في طعن غريمه بعبارة ،
أو سلقه بالسنة حداد . وعلى هامش كتاب للجزيوتى أنطونيو روتشو يدافع
فيه عن فلك بطلميوس ، كتب جاليليو : « جاهل ، فيل ، أحمق ، غبي ،
خصى (٩٣) » .

ولكن هذا كان بعد انضمام الجزيوت إلى إتهامه . وقل اعطداه بحكمة
التفتيش كان له أصدقاء كثيرون في د جماعة يسوع ، وعدم كريستوفر
كلافيوس إلى إثبات ملاحظات جاليليو بملاحظاته هو نفسه . وأطنب جزيوتى
آخر في مدح جاليليو على أنه أعظم الفلكيين في ذاك العصر . وثمة لجنة من
الباحثين الجزيوت ، عينها الكاردينال بللارمين لفحص كشوف جاليليو ،

فكتب تقريراً أيدت فيه كل النقاط^(٩٥) . وعندما قصد إلى رومه في ١٦١١ أكرم الجزويت وفادته على أنه « زميل روماني ، لهم . وكتب يقول : « أقمت مع الآباء اليسوعيين وكانوا قد تحققوا من الوجود الفصلي للسكواكب الجديدة ، وظلوا يرالون رصدها لمدة شهرين ، وقارنا ملاحظتنا وأرصاداتنا فوجدناها متفقة كل الاتفاق^(٩٦) » ورحب به كبار رجال الكنيسة ، وأكد له البابا بول الخامس شعوره الطيب الذي لا يتغير نحوه ورضاه عنه^(٩٧) .

وفي أبريل عرض على المطارنة والأساقفة ورجال العلم في رومه نتائج أرصاده التي كشفت عن وجود البقع الشمسية التي فسرها هو بأنها سحب . ومن الواضح أن جاليليو كان يجهل أن يوهان فابريكيوس كان قد أعلن بالفعل عن كشفها في بحثه « البقع الشمسية » (وينتبرج ١٦١١) ، واستبق جاليليو فيما استخلصه من أن « دورية ، البقع تدل على دوران الشمس ، وفي ١٦١٥ وجه كرسstof شينر أستاذ الرياضيات الجرويتي في انجلوستان ، إلى ماركوس ولزر كبير القضاة في أوجزبرج ، ثلاث رسائل زعم فيها أنه كشف البقع الشمسية في أبريل ١٩١١ . فلما أعاد جاليليو إلى فلورنسه تلقى من ولزر نسخة من رسائل شينر ، وناقشها في بحث له « ثلاث رسائل عن البقع الشمسية ، نشرته أكاديمية دي لنسي في رومه ١٦١٣ ، وزعم أنه رصد البقع في ١٦١٠ ، وعرضها على الأصدقاء في بادوا . وفي ملحمة ادعاء سبق إلى كشف البقع تخلخلت أواخر الصداقة بين جاليليو والجزويت .

واقترعا من جاليليو بأنه يمكن تفسير كشفه على أساس من نظرية كوبرنيكس ، شرع يتحدث عن النظرية على أنها قد تم إثبات صحتها . ولم يكن لدى الفيلسوفين اليسوعيين أي اعتراض على اعتبارها مجرد فرضية . وأرسل شينر اعتراضاته على آراء كوبرنيكس مع رسالة يستميله ويسترضيه فيها : « إذا أردت أن تتقدم بحجج مضادة فإنها لن تسمى إلينا في شيء ، بل على

النقيض من ذلك ، إن كل هذا مهيئنا على إظهار الحقيقة (٩٨) . وأحس كثير من رجال اللاهوت أن فلك كوبرنيكس كان واضحا كل الوضوح أنه لا يتفق مع ما جاء في الكتاب المقدس . وأن الكتاب المقدس سوف يفقد قيمته وأن المسيحية نفسها سوف تتأثر إذا انتشرت آراء كوبرنيكس . ماذا يمكن أن يصيب العقيدة المسيحية الأمامية إذا كان الله سبحانه وتعالى قد اختار كوكب الأرض مقرا (كرسيا) دنيويا له — هذه الأرض التي يريدون اليوم أن يجردها من مكانتها السامية ومزلتها الرفيعة ، وتوضع طليقة بين كواكب أكبر منها مرات كثيرة ، وبين نجوم لا حصر لها ؟ .

٣ — في المحاكاة :

واجه جاليليو هذه المشكلة في عناد وثبته . وفي ٢١ ديسمبر ١٦١٣ كتب إلى الأب كامبيلي : « حيث أن الكتاب المقدس يتطلب تفسيراً يختلف عن المعنى المباشر للألفاظ (مثلاً يحدث عند تحدّثه عن غضب الله ، وبغضه وتأنّيه ويديه وقدميه) . فإنه يبدو لي ليس للكتاب المقدس كبير شأن في حال الجدول والمناظرات الرياضية ... وأعتقد أن العمليات الطبيعية التي ندرّكها بالرصد الدقيق أو الملاحظة الدقيقة ، أو نستنتجها بالدليل المقنع . لا يمكن دحضها أو تنفيذها بآيات من الكتاب المقدس (٩٩) . وأنزعج الكاردينال بلارمين ، وبعث إلى جاليليو عن طريق أصدقاء الطرفين ، بعتاب قاس ، وكتب إلى فوسكاريني تلميذ جاليليو يقول : « يبدو لي أنه ينبغي أن أنصحكم ، أنت وجاليليو ، ألا تتحدّثا بمثل هذه اللهجة القاطعة (عن الفلك الجديد وكأنه قد ثبتت صحته) ، بل على سبيل الافتراض لحسب ، وهو ما أنا مقتنع بأن كوبرنيكوس نفسه قد فعل من قبل (١٠٠) » .

وفي ٢١ ديسمبر ١٦١٤ بدأ الهجوم توماسو كانتشيني ، وهو واعظ دومنيكاني ، اتخذ تورية بارعة من آية الانجيل « أيها الرجال الجليليون ما بالكم واقفين تنظرون إلى السماء » (أعمال الرسل ١ — ١١) ومضى يوضح أن نظرية

١٨-٣٠ الحضارة

كوبرنيكس تتعارض تعارضا تاما لا يقبل الجدل مع الكتاب المقدس وأرسل معارضون أقل شأنا بشكاوى إلى محكمة التفتيش ، وفي ٢٠ مارس ١٦١٥ أودع كامبني اتهاما رسميا ضد جاليليو في المحكمة ، فكتب المونسنيور ديني إلى جاليليو أنه لن يمس بسوء إذا وضع في منشوراته بعض عبارات تشير إلى أن رأى كوبرنيكس هو مجرد فرضية (١٠١) . "وليكته أفي" كما قال ، لن يعدل أو يخفف من كوبرنيكس . في رسالة نشرت في ١٦١٥ ، كتب إلى دوقه تسكانيا الكبرى يقول : " بالنسبة لترتيب أجزاء الكون ، أعتقد أن الشمس قائمة دون حركة في مركز دوران الأجرام السماوية * . على حين أن الأرض تدور على محورها كما تدور حول الشمس (١٠٢) ، ثم مضى يمين في المطرقة :

" إن الطبيعة عنيدة ثابتة لا تتغير ، ولا تتجاوز قط القوانين التي فرضت عليها . ولا تسكرت في قليل ولا كثير بأن الناس لا يفهمون أسبابها ولا مناهجها العويصة المبهمة . ومن ثم فإنه يبدو أنه ليس ثمة شيء طبيعي تضعه التجربة الحسية أمام أعيننا ، أو تثبته لنا البراهين الضرورية ، ينبغي أن يكون محل نزاع بمقتضى نصوص الكتاب المقدس ، التي قد يكون لها معنى مختلف كامن وراء الألفاظ . "

على أنه وعد بالامتنال للكنيسة :

إني أعلن (ولسوف يتضح صدق وإخلاص) لا مجرد أني أقصد أن أستسلم حرا مختارا وأعترف بأخطائي التي يمكن أن أقع فيها في هذا النقاش ، نتيجة الجهل بأمور تتعلق بالدين ، بل أني كذلك لا أحب أن أدخل في نزاع حول هذه الأمور مع أي إنسان كان ... وهدف

(*) من سخرية التاريخ أن هذه قضية لا يؤمن بها اليوم أي فلكي ، وربما كان الفلك بأسره ، مثل التاريخ برمته ، يجب أن يؤخذ على أنه مجرد فرضية . وليس ثمة يقين من العالم الآخر ، كما أنه ليس ثمة يقين من الأمس .

الوحيد هو أنه إذا وجد من بين الأخطاء التي قد تكثر في بحث موضوع بعيد عن اختصاصي ، أى شيء يفيد الكنيسة المقدسة في اتخاذ قرار يتعلق بمنهج كوبرنيكس ، فيمكن أن تأخذه وتنتفع به ، كما يحلو لرؤسائها ، وإلا فليمزق كتابي ويحرق . لأنى لا أقصد ولا أزعم أن أجنى ثمارا تجانبها التقوى والكشاكه (١٠٣) .

ولكنه أضاف : د أنى لا أشعر بأن مضطر إلى الايمان بأن الله الذى أمدنا بالاحساس والعقل والفكر ، قصدنا أن نضيع فرصة استخدامها والانتفاع بها (١٠٤) .

وفى ٥ ديسمبر ١٦١٥ قصد إلى رومة من تلقاء نفسه مزوداً برسائل ودية من الدوق الأكبر إلى ذوى النفوذ من المطارنة والأساقفة ، وإلى سفير فلورنسة فى الفاتيكان . وفى رومة أخذ جاليليو على عاتقه أن يحول الرجال الرسميين عن رأيهم فرادى ، وعرض نظرية كوبرنيكس كلها سنحت له فرصة وفى كل مناسبة ، وسرعان ما بات د كل فرد فى رومة يبحث فى النجوم (١٠٥) . وفى ١٦ فبراير ١٦١٦ أصدرت محكمة التفتيش توجيهاتها إلى الكاردينال بللارمين بأن يستدعى من يدعى جاليليو ويتذره بأن يتخلى عن آرائه المزعومة ، وفى حالة امتناعه . . . يعلنه أمام كاتب العدل وبعض الشهود بالامر بالافلاخ عن تدريس آراء كوبرنيكس أو الدفاع عنها ، بل حتى مناقشتها ، فإذا لم يذعن لهذا يودع السجن (١٠٦) . وفى اليوم ذاته مثل جاليليو أمام الكاردينال بللارمين وأعلن امتثاله للأمر (١٠٧) . وفى ٥ مارس أصدرت المحكمة قرارها التاريخي :

إن الفكرة التى تقول بأن الشمس تقف بلا حركة وسط الكون فكرة سخيفة ، وهى من الناحية الفلسفية فكرة زائفة ، وهى كذلك هرطقة لا جدال فيها ، لأنها تناقض النصوص المقدسة . والفكرة التى تقول بأن الأرض ليست مركزا للكون بل حتى أن لها دورة يومية ، زائفة من الناحية الفلسفية ، وأنها على الأقل اعتقاد خاطئ (١٠٨) .

وفى نفس اليوم حرمت لجنة فهرست الكتب المنوعة ، نشر أو قراءة

أى كتاب يدافع عن النظريات الممنوعة ، أما بالنسبة لكتاب كوبرنيكس ،
(١٥٤٣) إذ فقد حظرت إستخدامه حتى يتم تصويبه . وفى ١٦٢٠ أباحت
للكاثوليك قراءة الطبقات التى حذفت منها تسع عبارات كانت تثبت أن
النظرية صحيحة .

وعاد جاليليو أدراجه إلى فلورنسه وخلا إلى الدروس فى داره « بللو
سجاردو » ، وكف عن الجدل حتى ١٦٢٢ . وفى ١٦١٩ نشر أحد مريديه ،
ماريو جيدوتشى ، مقالا يحسم فيه نظرية جاليليو (المرفوضة الآن) وهى ان
المذنبات عبارة من إنبثاقات فى الغلاف الجوى للأرض ، منتقدا بشدة آراء
الجزويتى أورازيو جراسى فا كان من الخير أو الآب الغاضب إلا أن نشر تحت
اسم مستعار هجوما على جاليليو وأشياعه . وفى ١٦٢٢ أرسل جاليليو إلى
المونسنيور شينازينى فى رومه مخطوطة « للمحلل » ، يرد به على جراسى وينبذ فى
بحال العلم أى استشهاد أو مرجع إلا الرصد والعقل والتجربة . وبموافقة المؤلف
خفف أعضاء أكاديمية لذى بعض عبارات قليلة . وبهذه الصيغة قبل البابا أريان
الثامن أن يهدى إليه ، وأجاز طبعه (أكتوبر ١٦٢٣) أنه ألمح تأليف جاليليو ،
ولاحدى روائع النثر الايطالى والقدرة والبراعة فى الجدل والمناظرة . وقيل
إن البابا سر به ، وأن الجزويت تضايقوا منه .

وما أن ظهر جاليليو بهذا التشجيع حتى قصد ثانية إلى رومه (أول
أبريل ١٦٢٤) أملا فى تحويل البابا الجديد إلى الايمان بأراء كوبرنيكس .
وتلقاه أربان بالود والترحات — واستقبله ست مرات فى لقاءات طويلة ،
وأغدق عليه الهدايا . واستمع إلى حجج كوبرنيكس ، ولكنه أبى أن يرفع
حظر المحسكه . وقفل جاليليو راجعا إلى فلورنسه ، يعزبه تصريح أربان
للدوق الأكبر : « لقد غمرنا بعطفه الأبوى لوقت طويل هذا الرجل العظيم
الذى تتألق شهرته فى السماء كما تملأ الأرض » (١٠٩) . وفى ١٦٢٦ شد من عزم
جاليليو تعيين تلميذه بنديتو كاستللى رياضيا للكبرى البابوى ، وتلميذ آخر
هو الآب نيقولو ريتشاردى كبير مراقبى المطبوعات ، فسارع الآن لاستكمال

مؤلفه الأساسى ، وهو عرض لمنهج كوبرنيكس والمنهج المعارض له . وفى
هايو حمل المخطوطة إلى رومه ، وعرضها على البابا ، وحصل على ترخيص من
الكنيسة بنشرها ، شريطة معالجة الموضوع على أنه فرضية . وعاد إلى فلورنسه
حيث راجع الكتاب وأصدره فى فبراير ١٦٣٢ تحت عنوان طويل ، محاوره
جاليلى جاليليو حيث أنه فى اجتماعات دامت أربعة أيام ، نقش فيها
المنهجان الوثيسيان فى العالم : منهج بطليموس ومنهج كوبرنيكس مع عرض ،
دون تحيز ولا تجديد ، للحجج الفلسفية والطبيعية المنهجين كليهما .

وربما جلب الكتاب على مؤلفه بلايا أقل ، وكسب له شهرة ، لولا بدايته
وخاتمته . تقول المقدمة : « إلى القارئ البصير الفطن » :

منذ عدة سنوات نشر فى رومه مرسوم بابوى مفيد ، قضى — تجنباً
للنزعات الخطيرة فى عصرنا الحاضر — بفرض نطاق من الصمت المعقول
على الرأى الذى نادى فيه فيتاغورس . والذى يقول بأن الأرض تدور .
ومن الناس من ذكر فى توقع وصفافه — أن هذا المرسوم لم ينبع من
تحريات وتدقيقات تنسم بالحكمة وحسن التمييز ، بل عن هوى ينم عن قلة
الدراية والمعرفة ، وتعالى الشكاوى بأنه يحذر الابتاح للمستشارين الذين
ليس لديهم أية دراية بالأرصاد الفلكية فرصة التضييق على ذوى العقول
المفكرة المتألمة عن طريق قوانين الحظر المتهورة الطائشة (١١٠) .

والحق أن فى هذا إشارة للقارئ بأن صيغة الحوار تنسم بالمرأعة تملصاً
من محكمة التفتيش . وكان فى الحوار شخصيتان هما سلفيانى وساجريدو ،
وهذان أسمان لاثنين من أصدق أصدقاء جاليليو ، وهما يدافعان عن منهج
كوبرنيكس ، وشخصية ثالثة — سمبلشيو ، يدحضه ، ولكن فى مغالطة
صريحة واضحة ، وقرب نهاية الكتاب أورد جاليليو على لسان سمبلشيو عبارة ،
كان أزرمان الثامن قد أصر على إضافتها . وهى بالحرف الواحد تقريباً :

« إن الله هو القوى وهو على شئ قدير ، ومن ثم لا يجوز أن نقدم المد

والجزر دليلا ضروريا على حركتي الأرض لأننا بذلك نحد من سعة علم الله وقدرته ، وعلى هذه العبارة يعاق سلفياتي تعليقا ساخرأ فيقول : « أنها وأيم الحق حجة إنجيلية ممتازة » ، (١١١) .

أن الجزويت اللذين تناولت « المحاورات » ، كثيرا منهم في لهجة قاسية (جاء فيها أن أفكار شينر عقيمة تافهة ، ، أوضحوا للبابا أن عبارته سالفة الذكر أوردت على لسان شخصية أبرزها الكتاب ساذجة غافلة ، فعين أريان للجنة لفحص الكتاب ، وقررت اللجنة أن جاليليو لم يتناول نظرية كوبرنيكس على أنها فريضة ، بل على أنها حقيقة ، وأنه حصل على الترحيص بدشر الكتاب نتيجة لتحريفات وتشويهات بارعة ، وأضاف الجزويت إلى ذلك ، عن حكمة وبصيرة ، أن نظريات كوبرنيكس وجاليليو أشد خطرا على الكنيسة من هرطقة لوتر وكلفن . وفي أغسطس ١٦٣٢ حظرت المحكمة الاستمرار في بيع كتاب « المحاورات » ، وأمرت بمصادرة النسخ الباقية . وفي ٢٣ ديسمبر دعت جاليليو للمثول أمام مندوب الحكومة في رومه . وتوصل أصدقاؤه إلى أولى الأمر أن تشفع له لديهم مقامه وشيخوخته (٦٨ عاما) ، ولكن على غير طائل . وبعثت ابنته إليه وكانت وقتئذ راهبة متحمسة بخطابات مؤثرة ترجوه فيها أن يمثل للكنيسة ، كما نصحه الدوق الأكبر أن يذعن ، وزودم بمحفة الدوق الأكبر ، ودبر مع سفير فلورنسه أمر إقامته في السفارة . ووصل جاليليو إلى رومه في ١٣ فبراير ١٦٣٣ .

وانقض شهران قبل أن تدعوه محكمة التفتيش إلى المثول أمامها (١٢ أبريل) . واتهم بنقض عهده بالالتزام بقرار ٢٦ فبراير ١٦٣١ ، وحشوه على الاعتراف بذنبه ، فرفض محتجا بأنه لم يقدم آراء كوبرنيكس إلا على أنها مجرد فرضية ، وظل سجيناً في قصر المحكمة حتى ٣٠ أبريل ، وهناك ابتابه المرض ، ولم يعذبه ، ولكنهم ربما أشاعوا في نفسه الخوف من التعذيب . وفي مثوله الثاني أمام اللجنة اعترف في ذلة وخشوع أنه أورد آراء كوبرنيكس بشكل أكثر

إنحيازاً إليه منه ضده ، وعرض أن يصحح هذا في حوار ، يلحق بالأول . فرخصوا له بالعودة إلى دار السفير . وفي ١٠ مايو أعادوا التحقيق معه ، وعرض أن يكفر عن خطيئته ، ونوئل إليهم أن يرحموا شيخوخته واعتلاله صحته . وفي التحقيق معه للمرة الرابعة (٢١ يونية) أكد أنه بعد قرار ١٦١٦ « لم يعد يخافني أى شك ، وآمنت ، ولا زلت أؤمن ، برأى بطليوس — أن الأرض لا تدور ، وأن الشمس هي التي تدور — على أنه حق كل الحق ، ولا يقبل الجدل » (١٢) ، فاعتصمت المحكمة بأن محاورات جاليليو اوضحت ، بما لا يدع مجالاً للشك ، أنه يقر آراء كوبرنيكس ، وأصر هو على أنه كان ضد هذه الآراء منذ ١٦١٦ . وظل البابا على اتصال بالتحقيق ، ولو أنه لم يشهده بشخصه . وكان جاليليو يأمل في أن يمد له أريان الثامن يد العون ، ولكن البابا رفض التدخل . وفي ٢٢ يونيه أصدرت المحكمة قرارها بإدانته بالهرطقة والتمرد والعصيان . وعرضت عليه الغفران شريطة تأدية القسم علناً أمام الجمهور بالتخلي عن آرائه ، وحكمت عليه بالسجن في هذه المحكمة لمدة تحددها هي وفق مشيئتها ، ورأت للتكفير عن ذنبه أن يتلو مزامير الكفارة السبعة كل يوم طيلة السنوات الثلاث التالية ، وجعلوه يجثو ويبرأمن نظرية كوبرنيكس ، ويضيف :

بقلب مخلص ، وإيمان صادق ، ألعن وأبغض وأعلن التخلي عن الأخطاء والهرطقة المنسوبة إلى ، وبصفة عامة ، عن أى خطأ أو هرطقة أخرى أخالف فيها . . . الكنيسة المقدسة . وأقسم أنى لن أذكر بعد اليوم أى شيء قد يشير مثل هذه الريب حولي ، وأنى إذا عرفت أى هرطقة أو أى شخص مشتبّه في أنه هرطقة فلا بد أن أبلغ عنه هذه المحكمة . . . وأدعو الله أن يمنحني العون ، وأرجو أن تساعدني هذه الكتب المقدسة التي أضع يدي عليها (١٣) .

ووقع على الحكم سبعة من الكرادلة ، ولكن البابا لم يصدق عليه ^(١١٤) .
أما قصة أنه عند مغادرته قاعة المحاكمة غمغم متجدياً ومع ذلك فهي تدور
فعلاً . فإنها أسطورة لم يظهر لها أثر قبل ١٧٦١ ^(١١٥) . وبعد قضاء ثلاثة أيام
في سجن محكمة التفتيش ، سمح له ، بأمر من البابا ، بالذهاب إلى قصر الدوق
الأكبر في ترينتا موتى في رومه . ثم نقل بعد أسبوع إلى مسكن مريح في قصر
تلميذه السابق ، رئيس الأساقفة أسكانيو بتشولوميني في سيدينا . وفي ديسمبر
١٦٣٣ . سمح له بالانتقال إلى داره الخاصة في أرسري بالقرب من فلورنسه
أنه من الناحية العملية كان لا يزال سجيناً ، محظوراً عليه مغادرة مسكنه ،
ولكنه كان حراً في مواصلة دراساته . وتعليم تلاميذه ، وتأليف كتبه
واستقبال زائريه . وهنا زاره ملتون في ١٦٣٨ . وجاءت ابنته الراهبة لتقيم
معه . واحتملت هي نفسها عقوبة تلاوة المزامير السبعة .

٤ — الشيخ الجليل :

واضح أن جاليليو كان الآن رجلاً متهدماً مغلوباً على أمره ، أدلته كنيسة
أحسّت بأنها وصية على عقيدة بنى البشر وآمالهم وأخلاقيهم ، أن تخليه عن
آرائه بعد قضاء عدة شهور في السجن . وعدة أيام في المسائلة والمحاكمة ، بما
كان من الجائز أن يحطم عقل مكافح شاب كما يحطم لإرادته ، نقول أن هذا
التخلي كان أمراً يمكن التجاوز عنه لدى شيخ هرم علق بذكرياته لإحراق
برونو قبل ذلك بثلاثة وثلاثين عاماً ولكنه في الواقع لم يهزم فقد انتشر كتابه
في كل أنحاء أوروبا في أكثر من عشر لغات ترجم إليها . ولم يمح أثره .

وخفف من أحزانه وآلامه في سيدينا وفي أرسري اشتغاله بتلخيص أبحاثه
الفيزيائية في مؤلف ضخيم آخر : « محاورات ... حول علمين جديدين » .
ولما كانت أبواب المطبعة الإيطالية موصدة دونه بمقتضى الحكم الذي صدر
ضده ، فإنه أجرى مقاضات سرية مع طابعين أجانب ، وانتهى الأمر بأن مطبعة
الزفير أصدرت الكتاب في ليدن ١٦٢٨ . وهللت له دنيا العلماء على أنه سما

بعلم الميكانيكا إلى مستوى لم يبلغه من قبل . وبعد صدوره ، عكف جاليليو على إعداد محاورات إضافية درس فيها ميكانيكا القذف أو الإطلاق ، وأشار إلى ما جاء به نيوتن فيما بعد في قانونه الثانى عن الحركة . ويقول أول مؤرخى سيرة جاليليو : « فى أخريات أيام حياته ، وفيما كان يعانى كثيرا من اعتلال صحته ، كان عقله مشغولا دوما بالمسائل الميكانيكية والرياضية »^(١١٦)، وفى ١٦٣٧ وقبيل أن يفقد بصره ، أعلن عن آخر كشوفه الفلكية ، نودان أوميسان القمر - تغيرات جانبه المواجه للأرض دائما . وفى ١٦٤١ ، وقبل وفاته ببضعة شهور قلائل ، شرح لابنه طريقة صنع ساعة ذات بندول .

إن اللوحة التى رسمها له سوسترمان فى أسترى (والموجودة الآن فى قاعة بيتى) هى العبقرية مجسمة : جهة عريضة ، وشفتان مشاكستان مولعتان بالجدل والمناظرة ، وأنف دقيق ، وعينان حادتان ، نفاذتان ، وهذا وجه من أكرم الوجوه فى التاريخ . وفقد الشيخ الحليل بصره فى ١٦٣٨ . وربما كان التحديق المجهد سبب ذلك ، وكان يجد شيئا من العزاء فى اعتقاده بأن أحدا من بنى الإنسان من عهد آدم ، لم ير أكثر مما رأى هو ، فهو يقول : « إن هذا الكون الذى سمعت فيه وكبرته ألب مرة ، تقلص الآن وانحصر فى نطاق جسمى الضيق ، هكذا أراد الله ، ولا بد أن أريد هذا أنا أيضا »^(١١٧). وفى ١٦٣٩ حين كان يعانى من الارق ومن مائة من الآلام الأخرى رخصت له محكمة التفتيش فى زيارة فلورنسه ، تحت مراقبة دقيقة ، ليرى أحد الأطباء ويحضر القداس . فلما عاد إلى أسترى ، أملى على فيفانى وتورشالى ، وعزف على العود حتى فقد سمعه كذلك . وفى ٨ يناير ١٦٤٢ ، وكان قد قارب السابعة بعد الثمانين ، فاضت روحه بين أيدي حواريه .

وأطلق عليه جروتوريوس « أعظم عقل فى كل العصور »^(١١٨) . وثمة شيء من القصور فى العقل والخلق بطبيعة الحال . فأخطأوه — الغرور والزهو والانفعال والخلاء — إن هى ببساطة لإعشرات مناقبه أو ثمنها : الثبات

الشجاعة ، الاصاله . ولم يعترف بأهمية حسابات كبلر في مدارات الكواكب وكان يتراخى في الاعتراف بقيمة أعمال معاصريه ، وقلما تحقق . كم من كشفه في الميكانيكا كانت قد أنجزت قبله . لقد أجرى بعضها رجل آخر من فلورنسه اسمه ليوناردو . ولكن الآراء التي عوقب من أجلها ليست هي بالضبط ما يعتنقها الفلاسكيون اليوم ، ومثله مثل معظم الشهداء تحمل أن يكون الصواب خطأ — ولكنه لم يكن على خطأ في إحساسه بأنه خلق من الديناميكا علما كاملا ، وأنه وسع العقل البشرى وزاد من قدرة الناس على رؤية الأشياء وفقا لعلاقاتها الصحيحة وأهميتها النسبية ، بفضل إبرازه ، بمقياس أكبر كثيرا عن ذى قبل ، أن الكون واسع سعة رهية . وشارك كبلر شرف تقبل الناس لآراء كوبرنيكس ، كما شارك نيوتن شرف إظهار أن السماء نفسها تفصح عن عظمة القانون . ثم أنه ، بوصفه من أفاضل أبناء عصر النهضة ، كتب أحسن نثر إيطالى فى زمانه .

وانتشر أثره حتى عم كل أوربا . أن إدانته هى التى رفعت مكانة العلم فى البلاد الشمالية ، على حين حطت من قيمته لفترة قصيرة فى إيطاليا وأسبانيا وليس معنى هذا أن محكمة التفتيش حطمت وقضت على العلم فى إيطاليا ، فان تورشلى وكاسيني وبورلى وربدى ومالبيجى ومورجاني حملوا المشعل إلى فولتا وجلفانى وماركونى ، ولكن العلماء الإيطاليين الذين علقت بأذهانهم قصة جاليليو اجتنبوا التورطات الفلسفية فى العلم . وبعد إعدام برونو حرقا وبعد تخويف ديكارت وتهديده بمصير جاليليو ، باتت الفلسفة فى أوربا احتكارا بروستانتيا .

وفى ١٨٣٥ حذفت الكنيسة مؤلفات جاليليو من قائمة الكتب المحظورة وانتصر الرجل المخطئ المقهور على أقوى النظم فى التاريخ .

الفصل الثالث والعشرون

١٥٦٤ - ١٦٤٨

الفلسفة تولد من جديد

١ - الشكاكون

في ظل صراعات الدول القومية ، والقوى الاقتصادية ، والأحزاب السياسية ، وتنوع المذاهب الدينية ، في غمرة هذا كله ، بدأت تشكل المسرحية الأساسية في التاريخ الأوروبي الحديث ، وما هي إلا نضال من أجل الحياة جهدت فيه ديانة عظيمة ، ضيق عليها الخناق واستنزفت قوتها ، العلم والطائفة والأيقورية والفلسفة . هل المسيحية في الطريق إلى الفناء ؟ أو هل الديانة التي أمدت المدنية الغربية بالأحلاق والشجاعة والفن تعاني انحلالاً بطيئاً ، بفعل انتشار المعرفة واتساع الآفاق الفلكية والجغرافية والتاريخية ، والتحقق من الشر في التاريخ والنفس ، وتخلخل الإيمان بالحياة الآخرة وضعف الثقة في حسن توجيه العالم ؟ . وإذا كان الأمر كذلك ، فهذا هو الحديث الأسامي في الأزمنة الحديثة ، لأن الديانة هي روح المدنية ، والمدنية تقني بغناء عقيدتها . ولم تعد القضية في نظر برونو وديكارت ، وهوبز وسبينوزا ، وبسكال وبل ، وهلباخ وهلمفيس ، وفولتير وهيوم ، لبنتز وكانت ، قضية كمثلثة ضد بروتستانتية ، بل قضية المسيحية نفسها ، قضية الشك والرفض والإنكار - لأعر الأساسيات في العقيدة القديمة . أن مفكرى أوروبا - وهم طلائع العقل الأوروبي - لم يعودوا يناقشون سلطة البابا ، بل يناقشون وجود الله .

وثمة عوامل كثيرة أدت إلى الكفر . إن مبدأ المحاكاة العقلية أو تكوين

رأى خاص ، وهو المبدأ الذى اتهمته الكنيسة الكاثوليكية وأدانته لأنه يدعو إلى الفوضى المذهبية والأخلاقية ، نادت به وأقرته كل الهيئات البروتستانتية تقريبا ، ثم شجبت وأدانتها فيما بعد ، وفى الوقت نفسه قوض هذا المبدأ أركان العقيدة . أن الشيع المتزايدة قاتلت بعضها بعضا ، وكأنها ذرارى بالغة الكثرة ، وفضحت مطالب بعضها بعضا ، وتركت الديانة عارية فى مهب رياح العقلانية . وأهابت هذه الفرق والشيع لنصرتها فى أثناء صراعها ، الأسفار المقدسة والعقل كليهما . ودعت دراسة الكتاب المقدس إلى الشك فى معانيه وفى عصمته من الخطأ . وأنهى اللجوء إلى العقل عصر الإيمان . وحقق الإصلاح البروتستانتي أكثر مما كان يصبو إليه . وأضربت بصورة خاصة ، حملات النقد الذى أنصب على الكتاب المقدس ، بالمذهب البروتستانتي الذى أقيم فى طيش وتهور على كتاب مقدس منزل من عند الله . إن التحسينات التى أدخلت على النظام الاجتماعى وأمن الناس ، خففت من الأرهاب والقسوة ، وأحس الناس أنهم لابد لهم أن يدركوا أن الله سبحانه وتعالى أرحم وألطف مما صورهم لهم بولص وأوغسطين وليولا وكلفن ، ولم تعد الجحيم والقضاء والقدر أمورا يمكن تصديقها ، وأجزت الأخلاقية الجديدة اللاهوت القديم . وهىأ نمو الثروة لانتشار نزعة حياة ابيقورية التمت لها فلسفة تبررها . إن كارثة الحروب الدينية أنصبت على رأس الديانة نفسها فكانت هى ضجيتها . إن ازدياد المعرفة بالأخلاق والفلسفات الوثنية ، وبالعبادات والطقوس الأسبورية أثار مقارنات محيرة مزعجة بالمسيحية . ألم نسمع أرزم يدعو ويتوكل إلى « القديس مقراط » ، ألم نر موتيني يرجع المذاهب الدينية إلى أحداث الجغرافيا وإلى حكم الحروب ؟ وكشف تقدم العلم عن عمل « القانون الطبيعى » فى كثير من الحالات ، ومثال ذلك مسار المذنبات الذى رأت فيه الديانة يد العناية الآلهية . ووجدت الطبقات المتعلمة أنه من الصعب عليها أن تصدق أو تؤمن بالمعجزات على حين ابتهج وفاخر بها غير المثقفين . ثم هذه

الأرض التي تقول الأساطير الأثرية لدى العامة بأنها أحست «بأقدام الرب»، أليست كما الملح كوبرنيكس وجاليليو مجرد فقاعة ومرحلة نصيرة في هذا الكون البالغ السعة، وسعة لا يمكن تحديدها، بالنسبة للأرباب الخاسدين الخاقدين الوارد ذكرهم في سفر التكوين؟ وأين ذهبت السماء، والتقلبات على أشدها حتى أنها لتغير المواقع مرتين في اليوم الواحد.

وكان «الموحدون»، أكثر الشكاكين اعتدالا، وهم الذين، في إيطاليا وسويسرا وبولنده وهولنه وإنجلترا، أناروا التمسك حول ألوهية المسيح. وكان هناك بالفعل نفر قليل من الربوبيين (*) الذين آمنوا بالله متبائلا مطلقا مع الطبيعة، وأنكروا ألوهية المسيح، ورغبوا في أن يجعلوا المسيحية مذهبا أخلاقيا لا عقيدة دينية، وكانوا حتى تلك اللحظة مشغولين حزينين، حتى اشتد عودهم وارتفعت مكاتهم فباتوا يزعمون الجلاد، كما فعل إدوارد هربرت من شربوري. ولسوف نجدهم بعد ١٦٤٨، وقد ارتفع صوتهم عن ذى قبل. وأشد جرأة منهم كان الأبيقوريون في ألمانيا، الذين سخروا من «يوم الحساب»، الذي طال ترقبه، ومن الجحيم التي يحتمل ألا تكون رهبة مزعجة، برغم كل شيء، مادام أكثر الناس إيتاجا ومرحاسوف يحشرون^(١) فيها. وفي فرنسا أطلق على مثل هؤلاء الناس «ذوو العقول الصلبة»، أو «الإباحيون»، وهم الذين بدأت أساليبهم المائعة الطليقة تضي معنى الحديث على لعمرة كانت تعني في الأصل «المفكرين الأحرار». وفي ١٥٨١ ألف فيليب دوبلير — مورفي كتابا في ٩٠٠ صفحة «حقيقة الديانة المسيحية»، في مواجهة الملحدين. وفي ١٦٢٣ نشر الجزوي فرانسوا جراس كتابا في

(*) الربوبية : Deism الإيمان بالله بغير اعتقاد بديانات منزلة - مذهب فكري في القرن الثامن عشر يدعو إلى الإيمان بدين طبيعي مبني على العقل، لا على الوحي، ويؤكد على الناحية الأخلاقية، منسكرا تدخل الخالق في نواميس الكون.

أكثر من ألف صفحة من قطع الربع ، حمل فيه على الإباحيين ، الذين يؤمنون بالله شكلا أو من أجل دين الدولة ، . . ولا يرتضون إلا الطبيعة ، والقضاء والقدر^(٢) . وفي العام نفسه قدر مدين مرسن عدد الملحدين في باريس بنحو ٥٠ ألفا^(٣) ، ولكن هذه الكلمة كانت تستخدم في هاتيك الأيام بشكل فضفاض ، وربما قصد بها مارين ، الربوبيين . وفي ١٦٢٥ أوضح جبرائيل فودي أن الشرائع التي نزل بها الوحي المقدس على توما بمبليوس ، (ملك رومه الأسطوري ٧١٥ - ٦٧٢ ق . م) وعلى موسى ، ماهي إلا خرافات ابتدعت لإقامة النظام الاجتماعي ، وأن رهبان طيبة لفقوا حكايات الصراع مع الشيطان ليزيدوا من شهرتهم ويرفعوا من مكانتهم ويفسذوا الجمهور الساذج . وفي ١٦٢٣ نشر فرانسوا دي لاموث لافاني - سكرتير ريشيليو ، ومعلم لويس الرابع عشر ، الذي تولى الملك فيما بعد - كتابه المسمى «مخاورات أورازيوس تاييرو» ، صرح فيه بشكوكيه عامة : «إن معرفتنا هراء في هراء ، وأن حقائقنا خيالات وأوهام ، وأن دنيانا بأسرها . . . مهزلة متصلة»^(٤) وكان فرنسوا هذا من بين الذين ضعف إيمانهم قبل تعدد المذاهب المعصومة : «ليس في هذه العقائد التي لا حصر لها رجل لا يؤمن بأن مذهبه هو الحق ، وأن غيره هو الباطل»^(٥) . وعلى الرغم من شكوكيته تزوج في سن الثامنة والتبعين ، ووافته المنية في الرابعة والثمانين وهو على فراشه . وكان ، وهو متشكك فاضل ، قد كف عن معارضة الكنيسة .

وكان قدر كبير من هذه الشكوكية الفرنسية صدى سلبيا لموتيني . ثم أصبحت قوة إيجابية بناءة في شخص صديقه بيير شارون ، وهو قسيس من بوردو ، قام له بالطقوس الأخيرة عند موته ، وورث مكتبته ، وكتب في ١٦٠١ «رسالة عن الحكمة» في ثلاثة مجلدات في وصف الحكمة ، ولكن قيل عن هذه الرسالة بغير حق ، بأنها ترتيب منهجي لموتيني ، ولكنها على الأصح ، رسالة مستقلة تدين بكثير من الفضل «للمقالات» ، ولكنها تحمل

طابع شخصية شارون الدمشة الوقورة . وهو يقول بأن كل المعرفة تنبع من الحواس ، وهى لذلك عرضة لتقييدات الحواس وعجزها وأخطائها الكثيرة ، فلبسب الحقيقة من شأننا نحن . ويقول السفهاء من الناس بأن الحقيقة يشبها قبول كل الناس لها وإن صوت الخلق من صوت الله . ولكن شارون يعتقد أكثر ما يعتقد أن صوت الناس هو صوت الجهالة ، وأنه صوت الآراء التى تلفق لهم ، وأن الإنسان يجب أن يتشكك خاصة فيما يؤمن أكثر الناس به^(٧) . إن الروح قوة خفية حادة لا تهدأ ، متصلة بالمخ ، وظاهر أنها تنفى بهناء الجسم^(٨) . إن أسبانية تنطوى على أسرار وخفايا لا يمكن إثباتها وعلى سخافات كثيرة ، وعليها يقع وزر التضحيات الوحشية والقساوات التعصبية . وإذا كان كل الناس فلاسفة (كما قد يقول فولتير فيما بعد) ، يتعشقون الحكمة ويمارسونها ، فإن تعود ثمة حاجة إلى الديانة ، ويمكن أن تعيش المجتمعات بمقتضى علم أخلاقي طبيعي مستقل عن اللاهوت أو الدين ، ويمكن أن يوجد الإنسان الفاضل ، دون سماء ولا جحيم^(٩) . ولكن إذا أخذنا فى الاعتبار ما فطر عليه الإنسان بالطبيعة من شر وجل ، فإن الدين يصبح أداة ضرورية لازمة للأخلاق والنظام^(١٠) . وبناء على هذا يتقبل شارون كل أساسيات المسيحية ، حتى الملائكة والمعجزات^(١١) ، وينصح الحكماء بمراعاة كل المراسم الدينية التى تضعها الكنيسة التى ينسب هو إليها عن غير قصد ، على أية حال^(١٢) ، وإن يكون المتشكك الحق هرطيقاً أبداً^(١٣) .

وعلى الرغم من هذه النتائج القويمة التى خلص إليها شارون فإن أحد الحزويين المعاصرين يحشره فى زمرة أخطر الملحدين وأشرهم وأخبثهم^(١٤) . ولما مات شارون فجأة بالسكتة القلبية ، فى سن الثمانية والستين (١٦٠٣) قال الأتقياء بأن هذا عقاب من عند الله على كفره والحادة^(١٥) . وقبل وفاته أهد طبعة ثانية من كتابه ، خفف فيها من الأجزاء الأكثر تهورا وطيشا ، وأكد لملائته من رجال الدين أنه إنما قصد بالطبيعة ، الله سبحانه وتعالى ،

وعلى الرغم من ذلك وضع كتابه في عداد المكتب المحظورة . ولمدة نصف قرن من الزمان فاق كتابه مقالات د مونتيني انتشارا وشعبية . وطبع كتاب د محاورات ، الحكمة خمسا وثلاثين مرة في فرنسا فيما بين عامي ١٦٠١-١٦٧٢ . وفي القرن الثامن عشر كان أثر شارون أقوى من أثر أستاذه . ولكن نفس العرض المنظم الذي جذب القرن السابع عشر الكلاسيكي ، بدأ في أعين القرن التاسع عشر وعظا كشييا مدرسيا ، وضاع شارون وسط ما اكتشف من جديد ، من تألق وبهجة في مونتيني .

٢ — جيوردانو برونو ١٥٤٨-١٦٠٠

كان كوبرنيكس قد وسع الكون . فن ذا الذي يمكن أن د يوسع الله ، اليوم ويعيد التعبير عن الألوهية في لغة جديدة بهذه المجموعات من النجوم الهائلة التي لا يحصى عددها ؟ أن برونو حاول هذا .

ولد برونو في نولا على بعد ١٦ ميلا إلى الشرق من نابلي . وعمد باسم فلبو ، وغير اسمه إلى جيوردانو عندما كان في سن السابعة عشرة ، دخل دير الدومنيكان في نابلي . وفيه وجد مكتبة عظيمة غنية ، لا بكتب اللاهوت فحسب ، بل كذلك بالكتب اليونانية واللاتينية القديمة ، عن أفلاطون وأرسطو ، بل حتى عن مؤلفين عرب وعبرانيين كانت قد ترجمت إلى اللاتينية . وتعلقت طبيعته الشعرية على الفور بالأساطير الوثنية التي رسمت في فكره لوقت طويل بعد تبخر اللاهوت المسيحي . وافتتن بمذهب ديمقريطس الذي تابعه أبيقور ، وبسطه كوبرنيكس في صورة رائعة . وقرأ كتب المفكرين المسلمين ابن سينا وابن رشد ، والفيلسوف اليهودي ابن جابرول . وتسرب إلى نفسه شيء من التصوف العبراني ، مختلطا بأفكار ديونسيوس الزائفة وأفكار برناردينو تليزو عن اتحاد الأضداد في الطبيعة وفي الله ،

كما تصرّب إليه كذلك شيء من فكرة نيقولا (من كوزا) عن كون لانهاى ليس له مركز أو محيط ، تنفخ فيه الحياة روح واحدة . وأعجب بالتصوف الطبى الشائر عند ياراساسوس وبالرمزية الروحية ، وبوسائل تقوية الذاكرة عند ريموند المى ، وبفلسفة كورنيليوسى أجريبا الغامضة . وعمل كل هذا على تشكيل برونو كما أشعل فيه نار البغض لأرسطو ولل فلسفة التصراعية فى العصور الوسطى (السكولاستية) ولتوماس أكويناس . ولكن برونو كان فى دير الدومنيكان وتوماس أكويناس هو رائد الفكر عندهم .

ولم يتمكن بد من أن يزجج الراهب الشاب رؤسائه بالاعتراضات والاستئلة والنظريات . أضف إلى ذلك أن حاسة الجنس كانت تضطرب بين جنبيه ، واعترف فيما بعد بأن كان تلوج القوقاز ما كانت لتتفع غلته أو تطغى شهوته ، وأن ثمة علاقة دقيقة بين يقظة الجنس ويقظة العقل . وفى ١٥٧٢ رسم كاهنا ، ولكن الشكوك ظلت تنور بين جوانحه وتلبه خفية . كيف يمكن أن يكون هناك ثلاثة فى واحد هو الله سبحانه وتعالى ؟ كيف يتسنى لسكان مهيا كانت مرتبته أن يحول الخبز والخمر إلى جسد يسوع المسيح ودمه ؟ . وبعد رسامته ، عنفه رؤساؤه مرتين تعنيفا رسميا . وفى ١٥٧٦ ، بعد أن قضى أحد عشر عاما فى الرهبنة ، فرجأة من الدير ، وتوارى عن الأنظار لبعض الوقت فى رومه . وخلع رداء الرهبنة ، وعاد إلى اسمه الذى عمده به ، والتس الأمان والقسر فى الاشتغال بالتعليم فى مدرسة للبنين فى نولى بالقرب من جنوه .

وهكذا بدأت ست عشرة سنة من التجوال ، سرى فيها القلق والأرق فى جسمه جنبا إلى جنب مع التردد والتذبذب فى عقله . وبعد أربعة أشهر قضاه فى نولى ، انتقل إلى سافونا ، ثم إلى تورين ، وإلى البندقية ثم إلى بادوا . وعاد فارتدى ثاوية ثوب الراهب الدومنيكانى ليعطى بكرم الوفاة فى الأديار . ثم سار إلى برسكيا ، وإلى برجامو ، وعبر جبال الألب إلى شامبرى حيث أستقبله

وأطعمه دير للدومنيكان . ثم إلى ليون ، ومنها إلى جنيف . وهناك في معقل الكلفنية جرد نفسه من ثوب الرهبنة مرة أخرى ، وهناك قضى شهرين في هدوء لا يلتزم مع مزاجه ، يكسب قوته بتصحيح المخطوطات والتجارب للطبع ومن بين هذه ، كان نقده الخاص لمحاضرة ألقاها أحد رجال الدين الكلفنيين في جامعة جنيف . وأشار فيه برونو إلى عشرين خطأ في هذه المحاضرة . وألقى القبض على طابع النقد وحكم عليه بغرامة ، أما برونو فاستدعى للمحاكمة أمام محكمة الكنيسة ، فقدم اعتذرا وصفحوا عنه . وتولاه اليأس والقنوط حين ألقى نفسه يهرب من شرار رقابة ليقع في بران أخرى ، فغادر جنيف وعاد إلى ليون ومنها إلى تولوز ، حيث ظهر ظل عابر من التسامح في صراع الكاثوليك مع الهيجونوت ، وفي تدفق اليهود المرتدين إرتدادا يسيرا من أسبانيا والبرتغال . وربما حدث أثناء إقامته (١٥٨١) ، أن نشر فرانسوا سانكي في تولوز ، رسالته الشكوكية : المعرفة الصحيحة الكريمة . . . ليس ثمة شيء معروف ، وحاضر برونو لمدة ثمانية عشر شهرا في رسالة أرسطو : الروح ، . ولأسباب غير معروفة . وربما من أجل شهرة أوسع وأعظم . رحل برونو إلى باريس .

وكان برونو قد أحرز شهرة ، لا بوصفه فيلسوفا فحسب ، بل كذلك بوصفه خبيرا في فن تقوية الذاكرة . وأرسل هنري الثالث في طلبه واستولى على الأسرار السحرية من ذاكرة طيبة . وسرا الملك من دروس برونو وعينه مدرسا في الكوليج دي فرانس . واحتمل برونو في هدوء لمدة عامين ، ولكن في ١٥٨٢ نشر رواية هزلية (كوميدية) تحت عنوان : حامل المشعل ، يهجو فيها هجاء لاذعا ، الرهبان والأساقفة والمنحذلقين . . . ولندع المقدمة تتحدث :

سترون ، في فوضى مشوشة ، تتفا عن النشالين ، وألوانا من الزيف والخداع ، ومغامرات الأوغاد ، كما ترون الاشتمزاز الطريف .

والحلوى . المرة ، والقرارات الحقاء ، والايان الخاطيء والامال
المشلوله ، والصدقات الشحيحة والنساء القويات الشكيمة
(الرجوليات) والرجال المخنثين وحب الذهب (المال) في
كل مكان .

ومن ثم تنشأ الحيات الربعية (الراجعة) ، والمرطانات الروحية ،
والافكار الهزيلة ، والحماقات المتسلطة والمعرفة المتقدمة ،
والعمل المثمر ، والصناعة الهادفة . وفي إيجاز ، سترون في الرواية ،
أمننا نافعاً ، وفدرا ضئيلاً من الجمال ، وإن تروا شيئاً طيباً
أو حسناً .

ووقع على الرواية : « برونو النولى » المتخرج في أكاديمية تسمى
الازعاج ، (١٦) .

وفي مارس ١٥٨٣ قصد انجلترا وكان هنرى الثالث أكبر استعداداً
للتوصية به خيراً لدى الآخرين منه الاحتفاظ بخدماته لديه (١٧) ، فزوده
بخطابات يقدمه فيها للسفير الفرنسي في لندن ، ميشيل دى كاستلنو ، سفير
لاموفيسير ، وهنا بدأت أعدد اللحظات في حياة برونو . حيث أقام في قصر
السفير عامين يأكل ويشرب ، متحرراً من أية نفقة أو ضرورة اقتصادية ،
وهنا أيضاً كتب بعضاً من أهم مؤلفاته ، كما وجد ملجأ من العواصف التي يثيرها
خلقه وشخصيته ، وكان يخفف عنه مناظراته ومجادلاته مع رجل متسامح عرك
الدنيا ، وعرف أنه من الأفضل ألا ينظر إلى الميتافيزيقا بعين الجدل . وفي هذا
البيت التقى برونو سفير فيليب مدنى ، وأرلى لبستر ، وجون فلوريو ، وأدموند
سبنسر . وجبرائيل هارفى وغيرهم من ألمع العقول في انجلترا في عصر اليزبث .
إن أحاديث برونو مع هؤلاء الرجال زودته بالأسس التي بنى عليها « معرض
آرائه » ، وحظى بمقابلة الملكة نفسها . وامتدحها في عبارات أخذتها عليه
محكمة التفتيش فيما بعد .

وفي ١٥٨٣ طلب من جامعة أكسفورد أن تأذن له في القاء المحاضرات في قاعاتها ، ووصف بهذه المناسبة ، مؤهلاته في لغة باعدت إلى الأبد بينه وبين وصفه بالتواضع (١٨) ، وحصل على الترخيص ، فتحدث عن خلود الروح ، وعن الكرة السماوية المكبرة إلى خمسة أمثالها ، أى عن نظرية كوبرنيكوس في الكواكب. وتحدثه وصايقه بالأسئلة كثير من بينهم رئيس كلية لشكولان ، كما يروى برونو بطريقته الخاصة : —

هلا عرفت كيف استاعوا أن يردوا على حججه (برنو)؟ وكيف أنه لخمس عشرة مرة ، وبخمس عشرة قياساً منطقياً ضيق الخناق على الدكتور ، المسكين الذي صدره ، لهذه المناسبة الرهيبة ، بوصفه رئيساً للأكاديمية ، حتى وقف حائراً كعصفور في قفص؟ وهلا علمت بأية فظاظة وأية غلاظة تصرف هذا الخنزير ، وبالصبر والروح الإنسانية اللتين تزرع بهما من أثبت أنه حقاً مولود في نابلي وأنه نشأ في ظل سماء أكرم وأرحب؟ وهلا عرفت كيف أنهموا محاضراته العامة (١٩)؟

وأطلق برونو على أكسفورد فيما بعد اسم «أرملة التعليم الصحيح» ، «مجموعة من الجهل المتحدلق العنيد والوقاحة ، اهتزجت بفضاظة خرقاء يمكن أن ينفد معها صبر أيوب (٢٠)» .

ولكن فيلسوفنا لم يكن «أيوب» . وكتب كتابه رائعة عن النجوم ، ووجد من بين أهل الأرض أغبياء إلى حد لا يطاق . وأحس بأن عرضه الفلسفي لفلك كوبرنيكوس كان خطوة طيبة في سبيل فهمه ، وأنه كان «ناقداً لا ذعاً» (٢١) ، لسكل من رفضوا آراءه . ولو أن فلوريو ألفاه ، بعد أن هدأ رعه وديعاً لطيفاً (٢٢) وكان غروره امتحاناً لأصدقائه ، مثل الريح في شراعه . وخلع على نفسه ألقاباً نفخة : «دكتور في اللاهوت الأكثر تطوراً ، استاذ في الحكمة الخالصة غير الضارة» (٢٣) . وكان يتمتع بخيال النابوليتاني المتقند

وفضاحته المثيرة. وحيثما ذهب كانت شمس الجنوب تجعل الدم يغلي في عروقه،
«إني لأرهب نفسي وأعذبها وأقهرها ، حبا في الحكمة الحقّة ، وغيره على
التأمل الصادق» (٢٤)

وفي أواخر عام ١٥٨٥ عاد إلى باريس ، في أثر الأسير الذي استدعى
إليها . وحاضر في السوربون مثيرا عداوة أنصار أرسطو ، كما هي العادة .
وأغرتة حروب العصبية ضد هنري الثالث بأن يختبر الجامعات الألمانية ، فتسجل
في جامعة هاربرج ، واسكنه رفض اللقاء المحاضرات ، وعرض برئيس الجامعة
وقصد إلى وتنبرج ، وقضى عامين يحاضر في جامعة لوتر ، ولدى مغادرته لها
عبر عن شكره في خطاب مخلق ودع فيه الجامعة . ولسكن لاهوت رجاء
الإصلاح لم يرقه ، فالتمس رعاية رودلف الثاني في براغ . وظلّه الإمبراطور
رحلا غريب الأطوار ، واسكنه منحه ٣٠٠ ثيلر ، وأذن له بالتدريس في
جامعة هلمستد في برنزويك . وبقي سعيداً في عمله لعدة أشهر ، لمتهم بعدها
رئيس الكنيسة اللوثرية وأصدر قراراً بحرمانه من الكنيسة (٢٥) . ولسنا
نعرف جوهر الحقيقة فيما جرى ، ولسكن برونو رحل إلى فرانكفورت
وزيوريخ ثم إلى فرانكفورت ثانية (١٥٩٠ - ١٥٩١) حيث استقر به المقام
لينشر مؤلفاته اللاتينية .

وفي تلك الأثناء - قبل إيداعه السجن بأمر من محكمة التفتيش بعام واحد -
كانت فلسفته قد اكتملت ، ولو أنها لم تصل قط إلى مرتبة الوضوح والترابط .
أننا عند النظر في أهم مؤلفات برونو لتصدنا العنوانات التي وضعها في صيغة
مقتضبة . ويغلب عليها أن تكون شاعرية مبهمّة ، تنذرنا بالألتوقع فلسفة
منهجية متماسكة ، بل هي على الأرجح أفكار خيالية صالحة وانجذابات صوفية
أو نشوات . وقل أ بجد في أي مؤلف آخر ، اللهم إلا رابليه ، هذا الخليط
من النعوت والألقاب والمجازات ، البلاغية والرموز والخرافات والنزوات
والفكاهات ، والكلام المنمق والتوافه والتعجيد والسخرية وخفة الدم ، مكسدة
بعضها فوق بعض ، في فوضى من المبادئ والأفكار الشاذة والفرضيات .

لقد ورث برونو براعة الكتاب المسرحيين الايطاليين والمرح الصاخبه المؤذى لدى الشعراء الايطاليين الذين يحشون قصائدهم بألفاظ ايطالية إلى جانب ألفاظ من لغة أو لغات أخرى ، كما ورث هجاء برنى وأرتيشو اللاذع . وإذا كان المقصود بالفلسفة : القدرة على رؤية الأشياء رؤية هادئة وفقا لعلاقتها الصحيحة وأهميتها بالنسبية ، والتحفظ أو التقيد المعقول المنطقي ، والقدرة على الاحاطة بكل الجوانب ، والتسامح مع كل وجهات النظر المخالفة ، فإن برونو ، على هذا الأساس ليس فيلسوفا ، بل أنه محارب أو مصارع ، يصم أذنيه ويغشى عينيه ، لكيلا لا تصرفه الاخطار المهددة عن هدفه — الذى كان قبل ظهور فولتير بقرنين من الزمان — محو عار الاضطهاد وظلمته فثمة مرارة أشد من فولتير فى برونو فى تهكمه الوحشى للمعالجة اللاهوتية المثالية للايمان الغافل الخالى من التفكير :

إني لأقول وأكرر القول بأنه ليس ثمة مراة توضع أمام أعين البشر ، خير من المحاربة أو الحمار ليكشف بشكل أوضح عن واجب هذا الانسان الذى . . يفتش عن ثواب يوم الحساب . . ومن ناحية أخرى ، ليس ثمة شئ . أشد فعالية فى تردينا فى هاوية الجحيم من التأملات الفلسفية والعقلانية التى تنبع من الحواس . . . وتنمو وتنضج فى العقل البشرى المتطور . خاولوا إذن أن تكونوا حميرا ، يأبها الرجال ، ويأبها الذين أنتم بالفعل حمير ، وأدرسوا حتى تسيروا من حسن إلى أحسن ، وتحققوا هذه الغاية والمسكانة اللتين لا يمكن الوصول إليهما بالمعرفة والجهود مهما عظمت ، بل بالايان ، واللتين لا يحول دونهما الجهل والأخطاء مهما كانت جسيمة ولا يمكن يحول دونهما الكفر . وإذا كنتم بمثل هذا السلوك مقيدى فى سجل الحياة فلسوف تحظون ببركة الكنيسة والمحاربة ، وبمجد الكنيسة المنتصرة ، ، التى « يعيش فيها » الله ، ويحكم فى كل العصور . . آمين (٢٦)

أن رؤية برونو للكون رؤية جمالية فى أصلها ، وهى تقدير عميق يتسم

بالتعجب والدهشة من كون لانهاى ساطع براق . ولكنها كذلك محاولة فلسفية لتكييف الفكر البشرى مع كون يشكل فيه كوكبنا الذى نعيش عليه جزءا غاية فى الصغر من اتساع لا يمكن إدراك مداه . أن الأرض ليست مركز العالم ، وكذلك الشمس ليست مركزا له . وفيما وراء العالم الذى نراه (ولم يكن هناك تلسكوب حين كتب برونو) عوالم أخرى (كما أوضح التلسكوب بعد ذلك بقليل وفيما وراء هذه العوالم الأخرى توجد عوالم أخرى أيضا كما أثبت التلسكوب بعد تحسينه) ، وهكذا إلى ما لا نهاية ، أننا لا نستطيع أن ندرك نهاية أو بداية . وبدلا من النجوم « الثابتة » كما ظن كوبرنيكوس أنها ثابتة ، فإنها تغير مواقعها على الدوام ، وحتى فى السموات كل الأشياء تتجرب . والفضاء والزمن والحركة كلها أمور نسبية . وليس هناك مركز ولا محيط ، ولا ارتفاع وانخفاض . وتختلف نفس الحركة عند رؤيتها من أماكن أو نجوم مختلفة . ولما كان الزمن هو مقياس الحركة ، فإن الزمن نسبي كذلك ، وربما كان هناك نجوم كثيرة تسكنها كائنات حية ذكية . فهل مات المسيح من أجلهم كذلك ؟ على أنه فى هذا الاتساع الذى لا نهاية له ، هناك بقاء ثابت للبادة ، وولاء دائم لا يحيد عنه للقانون .

ولما كان الكون لانهاى ، فإنه لا يمكن أن يكون هناك « لانهايان » ، فاذن يكون « الله » اللانهاى والكون اللانهاى شيئا واحدا (وهنا قول سبينوزا « الله أو المسادة أو الطبيعة ») ، وليس هناك « مدبر أول » كما قال أرسطو . بل هناك حركة أو طاقة متصلة فى كل جزء من هذا الشكل . وليس الله عقلا خارجيا والأجدر به أن يكون القاعدة الداخلية للحركة ، وهى طبيعته وروحه ، (٢٧) . والطبيعة هى العقل الخارجى الإلهى ، على أن هذا العقل ليس موجودا فى « سماء عليا » بل هو موجود فى كل جزء من جزيئات الواقع .

إن العالم يتألف من عناصر دقيقة جداً ومن وحدات لا تقبل الانقسام من القوة ، ومن حياة ، ومن عقل بدائى (وهذا كان برونو همزة الوصل بين لوكريشيوس وليبنتز) ولكل جزء صغير فرديته القائمة بذاتها وعقله الخاص به ، ومع ذلك فإن حريته لا تعنى التحرر من القانون ، ولكنها تعنى (كما قال سبينوزا) سلوكه وفق قانونه وطبيعته المتأصلتين الخاصتين به . وهناك فى الطبيعة قاعدة التقدم والتطور ، بمعنى أن كل جزء يكافح من أجل التطور والنمو . (Entelechia أرسطو) .

وهناك فى الطبيعة تضاد ، وقوى متعارضة ، ومتناقضات . ولكن عمل الكون بأسره فى « مشيئة الله » تتوافق كل المتضادات وتختفى . كذلك فإن الحركات المتباينة للكواكب هى التى تحدث الانسجام فى السموات ، ووراء التنوع المحير الساحر فى الطبيعة توجد هناك وحدة أروع وأشدّ عجباً ، تظهر فيها كل الأجزاء وكأنها أعضاء فى كائن واحد . « أنها وحدة تسجرنى ، فأنا بقوة هذه الوحدة حر ولو كنت مستعبداً ، سعيد فى غمرة الحزن ، غنى فى حمة الفقر ، حى حتى فى الموت ، » (٢٨) (إني ، ولو أنى خاضع للقانون ، أعبر عن طبيعتى الخاصة . وبرغم أنى أفاشى فانى أجد عزاء فى التحقق من أن « شر ، الجزء يصبح غير ذى معنى فى المشهد العام للكل) . ومن ثم تكون معرفة الوحدة الأسس هى هدف العلم والفلسفة ، وهى الدواء الشافى للعقل . (الحب العقلى لله ، عند سبينوزا) .

إن هذه الخلاصة البسيطة لفلسفة برونو تهمل ومضاته وجنونه البطولى ، وهى تنطوى على اتصال وتماسك فى تفكيره مغايرين له كل المغايرة ، لأنها تحتوى على متناقضات وتوكيدات جازمة ، وعلى فيض من التقلبات ، لا تتفق إلا مع المذاهب الكونية . وثمة مجموعة أخرى من أفكاره يمكن أن تسلكه فى عداد المتصوفة المجوس . أنه تحدث عن المزايا الخاصة بكثير من الكواكب ، فذهب إلى أن الأشخاص الذين يولدون « تحت تأثير ، الزهرة

ينزعون إلى الحب والبلاغة والهدوء والسلام ، أما الذين يولدون تحت تأثير ، المريخ فيميلون إلى النزاع والبغض . وآمن بالخصائص الخفية للأشياء والأرقام ، وأن الأراض قد تكون عفاريت ، ويمكن علاجها في بعض الحالات بلسة ملك أو لعاب ابن سابع^(٢٩) .

وكان وهمه الأخير أنه كان يؤمل ، في حال عودته إلى إيطاليا واستجواب محكمة التفتيش له ، في أنه يستطيع أن يقتبس بعض قطع رشيدة من مؤلفاته يندع بها الكنيسة فتحسبه ابنها البار . وربما راوده الأمل في أن إيطاليا لم تكن قد سمعت بكتابه الذي نشره في إنجلترا ، طرد الحيوان المنتصر ، . والذي كان يمكن أن يفسر الحيوان الذي طرد فيه على أنه الكاثوليكية أو المسيحية أو المبادئ الدينية عامة^(٣٠) . ولا بد أنه قد ناقش نفسه إلى إيطاليا وإلا كيف نفسر لطفه على قبول دعوة جيوفني موسنيجو للقدوم إلى البندقية معلما له وضيافاً عليه ؟ وكان موسنيجو سليل أسرة من ألمع أمراء البندقية ، وكان كاثوليكياً ورعاً ، ولكنه كان مهتماً بالقوى الخفية ، وقد أبلغوه أن يرونو كان على علم تام بفروع السحر ، وأنه يخزن في ذاكرته القوية الكثير من الخفايا والأسرار . وكانت محكمة التفتيش قد أعلنت منذ أمد طويل أن يرونو خارج على القانون ويجب القبض عليه في أول فرصة . ولكن البندقية اشتهرت بحماية أمثال هؤلاء الخارجين على القانون ، متحدية بذلك محكمة التفتيش . وعلى ذلك سارع يرونو إلى مغادرة فنكفورت في أواخر ١٥٩١ وشق طريقه عبر الألب إلى إيطاليا .

وأعد له موسنيجو مسكناً وتلقى عنه دروساً في تقوية الذاكرة . ولكن تقدم التليذ كان بطيئاً وظن أن معلمه قد حجب عنه بعض تقاليد السحر الخفية كما أنه في نفس الوقت ارتعد فزعاً من الهرطقات التي تمثلت في الفيلسوف الثرثار القليل الحذر ، وسأل موسنيجو كاهن الاعتراف إذا كان يجب عليه أن يبلغ محكمة التفتيش عن يرونو ، فنصحه الكاهن بالتريث حتى يتثبت من حقيقة يرونو بشكل أدق . وامثل موسنيجو لمشورة الكاهن ، ولكن عندما

أعلن برونو عن عزمه على العودة إلى فرانكفورت ، أبلغ موسنيجو المحكمة وفي ٢٣ مايو ١٥٩٢ وجد برونو نفسه نزيلا في سجن المحكمة في البندقية . وأوضح موسنيجو أنه « تصرف وفق ما أملاه عليه ضميره ، وبأمر من كاهن الاعتراف » (٣١) . وأبلغ المتحققين أن برونو كان يعارض كل الأديان ، ولو أن الكاثوليكية كانت أحبا إلى نفسه ، ولكنه أنكر التثليث وتجسد المسيح وتحول القربان ، وأنه اتهم المسيح والرسول بتضليل الناس وخداعهم بالمعجزات المزعومة ، وأنه قال بأن كل الإخوة أو رجال الدين والرهبان حمير دنسوا الأرض بنفاقهم وريائهم وجشعهم وحياتهم المملوءة بالشرور ، وأن الفلسفة يجب أن تحل محل الديانة ، وأن الانغماس في « الملذات الدنيوية » ليس خطيئة وأنه ، أي برونو ، أشبع شهواته قدر ما سمحت له الفرص (٣٢) ، وأن برونو كان قد قال له « أنه استمتع بالنساء كثيرا ، ولو أنه لم يبلغ بعد عدد نساء سليمان » (٣٣) .

وحققت المحكمة مع السجين على مهل ، من مايو إلى سبتمبر ١٥٩٢ ودفع بأنه كان قد كتب ما كتب بوصفه فيلسوفا ، وأنه كان يستفيد من تمييز بمبونا تزي بن « الحقيقين » ، أنه يجوز للإنسان أن يناقش ، بوصفه فيلسوفا ، نظريات قبلها بوصفه كاثوليكيًا . وصرح بما يساوره من شكوك في موضوع التثليث . واعترف بأنه مذنب في أخطاء كثيرة ، وأبدى ندمه عليها ، وتضرع إلى المحكمة وهي تعرف سقامه وعيوبه ، أن تعيده إلى أحضان الكنيسة الأم وأن تزوده بما يلائمه من علاج ، وأن تستعمل معه الرأفة (٣٤) . ولم تستجب المحكمة إلى شيء من هذا وأعادته إلى زنائه لمدة شهرين آخرين وفي ٣٠ يوليو حققوا معه مرة ثانية ، واستمعوا إلى اعترافه وطلبه الرأفة وأعادوه مرة ثانية إلى السجن . وفي سبتمبر طلبت محكمة التفتيش في رومه من البندقية إرسال السجين إليها . فاعترضت حكومة البندقية ، ولكن المحكمة أوضحت أن برونو من مواطني نابلي ، لا البندقية . ووافق السناتو على تسليمه . وفي ٢٧ فبراير ١٥٩٣ تم ترحيله إلى رومه .

وكان جزءاً من إجراءات محكمة التفتيش أن تترك السجنين يقبع مكشوباً حزيناً في السجن لفترات طويلة قبل التحقيق وفي أثنائه وبعد . وكادت تنقضي سنة كاملة قبل أن يمثل برونو أمام محكمة رومه في ديسمبر ١٥٩٣ ، وحققوا معه ، أو قل عذبوه بالتحقيق ، ثانية ، في أبريل ومايو وسبتمبر وديسمبر ١٥٩٤ . واجتمعت المحكمة مرتين في يناير ١٥٩٥ لتدرس الأوراق . وتقول أوراق المحاكمة أنه في مارس ١٥٩٥ وأبريل ١٥٩٦ ، مثل برونو أمام كبار الكرادلة ، وأنهم زاروه في زنزانيته . واستمعوا له وسألوه عما يمكن أن يكون في حاجة إليه^(٣٥) ، ، وفي ديسمبر ١٥٩٦ استمعوا إلى شكواه . من الطعام . ، وفي مارس ١٥٩٧ استدعى للمثول بين يدي المحققين الذين استمعوا مرة أخرى إلى ما يحتاج إليه . ، ولم تعرف ماذا كان يحتاج إليه ، ولكن النداءات المتكررة توحى بمصاعب يتعذر وصفها ، ليس من بينها هذا التسويق الطويل ، المفروض أن الهدف منه هو تحطيم الروح الجياشة إلى حشد الإذلال المهذب للنفس . وانقضى عام آخر ، وفي ديسمبر ١٥٩٨ سمح له بورق وقلم ، وفي ١٤ يناير ١٥٩٩ استدعى مرة أخرى ، وتليت عليه ثمان مسائل هرطقية مأخوذة من كتبه . وطلبوا إليه أن يشجبها علناً ، فدافع عن وجهة نظره ولكنه وافق على قبول حكم البابا في المسائل سائلة الذكر . وفي ٤ فبراير قرر كليمنت الثامن وهيئة محكمة التفتيش أن هذه المقتبسات هرطقية صريحة . ولم يرد في أوراق المحاكمة ذكر لأراء برونو في نظريات كوبرنيكس ، بل أن الهرطقة أنصبت على التجسيد والتشليل . وسمح له بأربعين يوماً أخرى للاعتراف بأخطائه .

واستمعوا له مرة أخرى في ١٨ فبراير ، ثم في أبريل وسبتمبر ونوفمبر . وفي ٢١ ديسمبر أعلن أنه لن يتراجع . وفي ٢٠ يناير ١٦٠٠ قدم إلى البابا مذكرة يدعى فيها أن المسائل الواردة في الاتهام اقتبست من مظانها بشكل خاطئ ، ويعرض أن يتولى الدفاع عنها أمام رجال الدين ، ويقول مرة أخرى أنه يرضى حكم البابا . وبناء على ذلك ، كما تقول سجلات المحاكمة « أصدر قداسة

البابا كليمنت الثامن أمرا باتخاذ الإجراءات النهائية في القضية وبالنطق بالحكم ، وبإحالة الأخ المدعو جوردانوس إلى المحكمة المدنية . وفي ٨ فبراير استدعى المحققون برونو ، وكرروا على مسامحة الاتهامات الموجهة إليه ، وأبلغوه أنهم أمهلوه ثمانية أعوام ليراجع موقفه ويبدى الندم ، وأنه وافق على حكم البابا في أمر مرقه عن الدين ، وأن البابا قرر أنه مارق ، وأن المتهم لا يزال مصرا على هرطقته ، « سائرًا في غيه ، عنيداً ، مكابراً ، ومن ثم صدر الحكم بإحالاته إلى المحكمة المدنية إلى حاكم رومه ، الحاضر هنا الآن ليقرر العقوبة التي تستحقها » ولو أننا نرجو جادين أن يخفف من صرامة القوانين ، بالنسبة لما تعانيه من آلام ، وألا يكون جزاؤك الإعدام أو بتر الأعضاء ووقع على الحكم ثمانية كرادلة ، من بينهم بللارمين . ويقول كسبار مكويويوس — وهو عالم ألماني تحول حديثاً إلى الكشكشة ثم أقام في رومه — أن برونو ، عندما تلى عليه الحكم ، قل لقضائه : « ربما كنتم يا من نطقتم بالحكم بإعدامي ، أشد جزعاً وخشية مني أنا الذي تلقيتكم ، » (٣٦) .

ونقل برونو على الفور إلى سجن مدني . وفي ١٩ فبراير ، وهو لا يزال مصراً على موقفه ، جرد من ثيابه وربط لسانه ، وشد إلى خازوق من الحديد فوق ركاب من الخطب في « بياززا كامبودي فيوري » ، وأحرق حياً على مشهد من جمع غفير متعظ . وكان في الثانية والخمسين من العمر ، وفي ١٨٨٩ ، أقيم له في نفس المكان ، تمثال ؛ جمعت له التبرعات من مختلف أركان الدنيا .

٣ — فانيي وكبانا

بعد تسعة عشر عاماً من هذا الذي أسلفنا ، ظهرت نزعة بمائلة ، ولقيت من فورها نفس المصير .

ولد جيوليو سيزار لوسبليو فانيي في جنوب إيطاليا لأب إيطالي وأم

أسبانية — بارود يتزوج نادراً . ويبدو أن تحول فائني في أنحاء أوروبا — كما فعل برونو — يختبر الأجواء واللاهوتيات ، ويؤلف الكتب ، وفيها مضامين عارضة من فكر ثاقب (مثل قوله أن الإنسان كان يوماً من إذوات الأربع) لا تكاد تتوازن مع الهراء الغامض ؛ استقر به المقام في تولوز (١٦١٧) ، حيث قضى — مثل برونو — عامين نعم فيهما بالهدوء . ولكن أحد المترددين على محاضراته وشى به على أنه يسخر من التجسيد ويعارض فكرة وجود « إله بشري » (٣٨) . وثمة مستمع آخر ، هو سيردي فرانسون — كسب ثقة فائني ، واستدرجه — كما فعل موسييجو مع برونو من قبل — وأبلغ أمره إلى برلمان البلدة . فقبض عليه في ٢ أغسطس ١٦١٨ ، لا بأمر الكنيسة ؛ بل بناء على أمر من مفوض الملك العام . واستناداً إلى محاضراته اتهم بالإلحاد والتجديف ، وهاتان جريمتان تعاقب عليهما الدولة . وأكد فائني إيمانه بالله ، ولكن فرانسون زعم أن السجين صرح بالإلحاد وكفراه أكثر من مرة قائلاً بأن الطبيعة هي الإله الوحيد ، وأقر القضاة شهادة الشاهد ، وعلى الرغم من إحتياجات فائني الصارخة ، وما أظهره من تقى وورع في سجنه ، صدر الحكم عليه — وهو في الرابعة والثلاثين : —

بأن يسلم إلى الجلاد ، الذي يحرقه إلى سياج نقال ، وهو في قيصره ، وحبل المشنقة حول عنقه ، حاملاً فوق كتفيه لإعلاناً يقول « ملحد دنس اسم الله ، وعلى هذه الحال يقوده أمام المدخل الرئيسي لكنيسة القديس ستيفن ، وهناك يجثو على ركبتيه ليطلب العفران من الله ومن الملك ومن العدالة ، عن تجديفه وألحاده ، ثم يسوقه إلى ميدان سالين ، ويشده إلى خازوق مقام هناك ، ويقطع لسانه ، ويشنقه ، ثم يحرق جسمه ثم يترك الرماد لتذوره الرياح » (٦٥) .

ويروون أن فانتيق ، حين جرى به من السجن ليلقى عقابه (٩ فبراير ١٦١٩) صاحب معجبا « دعوني أذهب ، دعوني أذهب فرحا مبتهجا لأموت مودة فليسوف (٣٩) » .

كذلك ولد توما سوكمبا نللا ، ودم كالابريا الحار يجرى في عروقه ، وخفف من حرارته لبعض الوقت في دير للدومنيكان ، ودرس تليو وامبيد وكليس ؛ ونبد أرمطو ، وتناول بالتعريض والتسخيف « قرار البابا بالحرم من الكنيسة فأودع بالسجن بأمر من محكمة التفتيش في قابلي لبضعة شهور (١٥٩١-١٥٩٢) وبعد الإفراح عنه ألقى بعض الدروس والمحاضرات في بادوا ، واتهم بالفسق والفجور ، وهناك دون أول مؤلف هام له في الفلسفة (١٥٩٤) نصح فيه المفكرين — كما فعل فرانسيس بيكون بعد ذلك بأحد عشر عاما — بدراسة الطبيعة ، لا دراسة أرمطو — وأعد برنامجا للعودة إلى العلم والفلسفة . ولما عاد إلى قابلي انضم إلى مؤامرة للتخليصها من نير أسبانيا . ولكن المؤامرة أجبطلت ، وزج به في سجون الولاية لمدة سبعة وعشرون عاما (١٥٩٩-١٦٢٦) وعذب اثنتى عشرة مرة ، استمر التعذيب في إحداها أربعين ساعة (٤٠) . وخفف من آلام السجن بالفلسفة والشعر وتصوره للدولة المثالية . وفي قصيدته (السونيت) وعنوانها « الشعب » بعبء عن استيائه عن عجز الأهالي عن مساعدته في ثورته فيقول :

الشعب دابة لها مخ مشوش غبي ، لا تعرف قوتها ، ومن ثم تقف محملة بالخشب والحجارة ، تقودها يدان هزيلتان لمجرد طفل بالشكيمة واللجام ، إن رفسة واحدة تكفي لتحطيم القيد ، ولكن الدابة تخاف وتجنب ، ونفعل ما يطلبه الطفل ، ولا ندرك قدرتها على إرهابه ، لأن « البعيع » التافه يدهلها ويربكها . وأعجب من هذا أنها تكبل نفسها وتكتم لسانها بيدها . ونجلب على نفسها الموت والحرب مقابل ديهومات (بنسات) يتصدق

بها المولود عليها من خزائنها هي . إنها تملك كل ما بين الأرض
والسما ، ولكنها لا تعرف ذلك . وإذا هب إنسان لينطق بهذه
الحقيقة اقتلته دون أن تغفر له ذنبه^(١١) .

وأهم إنتاج لكمانللا في سنوات الشتاء هذه ، مدينة الشمس ، التي تخيلها
قائمة على جبل في سيلان ، وكل موظفيها صفوة مخنارة - وهم قابلون للعزل -
عن طريق جمعية وطنية تضم كل من بلغ العشرين من سكان المدينة ، وهؤلاء
الموظفون المختارون على هذا الأساس ، يختارون بدورهم رئيس الحكومة ،
وهو كاهن يسمونه « هو هوه » يفصل هو ومعاونوه في كل المسائل دنيوية
أو دينية . ويشرفون كذلك على زواج الجنسين ، ليستوثقوا من أن النساء
والرجال يتصلون بعضهم ببعض لينجبوا أحسن الذرية . إنهم حقاً يسخرون
منا حين يبدى اهتماما شديداً بمتاج الخيل والكلاب ، ونهمل نسل الإنسان^(١٢)
ومن ثم ليس هنا مكان للعاهات والتشوهات . والنساء في مدينة الشمس هذه
شركة بين الرجال على الشيوع في انضباط صارم ، يقتضين القيام بتمريعات
شاقة ، توفر لمن بشرة صافية ومظهراً عاماً طيباً . فإذا صبغت امرأة وجهها
بالمساحيق ، أو استخدمت أحذية عالية الكعبين . كانت عقوبتها الإعدام^(١٣)
ويدرب الجنسان كلاهما على الحرب ، ويكون جزاء من يهرب من ميدان القتال
أن يلقي عند الإمساك به في عرين للأسود والديبة ليلقى حتفه^(١٤) . وكل فرد
مكلف بالعمل . ولكن لمدة أربع ساعات فقط ، يومياً (وينشأ الأطفال
تنشئة مشتركة ، ويعدون لإعدادات أنفسهم لاقتسام السلع وفق أمس شيوعية ،
أما ديانة هؤلاء الناس فهي عبادة الشمس بوصفها « وجه الإله وصورته الحية ،
» إنهم يؤكدون أن الأرض بأسرها سوف تعيش في التمام تام مع عاداتهم
وأعرافهم^(١٥) .

وهذا البيان الشيوعي ، الذي يردد صدى أفلاطون . كتبه كمانللا في
السجن حوالى ١٦٠٢ ، ونشر في فرانكفورت آم مين في ١٦٢٢ . وبما كان

البيان يعبر عن آمال المتآمرين النابوليتانيين ، وربما كان سببا في احتجاز كميانيايلا في السجن طويلا ، على أنه تصالح مع الكنيسة في الوقت المناسب فأفرج عنه . وقد أدخل السرور على قلب أرمان الثامن بتوكيده ، على حق البابوات في حكم الملوك . وفي ١٩٣٤ أرسله أرمان إلى باريس لينقذه من التورط في ثورة نابوليتانية أخرى ورعاه ريشليو وحماه . ولكن الثائر المنهوك ، بعد أن استرد شبابه فارق الحياة وهو في صومعته في دير بالدومنيكان (١٦٣٩) ، وكان يقول : « أنا الناقوس - كميانيايلا - الذي يؤذن بيزوغ الفجر الجديد » (٦) .

٤ — الفلسفة والسياسة

١ — جوان دي ماريانا : ١٥٣٦ - ١٦٢٤ :

كان محور السياسة في العصور الوسطى تثبيت سيطرة البابا على الملوك لجمعهم وتوحيدهم كلهم تحت رايته . أما أبرز مظاهر التاريخ السياسي الحديث فهو صراع الدول القومية التي تحررت من سلطة البابا . ومن ثم كانت أول قضية شغلت بال الفلسفة السياسية في القرن الذي جاء في أعقاب الإصلاح الديني ، هي أن المفكرين الكاثوليك كانوا يطالبون باستعادة سلطان البابا ، على حين طالب المفكرون البروتستانت بالقضاء على سيطرة البابا قضاء تاما ، وكان أنصار البابوية يحاجون بأن الملكية المطلقة التي تطالب بحقوق الملوك الإلهية وتنكر كل الضوابط والقيود التي يفرضها الدين والأخلاق والقانون ؛ قد تمزق إربا إربا ، ولكن دعاة الإصلاح ردوا على هذا بقولهم بأنه ليس ثمة سلطة « فوق قومية » (تتخطى الحدود القومية) يمكن أن توفق في سعيها لتحقيق خير البشرية ، بل أنها على الأرجح لابد أن تسعى لتدعيم قوتها الخاصة ونفعها الخاص هذا بالإضافة إلى أن كنيسة ذات سلطة عليا قد تحقق كل حرية الحياة وحرية الفكر .

وكان الفلاسفة السكولاسيون ، في العصور الوسطى ، قد استمدوا سلطة الملك — وهم في هذا يرددون رأى المشرعين الرومان — من رضا الشعب ، لا من رضا الله ، ومن ثم لا تكون ثمة سلطة اُلَهيّة للملوك ، ويعزل بحق أى حاكم غير صالح ، كما أن المفكرين الكلفنيين : مثل بليز وبوكانان ومؤلف « قصاص الطغيان » — أيدوا هذا الرأى أيما تأييد ، ولكن اللاهوتيين اللوثريين والانجليكانيين أيدوا حقوق الملوك الالهية كمعصر موازنة ضرورى ضد عنف الشعب ومزاعم البابا ، وقالوا بوجوب الاشتغال للملك حتى ولو كان ظالما (٤٧) .

وكان بين المدافعين عن سلطة الشعب كثير من الجزوبت الذين رأوا في هذه النظرية وسيلة لاضعاف سلطان الملوك أمام سلطان البابا . ويحاج السكاردينال بلالامين في هذا بقوله : إذا كانت سلطة الملك مستمدة من الشعب ، ومن ثم خاضعة له ، فانه من الواضح أن تكون تابعة لسلطة البابا المستمدة من الكنيسة التى أسسها المسيح ، وهى بذلك لا تخضع لغير الله . وانتهى لويس مولينا — وهو جزويتى أسبانى — إلى أنه هادام الشعب هو مصدر السلطة الدينية ، فانه يجوز له حقا وعدلا — ولكن وفق اجراءات سليمة — أن يخلع الملك الظالم (٤٨) . وجاء فرانيسكو سواريه وهو خير من أنجبه المجتمع المسيحى من رجال اللاهوت (٤٩) ، فقرر هذه النظرة من جديد ، مع بعض تعديلات دقيقة قاوم بها مزاعم جيمس الأول الامتدادية ، واعتنق الرأى القائل بحق البابوات في عزل الملوك . وأثار دفاع الجزويتى جوان دى ماريانا عن قتل الظلمة سخطا عالميا ، حيث زعموا أنه شجع على قتل هنرى الرابع .

أن ماريانا (الذى لاحظنا بالفعل أنه أعظم مؤرخى جيله) كان من كل الوجوه شخصا مرموقا ، اشتهر بعلمه وفصاحته وجرأته الفكرية . وفى ١٥٩٩ أهدى إلى فيليب الثالث ونشر ، باذن من الرقيب المحلى الجزويتى ، رسالته « الملك وتعليمه ، واستبق هوبز بنصف قرن ، فوصف « حالة الطبيعة » قبل

نفسه المجتمع ، حيث عاش الإنسان آنذاك عيشة الحيوان في البرية ، متحررا من أية قيود أو ضوابط ، اللهم إلا عجزه الجفائي ، لا يعترف بقانون ولا بملكية خاصة ، يشبع غريزته في التماس الطعام والرفقة . ولكن كانت ثمة منخصات في الحرية التي نادى بها رومو ، من ذلك تكاثر الحيوانات الضارية الخطرة . وعمد الناس إلى حماية أنفسهم عن طريق تنظيم اجتماعي ، وهو أعظم أداة اخترعت آنذاك ، ووسيلة ضرورية لمقاومة أعضاء الدفاع والهجوم الفسيولوجية التي زودت بها الطبيعة الحيوان . وبمقتضى ميثاق صريح أو ضمني اتفق أعضاء الجماعة على تفويض سلطتهم الجماعية إلى رئيس أو ملك . ولكن السيادة بقيت في الشعب ، وفي معظم الأحوال تقريبا ، قامت جمعية وطنية (مثل الكورتيز في أسبانيا — الجمعية التشريعية ، من مجلسين) بالرقابة على السلطة المفوضة للملك أو الرئيس ، واحتفظت بالأشراف على الخزينة وسنت بمجموعة من القوانين كانت سيادتها أعلى من سلطة الملك . هـ

وفي رأى ماريانا أن الديمقراطية أمر مستحيل ، بسبب تفاوت توزيع القدرات والذكاء بين الناس والدمار كل الدمار في تحديد السياسة عن طريق الاستفتاء^(٥٠) . فالمملكية المقيدة أو الدستورية أحسن أنواع الحكومات ، فهي تلتئم مع طبيعة الإنسان ، وتعاون على بقاء الدولة . ويجب أن تكون وراثية ، لأن الحكومة الانتخابية إن هي إلا مثار للفوضى في فترات دورية .

ويجب أن يكون الملك مقيدا بالقانون وبالضوابط الدينية والأخلاقية ، وبحق الشعب في عزله إذا طغى . ويجب عليه ألا يغير القوانين أو يفرض ضرائب دون موافقة الشعب . ويجب عليه ألا يقرر شيئا بشأن الدين^(٥١) ، لأن الكنيسة فوق الدولة وينبغي لها أن تحكم نفسها ، ومع ذلك فعليه أن يحمي ديانة البلد ، لأنه إذا أهملت الديانة فلن تقوم للدولة قائمة^(٥٢) . ويجب على الدولة أن تساعد الدين في محافظته على المبادئ الأخلاقية ، وتشجب مصارعة الثيران لأنها تشجع على الوحشية ، والمسرح لأنه يهيج الغرائز

الجنسية^(٥٣) ، وتنفق على العناية بالمرضى والفقراء عن طريق التوسع في إنشاء المستشفيات وتوزيع الصدقات وأعمال البر ، وينبغي على الأغنياء أن يعطوا الفقراء ما ينفقونه الآن على مظاهر البذخ وعلى الكذب . ويجب أن تكون الضرائب عالية على الكاليات ، منخفضة على الضروريات . فإن السلع الموجودة في البلاد يمكن أن تفي بحاجات الجميع إذا أحسن توزيعها توزيعاً عادلاً^(٥٤) . فالأمير الصالح يمكنه أن يحول دون تركز الثروة ، ولم تحل الملكية الخاصة محل الشيوعية البدائية إلا لأن « المجتمع المظيع وضع يده على كل النعم الإلهية واستأثر بكل شيء لنفسه »^(٥٥) . أن هذا نظام ضروري الآن ، وسوف تعاد الشيوعية في السماء^(٥٦) .

ويحوز أن يعزل الطاغية ، بل يحوز حقاً وعدلاً قتله ، حتى يبد فرد ، في بعض الظروف : —

من هو الحاكم الذي يمكن أن يعتبر طاغية ؟ إننا نجد بنا ألا نترك الفصل في هذا لأى فرد ، أو حتى لأفراد كثيرين ، إلا إذا اشترك صوت الشعب في هذا جهرًا ، وانضم المثقفون والمعروفون بالجدية والرزانة إليه للتداول في الأمر ولكن إذا جر الأمير البلاد إلى الخراب ، وأساء استخدام ممتلكات الدولة أو الأفراد ، وخرق القوانين العامة ، وانتكح حرمة الدين ، وبدأ يثبت أقدامه في صلب ووقاحة وعقوق وإذا لم يتسن للمواطنين أن يجتمعوا لاجراء مشاورات ومداولات عامة ، ولكنهم عاقدون العزم جدياً على وضع حد لهذا الطغيان — ومع افتراض أن هذا عمل بغض لا يمتثل فإنه في مثل هذه الحالة ، إذا تقدم فرد ، مستجيباً لهذه الرغبة العامة ، وعرض القيام بالقضاء على هذا الحاكم . فأنى لا أعتبر هذا الفرد آثماً ولا شريراً وإنما لفكرة سليمة أن يمتنع الأمراء بأنهم إذا طغوا

وبغوا... فانه يمكن قتلهم ، لاحقا وعدلا فحسب ، بل أن قتلهم
يكون كذلك مدعاة للشناء والفخر^(٥٧) .

وأعاد ماريانا إلى ذاكرة قرائه حوادث قتل الطغاة في التاريخ —
هارموديوس وأرستوجيتيون اللذين قتلا الطاغية همبارخوس (أثينا - القرن
السادس ق.م)، وبرونوس الذي أخرج الطاغية تاركينوس من رومه. وأشار
إلى أن أثينا ورومه ، بل في الواقع كل أوروبا المثقفة خلدت ذكرهم . ولكن
ماريانا كشف عن تميزه ، برصائه إلى حد ما عن ذبح هنرى الثالث بيد كليمنت
منذ عهد قريب (١٥٨٩) :

ان هنرى الثالث ملك فرنسا خر صريعا بطعنة من أحد الرهبان
بسكين مسمومة في أحشائه . أن هذا منظر كرهه إن جاك كليمنت
درس اللاهوت في كلية الدومنيكان التابعة لطائفته . وأبلغه رجال
اللاهوت الذين استشارهم ، أن قتل الطاغية عمل مشروع . أن موت
كليمنت شرف خالد لفرنسا ، كما بدا لكثير من الناس ، فقد اعتبر
الكثيرون أنه مات وهو جدير بالخلود ، على حين أن آخرين من
ذوى الحكمة البالغة والثقافة العالية استنكروا عمله ووجهوا إليه
اللوم^(٥٨) .

وقد نذكر أن هنرى الثالث كان يشاهض العصبة الكاثوليكية ، وأنه أمر
أعوانه بقتل هنرى دوق جيز ، زعيم العصبة . وكان فيليب الثانى ملك أسبانيا
يؤيد العصبة ، وقد أمدها ببعض المال ، كما وافق على قتل اليزابث الأولى
ملكة انجلترا ، ووليم أورانج . ولم يكن لدى فيليب الثالث أى اعتراض على
قتل أى عدو لأسبانيا .

وفى ١٥٩٩ أمر كلوديوس أكوافيفا رئيس مجتمع يسوع ، بتصحيح كتاب
ماريانا ، الملك ، . ولما قتل هنرى الرابع بيد رافايك (٢٤ مايو ١٦١٠) أعلن

أ كوافيفا استنكاره لمبدأ ماريانا في قتل الطغاة (٨ يولية) وحظر إدراجها في
في تعاليم الجزويت . وكان ماريانا في الوقت نفسه قد اعتقل ، لا لتجنيذه قتل
الطغاة ، بل من أجل احتجاجه على خفض فيليب الثالث لقيمة العملة ، وتحذيره
إياه من مساوئ التضخم في رسالة قيمة « تزيف العملة » ، (١٦٢٥) . واحتمل
ماريانا عناء السجن بطريقة فلسفية ، وبقي على قيد الحياة بعد إطلاق سراحه .
وتوفي ١٦٢٤ . وهو في سن السابعة والثمانين .

٢ — جان بودين : ١٥٩٦ — ٥٣٠

ما أشد الاختلاف بين بودين وماريانا ؟ إنه لم يكن لاهوتيا له قدما في
السماء ، ولم يكن مناصرا كثيبا للعصبة ، ولكن كان من هواة السياسة (مثل
ميشيل دي لوبيتال ، وهو من أنصار التسامح الديني ، وكان مستشارا لهنري
الرابع ومن المعجبين به) . ولد جان في آنجرز ، وربما كانت أمه أسبانية يهودية
وجاء إلى باريس ١٥٦٠ ، واشتغل بالقانون ، ولكنه لم يدر عليه رجحا . وانصرف
في لهفة شديدة إلى دراسة الفلسفة والتاريخ . ودرس في نهم . العبرية واليونانية
والألمانية والإيطالية ، وكتابات ليفي وتاسيتس والعهد القديم ، وشيخرون ،
ودساتير دول غرب أوروبا . وآمن بأن دراسة التاريخ هي بداية الحكمة
السياسية . وكان أول ما قدم للطبعة « منهج لتيسير فهم التاريخ » ، (١٥٦٦) .
وهو كتاب يحده الطالب تافها لقيمة له ولامتعة فيه ، يحشوا بالتمنيقات البلاغية ،
والأطناب الممل . إن العقل الفلسفي لا يتم نضجه مبكرا . لقد اعتقد بودين وهو
في السادسة والثلاثين أن التاريخ يوحى إلينا بالفضيلة عن طريق الكشف عن
هزائم الأشرار وانتصارات الأخيار (٥٩) ، ومع ذلك فإن الكتاب يعتبر بعد —
« مقالات ميكيا فيلي » — أول كتاب هام في فلسفة التاريخ .

وفي هذا الكتاب ، وفي كتاب « الجمهورية » الذي جاء بعده — وقبل قرن
ونصف قرن من ظهور فيكو ومونتسكيو — نجد تفكيرا منهجيا منتظما في

المناخ والسلالة باعتبارهما عاملين من عوامل التاريخ . فالتاريخ من وظائف الجغرافيا — الحرارة ، المطر ، التربة ، سمات السطح . . . أن الجغرافيا تحدد الخلق ، والخلق يحدد التاريخ . وأن الناس لتباین أخلاقهم وسلوكهم ، تبعاً لحياتهم على الجبال أو في الأودية ، أو على شواطئ البحار . ويتميز أهل الشمال بقوة الجسم والنشاط العضلي . على حين يتميز أهل الجنوب بالحساسية العصبية وحدة الذهن . أما سكان المنطقة المعتدلة ، مثل شعوب البحر المتوسط وفرنسا فانهم يجمعون بين خصائص الشمال والجنوب ، وهم عمليون أكثر من أهل الجنوب ، ومفكرون أكثر من أهل الشمال ، وينبغي أن تتكيف حكومة أى شعب مع خلقه الذى حددته الجغرافيا والسلالة ، والذى لا يكاد يتغير بمرور الزمن . وعلى هذا الأساس يجب أن يحكم شعوب الشمال بالقوة ، وشعوب الجنوب بالدين .

وفي كتاب أقل شأنًا رد على تناقضات هاستروا ، أسس بودين « الاقتصاد السياسى » تقريباً (٦٠) خلال أسباب سرعة ارتفاع الأسعار فى أوربا ، وناقش مساوى خفض قيمة العملة ، ودافع عن حرية التجارة ، فى عصر الحماية الطبيعية والاقليمية ، وأكد العلاقة بين الواقع الاقتصادى والسياسة الحكومية .

ولكن أروع أعماله — وهو أهم اضافة للفلسفة السياسية فيما بين ميكيا فالى وهوبز — هو كتابه « الجمهورية » (١٥٧٦) . وقد استعمل بودين هذه اللفظة بمعناها الرومانى : أى الدولة . وفرق بين الدولة والمجتمع . فالمجتمع قائم على الأسرة ، التى لها أساس طبيعى فى العلاقة بين الجنسين وبين الأجيال . أما الدولة فتقوم على قوة مصطنعة . وكانت الأسرة فى شكلها الطبيعى ، أبوية — أى أن للآب سلطة مطلقة على أزواجه وبنيه وامتلاكات الأسرة ، وربما انحصرت المدنية بشكل حظير من حقوق الآب . ويجب أن تخضع المرأة دوماً للرجل لأنها أضعف منه عقلاً ، وفى وضعها معه على قدم المساواة إغفال خطير

« للطبيعة » . وينبغي أن يكون الزوج على الدوام حق الطلاق ، كما ورد في التوراة . وذهب بودين إلى القول بأن انهيار سلطان الأب وتدخل انضباط الأسرة كانا بالفعل يقوضان الأسس الطبيعية للنظام الاجتماعي . لأن الأسرة ، وليست الدولة ، هي وحدة النظام والأخلاق ومصدرها ، فإذا انتهت وحدة الأسرة والانضباط ، فلن يملأ فراغها أية قوانين مهما بلغ عددها^(٦٢) . والملكية الخاصة أمر لا غنى عنه لسكبان الأسرة وبقائها . والشريعة مستحيلة لأن كل الناس ولدوا غير متساوين^(٦٣) .

وكان بودين أكثر واقعية من ماريانا وروسو في مناقشته لأصل الدولة . فليس ثمة لغو وهراء حول ميثاق أو عقد اجتماعي ، فقد تنشأ الجماعات القروية على شيء من مثل هذا الاتفاق . أما الدولة . فقد نشأت بتغلب مجموعة من الأصوات على مجموعة أخرى ، ثم أصبح زعيم الفريق المنتصر ملكاً^(٦٤) . ولم ينبع اقرار القوانين من ارادة الشعب أو « سيادته » بل من القوة النظامية للحكومة ، — ومن ثم فإن الملكية المطلقة أمر طبيعي ، فإنها في الدولة ، استمرار لسلطة الأب في الأسرة الأبوية . فلن تكون هناك سيادة لأية دولة إذا خضعت لغير قوانين الطبيعة وقوانين الله^(٦٥) . وكما انتهى هوبز إلى هذه النتائج فرارا من الفوضى التي سببتها الحرب الأهلية في إنجلترا (١٦٤٢ — ١٦٤٩) ، فإن بودين رأى في الحكومة الاستبدادية المخرج الوحيد من الحروب الدينية وتمزيق فرنسا ، مع ملاحظة أن كتابه نشر بعد أربع سنوات فقط من مذبحه سانت برتليمو، وربما كتب بالدم الذي كان يجري أنهارا في شوارع باريس . وبدا لبودين أنه إذا كانت مهمة الدولة هي المحافظة على النظام ، فإن هذا لن يتسنى لها إلا عن طريق سيادة مطلقة غير قابلة للتحويل أو التخلي عنها .

وبناء على هذا تكون الملكية غير المقيدة ، الوارثية . هي خير أنواع الحكومات : يجب أن تكون غير مقيدة حتى لا تنتهى إلى الفوضى ، ووراثية تجنبنا لشور الزاع على العرش . فالملكية مثل السلطة الأبوية - سادت في معظم أنحاء الأرض ، لأطول مدة من الزمن ، ولقد أقرها التاريخ . على حين أن الديموقراطيات لم تحكم الدول إلا لفترات قصيرة لحسب ، ولكنها تنهار ، بسبب تقلب الشعب ، وعجز الموظفين الذين يختارهم ، وفسادهم وقبولهم للرشوة^(٦٥) ، وفي أية جمعية شعبية يحسب عدد الأصوات دون وزنها أو تقدير قيمتها (من أجل نوعية التفكير الذى أدلى بالصوت) ، فإن عدد الحقى والأشرار والجهال أكبر ألف مرة دائماً من عدد الرجال الذين يقام لهم وزن . وليس ثمة خلاص للديمقراطية إلا إذا تولى الحكم ، وراء ستار المساواة ، نفر قليل من الناس ، ورجح وزن العقول عدد الرؤوس^(٦٦) .

واعترف بودين بأنه لا بد من إيجاد مخرج من الاستبدادية المطلقة إذا أصبح الحاكم طاغية ظالماً . فأباح حق القيام بالثورة أو قتل الطاغية ، وربما كان ذلك على أساس غير منطقي . وسلم بأنه حتى ملكياته البالغة حد السكال ، لا بد أن يأتى يوم تنهار فيه ، وتعزل نتيجة تغييرات لامعدى عنها ، وتنعذر الحيلولة دون وقوعها . واستبق هيجل ، فقسم التاريخ إلى فترات ثلاث : الأولى سيطرت فيها دول الشرق ، والثانية شعوب البحر المتوسط ، والثالثة أقطار شمالى أوربا . ومن خلال تعاقب القيام أو السقوط هذا ، ذهب بودين إلى القول بأنه يلحظ شيئاً من التقدم . ولا يقع العصر الذهبى فى الماضى الأسطورى ، بل فى المستقبل الذى سيبنى ثمار أعظم الاختراعات على الإطلاق - وهى الطباعة^(٦٧) . وكتب ، (قبل بىكون بنصف قرن .) أن العلوم تدخر فى أعماقها كنوزاً لن تقدر على استنفادها أية عصور مقبلة قط .

وكان بودين مفكراً حراً ، مع نظرة كريمة بعين الاعتبار إلى الكتاب المقدس ، (أو بالأحرى إلى العهد القديم ، لأنه يتجاهل العهد الجديد تقريباً) ،

مع انكار تام لحقيقة السحر والملائكة والعفاريت والتنجيم ، وضرورة إقامة دولة ملتزمة مع الخصائص الخفية للأرقام . ونادى بأقصى العقوبة للسحرة ، ونصح الأمراء بالمحافظة على وحدة العقيدة الدينية لأطول وقت ممكن ، ولكن إذا قويت الهرطقة وانتشرت ، فليس من الحكمة قمعها بالقوة ، بل أنه من الأفضل الاعتماد على عنصر الزمن لكسب الهرطقة إلى جانب الدين الرسمي .

أما ماذا عساه يكون هذا الدين ، فلم يفصح عنه بودين . وكان دينه مشكوكا فيه . وفي كتابه الغريب « حديث سبعة رجال » ، الذي تركه عن عمد دون أن ينشره ، (طبع لأول مرة ١٨٤١) ، صور كاثوليكيًا ولوثريًا وكلفنيا ويهوديًا ومسلمًا ، وأبيقوريا وربوبيا ، في مناقشة في البندقية . وفازت اليهودية ، أما المبادئ المسيحية في الخطيئة الأصلية ، والتثليث والتجسد فقد كان الهجوم عليها أقوى بكثير من الدفاع عنها . ولم يثبت في النهاية إلا الإيمان بالله . أن نقاد بودين اتهموه بأنه يهودي وكلفني وملحد ، وقالوا بأنه مات على غير دين « كالكلب » . ولكن الإيمان بالتوجيه الإلهي للعالم ، واضح بأجلى بيان في « الجمهورية » ، والاحساد موضوع خارج نطاق التسامح ، لأنه يهزأ بالكون^(٦٩) .

وكان بودين ، مثل هوبز ، رجلا هيا با يحاول أن يتلمس طريقه إلى الهدوء والاستقرار وسط طغيان الثورة والحرب . وأصاب أعظم مؤلفاته عدوى زمانه ، فكان فلسفة لعالم مضطرب معتل يتلطف على النظام والسلام . ولا يمكن أن تقارن بالحكمة المصقولة التي جاءت في « مقالات » ، مونتيني الذي كان أقل منه انزعاجا في تلك السنوات ذاتها . ومع ذلك فانه منذ عهد أرسطو ليس ثمة رجل ، ربما باستثناء ابن خلدون ، نشر الفلسفة السياسية على مثل هذا النطاق الواسع ، أو دافع عن آرائه وأهوائه بمثل هذه القوة والعمق ، مثل بودين . ولن نجد قبل ظهور « لفيانان هوبز » ، مثل هذه المحاولة الجادة لاكتشاف بعض المنطق في أساليب الدول .

٣ — هوجو جروشويس : ١٥٨٣ - ١٦٤٥

لذا بقي ذكر هويج جروتو عالقا بالأذهان ، على حين طوى النسيان
تقريبا ذكر معظم الرواد الأول في حقله ، وهو القانون الدولي (*) فقد يرجع
هذا إلى أنه عاش كما كتب ، ولأنه ألّف كتابه الممتاز في فترة كانت تعج
بدبلوماسية نشيطة وسياسة مخوفة بالمخاطر . ولد هويج (أو هوجو) في
دلفت ، ودرس الرياضيات والفلسفة والقانون في لندن . وامتدح سكاليجر
أسلوبه اللاتيني وأثنى عليه ، وفي السادسة والعشرين حظى بتقدير بلاده له
بسبب مؤلفه « حرية البحار » (١٦٠٤) الذي أوجز فيه القانون البحري ،
ودافع عن حرية البحار من أجل جميع البلاد ، وبخاصة هولنده التي كانت
تتحدى البرتغال التي أدعت احتكار الطرق البحرية إلى الشرق الأقصى . وعندما
عين مؤرخا رسميا للمقاطعات المتحدة ألّف بلغة لاتينية قاربت حد الامتياز
تاريخا جريئا ، ولكنه دقيق للشورة الكبرى ، ولقد رأيناه يناضل إلى جانب
مذهب التحرر الذي نادى به أرمنيوس في النزاع بين أولد نيار تفلدت
وموريس ناسو . فقبض عليه واعترف بأخطائه (٧٠) فحكم عليه بالسجن مدى
الحياة . وتوصلت زوجته أن تقيم معه في السجن ، فسمح لها بذلك . وبعد
قراءة ثلاثة سنوات قضاها في السجن ، خبأته زوجته في صندوق للكتب ،
فهرب من المعتقل ، وقصد إلى فرنسا حيث أجرى عليه لويس الثالث عشر
معاشا ضئيلا . وعندما صعدت ألمانيا حرب الثلاثين ، ألّف جروشويس الذي
كان يعاني الفقر والعوز كتابة « قانون الحرب والسلام » (١٦٢٥) .

(*) وعلى الأخص فرانسيسكو فسكتوريا أستاذ اللاهوت في سلامنكا في
« المحاضرات » (١٥٧٧) .

البريكو جنتيلي أستاذ القانون المدني في أكسفورد الذي استبق بكتابة « قانون
الحرب » (١٥٨٨) كتاب جروشويس « دفاع عن حرية البحار » ، ثم فرانسيسكو
سورية الذي عرض في كتابه ضخم فكرة إنشاء عصبة أمم يحكمها القانون الدولي .

رأيت أنه يسود العالم المسيحي نزعة إلى شن الحروب التي قد تنجل عنها حتى الموت المتبررة ، فيفزع الناس إلى السلاح لأتفه الأسباب ، أو لأسباب ، حتى إذا ما حملوا السلاح ، لم يعد هناك أى احترام لقانون سماوي أو قانون وضعي ، وكأنما أتيح للناس ارتكاب أية جرائم دون قيد (٧١) .

لأن مكافأتي قد ذهب إلى أن الدول لا يمكن الابقاء أو الحفاظ عليها إلا إذا كانت ملتزمة بالقانون الاخلاقي المفروض على مواطنيها . فينبغي على رجال الدولة — بالتفويض عادة — أن يكونوا مستعدين للكذب والسلب والقتل ، قدر ما يرون أن هذا أو ذلك مرغوب فيه ، من أجل مصلحة الدولة ، لأن الدول ، حتى تلك اللحظة تعيش في أدغال تنافس فيها البقاء ، مثلما كانت تعيش الأسرات قبل قيام الدول . وهي لا تعرف قانوناً إلا قانون ديانة الذات ، . ويسلم جروشيوس بأنه يجوز إعفاء الحكومات من ، القانون الوضعي ، الذى سنه الانسان ، ولكنه يرى أنها ملتزمة بطاعة القانون الطبيعي ويعرف هذا القانون « الحق الطبيعي » بأنه هو أن ما ديمليه ويفرضه العقل الرشيد ، ، ليس كشف عن الفساد الخلقى أو الضرورة الخلقية لعمل من الأعمال ، باتفاق هذا العمل أو تنافره مع الطبيعة العقلانية ، ومن ثم يوضح أن هذا العمل يحمله الله أو يحرمه ، والله هو منشئ الطبيعة أو خالقها (٧٢) . وعلى هذا يكون القانون الطبيعي هو نظام الحقوق والواجبات الذى ينبع من الطبيعة الأساسية للانسان بوصفه كائناً عقلياً يعيش في مجتمع . فكل ما هو ضرورى لوجوده واسهامه في المجتمع حق طبيعى له ، فهو ناشئ عن طبيعته وملام لها . ويجب أن تلتزم الدول في تصرفاتها بمراعاة هذه الحقوق .

ويتابع جروشيوس كلامه فيقول بأن هذا يجب أن يكون خاضعاً لقوانين الشعوب ، التي قصد بها القانون الرومانى تلك التي لم تشملها المواطنة الرومانية ، فلما انهارت الامبراطورية الرومانية الغربية طبقها مشرعو

العصور الوسطى على علاقات الدول بعضها ببعض . وهذا يصبح في نظر جروشيوس التجميع المبهم أو غير الواضح لكل القواعد والقيود التي قبلتها معظم الدول المتطورة أو النامية ، بحكم العرف ، في اتصالاتها المتبادلة . وعلى هذين الأساسين : القانون الطبيعي ، وقوانين الشعوب ، يبنى جروشيوس الهيكل النظري ، وهو أول صياغة حديثة لقانون دولي مرغوب فيه .

وهو بصفة عامة يحرم الحرب على الإطلاق . وهو يدرك أن الجماعة — مثل الحيوان — اذا أحسّت بأنها مهددة في أعز ما تملك أو في حياتها ، فانها مستدافع عن نفسها بأية وسيلة متاحة — وإذا أمكن بالحجة والبرهان أو بالقانون ، حتى اذا أخفقت هاتان الوسيلتان ، فأية قوة تأتمر بأمرها (٧٣) . وبناء على هذا فإن أية دولة في مثل هذه الظروف يكون لها الحق في شن الحرب دفاعاً عن حياة مواطنيها وممتلكاتهم . ولكن الحرب عمل مجاف للعدالة ولا يمكن تبريره ، اذا شنت من أجل الغزو والفتح ، أو السلب والنهب ، أو من أجل الأرض ، أو لرغبة صادقة أو من عومة في فرض حكومة صالحة على شعب غير راغب فيها (٧٤) . والحروب الوقائية جائزة كذلك . د نشر بعض الكتاب مبدأ لا يمكن التسليم به قط ، وهو أن قانون الشعوب يجيز لدولة ما أن تبد أعمالاً عدائية ضد دولة أخرى تثير عظمتها المتزايدة فزع الدولة الأولى . وإذا كان هذا مجرد ذريعة نفعية ، فإنه إجراء يجوز اللجوء إليه ، ولكن مبادئ العدالة لا تؤيده (٧٥) . ويجب أن يلتزم الأفراد بالامتناع عن الخدمة في حروب يرون بوضوح أنها جائزة (٧٦) .

فإذا افترضنا ، حينذاك أن ثمة حرباً عادلة مشروعة ، فان لكل أمة تشترك فيها حقوقاً ، فلها أن تلجأ إلى الخداع والتضليل ، وتثار وتسترد الأرض ، وتستولي على الغنائم ، وتأسر وتستخدم الأسرى . ولكن على الأمة واجبات ، مثلما أن لها حقوقاً ، فيجدر بها أن تعلن الحرب قبل أن تشنها ، كما تحترم أية معاهدة عقدت بشأنها ، وتلتزم بمسؤولياتها فيها بصرف النظر عن عقدت معه . كما يجدر في حملات الغزو والحفاظ على حياة النساء والأطفال

والمسنين ، بل على الأصح ، غير المحاربين عامة . ويجوز استرقاق الأسرى ، ولكن لا ينبغي قتلهم . واغتبط جروشيوش لظاهرة طيبة تبشر بالتقدم ، تلك أن المسيحيين والمسلمين لم يعودوا يستعبدون أسراهم الذين على دينهم .

وكانت مناقشة كريمة معتدلة برغم ما شابها من عيوب ، فإذا كان القانون الطبيعي ، أمرا من أملاء العقل الرشيد ، فمن ذا الذى يحدد أى عقل هو الرشيد ؟ ففي الدولة إنما تحدده الحكومة التى تملك قوة مسلحة ، فأساس الامتثال لقواعد السلوك الموصى به ، هو قدرة المشرع على فرضها فرضا . فالقوة لا تؤسس حقا بل تسن قانونا . فالقانون الدولى ينتظر هيئة تشريعية دولية تدعمها قوة دولية ، وهو أساسا لن يتضمن إلا قيودا متواضعة واتفاقات يمكن نقضها ، قبلتها الدول المعنية على أساس أنها ملائمة للظروف التى أبرمت فيها . وإذا عرفنا قانون الشعوب ، بأنه أعراف أكثر الشعوب تطورا فإن هذا ، مرة أخرى ، يقتضى ضمنا وجود مرجع ثقة مؤهل وقادر على تحديد الشعوب الأكثر تطورا . وأين هذا المرجع الثقة ؟ فى أوروبا ؟ فى الصين ؟ فى دولة الإسلام ؟ وهل تسمح حكومة لمواطنيها ليحكموا ويقرروا لأنفسهم أن الحرب عادلة أو غير عادلة ؟ أنها تستطيع ذلك لو أن جهاز صيانة المبادئ والتوجيه فيها كان جهازا صالحا للوفاء بهذا الغرض .

لقد كان الكتاب غير منطقي ، ولكنه كان ضروريا . لقد شنت ألف حرب جائرة ، وكان من الخير أن يفكر إنسان فى اتخاذ خطوات للتخفيف من أعمال القتل التى ترتكبها الأمم المتحاربة ، طبقا لقيود مقبولة بالتبادل ، ومن الخير استنكار حروب الغزو والسلب والنهب . ومن الخير أن يرتفع صوت ينادى بالرحمة لغير المحاربين والأسرى . وسخرت حرب الثلاثين سنة من هذه الامتيازات والالتزمات . ولكن عندما خفت حدة هذا الجنون المسعور ، بررت حالة ألمانيا بعد الحرب كتاب جروشيوس أبلغ تبرير .

أن ريشليو الذى عقد العزم على الدخول فى حرب الثلاثين سنة ، حبس عن جروشيوس المعاش الذى كان يتقاضاه ، وآوى المؤلف المعرض للنجاطر

إلى همبرج . وفي ١٦٣٣ أرسله أوكسنستيرنا إلى بارمن سفيراً للسويد لدى فرنسا ، ولكن جروشيوس - شأن معظم الفلاسفة - كان أكثر إئتلافاً مع أفكاره وآرائه منه مع الناس ، فكان بغضه لريشليو ، ثم لمزران من بعده ، من أن يحدد دبلوما سيئة . وفي ١٦٤٥ عاد إلى النمسا الراحة والسلوى بين كتبه . ودعته الملكة كريستينا للإقامة في بلاطها ، عالمًا بجول له العطاء ، ولكنه حظى بموافقتها على اللجوء إلى ألمانيا . فرتبت له الملكة أمر السفير إلى لوبك ، ولكن عاصفة جنحت بالقرب إلى الشاطئ ، فعانى جروشيوس كثيراً من هول الصدمة ومن اقتضاح أمره ، وقضى نحبه في روستوك في ٢٩ أغسطس ١٦٤٥ ، وهو في الثانية والستين من العمر .

وبعد انقضاء مائتين وسبعة وستين عاماً غفرت له هولندية «تحريرته» ، وفي ١٨٨٦ أقامت له تمثالاً في مسقط رأسه . وفي ١٨٩٩ وضع مندوبو الولايات المتحدة إلى المؤتمر الدولي للسلام في لاهاي ، على قبره أكليلاً من الغضنة ، اعترافاً بأن كتابه أسهم لبعض الوقت في الحد من «لعبة الملوك» .

ه - الكاهن الأبيقورى

هلا وقفنا ، ونحن نمضى في طريقنا إلى ديكارت ، وقفه أخيرة ، انفسكر ملياً في سر الكاهن الكاثوليكي الذي أحيا مادة أبيقور . فكان من مظاهر التطور العقلي في أوروبا أن فيلسوف اللذة اليوناني الذي ظل اسمه لعدة قرون مرادفاً للكفر والالحاد ، يلقى الآن ، وفي غرة النور المتزايد من أرسطو ، تكريماً وتشريفاً على يدى كاهن ورع لا عيب فيه ، نباق مات من فرط تشدده في الإمساك أيام الصوم الكبير .

بدأ بيير جاسندي حياته ابناً لأحد الفلاحين بالقرب من دير في بروفانس ، وأظهر من حدة الذهن والشغف بالمعرفة ماهاً له وهو في السادسة عشرة

الاشتغال بتعليم ، الأدب ، ، وفي الخامسة والعشرين تدرّس الفلسفة في جامعة أكس . ورمم كاهنا ، وأصبح قسيسا ورئيسا لكتاتدرائية دين . وفي تلك الأثناء كان قد فرغ من تأليف كتاب يتسم بالانفعال والثورة على أرسطو ، تمرينات التناقض ، . وقد أحرق معظم الكتاب بناء على نصيحة الأصدقاء ، ولكن الأجزاء التي نشرها منه في ١٦٢٤ نجت عن تأييده ، لذلك ، كوبرنيكس ، وذرية ، لوكريشس و فلسفة ، أبيقور . وهنا كانت دعوة صارخة للاستشهاد . ولكن بيير كان شابا لطيف المعشر ، متواضع السلوك مواظبا على واجباته الدينية ، إلى درجة يبدو معها أن أحدا لم يفكر في إحراقه . أنه أعلن طوال حياته عن إيمانه بنظرية الحقيقتين ، — أن الفلسفة يمكن أن ترتضي النتائج التي يفرضها العقل بوضوح ، على حين أنه في الدين قد يظل المرء يتبع العقيدة والطقوس التقليدية بوصفه ابنا باراً للكنيسة . فأصاب بيير عصفورين بحجر واحد .

وبناء على طلب من مرسل صديق ديكارت ، قدم بيير عدة اعتراضات قوية على فلسفة ديكارت ويحسن أن نوجّلها . وفي ١٦٤٤ عين أستاذا للرياضيات في الكلية الملكية ، في باريس ، ولكنه سرعان ما أصيب بالتهاب رئوي ، فعاد إلى جو دين ذى الشمس الأكثر دفئا . وهناك كتب أعظم مؤلفاته ، وكما تدور حول أبيقور : الحياة السعيدة في نظرية أبيقور ، (١٦٤٧) . و حياة اللذة عند أبيقور ، (١٦٤٩) وكتاب يقع في ١٦٠٠ صحيفة على نهريين . مبادئ فلسفة أبيقور ، (١٦٤٩) .

وبينا واصل بيير تثبيت عقيدته الكاثوليكية ، شرح لقراء اللاتينية فلسفة كل من أبيقور ولوكريشس — المادية والذرية وشرعية اللذة . أن الدالة الأولى ، لكل شيء هي الله ، ، ولكن بعد هذه الدفعة الأولى (التي استهل بها كل شيء وجوده) واصل كل شيء مسيرته أو تقدمه بفعل قواه وقوانينه الفطرية المتأصلة فيه . وكل معرفة تنبع من الحواس ، وهي ذات وجود فردي .

أما «الكليات» أو الأفكار العامة ، فهي أدوات نافعة للفكر ، ولكن ليس لها ترابط موضوعي . وليس من شك في أن الروح غير مادية ، وخالدة ، ولكنها تبدو معتمدة على الجسم . وواضح أن الذاكرة من وظائف المخ ، وليست اللذة الحسية لا أخلاقية إذا اتسمت باعتدال حازم . ولكن أقل الملذات تغريرا وغدرا هي ملذات الذهن ، فإن الرياضيات مثلا قد يطرب لها الإنسان ويتهيج بها . وكان جاسندي نفسه بطبيعة الحال « ابيقوريا » ، أى أنه ارتضى فلسفة ابيقور ، ولكنه لم يغمس في اللذة الحسية ، بل على النقيض من ذلك ، اتسمت حياته باعتدال بالغ . وإنتابته الحمى بعد صوم طويل أكثر مما ينبغي . وأجهز عليه أطباؤه بفصده ثلاث عشرة مرة (١٩٥٥) .

وكان مولبيير وسيرانودى برجرارك من بين مريديه في باريس . وارتضى فوكتنل وسانت أفرموند ونيون دى لىسكلوس فلسفته دون لاهوته . وأفاد هوبز من أحاديثه معه . وربما أخذ عنه بعض عناصر علم النفس الحسى ، عن طريق تلميذ جاسندي وصديق لوك ، فرانسوا برتنيه الذى نشر موجز فلسفة جاسندي « في ١٦٧٨ . وآثر نيوتن « ذرات » جاسندي على « جسيمات » ديكارت ، ووجد عند كاهن بروفسال تلميحا إلى الجاذبية وفكرة غامضة عنها (٧٧) . وفي القرن الثامن عشر هيات المادية الكامنة في جاسندي وتوكيده على العلم والتجريب مقابل منطق أرسطو وميتافيزيقا ديكارت — نقول هيا له هذا وتلك ، بين الفلاسفة الفرنسيين ، مكانة أرفع من مكانة أى مفكر فرنسى آخر ، باستثناء ديكارت . إذن ما هذا الذى جعل من ديكارت لمدة قرن من الزمان معينا لا ينضب للفلسفة الحديثة ؟

٦ — ريفيه ديكارت ١٥٩٦ — ١٦٥٠

أول ما ذكره عن ديكارت أنه تلقى تعليمه على أيدي الجزويت . وكان هذا التعليم نقطة البداية وحجر الشحذ عند كل المراهقة الفرنسيين ، ابتداء

من ديكارت ثم فولتير ، وورينان وأنتول فرانس ، بين جدران المعبد صنعت
المعاول التي حطم بها المعبد ، (٧٨) .

ولد في لأهى ، وهى بلدة صغيرة بمنطقة التورين بفرنسا . وماتت أمه السل
بعد ولادته بأيام قلائل ، وورث عنها المرض . وكان فى صباه شاحب اللون ،
يسعل سعالاً يثير الاشفاق ، إلى حد أن الطبيب لم يشر بأى أمل فى إنقاذه ،
ولم تتخل عنه الممرضة يأساً من بقاءه على قيد الحياة ، ولكنها أمدته بالدفء
والغذاء من جسدها هى ، فعاد إلى الحياة ثانية . وربما سمي لهذا السبب ، باسم
رينيه (وهى لفظة مشتقة من أصل لاتينى بمعنى ولد من جديد) . وكان والده
محامياً موسراً ، وعضواً فى برلمان رن Rennes ، وترك لابنه عند وفاته دخلاً
يقدر بستة آلاف فرنك فى العام .

والحق فى سن الثامنة بكلمة « لافيش » اليسوعية ، التى يقول عنها أحد
المفكرين الأحرار المتحمسين ومشاهير الرياضيين « يبدو أنها زودته بقدر
من الرياضيات أعظم كثيراً مما كان يمكن أن يحصل عليه فى معظم الجامعات فى
ذاك العصر » (٧٩) . وتبين معلومه ضعف جسمه ويقظة ذهنه فأباحوا له البقاء فى
الفراش بعد الوقت المحدد للاستيقاظ ، ولحظوا أنه استغل الوقت فى اتهم
الكتب ، الواحد بعد الآخر ، وفى كل جولاته من الميتافيزيقا ، ظل يمتط
بإعجابه الشديد بأساتذته الجزويت ، كما أنهم بدورهم ، نظروا إلى شكوكه بشيء
من التسامح الأبوى .

وقصد فى سن السابعة عشرة إلى باريس ليلهو ويعبت ، ولكنه لم يجد شيئاً
ينغمس فيه ، لأنه لم يكن بعد يحفل بالنساء أو يميل لإثمن ، ولكنه بوصفه
رياضياً ضليعاً ، انصرف إلى الميسر ، مقدراً أنه يستطيع الاستيلاء على خزانة
قضى القهار . والتحق بجامعة بواتييه حيث حصل منها على درجات عليية فى
القانون المدنى والقانون الكنسى . وما أن استرد عافيته وقوته ، حتى أذهل
أصدقائه ، بانخراطه فى جيش الأمير موريس ناسو (١٦١٨) . ولما نشبت حرب
٢١ - ٣٠ الحضارة

الثلاثين عاما انضم إلى قوات هكسيمليان أمير بافاريا ، وتذكر رواية غير مؤكدة أنه اشترك في معركة « الجبل الأبيض » ،

وفي غضون هذه الحملات . وبخاصة في شهور الشتاء الطويلة التي تعوق مواصلة القتال ، كان ديكرت يتابع دراسته ، وفي الرياضيات بصفة خاصة . وذات يوم (١٠ نوفمبر ١٦١٩) في نيوبرج بالقرب من أولم في بافاريا ، اتقى البرد بالقبوع في « موقد » (من المحتمل أن تكون غرفة مدفأة خصيصا له) وفيها — كما يقول هو — رأى فيما يرى النائم في ثلاث رؤى أو ثلاثة أحلام ، ومضات من النور ، وسمع رعداً ، وبدأ له أن روحا سماوية كانت توحى إليه بفلسفة جديدة . وبعد خروجه من هذا « الموقد » (الغرفة) كان — كما يؤكد لنا — قد صاغ الهندسة التحليلية ، وتصور فكرة تطبيق المنهج الرياضي في الفلسفة (٨٠) .

ورجع إلى فرنسا في ١٦٢٢ ، ورتب أموره المالية . ثم استأنف جولانه ، ف قضى قرابة سنة في إيطاليا : فقصده من البندقية (ويقولون سير أعلى الأقدام) إلى لوريتو حيث قدم لإجلالة للعدراء . ورأى رومه في فترة الغفران (١٦٢٥) ، ومر بفلورنسه ولكنه لم يزر جاليليو . ثم قفل عائداً إلى باريس وهناك في الريف تابع دراساته العلمية . وصحب الرياضي المهندس العسكري جيرار ديسارج في حصار لاروشيل (١٦٢٨) . وفي أخريات هذا العام قصد إلى هولندة ، حيث قضى في المقاطعات المتحدة بقية أيام حياته تقريبا ، اللهم إلا بعض فترات قصيرة قصد فيها إلى فرنسا لتدبير شؤنه المالية .

ولسنا نعلم لماذا ترك فرنسا ، ويحتمل أن هذا يرجع إلى أنه « بعد أن أفصح عما لديه من أسباب للشك في أشياء كثيرة (٨١) » خشى أن يهتم بالهرطقة ، مع أنه كان له أصدقاء كثيرون من رجال الكنيسة هناك ، مثل مرسن وييرول . وربما حاول أن يتجنب الأصدقاء والأعداء على حد سواء ، أملا في أن يجد في بلا غريب عزلة اجتماعية (لافكرية) يستطيع فيها أن يشكل الفلسفة التي

كانت تعتلج بين جنبيه لقد كره ضجيج باريس وثرثرتها ، ولكن لم تنقله الحركة النشيطة التي تطلقها القنوات — في امستردام ، وهو يقول هناك ، وسط الجموع المكتظة من شعب هظيم نشيط ، استطعت أن أعيش وحيداً منعزلاً ، وكأني في صحراء نائية (٨٢) . وربما كانت رغبته في أن يتوارى عن الأنظار ويخفى اهتماماته هي التي دفعته إلى تغيير أماكن إقامته أربعاً وعشرين مرة في السنوات العشرين التالية ، من فرانكر إلى امستردام إلى دنتر ، إلى امستردام إلى أوترخت ، ثم إلى ليدن ، ولكن بالقرب من جامعة أو مكتبة عادة . وممكنه دخله من الاستمتاع بطبيات الحياة الاجتماعية في قصر صغير مع عدد من الخدم . وامتنع عن الزواج ولكنه اتخذ خليفه (١٦٣٤) أحببت له طفلة . وإنا نعلم إذ نسمع أن الروح الإنسانية تجلت فيه حين بكى الطفله عند موتها في الخامسة من عمرها . وقد نجح في الصواب إذا ظنناه فاتراً لانحر كة الأحداث الدنيوية ، واسوف نجد أنه يبرر كثيراً من الأهواء والمشاعر التي يشعنها رجال الأخلاق عادة . وما كان هو نفسه ليتجرد منها ، فهو عرضة للزهو والغضب والغرور (٨٣) .

لقد بذل ديكارت جهداً جباراً لتحقيق هدفه . انظر إلى ما ألزم نفسه بدراسته الرياضيات ، الفيزياء ، الفلك ، التشريح ، الفسيولوجيا ، علم النفس ، هيتافيزيقا ، نظرية المعرفة ، الأخلاق ، اللاهوت . فن ذا الذي يجرؤ اليوم على أن يجول بين هذا كله ؟ ومن ثم طمع في العزلة والاحتجاب عن الأنظار ، وأجرى التجارب والمعادلات والرسوم البيانية . وقدر فرص تجنبه بحكمة التفطيش أو تهدئتها ، وحاول أن يهيئ لفلسفته منهجاً رياضياً . ولحياته منهجاً فلسفياً .

ومن أين يبدأ ؟ لأنه في مقال في المنهج ، وهو الكتاب الفذ الذي يعتبر

* كتيبه ١٦٢٩ ، ونشر في ١٦٣٧ في مجلد يتضمن كذلك وثائق الهندسة والانكسار والشهب ، ثم أعقبه في ١٦٤١ كتاب « تأملات في الفلسفة الأولية » ، ثم كتاب —

فأتمهعه عصر جديد ، أعلن عن أول مبدأ كان يمكن ، في حد ذاته ، أن يقيم عليه الدنيا ويقعدها ويثير عليه غضب أولى الأمر ، وهكذا كان . فقد كان الموضوع مكتوباً في لغة فرنسية واضحة متميزة ميسرة ، في صيغة المتكلم الحية الساحرة . لقد أحدث ثورة كبيرة في التفكير ، وقال ديكارت أنه كان سعيداً يذب كل النظريات والمبادئ والتعاليم ، ويطرح كل جهد ومرجع ، ويوجه خاص الفيلسوف أرسطو . وسيدأ بصفحة جديدة خالية من أى شيء ، ويترك في كل شيء . « إن السبب الأساسي في أخطائنا يمكن في أهواء طفولتنا » (٨٦) . . . فالمبادئ التي اعتنقها في شبابه ، استمر على الأخذ بها دون أن تتغير حقيقةها ومبلغ الصدق فيها ، (٨٧) .

ولكنه كيف يمضى قدماً ، إذا ساوره الشك في كل شيء ؟ ولما كان مولعاً بالرياضيات ، وفوق كل شيء بالهندسة التي دأبت عبقريته على تحويلها ، فقد تأقت نفسه ، بعد ابتدائه بالشك الشامل إلى العثور على حقيقة يمكن التسليم بها على الفور بصفة عامة مثل بديهيات إقليدس . « إن أرشميدس ، لكي يتيسر له أن يزحزح الكرة الأرضية من مكانها وينقلها إلى مكان آخر ، تطلب أن تكون هناك نقطة واحدة ثابتة لا تتحرك ، وأنا بالمثل ، سيكون لي الحق في أن استبشر خيراً كثيراً إذا أسعدني الحظ ، فأضع يدي على شيء واحد مؤكد لا نزاع فيه » (٨٦) . « وأكد على هذه النقطة متمللاً : « أنا أفكر . فأذن أنا موجود » (٨٧) » . وهذه أشهر عبارة في الفلسفة ولم يقصد بها أن تكون قياساً

« مبادئ الفلسفة » في ١٦٤٤ وجاء بعده « رسالة في انفعالات النفس » في ١٦٥٠ ،

دراسة الإنسان » ١٦٦٢

* كان سانت أوغسطين قد استخدم نفس نقطة البداية هذه ، عند محاولته دحض آراء المتشككين الوثنيين الذين أعلنوا الشك في كل شيء . ولكنه تسأل : من ذا الذي « يشك في أنه يعيش ويفكر ؟ » « لأنه إذا كان يشك فهو يعيش » (٨٨) . واستخدم مونتيني نفس الحججة ضد المتشككين المنطريين اليونان (أنصار برو ٣٦٥-٢٨٥ ق م) في « معدرة إلى ريموند سيبوند » وكان ديكارت قد قرأ مونتيني

منطقياً ، بل خبرة مباشرة لا سبيل لانكارها ، وهى أوضح وأجلى فكرة يمكن أن نحصل عليها ، وتكون سائر الأفكار صحيحة ، على قدر اقترابها من هذه البديهية الأساسية — الادراك الحسى المباشر ، من حيث الجلاء والوضوح . وكان « منهج » ديكارت الجديد فى الفلسفة هو أن يحلل الأفكار المركبة إلى مكوناتها ، حتى تصبح العناصر غير القابلة للاختزال أفكاراً بسيطة واضحة جلية ، ويبين أن مثل هذه الأفكار كلها يمكن أن تشتق من . أو تعتمد على ، الشعور الأول لـ « كائن » يمكن . أننا على العكس ، يجدر بنا أن نحاول أن نستنتج من هذا الادراك الحسى الأول كل المبادئ الأساسية فى الفلسفة .

ومرة أخرى كانت ثورة فى الفلسفة حين اتخذ ديكارت نقطة البداية ، لا الأشياء الخارجيه المفروض أنها معروفة ، بل الذات الواعية . لقد اكتشفت فلسفة النهضة « الفرد » ، ولكن ديكارت جعل منه همزة الوصل فى فلسفته . « إنى لأرى بوضوح أنه ليس ثمة شئ أسير على أن أعرفه ، من عقلى أنا »^(٨٩) ، وإدراكاً بالـ « المادة » ، وسرنا قدما عبر مستويات الحياة العضوية إلى الإنسان فإن الاتصال أو الترابط المنطقي قد يغرينا بتفسير العقل بأنه مادي . ولكننا لا ندرك المادة إلا عن طريق العقل وحده . والعقل فقط هو الذى يمكن معرفته أو أدراكه مباشرة (دون واسطة) . وهنا تبدأ المثالية ، لابعناها الأخلاقي ، بل على أنها فلسفة تبدأ بالحقيقة المباشرة للأفكار ، أكثر مما تبدأ بالأشياء التى تعرف عن طريق الأفكار . « وليس ثمة تحقيق يمكن إقتراحه أجدى من تحقيق يحاول تحديد طبيعته المعرفة الإنسانية ومداها »^(٩٠) . ولمدة ثلاثة قرون كانت الفلسفة تتساءل عما إذا كان « العالم الخارجى » موجوداً إلا كمجرد فكرة . وكما كان من العسير أن نهرب من الجسم إلى العقل ، بنظرية تفقد قدر كل من مصدر الأحاسيس وقوتها وواضح أنهما ماديتان ، وطبيعة الأفكار التى يبدو أنها طبيعة غير مادية ، فإن ديكارت كذلك ، وقد بدأ بالنفس ، وجد من العسير الانتقال من العقل إلى الأشياء . فكيف يتسنى للعقل أن يدرك أن الأحاسيس التى يبدو أنها تدل على عالم خارجى ، ليست شيئاً أكثر من حالته هو (أى العقل) ؟

وكيف يصدق الحواس التي غالبا ما نخدعنا وتضلنا ، أو الصور العقلية التي تكون مشرقة عندما تكون « زائفة » في النوم ، قدر اشراقها عندما تكون « حقيقية » في اليقظة ؟ .

وهربا من سجن النفس « الأناة » ، يلجأ ديكارت إلى الله الذي لا يمكن بالقطع أن يجهل من كل حواسنا مجرد خدعة . ولكن متى يدخل الله في هذا المنهج الذي بدأ في جرأة بالشك في كل المعتقدات والمبادئ التي تلقاها الإنسان ؟ إن ديكارت لا يستطيع اثبات وجود الله من شواهد بديع صنعه في العالم الخارجي ، ولأنه لم يوضح بعد وجود هذا العالم الخارجي . ولذلك أخرج ديكارت « الله » من « النفس المدركة » ، تماما مثل فعل آنسيلم في « البرهان الوجودي » ، قبل ذلك بستة قرون . وهو يقول : إن لدى تصور السكائن كامل مثالي قدير عليم ، ضروري ، خالده ولكن هذا الذي يوجد أقرب إلى الكمال من هذا الذي لم يوجد ، وعلى ذلك فإن السكائن الكامل المثالي يجب أن يكون الوجود من بين صفاته . ومن الذي كان يستطيع أن يدب في هذه الفكرة إلا الله سبحانه وتعالى ؟ ومن المستحيل أن أحمل في نفسي فكرة الله ، إذ لم يكن الله موجودا حقا ،^(٩١) . وإذا كان الله يريد أن يخدعنا فلن يكون كاملا ومن ثم فانه لا يضلنا عندما تكون لدينا أفكار واضحة جلية ، ولا حين يتيح لحواسنا أن تكشف لنا عن عالم خارجي . « لست أدري كيف يمكن الدفاع عنه سبحانه » ، أوتبرئته من تهمة الخداع والتضليل إذا كانت هذه الأفكار ناتجة عن أسباب غير متعلقة بأشياء جسدية مادية . ومن ثم يجب أن نقر بأن الأشياء الجسدية المادية موجودة^(٩٢) ، ومن ثم تنسد بشكل رائع الهوة بين العقل والمادة ، بين الذات والموضوع . يصبح ديكارت ، بعون من الله ، واقعا . والعلم نفسه - إيماننا الراسخ يكون منطقي خاضع لنظام ، مطيع للقانون ، يمكن التعرف عليه واحصاء ما فيه - يصبح أمرا ممكنا ، لا شيء إلا لأن الله موجود ، وحاشا الله أن يكذب .

ولما إذ نتبع ديكارت لنشهد « عصر العقل » في طفولته يتراجع فزعاً من مغامرات الفكر ، محاولا الولوج ثانية إلى حظيرة الإيمان الدافئة . ورغبة

في بث الطمانينة من جديد أطلق على « التأملات » : تأملات رينيه ديكارت في فلسفه أولى ، أبرز فيها وجود الله وخلود النفس . وأهدى الكتاب إلى « الحكيم الألمى عميد كلية اللاهوت المقدسة في باريس » ، أى السوربون . وتقبل العميد الهدية ، ولكن في ١٦٦٢ أدرج الكتاب في قائمة الكتب المحظورة ، حتى يتم تصحيحه . . وبدأ الكتاب على نفس النسق الجريء الذى بدأت به « المقالات » . اليوم . . . وقد هيات لنفسى انقطاعاً أكيداً لرياضة روحية هادفة ، فلسوف أنكب أخيراً ، انكباً بمنطلقاً جاداً ، على استعراض عام لكل آرائى السابقة^(٩٣) . لقد ألقى بها جميعاً من النافذة ، ثم أجاز لها الدخول من الباب . ولم يكن من بين هذه الآراء ، إيمانه بالله عادل قدير خصب ، بل كذلك إيمانه بارادة إنسانية حرة وسط آلية (ميكانيكية) كونية ، ونفس باقية (غير فانية) على الرغم من اعتمادها الواضح على جسد فان . ومهما سلنا بمنطق العلاقة الوثيقة التى لا تنفصم عراها بين السبب والنتيجة في عالم المادة والجسد ، فان حرية إرادتنا فكرة من احدى الفكرات الفطرية المتأصلة ، الواضحة الجليلة ، الحية المباشرة ، إلى حد أنه لا يمكن أن يشك فيها أحد قط ، مهما حاول كثيراً أن يتلاعب بها (أى الفكرات) في النظريات المجردة^(٩٤) . أن فكرة الله ، وفكرة النفس ، وفكرة المكان والزمان ، وفكرة الحركة ، والبدىيات الرياضية كلها فطرية متأصلة ، بمعنى أن النفس لا تستمدّها من الاحساس والخبرة ، بل من جوهرها وعقلانيّتها .

(وهنا قد يعترض لوك ، ويوافق كانت) . ومهما يكن من أمر ، فان هذه الأفكار الفطرية قد تظل لا واعيّة حتى تخرجها الخبرة في صورة واعيّة ، والنفس حينئذ لا تكون نتاجاً للخبرة ، بل شريكها النشط المبدع في إنتاج الفكر . أن هذه النفس العقلانية « القدرة على التعقل » ، واضح أنها غير مادية ، وليس لأفكارها طول ولا عرض ، ولا موقع ولا وزن ، ولا أية خاصية أخرى من خواص المادة^(٩٥) . « لى أنا ، أى النفس التى أنارها كما أنا عليه الآن ، هى أساساً متميزة عن الجسد بل حتى من الأيسر أن نعرفها بما نعرفه^(٩٦) . . وعلى ذلك فان هذا العقل أو النفس غير المادية يمكن أن تبقى بعد الجسد ، ولا بد أنها تبقى .

ترى هل كانت تلك النتائج القوية التي انتهى إليها ديكارت صادقة مخلصه، أو أنه أضفى عليها لونا وقائما ؟ . هل كان ديكارت تواقا إلى متابعة دراسته العلمية في هدوء وسلام بعيداً عن الاضطهاد والتعذيب، إلى حد أنه كان ينفث الميافيزيقا مثل عشاوة مريكة تحول دون انقضاء العيور الجارحة عليه ؟ لسنا نملك الجزم بشيء في هذا الصدد . وقد يقضى لامرئ أن يكون عالما فاضلا على الأقل في الفيزياء ، والكيمياء ، والفلك ، إن لم يكن في البيولوجيا - وفي نفس الوقت يتقبل التعاليم الأساسية في المسيحية . وفي إحدى مقالاته أكد ديكارت أن العقل لا يحول دون تصديق أشياء نزل بها الوحي الإلهي ، على أنها أكثر يقينية من أرسخ معرفتنا وأجدرها بالثقة^(٩٧) . وتتم رسائله مع اليزابث أميرة البالاتين ، في أسلوب فصيح عن التيق والتسك بالصراط المستقيم . وزاره سالامبوس في ليدن ١٦٣٧ فوصفه بأنه « كاثوليكي غيور جداً »^(٩٨) .

على أنه تفرغ في العقد الأخير من حياته للعلم . وحول داره إلى معمل ، وأجرى تجارب في الفيزياء ووظائف الأعضاء ، وإذا طلب أحد زواره أن يرى المكتبة ، أشار بكارث إلى ربيع عجل كان يقوم بتشريحه^(٩٩) . وكان في بعض الأحيان يتحدث ، كما تحدث بيكون ، عن الفوائد العملية - الهائلة التي يجنيها الجنس البشري حين يستطيع العلم أن يجعل الناس « سادة الطبيعة والمسيطرين عليها »^(١٠٠) ، وكثيراً ما أدى توكيده الذاتي على الاستنباط وثقته فيه ، إلى نتائج غامضة . ولكنه - اشتغل شغلا خلاقاً بعدة علوم . وألح على أن يستبدل العلم بالأفكار التجريدية النوعية الغامضة التي سادت علم الفيزياء ، في العصور الوسطى : إيضاحات كمية مصوغة في صيغ رياضية ، ولقد شهدنا تطويره للهندسة التحليلية وإشارته إلى حساب التفاضل والتكامل اللانهائي . وحل مشاكل تضعيف المكعب وتثليث الزاوية . وابتدع فكرة استخدام الحروف الأولى من حروف الهجاء لتمثيل الكميات المألوفة ، والحروف الأخيرة لتمثيل الكميات المحبولة . ويبدو أنه اكتشف قانون انكسار الضوء مستقلاً عن سنل Snell . وحالفه التوفيق في دراسته القوى العظمى التي تحدثها وسائل صغيرة ، مثل البكرة

والأسفين والرافعة والمزمنة والمجلة ، وصاغ قوانين القصور الذاتي والتصادم وكمية التحرك ، وربما أوحى إلى بسكال بأن الضغط الجوي ينخفض بالارتفاع^(١٠١) ، ولو أنه أخطأ في إعلان أنه لا يوجد ثمة - فراغ إلا في عقل بسكال^(١٠٢) . وأشار إلى أن كل جسم محوط بدوامات من جسيمات دقيقة تدور حوله - في طبقات كروية - وهي فكرة تشبه نظرية المجال المغناطيسي الحالية . وفي البصريات حسب حساباً صحيحاً زاوية الانكسار ، وحل التغيرات التي يتعرض لها الضوء بفعل العدسة البلورية للعين ، وحل مشكلة تصحيح الزيغ الكروي في التلسكوب ، وصمم عدسات ذات تقوس يبيض الشكل أو زائدي المقطع ، خالية من هذا الزيغ^(١٠٣) .

وشرح جنينا ، ووصفه من الوجهة التشريحية ، وهو يقول أنه شرح رؤس حيوانات مختلفة ليتحقق في أيها تكون الذاكرة والتصور وغيرهما^(١٠٤) . وأجرى تجارب على الفعل اللاإرادي أو المنعكس ، وشرح الطريقة (الميكانيكية) التي تطرف بها العين عند اقتراب الضربة أو اللطمة^(١٠٥) . ووضع نظرية للانفعال شبيهة بتلك التي وضعها وليم جيمس وكارل لايح : إن السبب الخارجي للانفعال (مثل وقوع نظرنا على حيوان خطير) يولد ذاتياً أو آتياً فعلاً مستجيباً (الهرب) والاحساس المرتبط به (الخوف) ، فالانفعال هو إنجاز الفعل لا سببه . والانفعالات متصلة في الفسيولوجيا ، ويجب دراستها وتفسيرها على أنها عمليات ميكانيكية ، وليست في حد ذاتها سببة لأنها الريح في أشرعتنا ولكن إذا لم يلطط منها العقل ويحد منها ، فإنها قد تستعبد الإنسان وتدمره .

ويمكن اعتبار الكون كله ميكانيكياً ، فيما عدا الله والنفس العقلانية وعرض ديكارت هذه الفكرة وجاليليو ومحاكمة التفتيش ماثلان أمام عينيه - على أنها مجرد فرض : فإذا افترضنا أن الله خلق المادة ووهبها الحركة ، فيمكننا أن نتصور أن العالم يتطور بعد ذلك ، وفق قوانين الميكانيكا ، دون تدخل . إن الحركة الطبيعية للجسيمات المادية في كون ليس فيه فراغ ، تأخذ شكلاً دائرياً يؤدي إلى دوامات مختلفة من الحركة . ويمكن أن تكون الشمس والكواكب

والنجوم قد تكونت بفعل تجمع هذه الجسيمات في مركز هذه الدوامات ، وكما أن كل جسم محوط بدوامة من ذرات دقيقة — وهذا يفسر التماسك والتجاذب — فإن كل كوكب كذلك محصور في دوامة من الجسيمات تحتفظ بتوابعه في مداره ، والشمس مركز دوامة هائلة تندفع الكواكب إليها حول الشمس في دوائر . وكانت نظريه بارعة ، ولكنها سقطت عندما أثبت كبلر أن مدارات الكواكب بيضاوية الشكل .

ويقول ديكارت بأنه لو كانت معرفتنا تامة كاملة لكان في مقدورنا أن نحول — لا الفلك والفيزياء والكيمياء ، فحسب — بل كل عمليات الحياة ، باستثناء العقل ذاته ، نحولها إلى قوانين ميكانيكية فإن التنفس والهضم ، بل حتى الشعور ، كلها ميكانيكية ، انظر كيف كان هذا المبدأ مفيداً في اكتشاف هارفي للدورة الدموية . وطبق ديكارت ، في ثقة تامة ، فكرة الميكانيكية ، على كل عمليات الحيوانات ، لأنه أبى أن يخلع عليهما القدرة على التفكير العقل . وربما أحس بأنه مضطر ، من الوجهة الدينية . الى ظلم الحيوانات على هذه الصورة ، لأنه كان قد أسس خلود النفس على عدم مادية الذهن العقلاني ، فإذا كان للحيوانات مثل هذا الذهن كذلك ، لكانت هي الأخرى باقية أو غير فانية ، وربما كان في هذا ازعاج ، إن لم يكن لهواة الكلاب ، فهو على الأقل لرجال الأموت .

ولكن إذا كان جسم الانسان آلة مادية فكيف يتسنى للعقل غير المادى أن يعمل فيه . أو يحكمه بقوة غير ميكانيكية . مثل الإرادة الحرة ؟ وهنا يفقد ديكارت ثقته ، فيجيب يائساً بأن الله يرتب تفاعل الجسم والعقل بطرق خفية لا يصل إليها إدراكنا المحدود . وربما أرتأى أن العقل يعمل في الجسم عن طريق الغدة الصنوبرية الموضوعه بشكل مناسب في قاع المخ .

وكان أكثر تصرفات ديكارت تهوراً وطيشاً طيلة حياته ، أنه طلب من مرسن أن يبعث مقدماً بنسخ من كتاب « التأملات » ، إلى بعض المفكرين مع دعوتهم لارسال ما يعن لهم من اعتراضات عليه ، ورداً على ذلك دحض

جا سندی آراء ديكارت في كياسة فرنسية (١٠٦). فإن الكماهن لم يقنع بحجة ديكارت الوجودية عن وجود الله . أما هوبز فاعترض على أزديكارت لم يثبت استقلال العقل عن المادة والمنح . ويقول أوبرى بأن هوبز بصفة خاصة ، كان يميل إلى القول بأن ديكارت لو قصر نفسه على الهندسة تماماً لأصبح أعظم علماء الهندسة في العالم ، وأنه لم ينسجم مع الفلاسفة (١٠٧) . واتفق هيجينز مع هوبز ، وذهبوا إلى أن ديكارت نسج قصة خيالية من عناكب الميتافيزيقا .

والآن وبعد ثلاثة قرون من البحث والمناقشة قد يكون من اليسير أن نبين نقاط الضعف في أول منهج حديث جرى للفلسفة . أن فكرة تحويل الفلسفة إلى صيغ هندسية ، سادت ديكارت إلى طريقة استنباطية ، اعتمد فيها في طيش زائد ، برغم تجاربه ، على نزعته إلى الاستنباط . وأنه لعمل انتحارى أن نجعل من وضوح أية فكرة وجلالها وبهاؤها وبداهتها اختباراً لصحتها ، فن ذا الذى يحس على هذا الأساس ، على إنكار دوران الشمس حول الأرض ؟ والمحااجة بأن الله موجود لأن لدينا فكرة واضحة متميزة عن كائن لا نهائى بالغ حد الكمال (وهل هذا صحيح ؟) ، ثم المحااجة بأن الأفكار الواضحة المتميزة جديرة بالثقة لأن الله لا يمكن أن يخدعنا ، إن هو الا ضرب من التفكير دائرى غامض مثل مدارات كواكب ديكارت . إن هذه الفلسفة تتضح بمفاهيم مسكولاستية العصور الوسطى ، التى نصحت بنبذها . إن شك مونتيني كان أثبت وأبقى من شك ديكارت الذى لم يفعل إلا أن زحزح الهراء التقليدى ليفسح مكاناً لهرائه هو .

ومع هذا كله ، بقى في علم ديكارت ، أن لم يكن في « ميتافيزيقاه » ما يشبع في نفسه الخوف من الاضطهاد والتعذيب . فإن نظريته في « ميكانيكية الكون » تركت المعجزات والارادة الحرة في موقف خطر ومازق حرج ، برغم اعترافه بالدين القويم والصراط المستقيم . أنه لما سمع باد أنه جاليليو (يونية ١٦٣٣) طرح جانباً مؤلفه الضخم « العالم » ، الذى كان قد اعتزم أن يضم فيه شتات أبحاثه العلمية والنتائج التى توصل إليها ، وكتب ، وقلبه يقطر أسى وحزناً ، إلى مرسن :

لقد كان لهذا النبا أعمق الأثر في نفسى ، حتى كدت أعقد العزم على أن أحرق كل مخطوطاتى ، أو على الأقل أخفيها عن الأنظار... وإذا كانت حركة الأرض غير صحيحة ، فإن كل مبادئ فلسفتى عن ميكانيكية العالم « خاطئة ... لأنها كلها مترابطة يؤيد بعضها بعضا ... ولكنى على أية حال لن أنشر شيئاً يتضمن كلمة واحدة تغضب الكنيسة . » (١٠٨) وعند وفاته لم توجد إلا قصاصات قليلة من مخطوطة « العالم » .

ولم يأت المهجوم (فى حياته) من الكنيسة الكاثوليكية ، بل من رجال اللاهوت الكالفينيين فى جامعتى أوترخت وليدن . فقد اعتبروا دفاعه عن الإرادة الحرة هرطقة خطيرة تسمى إلى القضاء والقدر ، كما رأوا فى ميكانيكية الكون ، فكرة تنزلق به إلى حافة الإلحاد ، فإذا كان الكون يستطيع أن يسير مجرد قوة دافعة يبدأ بها الله « فإهى إلا مسألة وقت حتى ينجز الله دفعته الاستهلاكية أو الأولى هذه . وفى ١٦٤١ ، عندما تبنى أحد أساتذة أوترخت فلسفة ديكارت ، أغرى رئيس الجامعة ، جسيرت فوشوس ، ولاة الأمور فى المدينة بإدانة الفلسفة الجديدة وتحريمها . فما كان من ديكارت إلا أن شن هجوماً على فوشوس ، الذى رد عليه رداً عنيفاً ، وطارد ديكارت الكرة ، وقارعه الحجة بالحجة . وفى ١٦٤٣ دعا القضاء الفيلسوف للشول أمامهم . ولكنه رفض ، وصدر الحكم عليه . فتدخل أصدقائه فى لاهاي ، ففنع أولو الأمر فى المدينة بإصدار قرار بحظر أية مناقشة علنية تأييداً أو تنقيداً لأراء ديكارت .

ووجد بعض السلوى فى صداقته مع الأميرة اليزابث التى كانت تقيم فى لاهاي مع والدتها اليزابث ناخبة البلاتين ملكة بوهيميا المخلوعة . وكانت الأميرة فى التاسعة عشرة حين ظهر كتاب « المقالات » ، ١٦٣٧ ، فقرأنه فى دهشة مزوجة بالابتهاج والسرور بما رأت أن الفلسفة واضحة مفهومة يسهل إدراكها ، والتقى بها ربكارت وابتهج بما رأى من أن الميتافيزيقا قد تقسم

بالجمال . وأهدى إلى الأمير الصغير كتابه « مبادئ الفلسفة » ، وكتب كلمة
الآهداء في لغة تفيض بملق بالغ البهجة والسرور . ومات حيث كانت رئيسة
دير للرهبانيات في وستفاليا (١٦٨٠) .

ولم يطلب المقام لديكارت في هولنده ، كما كان من قبل ، فكان كثير
التردد على فرنسا : (١٦٤٤ ، ١٦٤٧ ، ١٦٤٨) . وآثار فيه الروح الوطنية
بعاش أجرته عليه حكومة لويس الرابع عشر الجديدة (١٦٤٦) . واحتال
للحصول على أحد المناصب الإدارية ، ولكن اقتراب نشوب الحرب الأهلية
(حرب الفروندي) عاد به إلى هولنده ، فزعا . وفي فبراير ١٦٤٩ تلقى دعوة من
كريستينا ملكة السويد ، ليحضر ليلقنها الفلسفة . وتردد في قبول الدعوة ،
ولكن سحرته رسائلها التي تمت في لغة فرنسية ممتازة ، على ذهن متلف ،
انحاز بالفعل إلى « البهجة الغالية » (فلسفة ديكارت) . وبعثت إليه بأحد أمراء
البحر يستميله ، ثم بيارجة حربية لتقله ، فاستسلم وأبحر في سبتمبر من أمستردام
إلى ستكهولم .

واستقبل بكل مظاهر المعافاة والتكريم ، ولكن أزعجته رغبة الملكة
في أن تتلقى الدروس ثلاث مرات في الأسبوع ، في الساعة الخامسة صباحاً ،
وكان ديكارت قد تعود أن يبقى في فراشه إلى وقت متأخر ، والنزم بالمواعيد
التي حددتها الملكة طيلة شهرين ، فكان يخرج من بيته إلى مكتبة الملكة في
فجر الشتاء وتلوجه ، وفي أول فبراير ١٦٥٠ انتابه برد انقلب إلى التهاب رئوي ،
وفي اليوم الحادي عشر فارق الحياة بعد أن تلقى الأوامر المقدسة الكاثوليكية
الآخيرة .

وكان قد اتخذ لنفسه شعاراً ، هو « يعيش سعيداً من يتوارى عن الأنظار
ويتكتم كثيراً » . ولكن شهرته كانت قد طبقت الآفاق قبل موته بعدة
سنوات . لقد نبذ الجامعات فلسفته واشتم رجال الدين رائحة الهرطقة في

تقواه ، ولكن رجال العلم أطروا رياضياته وفيزيائه ، ولكن دنيا الاناقة في باريس ، أقبلت في سرور بالغ على مؤلفاته التي كتبها في لغة فرنسية مشرقة جذابة . وسخر هولبير من « السيدات العالمات » اللاتي تبادلن أنباء الدوامات في الصالونات ، « ولكنهن لم يطقن الفراغ ، وكان الجزويت حتى تلك اللحظة متسامحين مع تلميذهم النجيب ، وكانوا قد أسكتوا واحدا من طائفتهم شرع يهاجم ديكارت^(١٠٩) ، ولكنهم بعد ١٦٤٠ ، لم يعودوا يظلمونه بجهايتهم . وكان لهم في ١٦٦٣ ضلع في ادراج مؤلفاته في قائمة الكتب المحظورة . ورحب بوسويه وفنلون ببراين ديكارت على المبادئ الأساسية في المسيحية ، ولكنهم رأوا في تأسيسها على العقل خطرا على العقيدة ، واستنكر بسكال الاعتماد على العقل ، على اعتبار أن هذا العقل ريشة في مهب الريح .

ولكن اعتماد ديكارت على العقل ، هو الذي ، على وجه الدقة ، أيقظ ذهن أوربا ، وأوجز فونتنل الأمر بقوله « أن ديكارت ... هو الذي أمدنا بطريقة جديدة للتفكير . تدعو إلى الإعجاب أكثر بما تدعوا فلسفته ذاتها ، تلك التي يعتورها قدر كبير من الزيف والشك ، وفقا للقواعد التي علمنا أيها هو نفسه^(١١٠) » . إن شك ديكارت أدى لفرنسا — أو للقارة بصفة عامة — ما أداه ليكون لانجلترا : — أنه حرر الفلسفة من أغلال الزمن وأطلقها لتبحر في جراءة وشجاعة في بحر مكشوف ، حتى ولو أنها مالبت أن عادت ، عند ديكارت نفسه إلى شاطئ الأمان المؤلف . ولستنا نقول بأنه كان ثمة انتصار عاجل أو فوري للعقل ، فإن التقاليد والأسفار المقدسة كانت أكثر ثباتا وقوة في أزهى عصور فرنسا ، وهو « القرن العظيم » أي عصر لويس الرابع عشر ، أنها كانت حقبة بورت رويال وبسكال وبوسويه ، أكثر منها حقبة خلفاء ديكارت . أما تلك الحقبة نفسها في هولنده فهي عصر سبينوزا وبيل ، وفي انجلترا عصر هوبز ولوك . أن الزرع كان يخرج شطاه .

وكان لأعمال ديكارت بعض الأثر على الأدب والفن في فرنسا . إن

أسلوبه كان ابتداءا منعشا . وهنا كانت الفلاسفة بلغة قومية في متناول الجميع بشكل خطير ، وقبلما يتحدث فيلسوف بمثل هذه الألفاظ الساحرة وهو بعد مغامرات العقل وتجاربه المثيرة بمثل السلاسة والحيوية التي يعدد بهما فرواسار وبطولات الفروسية ومآثرها . ولم يكن كتاب « مقال في المنهج » مجرد رائعة من روائع النثر الفرنسى . بل أنه كذلك ضرب ، للعصر الزاهر فى فرنسا ، مثلا ، فى لغته وأفكاره ، للترتيب وبراعة التفكير والاعتدال فى الآداب والفنون والسلوك والحديث . وتلاءم توكيده على الأفكار الواضحة الجلية مع الذهن الفرنسى ، وأصبح رفعه من شأن العقل أول قاعدة من قواعد الأسلوب الممتاز عند الناقاد الفرنسى بوالو :

« أحب العقل إذن ، ولتستمد كتاباتك وقيمتها منه وحده » (١١١) .

وباتت الدراما الفرنسية لمدة قرنين من الزمان بلاغة العقل التى تنافس تمرد العاطفة والهوى وربما عانى الشعير الفرنسى بعض الشيء من ديكرات ، فإن مزاجه وآلياته (ميكانيكيه) لم يتركها للخيال أو الأحاسيس سوى مجال ضيق . إن فوزى رابليه المحتاجة واستطراد مونتيني الذى لا ضابط له ، بل حتى الاضطرابات العنيفة فى الحروب الدينية ، أن هذه كلها أفسحت المجال ، بعد ديكرات ، لمناقشات كورنى العقلانية ، ولوحدات راسين العارمة ، ولتقوى بوسويه المنطقية ، ولقانون الملكية والبلاط ونظامهما وشكلهما وسلوكهما فى عهد لويس الرابع عشر . وأسهم ديكرات ، عن غير قصد منه فى ابتداء طراز جديد فى الحياة الفرنسية ، كما فعل فى الفلسفة سواء بسواء .

وربما كان أثره فى الفلسفة أعظم من أثر أى مفكر آخر قبل كانت . لقد استقى ما لبرانش منه ، وتعلمد سبينوزا على منطق ديكرات ، واكتشف نقاط الضعف فيه هند شرحه . وقبله المناقشات ، فى نبذة عن سيرة حياته بعنوان « تجسين التفاهم » ، وتبنى المثل الأعلى الهندسى فى كتابه « الأخلاق » ، وبني بحشه فى « استرقاق الإنسان » ، على بحث ديكرات « رسالة فى انفعالات النفس » .

وبدأت تقاليد المثالية في الفلسفة الحديثة ، من بركلى إلى نخت ، بتوكيد ديكارت على الفكر بوصفه الحقيقة الوحيدة المعروفة بطريق مباشر ، مثلما انحدرت تقاليد التجريبية من هوبز إلى سبينسر . ولكن ديكارت قدم للمثالية تزيافاً — مفهوم كون موضوعى ميكانيكى تماماً — فإن محاولته لفهم العمليات العضوية وغير العضوية ، سواء بسواء ، على أساس ميكانيكى ، هيأت للبيولوجيا والفسيولوجيا قوة دافعة متهورة ولكنها مجدية . وتحليله الميكانيكى للاحساس والخيال والذاكرة والإرادة ، أصبح ، حيناً لا ينضب لعلم النفس الحديث . وبعد أن دعم القرن السابع عشر في فرنسا العقيدة القويمة بديكارت ، وجدت استشارة القرن الثامن عشر أرضاً خصبة في شك المنهجى ، وفي اعتياده على العقل ، وفي تفسيره لكل حياة الحيوان على نفس أسس الفيزياء والكيمياء (١١٢) . إن اعتداد الفرنسي — المخترع بنفسه اعتداداً لم يتزعزع قط ، كان يبرره أثره المتزايد على الذهن الفرنسى .

إن المناظرة الكبرى ، بين العقل والإيمان كانت تتخذ شكلاً واعياً . ولكن تاريخها الحديث كان قد بدأ فقط . إننا إذا ألقينا نظرة على الأعوام التسعين من ١٥٥٨ - ١٦٤٨ ، من اليزابث إلى ريشليو ، ومن شكسبير إلى ديكارت ، لأدركنا أن كل القضايا المستحوزة على الأذهان لاتزال محصورة في المسيحية ، بين المذاهب الدينية المتنافسة المؤسسة كلها على انجيل قبله الجميع على أنه كلمة الله ، وثمة مجرد أصوات شاردة كانت تقول بأن المسيحية نفسها يمكن أن توضع موضع الاختبار ، وبأن الفلسفة لن تلبث أن تنبذ كل مذهب خارق للطبيعة .

وبعد هذه المراحل الأولى من الصراع بقيت الكاثوليكية مهيمنة في أسبانيا والبرتغال حيث ظلت محاكم التفتيش تنشر الرعب والسكابة . أما في إيطاليا فقد اتسمت الديانة العتيقة بروح أكثر إنسانية ، وأضفت بالفن على الحياة شيئاً من الجمال ، وزينت الأخلاقيات بالآمل ، ولبرتضت فرنسا حلاً وسطاً ، وعاشت المسيحية نشيطة مزدهرة بين الشعب ، كاثوليك أو هيجونوت ، على

حين أن الطبقات العليا كانت تسرح وتمرح في الشك ، مرجئة التقى والورع إلى دنو الأجل المحتوم . وقامت في الأراضي الوطنية تسوية جغرافية ، فأبقت المقاطعات الجنوبية على الكتلعة ، وانصهرت الكلفنية في الشمال . وأنقذ البروتستانتية في ألمانيا كاردينال فرنسى ، وثبتت بافاريا والنمسا على ولائهما القديم ، على حين أعيدت المجر وبوهيميا إلى حظيرة البابا ، وأصبحت البروتستانتية قانون الأرض أو المبدأ الرسمى في اسكندناوة ، ولكن ملكة السويد آثرت طقوس رومة ، واقرحت الزايت في إنجلترا اتحادا كريما بين الطقوس الكاثوليكية والحرية الوطنية ، ولكن البروتستانتية الإنجليزية التى تفرقت شيئا أبزرت حيوتها وغامرت بحياتها .

وفي غمرة تناحر الجيوش والمذاهب ، كانت « دولية العلوم » تكافح للاقلال من الخرافة والخوف . كانت تخترع أو تعمل على تحسين الميكروسكوب والتلسكوب والترمومتر والبارومتر ، وكانت تبتكر اللوغاريتمات والنظام العشرى ، وتصلح التقويم ، وتبتدع الهندسة التحليلية ، وكانت تحلم ، لفورها ، بتحويل كل المواقع إلى معادلة جبرية . وكان تيكوبراهى قد قام بكل الأرصاد المتكررة الصابرة التى مكنت لكبلر من صياغة قوانين حركة الكواكب ، التى أنارت الطريق أمام نيوتن ليصير بقانون كوفى عام واحد . وكان جاليليو يكشف عن عوالم جديدة أوسع ، بمناظيره المقربة التى كان يعمل على تحسينها . وتكبيرها باستمرار ، وفى قاعات محكمة التفتيش كان النزاع بين العلم والدين يفرغ فى قالب مسرحى . وفى مجال الفلسفة ارتضى جيوردانو برونو الاعدام حرقا حتى الموت ، فى محاولته لإعادة فهم الألوهية والكون على أسس ثلاث مع أفكار كوبرنيكس ، كما أن فرانسيس بيكون الذى يدعو ذوى العقول المفكرة إلى العلم ، كان يخطط مهام

٣٠ - ٢٢ الحضارة

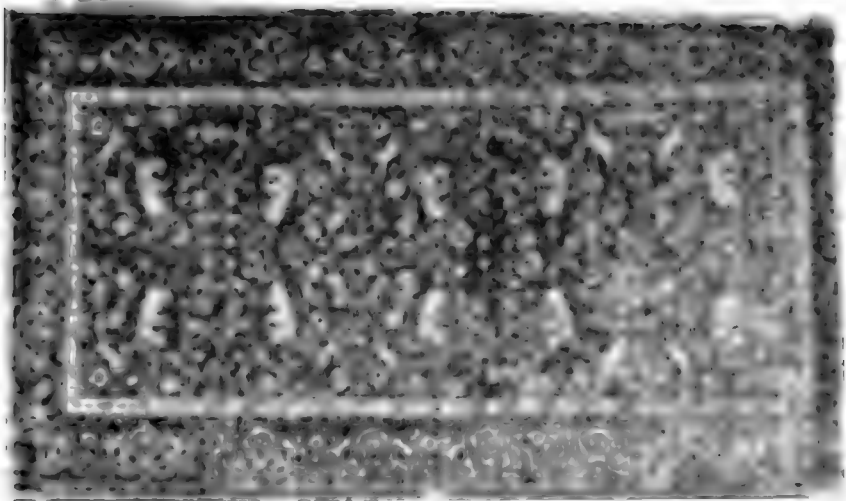
العلوم ومسئولياتها لعدة قرون مقبلة ، أما ديكارت ، بشكه العام الشامل ، فقد ألقى على عصر العقل عبئا جديدا . وتشكلت الأخلاق والعادات والسلوك تبعا لتقلبات العقيدة . وتأثر الأدب نفسه بالصراع ، وكان لآراء الفلاسفة صداها في شعر مارلو وشكسبير ودون . وسرعان ما تتضاءل أهمية الثورات والحروب بين الدول المتنافسة إذا قورنت بالصراع السائد المتزايد بين الإيمان والعقل الذي أهاج ذهن أوربا وحوله ، بل ربما ذهن العالم بأسره .



فرانس هالسن - متحف اللوفر بباريس (ص ٨٠)



آنتوني فانديك - متحف ميونخ (ص ٦١)



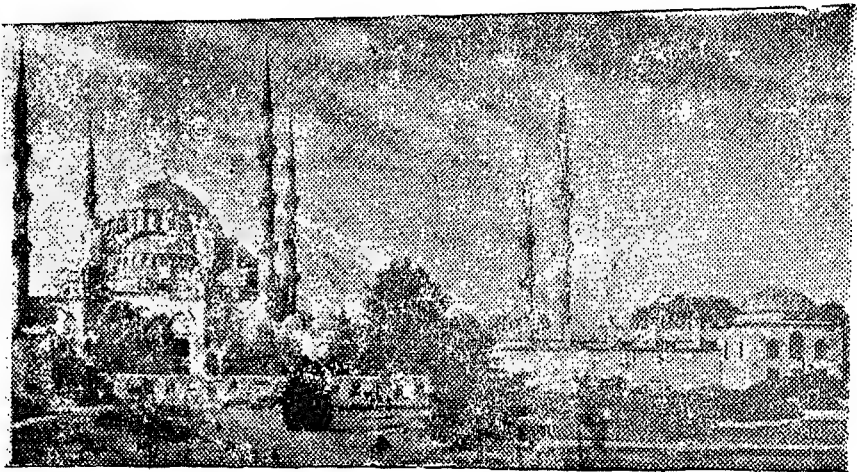
سجادة عجمي - متحف القرويلتان بنيويورك (ص ١٦٤)



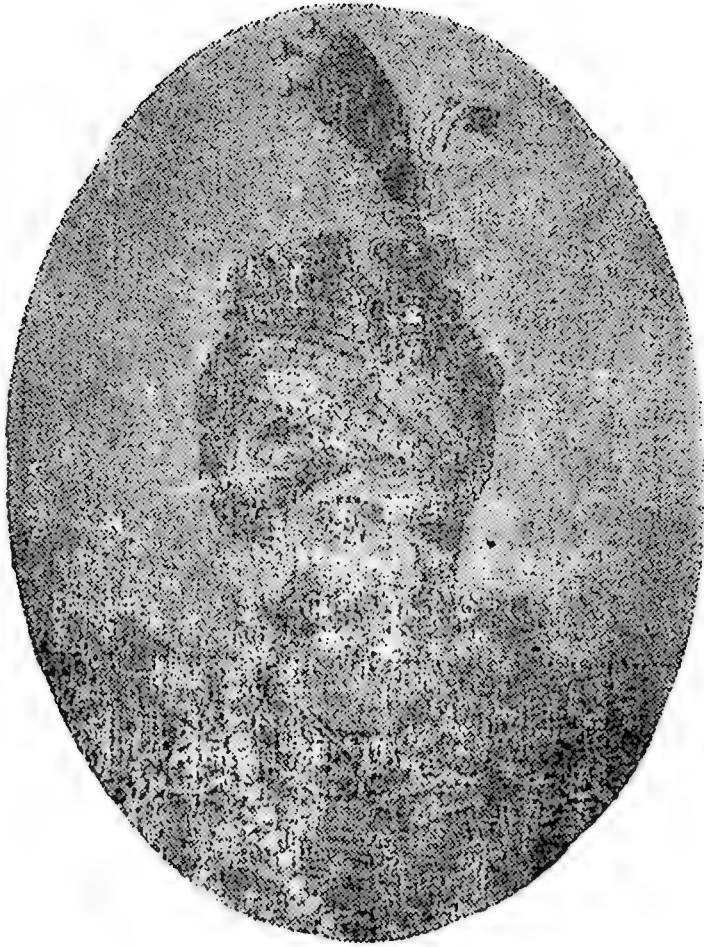
استيفن باشوری ملك هولندا (ص ۱۱۶)



شاعر يجلس في الحديقة بأصفهان (ص ١٦٠)



جامع السلطان أحمد بالقسطنطينية (ص ١٣٩)



الشاہ عباس الأكبر (ص ۱۴۸)



جاليليو - متحف الفن بفلورنس (ص ٢٦٤)



مدخل ميدان مسجد الشاه بأصفهان (ص ١٥٢)

المراجع

CHAPTER XVII

1. Geyl, *Revolt of the Netherlands*, 16
2. Sombart, *The Jews and Modern Capitalism*, 65; Sée, *Modern Capitalism*, 31.
3. Motley, *Rise of the Dutch Republic*, I, 217; Janssen, *History of the German People* VIII, 13.
4. Motley, I, 217.
5. Janssen, VIII, 14f,
6. Voltaire, *Essai sur les mœurs*, ch. cxxxvi, in *Works*, XIVb.
7. Motley, I, 207.
8. Ibid., 206.
9. Blok, *History of the People of the Netherlands*, III, 11; Motley, I, 375f.
10. Ibid., 283.
11. Geyl, 78.
12. Ibid., 86.
13. Janssen, VIII, 19.
14. *Cambridge Modern History*, III, 200.
15. Acton, *Lectures*, 144.
16. Motley, I, 453-4.
17. Ibid., 465-8.
18. *Camb. Mod. History*, III, 207-8,
19. Motley, I, 478f.
20. Janssen, VIII, 23,
21. Motley, I, 526.
22. Janssen, VIII, 25.
23. Prescott, *Philip II*, II, 161.
24. Blok, III, 42,
25. Pastor, *History of the Popes*, XVIII, 97.
26. Blok, III, 51.
27. Pastor, XVIII, 101.
28. Motley, I, 628; Janssen, VIII, 123.
29. *Camb. Mod. History*, III, 232.
30. Motley, II, 72-4.
31. Geyl, 128; Lacroix, *Military and Religious Life in the Middle Ages*, 440.
32. Motley, II, 40.
33. Ibid., 101.
34. Voltaire, *Essai*, ch. cxxxvi; *Works*, p. 294; Hume, *M., The Spanish People*, 372.
35. Pastor, *Popes*, XX, 3.
36. Motley, II, 151.
37. Ibid., 169.
38. 515.
39. Geyl, 165.
40. Ibid., 130.
41. 128.
42. *Camb. Mod. History*, III, 250.
43. Blok, III, 121-3.
44. Geyl, 162; Pastor, XX, 9.
45. Motley, II, 646.
46. Robinson, J. H., *Readings in European History*, 325; Motley, II, 637.
47. Figgis, *From Gerson to Gro- tius*, 228.

48. *Camb. Mod. History*, III, 258.
49. Blozo, III, 179.
50. *Ibid.*, 239.
51. Geyl, 206, 215, 231; Ranke
History of the Popes, II, 221.
52. Blok, III, 415.
53. *Camb Mod History*, III, 646.
54. Blok, III 413,

CHAPTER XVIII

1. Robinson, *Readings*, 556.
2. Prescott, H. F., *Mary Tudor*, 331.
3. Vienna.
4. Prado.
5. Brussels, Vienna, Louvre.
6. Brussels.
7. Rooses. *Rubens*, I, 9.
8. Pitti Gallery, Florence.
9. Uffizi Gallery, Florence.
10. Grenoble Museum.
11. Rooses, I, 638
12. Burckhardt, *Recollections of Rubens*, 21.
13. Janssen, XI, 161.
14. Dresden.
15. Knackfuss, H., *Van Dyck*, 4.
16. Munich.
17. Lichtenstein Collection,
Vienna.
18. Vienna.
19. Geneva.
20. Munich.
21. London.
22. Pitti Gallery.
23. Dresden.
24. Louvre.
25. Vienna.
26. Madrid.
27. Vienna, Madrid.
28. London.
29. Craven, *Treasury of Art Masterpieces*, 105.
30. Antwerp.
31. Fulop-Miller, *Power and Secret of the Jesuits*, 422.
32. Munich.
33. Hartford, Conn.
34. Antwperp
35. Antwerp cathedral and Brussels Museum.
36. Vienna.
37. Vienna.
38. Sarasota, Fla.
39. Rooses, *Rubens*, I, 395.
40. *Ibid.*, 417.
41. Pitti Gallery.
42. Boston.
43. Rooses, I, 414.
44. Munich.
45. Munich.
46. Hamburg.
47. Vienna.
48. Munich.
49. Munich.
50. Louvre.
51. Brussels.
52. The Hague
53. Frick Collection, New York.
54. Windsor Castle.
55. Burckhardt, *Recollection*, 15.
56. Rooses, I, 600.
57. Louvre.

58. Vienna.
59. Knackfuss, 8.
60. Munich.
61. Frick Collection.
62. Brussels.
63. Detroit.
64. Munnich.
65. Vienna.
66. Antwerp.
67. Knackfuss, 9
68. Pitti Gallery.
69. Wallace Collection, London.
70. Lovure.
71. Vienna.
72. Vienna.
73. Lichtenstein Gallery, Vienna.
74. Knackfuss. 76.
75. New York.
76. Ibid.
77. Frick Collection, New York.
78. Fitzwilliam Collection.
79. Dresden.
80. Munnich.
81. Uffizi Gallery.
82. Blok, III, 333, Mousnier, 160.
83. Maverick, L. A., *China a Model for Europe*, 5.
84. Adams, Brooks, *Law of Civilization and Decay*, 107.
85. Nussbaum, *History of Economic Institutions*, 123.
86. Gooch, *Democratic Ideas*, 45.
87. Geyl 211.
88. Ogg, *Europe in the Seventeenth Century*, 412.
89. Geyl, 238; Blok, III, 354.
90. Fischer. K., *Descartes and His School*. 212.
91. Taine, H., *Lectures on Art*, 322.
92. *En Br.*, X, 498d.
93. In Taine, *Lectures*. 183.
94. Day, Clive, *History of Commerce*, 200
95. Sée, *Modern Capitalism*, 32.
96. Wilenski, R. H., *Dutch Painting*, 132
97. Baedeker, K., *Belgique et Hollande*, 383
98. Chute, *Ben Jonson*, 301.
99. Geyl, 206.
100. Honey, W.B, *European Ceramic Art*, 31.
101. Wilenski, *Dutch Painting*, 10.
102. Taine, *Lectures*, 333
103. Hauscr, *Social History of Art*, I, 467.
104. Davies, G. S., *Frans Hals*, 19.
105. Amsterdam.
106. Haarlem.
107. Lord Northbrooke Collection.
108. Wallace Collection.
109. Devonshire House.
110. Haarlem.
111. Haarlem.
112. Haarlem.
113. Haarlem.
114. Amsterdam.
115. Antwerp.

- | | |
|--|---|
| 116. Haarlem. | 148. London. |
| 117. Berlin. | 149. Glasgow. |
| 118. Louvre | 150. Cassel. |
| 119. Cassel | 151. Still with the Six Family
in Amsterdam. |
| 120. Mather, F. J., <i>Western Euro-
pean Painting of the Rena-
issance</i> , 461. | 152. Berlin |
| 121. Chicago. | 153. Frick Collection. |
| 122. Berlin. | 154. Wallace Collection |
| 123. New York. | 155. Beard, William, <i>of
the Business</i> 16. |
| 124. The Hague | 156. Marcus Kappel Collection,
Berlin |
| 125. Michel, E., <i>Rembrandt</i> , I, 63 | 157. New York |
| 126. Amsterdam | 158. Louvre, |
| 127. The Hague | 159. Amsterdam. |
| 128. The Hague | 160. Leningrad |
| 129. The Hague | 161. Amsterdam, |
| 130. Duke of Devonshire Co-
llection. | 162. Froment in Wilenski, <i>Dutch
Painting</i> , 93. |
| 131. Rothschild Collection. | 163. Self-portrait in the Louvre. |
| 132. Leningrad. | 164. New York. |
| 133. Louvre | 165. I de Bruyn Collection. |
| 134. New York. | 166. Rathenau Collection, |
| 135. Brussels. | 167. In Michel, <i>Rembrandt</i> ,
I, 259. |
| 136. Amsterdam. | 168. Wilenski, <i>Dutch Painting</i> , 93. |
| 137. Michel, <i>Rembrandt</i> , II, 214. | 169. Ibid. |
| 138. Edinburgh | 170. Meier-Graefe, <i>Spanish Jou-
rney</i> , 313. |
| 139. Louvre. | |
| 140. Louvre. | |
| 141. London | |
| 142. Berlin | |
| 143. Cassel. | |
| 144. Berlin. | |
| 145. New York. | |
| 146. Washington. | |
| 147. Leningrad. | |

CHAPTER XIX

1. Gage, *Tycho Brabe*, 150.
3. Verner, *Copenhagen*, 3.
3. Ranke, *Popes*, II, 150

- 4 Fletcher, C R., *Custavus Adolphus*, 15.
5. Bain, F W., *Christina, Queen of Sweden*, 8.
6. Fletcher, 43.
7. *Camb Mod History*, IV, 187.
8. Wedgwood, C. V., *Thirty Year's War*, 273.
9. Fletcher, 27.
10. Bain, 28.
11. Ibid., 10.
12. 42.
13. 162
14. 96
15. 97.
16. 95
17. 166.
18. Pascal, *Provincial Letters*, introduction, 25.
19. Ranke, *Popes*, II, 355.
20. Ortega y Gasser, *Toward a Philosophy of History*, 18.
21. Horn, F. W., *Literature of the Scandinavian North*⁴ 332,
22. Cf. Ranke⁴ *Popes*, II. 353.
23. Bain, 358-61.
24. Ranke, II, 359; Bain, 180.
25. Voltaire, *Age of Louis XIV*, 60.
26. Gustafson in Bain, xvi.
27. Bain, 360.
28. Ogg, 446.
29. Bain, 224.
30. Ibid., 229.
31. Lewinski - Corwin, *Political History of Poland*, 216-18; *Cambridge History of Poland*, I, 566.
32. Lednicki, W, *Life and Culture of Poland*, 125-6
33. Ibid., 94.
34. *Camb. History of Poland*, I, 413; Robertson, J. M., *History of Freethought*, I, 426.
35. Lednicki, 102n.
36. Robertson, *Freethought*, II, 37
- 37 *Camb History of Poland*, I, 403-5, 410-11
38. Rnake, II, 161
39. Pokrovsky, M., *History of Russia* 154.
40. Florinsky, M., *Russia: a History and an Interpretation*, 1. 213,
41. Kluchevsky, V., *History of Russia*, II, ch. xiii; III, 21; Florinsky, I, 217
- 42 Vernadsky, G, *History of Russia*, 65
43. Réau, L, *L' Art russe*, I, 285.
44. Ranke, II, 155.
45. Florinsky, I, 226.
46. E.g., Pokrovsky, 169-70.
47. Ibid., 177; Kluchevsky. III, 20; Florinsky, I, 223.
48. Rambaud, A., *History of Russia*, I, 320.
49. *Camb. Mod. History*, V, 496.

50. Florinsky, I, 227; Pokrovsky 182.
51. Kluchevsky, III, 31.
52. Rambaud, I, 341

CHAPTER XX

1. Tavernier, *Six Voyages*, ii, 7.
2. Brockelmann, C., *History of the Islamic Peoples*, 316.
3. Pepys, *Diary*, Nov 9, 1663.
4. Arnold, T., *The Preaching of Islam*, in Toynbee, A., *Study of History*, VIII, 165.
5. Finlay, G., *History of Greece*, V, 29, in Toynbee, *ibid*, 164.
6. Tavernier, I, i,
7. Michelet, *History de France*, IV, 444.
8. Brantôme *Lives of Gallant Ladies*, 135; Landau, R., *Invitation to Morocco*, 64.
9. Gibb, E. J., *Ottoman Literature*, 3.
10. *Ibid.*, 236.
11. Dimand, M. S., *Guide to Exhibition of Islamic Miniature Painting*, 4.
12. Pope, A. U., *Catalogue of a Loan Exhibition of Early Oriental Carpets*, 93-5
13. Pastor, *Popes*, XVIII, 419.
14. Voltaire, *Essai sur les moeurs*, ch. cxxxi, in *Works*, XIBb, 270.
15. Preface to Part II of *Don Quixote*.
16. Motley, *Rise of the Dutch Republic*, II, 338.
17. Pastor, XVIII, 422
18. *Ibid.*, 427.
- 19 436.
20. Lane-Poole, S., *Story of Turkey*, 218.
21. *En. Br.*, XV, 969a.
22. Teixeira, p., *Travels*, 62-6.
23. Pope, A. U., *Survey of Persian Art*, II, 1406.
24. Tavernier, *Six Voyages*, iv, 5.
25. *Ibid.*
26. Michelet, *Histoire de France*, V, 130.
27. *En. Br.*, XII, 705. The account follows the eloquent description in Arthur Upham Pope, *Survey of Persian Art*, II, 1185, and the notes of my visit to Isfahan in 1948.
28. Tavernier, v, 2.
29. Browne, E. G., *Literary History of Persia*, IV, 111.
30. Chardin, John, *Travels in Persia*, 134-6.
31. *Ibid.*, 183, 167.
32. Teixeira, 114, 117.
33. Chardin, 143.
- 34 *Ibid.*
- 35 146.
36. 279.
37. Tavernier, v, 14.

38. Arnold, Thomas, *Painting in Islam*, 89.
39. Chardin, 120.
40. Teixeira, 62.
41. Chardin, 187; Tavernier, v, 14.
42. Chardin, 191. 189.
43. Browne, E. G., *Literary History*, IV. 247.
44. Ibid., 287.
45. *En Br.*, XII, 705b
46. Sir Bernard Eckstein Collection.
47. Boston
48. Pope, *Survey*, I. 7n
49. Gulbenkian Collection. Pope, *Survey*, V, 978
50. Boston.
51. Pope, *Survey*, V, 549
52. Pope, A. U., *Introduction to Persian Art*, 162.
53. Chardin, *Travels*, 273
54. New York.
55. In Pope, *Catalogue*, 17
56. Pope, *Introduction*, 220.

CHAPYER XXI

1. Coxe, W., *History of the House of Austria*, II, 29
2. Ibid., 67-72.
3. 130.
4. 94.
5. *Camb. Mod. History*, III, 719.
6. Tawney. R. H., *Religion and*

- the Rise of Captialism*, 122-4.
7. Janssen, *History of the German People*. VIII, 297-9.
8. Robertson, J.M., *Freethought*, I, 420.
9. Campbell, *The Jesuits*, 69.
10. Lutzow, Count von. *Bohemia*, 217.
11. Acton, *Lectures*, 182.
12. Clark, G. N., *Seventeenth Century*, 136.
13. Janssen, XV, 32, 44
14. Ibid., 29-31.
15. Thompson, J W., *Economic and Social History of the Later Middle Ages*, 429; Rickard *Man and Metals*, II. 565.
16. Janssen, 148.
17. Ibid., 110.
18. 125
19. Marx Karl, *Capital*, I, 457.
20. Janssen, XIII, 147
21. Ibid., 307.
22. 301.
23. 300.
24. Id., XII, 183.
25. X, 279.
26. XII, 96.
27. XI, 363
28. Pastor in Janssen, XVI, 130.
29. Janssen, X, 277-8.
30. Wedgwood, *Thirty Years*, II, 46.
31. Janssen. XV, 421

32. Putnam, G. H., *The Censorship of the Church of Rome*, I, 51.
33. Janssen, X, 11.
34. Ibid., 23, 45.
35. Id., XIII, 363f.
36. XIV, 12-14.
37. Wilenski, *Dutch Painting*, 61.
38. Vienna.
39. *Camb. Mod. History*, III, 153.
40. Schaff, *The German Reformation*, I, 64.
41. Janssen, X, 287f.
42. Ibid., 303-7.
43. 262.
44. 258
45. 257.
46. 256.
47. Inge, W. R., *Christian Mysticism*, 277.
48. Ibid., 278.
49. Fulop-Miller, *Jesuites*, 346.
50. Janssen, X, 214.
51. Ibid., 103, 110.
52. 165.
53. 32.
54. 30
55. 24
56. 334-41.
57. 345,
58. 386-90.
59. 215.
60. 219.
61. 589.
62. 594.
63. Wedgwood, 81.
64. Nosek, V., *Spirit of Bohemia*, 99f.
65. Michelet, IV, 389n.
66. Wedgwood, 171.
67. Ibid., 255.
68. Fletcher, *Gustavus, Adolphus*, 300.
69. Robinson, *Readings*, 345.
70. Fletcher. 283.
71. Guizot, *History*, IV, 160.
72. Wedg Wood, 353.
73. Ibid., 360.
74. 450.
75. 207, 256-7, 410
76. 475.
77. 516; *Camb. Mod. History*, IV, 418.
78. Lutzow, 311; *Camb. Mod. History*, IV, 418.
79. Ibid., 417.,
80. Renard and Weulersee, *Life and Work in Modern Europe*, 294.
81. Jordan, G. J., *The Reunion of Churches*, 15.
82. Wedgwood, 412. Ogg, *Europe in the Seventeenth Century*, 168.
83. Wedgwood, 413.
84. Ibid., 229.
85. *Camb Mod History*, IV, 688

CHAPTER XXII

1. Thorndike, L., *History of Magic and Experimental Science*, VI, 160-5, 221, 239-40,

- 295; IV, 247; Garrison, F., *History of Medicine*, 37.
2. Voltaire, *Age of Louis XIV*, 18.
3. Smith, P., *History of Modern Culture*, I, 428.
4. Berry, A., *Short History of Astronomy*, 195.
5. Jackson, C., *Old Paris*, 25.
7. Smith, P., *Modern Culture*, I, 427.
7. Janssen, XII, 346.
8. Ibid., 329.
9. Los Angeles Times, July 2, 1958.
10. Janssen, XVI, 372-6, 495; XII, 325, 351
11. Lea, *Inquisition in Spain*, IV, 243-4.
12. Vacandard, E., *The Inquisition*, 199.
13. Singer, Chas., *Studies in the History of Science*, I, 213.
14. Lea, IV, 235,
15. Michelet, IV, 183-6.
16. Janssen. XI, 388.
17. Id., XVI, 398, 478.
18. Lea, *History of the Inquisition of the Middle Ages*, III, 549.
19. Janssen, XVI, 416.
20. *Camb. Mod. History*, V, 758 (not 9,000, as in IV, 423).
21. Janssen, XVI, 512, 424.
22. Lea, *Inquisition in Spain*, IV, 246; cf. Janssen, XVI, 506.
23. Montaigne, *Essays*, III, xi, 285.
24. Ibid, 286.
25. Smith, *Culture*, I, 453.
26. Ibid.. 454; Dampier, *History of Science*, 157.
27. Janssen, XVI, 390.
28. Janssen, XI, 379.
29. Evelyn, *Diary*, I, 139.
30. Putnam, *Censorship of the Church of Rome*, II, 237-69.
31. In Haydn, *Counter-Renaissance*, 531.
32. Hallam, *Literature*, II, 44,
33. Sandys, Sir John, *Companion to Latin Studies*, 855.
34. Putnam, G. H., *Books and Their Makers*, II, 96.
35. Masson, David, *Life of John Milton*, IV, 164.
36. Nosek, *Spirit of Bohemia*, 110.
37. Paulsen, F., *German Education*, 136.
38. Janssen, XIII, 277,
- 39, Galileo, *Discoveries and Opinions*, ed. Stillman Drake, 77.
40. Singer, *Studies*, 407.
41. Wolf, A., *History of Science, Technology, and Philosophy in the Sixteenth and Seventeenth Centuries*, 47; Singer, *Studies*, 412f.
42. Bell, E T., *Men of Mathematics*, 55,
43. Butterfield. *Origins of Modern Science*, 67,

44. Galileo, *Il saggiaiore*, in *Discoveries and Opinions*, 237.
45. Cooper, Lane, *Aristotle, Galileo, and the Tower of Pisa*, 14; Dampier, 143.
46. Janssen, XV, 281,
47. Wolf, 327.
48. Mumford, L., *Technics and Civilization*, 440.
49. Wolf, 544-5; Usher, A. P. *History of Mechanical Inventions*, 303.
50. Descartes, *Principia philosophiae* Part IV, in Wolf, 351.
51. *En Br.*, I, 689d.
52. Galileo, *Dialogue concerning the Two Chief World Systems*, Dedication. p. 3
53. Michel, *Rembrandt*, I, 123.
54. Mumford, L., *The Condition of Man*, 213.
55. Janssen, XIV, 69.
56. *Ibid.*, 83,
57. 80.
58. Castiglioni, *History of Medicine*, 561.
59. Garrison, 307.
60. Janssen, XIV, 81.
61. Montaigne, *Essays*, tr. E. J. Trechmann, II, 222, quoted in Craig, Hardin, *The Enchanted Glass*, 44.
62. Garrison, 291-2.
63. *Ibid.*, 226.
64. Descartes, *Discours de la méthode*, Part VI, p. 62, in الحاضرة ٢٣٤ ٣٠.
- Vartanian, *Diderot and Descartes*, 18.
65. Montaigne, *Essays*, III,x, 262.
66. Putnam, *Censorship*, I, 128-9; Belloc, H., *How the Reformation Happened*, 281; Fulop-Miller, *Jesuits*, 399; Smith, P., *Culture*, I, 43,
67. Camqanella, Letter to Galileo, Jan. 12, 1611, in Smith, *Culture* I, 45.
68. Buckle, I, 101, Thorndike, VI, 42.
69. Gade, *Tycho Brahe*, 35.
70. *Ibid.*, 187.
71. Kesten, H., *Copernicus and His World*, 346.
72. Whewell, *History of the Inductive Sciences*, I. 290-3.
73. Hogben, *Science of the Citizen*, 207; Kesten, 353.
74. Dampier, 139.
75. Berry, 194.
76. In Inge, *Christian Mysticism*, 298.
77. Galileo, *Dialogue concerning the Two Chief World Systems*, 105 (end of First Day).
78. Aristotle *De coelo*, 4.2. 309, in Cooper, L., *Aristotle, Galileo, and the Tower of Pisa*, 64.
79. Lucretius, *De rerum natura*, II, 230-1.
80. Leonardo da Vinci, *Codex*

- Atlanticus*, fol. 123ra, in Cooper, 69.
81. In Cooper, 47.
82. Viviani in Cooper, 26.
83. Ibid., 29-31.
84. Galileo, *Two Chief World Systems*, 147.
85. Galileo, *Dialogues concerning Two New Sciences*, 103.
86. Galileo, *II saggiatore*, in *Discoveries and Opinions*, 274.
87. Ibid., 276-7.
88. Kesten, 348.
89. In Singer, *Studies*, 228.
90. Letter of Jan. 30, 1610, in Singer, 232.
91. Walsh, J. J. *The Popes and Science*, 393; Wolf, 29.
92. In Singer, 251.
93. Kesten, 396.
94. In Smith, *Culture*, I, 53.
95. Singer, 240.
96. Fulop-Miller, *Jesuits*, 397.
97. Singer, 240.
98. Fulop-Miller, 398.
99. Ibid.
100. Ibid.
101. Kesten, 371.
102. Galileo, *Discoveries and Opinions*, 177.
103. Ibid., 180.
104. 183.
105. Drake in Galileo, *Discoveries and Opinions*, 217.
106. Singer, 252.
107. Kesten, 375.
108. Wolf, 36.
109. Kesten, 379; Singer, 258.
110. Galileo, *Two Chief World Systems*, 5.
111. Ibid., 460.
112. Kesten, 388.
113. Singer, 269.
114. *En. Br.*, IX, 98ob.
115. Ibid., Wolf, 37.
116. Viviani in Singer, 279.
117. Kesten, 93.
118. Ibid., 395.

CHAPTER XXIII

1. Janssen, XVI, 132-4.
2. Robertson, *Freethought*, 483.
3. Ibid., 484.
4. Mousnier, *Histoire générale*, IV, 203.
5. Ibid., 201.
6. Owen, John, *Skeptics of the French Renaissance*, 676.
7. Ibid., 578-9.
8. Ibid.
9. 584.
10. 580.
11. Charron, Pierre, *Of Wisdom*, I, 61, 74, 79-80.
12. Owen, 598.
13. Cf. Charron, in Pascal, *Pensées*, ed. Havet, introd. xii.
14. Bury, *Freedom of Thought*, 75.
15. Owen, 570.
16. Singer., D. W., *Giordano Bruno*, 22.

17. Ibid., 24.
18. Owen, 274.
19. Bruno, *La cena de le cenévi*,
Dialogue IV, in Singer, D.
W., 33
20. In Owen, 274
21. Singer, *Bruno*, 137.
22. Ibid., 35.
23. Symonds, *Catholic Reaction*,
II, 53-4.
24. Owen, 125.
25. Singer, *Bruno*, 146.
26. In Owen, 294.
27. Cassirer, *Philosophy of the
Enlightenment*, 41.
28. Bruno, Dedication to *De la
causa, principio et uno*, in
Singer, *Bruno*, 103.
29. Thorndike, *Magic and Expe-
rimental Science*, IV. 425-7.
30. Owen, 290-3,
31. Singer *Bruno*, 161.
32. Symonds, *Catholic Reaction*,
II, 62.
33. Kesten, 323.
34. Singer, *Bruno*, 166.
35. Ibid., 172.
36. 179.
37. Owen, 390.
38. Ibid., 399.
39. 400.
40. Symonds, 128; Kesten, 328.
41. Tr. J. A. Symonds in Van
Doren, *Anthology*, 599.
42. Campanella *City of the Sun*,
in *Ideal Commonwealths*, 147.
43. Ibid., 157.
44. 164.
45. 168
46. Murray, R. H., *Erasmus and
Luther*, 443.
47. Ranke, *Popes*, II, 13.
48. Carlyle, R. W., *Medieval Po-
litical Theory*, VI, 341.
49. Campbell, *The Jesuits*, 379.
50. Mariana, *The King and The
Education of the King*, i, 2.
51. Ibid., i, 10.
52. Ibid., Preface, p. 108.
53. Ibid., iii, 15.
54. In Laski, *Political Thought
in England, Locke to Be-
nham*, 85.
55. Mariana, *The King*, i, 1.
56. Ibid., iii, 2.
57. i, 6, pp. 144-9.
58. Ibid.
59. Bodin, *Method for the Easy
Comprehension of History*, 11.
60. Allen, *Political Thought*, 395.
61. Bodin, *De republica*, i, 4, in
Allen, 408-9.
62. Ibid., 410.
63. Bodin, *De republica*, i, 6.
64. Ibid., i, 9.
65. Ibid., vi, 4, in Dunning, *Po-
litical Theories from Luther to
Montesquieu*, 107.
66. Ibid., in Allen, *Political Tho-
ught*, 436.

67. In Allen, 406.
68. Bodin, *Method for the Easy Comprehension of History*, in Allen, 399.
69. Allen, 400-1.
70. Blok, III, 463
71. Grotius, *Prolegomena*, in Dunning, 161.
72. Grotius, *Rights of War and Peace*, I, i, 10. p. 21.
73. Ibid., I, ii, 1,
74. II, xxii,
75. I, xvii,
76. II, xxvi.
77. Lange, F. E., *History of Materialism*, I, 266,
78. France, A., *Elm Tree on the Mall*, 13,
79. Russell, B., *History of Western Philosophy*, 558,
80. Fīcher, K., *Descartes*, 194f.
81. *Discours*, Part III, in Descartes, *Selections*, 27.
82. Ibid., p. 38,
83. Faguet, *Dix-septième siècle*, 6-7.
84. Descartes, *Principia philosophiae*, I, 71, in *Meditations and Principles of Philosophy*, 168
85. *Discours*, Part II, in *Selections*, 12.
86. Descartes, *Meditations*, II, in *Selections*, 96,
87. *Discours*, Part IV, and *Meditations*, II, in *Selections*, 29, 99,
88. St. Augustine, *De Trinitate*, x, 10,
89. *Meditations*, II, in *Selections*, 106.
90. "Rules for the Direction of Mind," VIII, in *Selections*, 69.
91. *Meditations*, III, in *Selections*, 125.
92. Ibid., 154.
93. Ibid., 89.
94. *Principia philosophiae*, I, xxxix.
95. *Meditations*, IV, in *Selections*, 127.
96. *Discours*, IV, in *Selection* 30.
97. *En. Br.*, VII, 249d.
98. Ibid.
99. Lévy-Bruhl. *History of Modern Philosophy in France*, 29.
100. *Discours*, in Vartanian, *Diderot and Descartes*, 16,
101. Fischer, *Descartes*, 406.
102. In Smith, *Culture*, I, 194.
103. Smith, D. E., ed., *Isaac Newton*, 18.
104. Fischer, 229.
105. Garrison, *History of Medicine*, 258.
106. *Selections*, 222-47.
107. Aubrey, *Brief Lives*, 95.
108. Fischer, 231.
109. Fūlop-Miller, *Jesuits*, 124.
110. Fontenelle, *Digression sur les anciens et les modernes*, in Fellows and Torrey, *Age of the Enlightenment*, 57.
111. Lévy-Bruhl, 33.
112. Vartanian, *Diderot and Descartes*, 205 and *passim*.

فهرس الجزء الثالث من المجلد السابع

الموضوع	الصفحة
الفصل السابع عشر - ثورة الاراضى الوطيمية (١٥٥٤ - ١٦٤٨)	
١ - مسرح الاحداث	١
٢ - مار جريت بارما (١٥٥٩ - ١٥٦٧)	٦
٣ - دوق الفافى الاراضى الوطيمية (١٥٦٧ - ١٥٧٣)	١٤
٤ - ركويسانس ودون حيوان (١٥٧٣ - ١٥٧٨)	٢٣
٥ - بارما واورانج (١٥٧٨ - ١٥٨٤)	٢٩
٦ - النصر (١٥٨٤ - ١٦٤٨)	٣٤
الفصل الثامن عشر - من روبنز الى رامبرانت (١٥٥٥ - ١٦٦٠)	
١ - الفلمينكيون	٤٢
٢ - الفن الفلمينكى	٤٤
٣ - روبنز (١٥٧٧ - ١٦٤٠)	٤٨
٤ - فانديك (١٥٩٩ - ١٦٤١)	٦١
٥ - الاقتصاد الهولندى	٦٦
٦ - الحياة والادب فى هولنده	٧٠
٧ - الفنون الهولندية	٧٥
٨ - فرانس هالس (١٥٨٠ - ١٦٦٦)	٨٠
٩ - رامبرانت هارمنز فان رين (١٦٠٦ - ١٦٦٩)	٨٤
الفصل التاسع عشر : ظهور دول الشمال (١٥٥٩ - ١٦٤٨)	
١ - الدنمرك دولة عظمى	٩٧

(د)

الصفحة	الموضوع
	٢ - السويد (١٥٦٠ - ١٦٥٤)
١٠٠	١ - المذاهب المتصارعة (١٥٦٠ - ١٦١١)
١٠٤	٢ - جوستاف أدولف (١٦١١ - ١٦٣٠)
١٠٧	٣ - الملكة كريستينا (١٦٢٢ - ١٦٥٤)
	٣ - بولنده تكفر عن ذنبها (١٥٦٩ - ١٦٤٨)
١١٤	١ - الدولة
١١٨	٢ - المدنية
	٤ روسيا المقدسة (١٥٨٤ - ١٦٤٥)
١٢٣	١ - الشعب
١٢٦	٢ - بورييس جودوفنوف (١٥٨٤ - ١٦٠٥)
١٢٩	٣ - زمن الشدائد (١٦٠٥ - ١٦١٣)
	الفصل العشرون - الإسلام يتحدى (١٥٦٦ - ١٦٤٨)
١٣٤	١ - الأتراك
١٤٠	٢ - معركة ليبنتو
١٤٥	٣ - اضمهلال السلاطين
١٤٨	٤ - الشاه عباس الأكبر (١٥٨٧ - ١٦٢٩)
١٥٤	٥ - فارس تحت حكم الأسرة الصفوية (١٥٧٦ - ١٧٢٢)
	الفصل الحادى والعشرون - هر مجدون (١٥٦٤ - ١٦٤٨)
١٦٦	١ - الأباطرة
١٦٩	٢ - الإمبرطورية
١٧٦	٣ - الأخلاق وآداب السلوك

الموضوع	الصفحة
٤ - الآداب والفنون	١٨٠
٥ - المذاهب المتصارعة	١٨٧
٦ - حرب الثلاثين سنة	
١ - طور بوهيميا (١٦١٨ - ١٦٢٣)	١٩٥
٢ - فالنشتين (١٦٢٣ - ١٦٣٠)	١٩٩
٣ - قصة جرومستاف البطولية (١٦٣٠ - ١٦٣٢)	٢٠٤
٤ - إنحلال (١٦٣٣ - ١٦٤٨)	٢٠٩
٧ - صليح ويستفاليا	٢١٥
الفصل الثاني والعشرون - العلم في عصر جاليليو (١٥٥٨ - ١٦٤٨)	
١ - الخرافة	٢٢٢
٢ - إنتقال المعرفة	٢٢٩
٣ - أدوات العلم ومناهجه	٢٣٨
٤ - العلم والمادة	٢٤٢
٥ - العلم والحياة	٢٤٨
٦ - العلم والصحة	٢٥١
٧ - من كوبرنيكس إلى كبلر	٢٥٥
٨ - كبلر (١٥٧١ - ١٦٣١)	٢٥٩
٩ - جاليليو (١٥٦٤ - ١٦٤٣)	
١ - الفيزيائي	٢٦٤
٢ - الفلكي	٢٦٨
٣ - في المحاكمة	٢٧٣
٤ - الشيخ الجليل	٢٨٠

(و)

الموضوع	الصفحة
الفصل الثالث والعشرون - الفلسفة تولد من جديد (١٥٦٤ - ١٦٠٠)	
١ - الشكاكون	٢٨٣
٢ - جيوردانو برونو (١٥٤٨ - ١٦٠٠)	٢٨٨
٣ - فانيي وكبانا	٣٠٠
٤ - الفلسفة والسياسة	
١ - جران دي قاريانا (١٥٣٦ - ١٦٢٤)	٣٠٤
٢ - جان بودين (١٥٣٠ - ١٥٩٦)	٣٠٩
٣ - هوجو جرو شيوس (١٥٨٣ - ١٦٤٥)	٣١٤
٥ - الكاهن الايقورى	٣١٨
٦ - رينية ديسكارت (١٥٩٦ - ١٦٥٠)	٣٢٠
المراجع	٣٤٤

فهرس الصور

١ - فرانس هالس (ص ٨٠)	٣٣٨
٢ - انتوني فاندليك (ص ٦٠)	٢٣٩
٣ - سجادة عجمى - متحف المتروبوليتان بنيويورك (ص ١٦٤)	٣٣٩
٤ - استيفن باثورى - ملك بولنده (ص ١١٦)	٣٤٠
٥ - جامع السلطان أحمد - القسطنطينية (١٣٩)	٣٤١
٦ - شاعر يجلس في الحديقة بإصفهات (١٦٠)	٣٤١
٧ - الشاه عباس الأكبر (ص ١٤٨)	٣٤٢
٨ - مدخل ميدان مسجد الشاه - اصفهات (ص ١٥٢)	٣٤٣
٩ - حالبليو - متحف الفن بفلورنس	٣٤٣

قصة الحضارة

ول وائريل ديورانت

بداية عصر العقل

مراجعة
عالم أدهم

ترجمة
محمد علي أبودرة

الجزء الثالث من المجلد السابع

٣٠



تونس



بيروت